الإعجاز البلاغي لتحولات النظم القرآني

في المتشابه من الألفاظ والتراكيب

الدكتور أحمد محمد أمين إسماعيل

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKi
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

Title : RHETORIC INIMITABILITY OF THE QUR'ANIC COMPOSITION TRANSITIONS

Classification: Qur'anic studies

Author : Dr. Aḥmad Muḥammad Amīn Ismāʿīl

Publisher : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Pages : 384

Size : 17*24

Year : 2011

Printed in : Lebanon

Edition : 1st

الكتاب : الإعجاز البلاغي لتحوّلات النظم القرآني في المتشابه من الألفاظ والتركيب

التصنيف : دراسات قرآنية

المؤلف : د. أحمد محمد أمين إسماعيل

الناشر : دار الكتب العلميـــة - بيروت

عدد الصفحات : 384

قياس الصفحات: 24*17

سنة الطباعة : 2011

بلد الطباعة : لبنـــان

الطبعة : الأولى

جميع الحقوق محفوظة
2011

ISBN 978-2-7451-6785-9
ISBN 2-7451-6785-5

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ
مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ
وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن
يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾

الزمر : ٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي عنت الوجوه لعظمته وخضعت الموجودات لكبريائه وخشعت الأصوات لكلامه، وأنزل القرآن الكريم على خير خلقه، واصطفاه من بين أنبيائه ورسله لتبليغ أفضل كتاب أنزله على أنبيائه من عباده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده ورسوله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى من عباده بهديه وإرشاده.

إن الحديث عن إعجاز القرآن الكريم لذيذٌ، وإن هذه اللذة لا يعرفها إلا من ذاق طعمها ولا يستلذ بطعمها إلا الذي أوتي حاسة ذوق مرهفة ومن زود بفطنة ونفس لم يَشُبْها هوى عقيدة ضالة أو فكر تائه في ظلمات الجهل والتعصب. والقرآن الكريم كتاب خالد باق بحفظ منزِّله جل في علاه. هذا الكتاب الذي أرغم الفصحاء بعلو هامه حَيَّرَ البلغاء بسمو نظمه. كيف لا وقد شدت النجوم أزرها حين نزوله ورمت الشياطين بشهبها وقت تثبيته في قلب رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وأبت الجبال من حمله وأشفقت الأرض والسموات من خشيته ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ الأحزاب / ٧٢ ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ الحشر/٢١ هذا الكتاب ما أن طرق آذان الجن حتى قالوا ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ ﴾ الجن/ ١-٢. كيف لا ؟ وهو الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو الذي سمعه أفصح البلغاء فاحتاروا فيه ما يقولون، وتنصت له أبلغ الفصحاء فدهشوا به ما يحكمون، لأنهم ما اعتادوا على قول سام مثله ولا على كلام راق شبهه.مفرداته من جنس

مفردات العرب وعباراته من ألفاظهم فما الذي أعياهم عن الإتيان بمثله؟ أو ليست هذه حروفهم؟ هذه الحروف التي نفخ الله تعالى فيها الروح فأحياها وأولجها في فقراتها فأصبحت كائنا أنّى رأيته فهو ينطق بالجد وينبض بالحياة. ومنذ الصغر وأنا أقرأ هذا الكتاب العظيم وأرى فيه آيات متشابهة يخفى علي سر عباراتها وكنت أقول مع نفسي لماذا أعيدت هذه الآية؟ ولماذا ذكر هنا حرف وحذف في آية أخرى متشابهة؟ ولماذا تقدمت كلمة وتأخرت في أخرى؟ وفي آية أخرى كلمة نكرة وفي آية شبيهة لها معرفة؟ وهكذا... وكنت أرجو أن أعرف عن هذه التحولات ولو نزراً يسيرا لأهميتها، وكانت الرغبة تزداد يوما بعد يوم عندي وسنة بعد سنة إلى أن هيأ الله تعالى لي الأسباب لإتمام دراستي وأسير في الطريق الذي يؤدي إلى فهم بعض أسرار آياته سبحانه. وتم اختياري لهذا الموضوع الموسوم بـ (الإعجاز البلاغي لتحولات النظم القرآني في المتشابه من الألفاظ والتراكيب)، لأثبت إعجازه البياني في اختيار المفردات المناسبة في مواضعها والعبارات المتناسقة في أماكنها، ولقد أخذتني المتعة كلما وقع نظري على آية متشابهة وعلمت بعض أسرار التغير في ألفاظها وعباراتها.

وأما خطة الأطروحة فقد ضمت تمهيدا وستة فصول وخاتمة. وضم التمهيد الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم ونظمه، حيث تكلمت عن المتشابه بنوعيه من حيث التعريف اللغوي والاصطلاحي، وأوجزت الحديث عن المتشابه المعنوي الذي يقابل المحكم، وبعده تكلمت عن المتشابه اللفظي من حيث (تحولات النظم القرآني) في الحروف في الفصل الأول، والأفعال في الفصل الثاني، والأسماء وصيغها في الفصل الثالث والتذكير والتأنيث والتعريف والتنكير والتقديم والتأخير في الفصل الرابع، وفي الفصل الخامس كانت في الذكر والحذف وفي هذه الفصول الخمسة تناولت الآيات والمقاطع المتشابهة ناقصة التطابق. وخصصت الفصل السادس للآيات المتشابهة تامة التطابق في اللفظ دون المعنى، وكلها تبين أسرار بلاغة القرآن الكريم وروعة بيانه وسمو أسلوبه، بحيث لا يرقى إليه كلام ولا يدانيه حديث لرد مطاعن الملحدين وكيد أعداء الدين ليكون هذا القرآن الكريم معجزة الله الخالدة لتثبيت عقيدته وشريعته، أراد الأعداء أم أبوا، فإن سنة الله ماضية لإتمام نوره ولنشر دينه حتى يعم السلام والوئام بين كل أبناء البشر والأنام، ومن خلال عرض آراء العلماء وتوجيهات المفسرين وترجيح بعضها على بعض أو إبداء وجهة نظري فيها، وفي الخاتمة استلهمت أهم النتائج للموضوع.

واستغنيت عن كتابة جداول الآيات لوجود كتب مطبوعة، فمنها: (دليل الآيات متشابهة الألفاظ) لسراج صالح ملائكة، و(الإتقان في متشابهات القرآن) جمع وإعداد أم بسام وغيرها.

وأما منهج الأطروحة فكان منهجا تحليليا اعتمدت فيه على مبدأ الانتقاء لشواهد تمثل الموضوع الذي أتناوله في كل فصل.

وفي المصادر والمراجع اعتمدت على الكتب الأساسية في موضوع المتشابه اللفظي وأشهرها (درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز) للإمام الإسكافي (ت ٤٢١هـ) وكتاب (البرهان في متشابه القرآن) للإمام الكرماني (ت ٥٠٠هـ) وكتاب (ملاك التأويل) للإمام ابن الزبير الغرناطي (ت ٧٠٨هـ) وكتاب كشف المعاني في متشابه المثاني للإمام ابن جماعة (ت ٧٣٣هـ) وكتاب (فتح الرحمن) للإمام أبي يحيى زكريا الأنصاري (ت ٩٥٦هـ) فضلا عن اعتمادي على أهم التفاسير وأشهرها (الكشاف) للزمخشري ٥٨٣هـ و(التفسير الكبير) للرازي ت ٦٠٦هـ، و(نظم الدرر) للبقاعي من التفاسير القديمة. أما أشهر التفاسير الحديثة فيقف في طليعتها (التحرير والتنوير) لابن عاشور ت ١٩٧٣م وغيرها من التفاسير والكتب اللغوية والبلاغية القديمة منها والحديثة التي أغنت الموضوع وأسعفته.

ولولا الظروف الصعبة التي مرت بي من كل حدب، والشدائد التي كادت أن تهزني ولكن الله تعالى مَنَّ عليّ وثبتني فأعانني على إتمام هذه الأطروحة، ومن عونه تعالى قيض لي الاسترشاد بالعلماء من أهل الإيمان ولا سيما أستاذي المشرف الدكتور أحمد فتحي رمضان الذي كان لي أستاذا كريما وأخا شفيقا، وكثيرا ما كان يمد يد العون بإسعافي بتوضيح مبهم أو إمدادي بمصدر فجزاه الله عني وعنهم خير الجزاء، كما أنني لا أدعي جديداً في الأطروحة في مجال إعجاز القرآن الكريم أو ممن خدموا بلاغة القرآن الكريم، وكنت أرجو أن أقدم ولو خدمة قليلة لهذا الكتاب العظيم، توضيحا لبعض آياته متضرعا في ذلك إلى الذي أنزله على رسوله (صلى الله عليه وسلم) عساه أن يبعد عنا عذابه ويُنئي عن وجوهنا ناره.

وفي الختام أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من أعانني على إتمام هذه الرسالة وأخص بالذكر أستاذي المشرف الدكتور أحمد فتحي رمضان لما أبدى لي من

مساعدات كثيرة ولا سيما صبره الطويل وسعة صدره ومن ثم توجيهاته السديدة التي أتحفت الموضوع حتى إنجازه، وأسأله جل جلاله وعظمت أسماؤه أن يتقبل منا هذا العمل المتواضع خالصا لوجهه الكريم وأن يجعله في ميزان حسناتنا يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه وفصيلته التي تؤويه. والحمد لله في الآخرة والأولى والصلاة والسلام على رسوله المصطفى ومن اتبع من عباده الهدى.

الباحث

أحمد محمد أمين

تمهيد
الإعجاز البلاغي للنظم القرآني في المتشابه اللفظي

أ - الإعجاز البلاغي

ب - النظم القرآني

ج- المتشابه في الألفاظ والتراكيب

الإعجاز البلاغي

لو نظرنا إلى مادة الإعجاز وجذرها الثلاثي لعلمنا صور واستعمالات هذه الكلمة أي (الإعجاز) نقول عجز عجزا ومنها جاءت الصور الأخرى مثل: عاجز وعجوز ومعجزة وإعجاز وغيرها من تصريفات هذه اللفظة. (العين والجيم والزاي: أصلان صحيحان يدل أحدهما على الضعف والآخر على مؤخر الشيء فالأول: عَجِزَ يَعْجَزُ عَجْزاً، فهو عاجز: أي ضَعف. ويقال أعجزني فلان: إذا عَجِزْتُ عن طلبه وإدراكه والعجوز: المرأة الشيخة. ويقال: عَجَزَتْ تَعجيزا ويقال: فلان عاجَزَ فُلانا: إذا ذهبَ فلم يُوصل إليه والعُجْزَةُ آخرُ وَلَدِ الشيخ والعِجزَة آخرُ وَلَدِ الرجل.

والثاني: العَجُزُ: مؤخرُ الشيء. والجمع أَعجاز. وأعجاز الأمور أواخرها وَعَجيزَةُ المرأة إذا كانت ضخمةً. والعجزاء من الرمل: رملة مرتفعة كأنها جبل)[1].

والعَجْزُ نقيضُ الحزم. تقول: عَجَزَ عن الامرِ يَعْجِزُ عَجْزاً فهو عاجِز والعَجْزُ: الضَّعفُ تقول عَجَزْتُ عن كذا أي ضعُفتُ عنه.

والتعجيزُ/ التثبيط: تقول: عجَّزَ الرجلُ غيرَه وعاجَزه: أي: سبقه فصار الآخر ضعيفا عاجزا عن متابعته.

والإعجاز: هو الفوت والسبق: يقال أعجَزني فُلانٌ أي: سبقني وفاتني أَعجازُ الأمور: أواخِرُها وَعَجْزُ الشَّيءِ: آخره[2]. وعجِزُهُ وعُجْزُه وعَجُزهُ وعَجِزُه: آخره.

ويقول الراغب الأصفهاني: العجز، التأخر عن الشيء. وحصول الشيء عند عَجِزِ الامر أي: عند مُؤخَّرِه. وصار في التعارف اسما للقصور عن فعل الشيء وهو ضد القدرة، قال تعالى: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ﴾ المائدة/٣١. والعجوز: سُميت لعَجْزِها في كثير من الأمور. قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا

---

(١) ينظر معجم مقاييس اللغة /٣٣٢ - ٣٣٤، ينظر: كتاب العين /٢/١١٤٤.

(٢) لسان العرب: ٢ / ٦٩١.

﴿بَعْلِي شَيْخًا﴾ [١] هود /٧٢.

ومما مضى نستخلص معنى (العجز) يقوم على معنيين وهما:

١- مؤخر الشيء. وهذا مادي محسوس

٢- الضعف عن فعل الشيء، والتأخر عنه وعن القدرة عليه وهذا معنوي مستمد من المعنى الأول

وعند التأمل في معنى (العجز) يتبين لنا أنه من الأضداد أي انه يأتي بمعنى الضعف والقوة ومنه عجز الرجل وهو مؤخرته وسمى بذلك لأنه أقوى ما في الرجل فهو يحمل هيكله وجسمه. وكذلك أعجاز النخل أواخرها لأنها تحملها وهي أقوى ما فيها. وأعجاز الإبل أقوى ما فيها وتحمل عليها الأثقال والأحمال.

ولذلك لما يتحدى احد الآخرين فإنه يتحدى الأقوياء لأنه لو تحدى الضعفاء ما كان له فضل بل ربما يؤاخذ عليه وعندما يتحدى من هو أقوى منه أو مثله فيغلبهم يكون له الفضل لأنه قد انتصر على القوي وأعجزه.

وانطلاقا من هذه المعاني فإن الله تعالى وجه التحدي إلى الأقوياء وهم أقوى الناس في الفصاحة والبلاغة والبيان فلما عجز هؤلاء عن معارضة القرآن الكريم ثبت بذلك ضعفهم وعجزهم ومن هنا كان القرآن معجزا لهم فإذا كان معجزا لأقوياء البلاغة فلغيرهم معجز من باب أولى[٢]

تعريف المعجزة/ أمامنا فعلان ثلاثي وهو عجز يعجز فهو عاجز أي ضعيف وهو عاجز عن التحدي والفعل الرباعي: أعجز يعجز فهو معجز وهذا للقوي الذي يعجز غيره فالمعجز: اسم فاعل للفعل الرباعي أعجز. والمعجزة: هي أيضا اسم الفاعل على المؤنث من ذلك الفعل والتاء فيها للتأنيث أو للمبالغة فإذا كان للتأنيث يقصد بها الآيات أو أن يكون كعلامة.

والمعجزة اصطلاحا/ هي: الأمر الخارق للعادة، السالم للمعارضة يجريه الله

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني/ ٣٢٢.

(٢) ينظر البيان في إعجاز القرآن/٢١ لصلاح عبد الفتاح الخالدي.

على يد نبي أو رسول تصديقاً له في دعوى النبوة أو الرسالة[١] فعرف بالتحدي أم لا[٢].

أي أنها خارقة للنواميس والسنن الكونية. ولذلك لا يمكن تفسيرها بأسباب مادية أي أنها خارجة عن طوق البشر كصعود نبينا (ﷺ) إلى ما فوق السموات السبع وكانقلاب عصا موسى عليه السلام إلى حية تسعى فلقفت حبال السحرة وعصيهم فأبطلت سحرهم.

ولذلك اقترنت المعجزة بشروط ثلاثة وهي: الأول: خرق العادة وهو أن يتعارف القوم على أمر ويألفوه وتأتي المعجزة خارقة وخارجة عما هو مألوف ومعتاد، فمنها أن السحر كان سجية قوم موسى عليه السلام وهم الحذاق المهرة فيه، فجاءهم موسى عليه السلام بما فاقهم وأفحمهم، وكان الطب مما حذق به قوم عيسى عليه السلام فأعجزهم بما كانوا به يمهرون، وكان العرب قد ملكوا زمام الفصاحة والبيان، فهم الأساتيذ في بلاغة المنطق وجلابة الألسنة واللدد عند الخصومة، فجاءهم النبي (ﷺ) بالقرآن الكريم الذي أفحم بلغاءهم، وأعيا فصحاءهم وأخرس ألسنتهم بما هم فيه أساطين، وشقوا خلاله ضروبا وأفانين[٣] فتبين أن معجزة الرسول (ﷺ) تختلف عن المعجزات الأخرى التي جاءت على يد الأنبياء والمرسلين فقد انتهت بوفاة هؤلاء الرسل والأنبياء ولكن معجزة الرسول (ﷺ) باقية إلى يوم القيامة حتى تمحى من الصدور والسطور كما ورد ذلك في الحديث النبوي (لا تقوم الساعة حتى يأخذ الله شريعته من أهل الأرض فيبقى فيها عجامة رعاع الناس وطغاتهم لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا).[٤]

فهي معجزة عقلية تخاطب العقول على مر الدهور وفي كل بقعة من بقاع

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٣/٤ وينظر شرح النسفية في العقيدة الإسلامية /١٨٢.

(٢) عون المزيد لشرح جوهرة التوحيد في عقيدة أهل السنة والجماعة/ عبد الكريم عثمان ومحمد أديب الكيلاني.

(٣) البيان والتبيين للجاحظ: ٩/١.

(٤) باب صفة أهل آخر الزمان / نهاية البداية والنهاية لابن كثير/ ٢١٦/١.

الأرض. والشرط الثاني أن تكون مقرونة بالتحدي وذلك أن يقدم النبي الآية على نبوته وينازل بها من يشاء، فإذا ظهرت آية النبي عجزوا عن الإتيان بها صح له ما ادعى وثبتت النبوة، وقد تحداهم القرآن الكريم أن يأتوا بمثله فعجزوا ثم تنازل معهم إلى عشر سور مفتريات فعجزوا ثم بسورة واحدة فعجزوا[1] ولذلك قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ البقرة: ٢٣ ولهذا لما لم يأتوا بسورة من مثله وهم أفصح الناس ثبتت معجزة القرآن الكريم.

والشرط الثالث/ السلامة من المعارضة أي لا يستطيع أحد من الإتيان بشيء شبيه فتسلم من المضاهاة بعد أن قامت بها الحجة وهو ما جاء في القرآن الكريم قاطعا كل طريق أمام المعاندين قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ البقرة/ ٢٤. وفي هذه الآية دليلان كما يقول (الزمخشري) على إثبات النبوة وهما: (صحة كون المتحدى به معجزا والاخبار بأنهم لن يفعلوا، وهو غيب لا يعلمه إلا الله.[2]

فإذا كانت المعجزة أمرأ خارقا للعادة لا يستطيع المعاندون أن يأتوا بمثلها فعجز سحرة فرعون عن قلب حبالهم وعصيهم أفاعي حية، وعجز الطب عن إحياء الموتى أو إبراء الأكمه أو الأبرص دليل على معجزتيهما كذلك لما تحدى الله تعالى العرب بمعجزة القرآن اللغوية والبلاغية، فأعجزهم عن الإتيان بمثله بل تحدى الإنس والجن فعجزوا قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ الإسراء: ٨٨ .

وقال: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ الطور /٣٣-٣٤ ولهذا قال الباقلاني: (فقد ثبت بما بيناه أنه تحداهم ولم يأتوا بمثله

(١) ينظر سورة الطور/ ٣٤، وهود/ ١٣ ويونس/ ٢٨.

(٢) الكشاف/ عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل/ ٦٠.

وفي هذا أمران: احدهما: التحدي إليه، والآخر أنهم لم يأتوا له بمثل والذي يدل على ذلك النقل المتواتر الذي يقع به العلم الضروري ... فلا يمكن جحود واحد من هذين الامرين)[1] ثم تنازل معهم إلى عشر سور مفتريات قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ هود: ١٣ - ١٤ . فعجزوا عن ذلك ثم تنازل إلى سورة واحدة قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ البقرة: ٢٣ - ٢٤ .

بهذه الآيات قد تحداهم الله تعالى ولكن بماذا كان التحدي هل طلب منهم أن يأتوا بمعجزة مادية كإبطال خاصية إحتراق النار لإبراهيم عليه السلام أم بقلب عصا إلى حية تسعى كعصا موسى عليه السلام كلا إنه لم يطلب منهم هذه المعجزات المحسوسة، وإنما طلب منهم أن يأتوا بكتاب شبيه بالقرآن الكريم في رونقة ألفاظه وجمال عباراته ونظم سياقه، على الرغم من كونهم أفصح الناس لسانا وأبلغهم حديثا وأسماهم أسلوبا ففيهم الخطباء المفوهون والشعراء الفطاحل، وكانوا يتبارون فيما بينهم أيهم أقوى شعراً وأجمل كلاماً وأمتن لغةً افتخاراً وتباهياً على الآخرين. فعجز خطباؤهم واستسلم شعراؤهم وركن أدباؤهم وغيرهم، فكيف بغيرهم وهم أدون منهم فصاحة وأقل منهم بلاغة ويتحلى هذا التحدي في لغته وبلاغته وفي نظمه وأسلوبه وهذه أدلة تثبت ذلك:-

انبهار القوم وتعجبهم به رغم معاداتهم لرسول الله ﷺ ، ولما جاء به لما سئل الوليد بن المغيرة عن الرسول ﷺ وما جاء به أجابهم بقوله: (فما هو يا أبا عبد

---

(١) إعجاز القرآن، للباقلاني/ ٦٦.

شمس؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، وان أصله لمعذق، وان فرعه لجناة، وما انتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف انه باطل، وان اقرب القول فيه أن تقولوا: ساحر جاء يفرق بين المرء وعشيرته)[١].

فقد أثنى على القرآن الكريم وهو معجب به بقوله: (والله إن لقوله لحلاوة وانه ليحطم ما تحته وانه ليعلو ولا يعلى عليه) [٢] هذا كافر عنيد يقول هذا القول ومع هذا أصر على كفره وعناده حين قال: (انه قول ساحر) إرضاء لقومه وما أرادوا منه فجاء زوراً من القول وبهتاناً في أعظم كتاب أُنزل على نبيه محمد ﷺ .

ولم يطق أشراف قريش أن يجهر أبو بكر بقراءة القرآن في فناء داره، اذ كانت تهوى إليه أفئدة من أبنائهم ونسائهم وعبيدهم يستمعون لقراءته فخشي المشركون أن يفتنوا، وكان ابن الدغنة قد أجار أبا بكر (رضي الله عنه) فأمروه أن يسترد جواره منه إذا أصر على الإعلان بقراءته. وقد فعل[٣] رواه البخاري، ولم أعثر عليه في صحيح البخاري.

وقد علم صناديد قريش أن للقرآن الكريم تأثيرا بليغا فخافوا على أبنائهم أن سمعوه سيؤثر عليهم ويغير من تصوراتهم وعقائدهم ولهذا طلبوا من ابن الدغنة أن يسترد جوار أبي بكر. أوليس هذا اعترافاً منهم على أنه كلام ليس ككلام البشر بل أكثر من ذلك إحساسهم بان القرآن الكريم يلج في القلوب ويدخل النفوس فيزيح مالهم من أدران الجاهلية وعقائدها الضالة المنحرفة، ولذلك كان يوصي بعضهم بعضا بألا يسمعوا لهذا القرآن بل عليهم بالتصفير أو التصفيق واللغو إذا قرىء القرآن وتشاغلوا عند قراءته برفع الأصوات بالخرافات والهذيان والزمل، حتى تخلطوا على القارئ وتشوشوا عليه وتغلبوه[٤] قال تعالى: ﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا**

---

(١) السيرة لابن هشام ٢٤٨/١.

(٢) الدر المنثور (٣٣٠/٨) ونسبه إلى الحاكم والبيهقي).

(٣) ينظر النبأ العظيم لمحمد عبد الله دراز/ ٨٧.

(٤) ينظر الكشاف ٩٣٨، وينظر التحرير والتنوير ٢٧٨/٢٧.

تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ فصلت: ٢٦، لماذا كل هذا الضجيج أليس من ورائه خوف ووجل من افتتانهم بأسلوبه الساحر وكلماته البليغة وحسن تأليفه وبراعة ودقة تصويره وحسن تناسبه وروعة انسجامه؟ نعم خوفهم من هذا ولعلمهم أن حروف القرآن هي حروفهم ولكنها اختلفت عن كل ما اعتادوه من شعر وسجع كهان ونثر، ولذلك قالوا فيه ما قالوا على الرغم من اضطراب أقوالهم وأنهم في أنفسهم غير مطمئنين إلى رأي راجح من بين هذه الأقوال، التي وردت بقوله تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ الأنبياء: ٥ ، بل قالوا: ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ الدخان: ١٤ ، وقال: ﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾ المدثر: ٢٤ - ٢٥ . نرى كيف اختلفت أقوالهم واضطربت آراؤهم كل ذلك في سبيل الطعن فيه وعدم الإقرار بالحقيقة التي هم يعرفونها أنها فوق طاقة البشر.

وكيف سكتوا عن مضاهاة القرآن وقد طعن في عقيدتهم وسب آلهتهم وسفه أحلامهم واستباح دماءهم وأموالهم وسب ذراريهم لو لم يعلموا أنهم لا طاقة لهم بالإتيان بمثله وهم أهل البلاغة والفصاحة والشعر والأدب ولهذا لجأوا إلى قوة السلاح وهو سلاح العاجز الضعيف أمام البرهان الساطع والدليل اللامع وكان بإمكانهم لو استطاعوا دحض حجج القرآن العقلية والبيانية وتخليص الناس من القتل والدمار ولكنهم أنّى لهم هذا؟ وهو من عند الله العزيز الحكيم.

والإعجاز القرآني إعجاز في لغته وفي بلاغته فالقرآن كله معجز سواء في كلماته أو في جمله وفي آياته وفي سوره وهذا الإعجاز سواء كان إعجازا لغويا أم بيانيا أم بلاغيا وهو الذي يبحث فيه، إليه تستبشر النفوس وتنشرح له الصدور).

ثم ألف الباقلاني (٤٠٣هـ) كتابه (إعجاز القرآن) وقد أصبح مرجعا لكثير من البلاغيين الذين جاؤوا من بعده وقد أصبح التمييز واضحا في كتابه هذا بين النظم والبديع بل أن تلك التفرقة تعد من المحاور الرئيسية في كتابه إعجاز القرآن لقد كانت وجوه الإعجاز القرآني في نظر الباقلاني ثلاثة هي:

١- إخباره عن الغيوب.

٢- تضمنه قصص الأولين وسيرا لمتقدمين.

٣- انه بديع النظم عجيب التأليف متناهي البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه[١].

كانت نظرته إلى الوجهين الأول والثاني سريعة بالقياس إلى تركيزه على الوجه الثالث لأنه كان معنيا تفرد النظم القرآني على سائر الفنون التي عرفها العرب لأنه اعتقد في نظم القرآن أنه (خارج عن المعهود من نظم جميع كلامهم) أو (لا يتفاوت تفاوت كلامهم) أو (يخرج عن عامة كلام الإنس والجن)[٢].

ولذلك أكد نظرته في إعجاز القرآن الكريم من حيث التمايز في النظم عندما نفى ظاهرتين وهما الشعر والسجع وجودهما في القرآن الكريم في فصلين متتاليين وقد عرض لأكثر من عشرين لونا من البديع ثم ذكر بأن السبيل إلى معرفة إعجاز القرآن الكريم[٣] وهو يؤكد على النظم لكنه ما غفل عن البديع كذلك فأشارته إلى تفاوت تلك الفنون إنما تعني ضمنا أنها قد بلغت في تلك اللغة أسمى درجات البلاغة فهو يقول: (لاتجعل الإعجاز متعلقا بهذه الوجوه الخاصة ووفقا عليها ومضافا إليها وان صح أن تكون هذه الوجوه مؤثرة في الجملة، آخذه بحظها من الحسن والبهجة متى وقعت في الكلام على غير وجه التكلف المستبشع)[٤] والتعمل المستشفع)[٥] ويؤكد رأيه مرة أخرى عندما ينقل عن الرماني (من دون ذكر اسمه) تقسيمه للبلاغة إلى عشرة أقسام الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل والتجانس والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان)[٦].

---

(١) ينظر إعجاز القرآن للباقلاني، ٨٣ - ٨٧.

(٢) ينظر إعجاز القرآن للباقلاني/ ٨٩ وما بعدها.

(٣) ينظر م.ن /١٠٣، ١١٠.

(٤) ينظر م.ن / ١٦٤.

(٥) إعجاز القرآن للباقلاني/ ١٦٤.

(٦) ينظر م.ن /١٦٥.

ويذهب الباقلاني إلى أن النظم أو ما يتصل به الكلام ويفضي إليه هو مناط التحدي، وقد توسع فيه ليشمل المفردات وتآلفها والجمل وتلاحمها، والنص واتساقه وحسن انسجامه، وهو بهذا فتح ميدانا جديدا للبحث في الإعجاز القرآني والنظر في السور القرآنية جملة، وعن الوحدة الموضوعية والفنية فيها، وهذا ما نراه واضحا في تحديده للوجوه التي يتميز بها نظم القرآن بكل مظاهره عنده، والتي منها ما يرجع إلى القرآن كله وإلى خروج نظمه عن المألوف على تصرف وجوهه، وتباين مذاهبه، ومنها اطراد فصاحته وتناسب بلاغته وتشابه براعته على طول سوره فلا تنبو فصاحته ولا تخبو بلاغته، ومنها أن هذا النظم العجيب والتأليف البديع، لا يتفاوت على تعدد أغراضه وموضوعاته، ومنها تلون أساليبه من إيجاز وإطناب ومنها المعاني المبتكرة في الشريعة والأحكام.

ومنها دقّةُ اختيار اللفظة القرآنية في فصاحتها وبلاغتها ومنها الحروف المقطعة في مطالع السور التي بلغت أربعة عشر حرفا في ثماني عشرة سورة. والقرآن الكريم بهذا النظم هو من تلك الحروف ومع علو فصاحته وسمو بلاغته، سهل ميسر فالقرآن كله سهل ممتع، سهله ميسر وصعبه مفسر(١).

وقد تكلم عن الذوق وجعله معيارا لتذوق الإعجاز القرآني البلاغي لكل الصور والوجوه للنظم القرآني، فالذي يريد أن يتعرف على الإيجاز فلا بد له من ذوق رفيع وإحساس مرهف وبدرجة عالية وأن يكون عارفا بتصرف العبارات والأساليب ومن نتائج هذا الاتجاه الذوقي قوله بأن بعض القرآن أظهر من بعض في مزايا الإعجاز وبعضه أدق وأغمض على اعتقاده بأن جميع القرآن واحد في الدلالة على الإعجاز(٢) ويمكن أن نلخص رأي الباقلاني في الإعجاز البلاغي بأن أسلوب القرآن خارج عن كل أسلوب، ولايمكن لأي أسلوب أن يضاهي أسلوبه أو يجاريه ولا تفاوت في مستوى أدائه، وهو على أعلى مستوى وأن جمل القرآن وعباراته

---

(١) ينظر إعجاز القرآن /٣٥ - ٤٧٦.

(٢) المغني في أبواب التوحيد والعدل: ١٦/١٩٧.

وكلماته واضحة بينة لو قيس بعبارات وجمل وكلمات أي إنسان، وأسلوب القرآن سهل يفهمه المتعلم والعالم بيسر وسهولة ومع هذه السهولة تحدى البشر فعجزوا عنه عربا وغيرهم.

وإذا ما انتقلنا إلى بداية القرن الخامس نجد القاضي عبد الجبار الهمذاني (ت ٤١٥هـ) قد كرس جهده على الإعجاز البلاغي ونفى كون النظم وحده الذي إليه المزية تعود في الإعجاز البلاغي، وإنما هو مظهر لروح الإعجاز عنده وهي الفصاحة المتفردة وهي التي نقلها عن شيخه أبي هاشم الجبائي (٣٢١هـ) وأنها (جزالة اللفظ، وحسن المعنى ولا بد من اجتماع الأمرين، لأنه لو كان جزل اللفظ ركيك المعنى لم يعد فصيحا). [١] ولكون النظم على طريقة مخصوصة فلا يكفي لجعله معجزا بانفراده. ولأن النظم عنده مقو له وسانده، وعلاقته بالفصاحة، التي هي مكمن الإعجاز علاقة الروح بالبدن، وكذلك المعنى فإن حسنه عنده (يؤكد كون الكلام الفصيح معجزا وان كان لو انفرد لم يختص لهذه الصفة)[٢].

فمقاييس الفصاحة عنده لا يمكن تحديدها إلا بمعطيات النظم، ولا سيما في موقع الكلمة الوظيفي وعلاقات الإسناد وموقعها النسقي خلال الترتيب، لأنها روافد المعنى وأسباب حسنه وانحطاطه، ومعايير التفاوت في الفصاحة في المعاني المتفقة، فإن رتبة المعاني وإن كان لا بدّ منها فلا تظهر المزية فيها، وان كانت تظهر في الكلام لأجلها، لأن المعاني لا يقع فيها التزايد، فلا بد أن يكون التزايد راجعا إلى الألفاظ التي يعبر بها عن تلك المعاني[٣].

إذ إن هذه الفكرة التي طرحها عبد الجبار قد سبقه إليها الجاحظ وليس استخفافا بالمعنى ولكنه لمحاربة دعوى تحرير المعاني من ربقه ألفاظ واصطياد المعاني الفلسفية. وللكاتب أو الشاعر أن يخرجها بأي لفظ شاء سواء كان على

---

(١) م.ن: ١٦/٢٢٤.

(٢) المغني في أبواب التوحيد والعدل: ١٦/٢٢٤.

(٣) المغني في أبواب التوحيد والعدل ١٦/١٩٩.

وضع اللغة ومسلك أربابها أم غير ذلك من ركيك النظم[١].

وبهذا مهد عبد الجبار الطريق أمام عبد القاهر الجرجاني في دراسة أسلوب القرآن الكريم ولا سيما نظمه المعجز.

((النظم القرآني))

وإذا كانت المقارنة بين النظم والبديع في نهاية القرن الرابع الهجري، قد ثبتّت مبادىء الفصل بين علوم البلاغة الثلاثة، وكانت التفرقة بينهما هي الأساس لاستقلال علم المعاني فيما بعد وأن التفرقة بين بعض ألوان البديع هي أساس استقلال كل من علمي البيان والبديع[٢] ولكنه دون تحديد لمفهوم النظم، فإن المقارنة بين النظم قد أسفرت عن ذلك كله في القرن الخامس، وهذا ما نجده واضحا عند عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١) فكانت المقارنة من الأسباب الرئيسة التي أرسى عليها نظريته في النظم في كتابه (دلائل الإعجاز) إضافة إلى كتبه الأخرى (الرسالة الشافية) و(أسرار البلاغة) و(المقتضب) من تفنيد الآراء الأخرى وتوضيح لنظريته فضلا عن جمال النظم وتطبيقه على القرآن الكريم تطبيقا أدى به إلى فهم الإعجاز فهما بينا. وبما أن البلاغة العربية هي سر الإعجاز فلا بد ان يبحث عن أسبابها، فاستعرض عبد القاهر آراء من سبقوه في الإعجاز ولم يعتقد بها بل ردها فإنه رفض الإعجاز بسبب الصرفة أو الكلم المفردة أو في معاني الكلم المفردة، أو أن يكون سبب الإعجاز هو السهولة وعذوبة الألفاظ أو أن يكون الإعجاز هو الاستعارة أو الفواصل أو الإيجاز أو المجاز، ولكنه رد الإعجاز إلى النظم وحده ولذلك جعل كتابه (دلائل الإعجاز) شرحا لنظرية النظم وهي أصل الإعجاز والسابقون عليه جعلوا البلاغة من بين وجوه الإعجاز ولكنه جعلها الوجه الوحيد للإعجاز. فهو الذي انتهج في (دلائل الإعجاز) منهجا علميا لدراسة النظم وجعل هذا المنهج هو السبيل إلى الفهم الصحيح لمسألة البلاغة والإعجاز فقد

---

(١) بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار، عبد الفتاح لاشين، ٤٧٣.

(٢) حول الإعجاز البلاغي للقرآن قضايا ومباحث/ ٨٠.

استلهم جهود من سبقه مدققا النظر فيها ومتسلحا بعلم النحو وأصوله والذي يراه لا يقف عند حدود النظم في أواخر الكلم بل يكون في الأسلوب ومطابقته لأغراض المتكلم وهذا ما هداه إلى جوهر النظم الذي يقوم على أساس العلاقات النحوية والتي هي: (توخي معاني النحو فيما بين الكلم) (١) ومن هنا خرج بالنظم من حيز الضم إلى النظرية العلمية التي تتسع دائرتها في ميدان الإعجاز العلمي للقرآن الكريم وصولا إلى أهم المقاييس الجمالية في النقد الأدبي(٢).

وبعد ذلك أخذ يعدد أقسام الكلم ووجوه التعليق بينها وعرض مفهوم النظم بقوله: (فاعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله ثم ضرب أمثلة في ذلك: الخبر وأنواعه، والشرط والجزاء وأحواله والحال وصوره والحروف التي تشترك في الوظيفة وفروقها كحروف العطف وينظر إلى الجمل ومواضع الفصل والوصل بينها وما فيها من تعريف وتأخير وتقديم وحذف وتكرار وإضمار وإظهار هذه هي معطيات النظم التي يجب على الناظم أن يضع كلا في مكانه ويصيب به موضعه فلا يوجد شيء من ذلك يرجع صوابه وخطؤه إلى النظم إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه أو عومل بخلاف ذلك فأزيل عن موضعه فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد إلى معاني النحو وأحكامه ووجدته يدخل في اصل من أصوله ويتصل بباب من أبوابه) (٣)

انه انتهج منهجا علميا لدراسة النظم وجعل هذا المنهج هو السبيل إلى الفهم الصحيح لمسألة البلاغة والإعجاز

ثم بين عبد القاهر معاني النحو فينفي الإعجاز بالكلم المفردة قبل الضم أو بالوضع اللغوي والمعاني المعجمية لها وينفي تعليق المزية بالوظيفة النحوية في

(١) دلائل الإعجاز/ ٦٧.
(٢) ينظر نظرية الإعجاز القرآني/ ١٥٦.
(٣) ينظر الأسلوب في الاعجاز البلاغي/ ١٥٢.

نظام الجملة العربية، ليعلق المزية بالمعاني المتوخاة من قوانين التعليق فيما بين الكلم، والمبنية على قوانين النحو ومقاييسه.

وأما الذوق عنده فهو الوسيلة لإدراك المزية في الكلام تحت ظل النظم ولا يعرف الإعجاز إلا من امتلك ذوقا مرهفا أي أن الاتجاه الذوقي أصبح لا غنى عنه في كشف وجوه الإعجاز وأمرا يعول عليه كالنظم[١] وقد أصبحت نظرية النظم نظرية عامة في التذوق الفني لأن الجرجاني كان يستبت المعاني في حقول النحو فلا تقف عنده حدود إدراك الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم بل لتصبح دراسة واسعة النطاق لأنساق التراكيب في العربية، لتؤتي أكلها على يد الزمخشري في تفسيره. واستقلال علم المعاني على يد السكاكي[٢].

والفنون البلاغية الأخرى لها تأثيرها في توضيح المعاني ولكن الجرجاني يرى أنه ليس في إعجاز القرآن رأي أفضل من كون إعجازه في نظمه ومتانة نسجه وقوة أسلوبه وروعة بيانه وكون كلمه لم تقع في نفس السامع موقع القبول وتصادف من قلبه موطن الارتياح إلا لأنها جاءت مرتبة الترتيب اللائق من جهة المعنى[٣] وتثبيت هذه النظرية على يد عبد القاهر الجرجاني بلغ الإعجاز القرآني ذروته في هذا العصر وبحق أن يقال له بالعصر الذهبي الأول لإعجاز القرآن.

وما جاء بعد عبد القاهر من دراسات في الإعجاز لم تكن جوهرية ولا إضافات سوى بعض الملاحظات والتفسيرات بالتلخيص أو الشروح ومن تلك الدراسات في الإعجاز البلاغي ما نجده عند الزمخشري في تفسيره (الكشاف) الذي طبق نظرية النظم فيه ثم زاد عليها وما كان له من فكر اعتزالي فهو يحاول بكل جهده أن يبطل ما يخالف مذهبه عن طريق اللغة والبلاغة ولكنه مع هذا يبقى تفسيرا شامخا وحتى مناوئوه قد استفادوا من آرائه البلاغية وكان يحرص دائما أن يبرز

---

(١) دلائل الاعجاز/ ٩٨، عبد القادر الجرجاني.

(٢) ينظر البحث البلاغي عند العرب لشفيع السيد/ ٦٣.

(٣) ينظر نظرية إعجاز القرآن عند عبد القاهر الجرجاني، محمد حنيف فقيهي/ ٣٣١.

إعجاز القرآن الكريم في جمال أسلوبه وكمال نظمه[١] وإذا استعرضنا كتب التفسير وتأملنا مبلغ عنايتها باستخراج ما يحتويه القرآن من ثروة بلاغية في المعاني والبيان بأنه لا يوجد تفسير أوسع مجالا في جهوده في هذا الصدد من تفسير الزمخشري[٢] إلا تفسير ابن عاشور الذي سنتكلم عنه فيما بعد ويقول الدكتور بكري شيخ أمين: (ونكاد نقول ان خير تفسير في العربية تحدث في بلاغة القرآن، وإعجازه وسر نظمه وروعة أدائه هو تفسير الزمخشري. كم نود لو برئ من الهوى إذا لكان تفسيره الأول والأخير في عالم التفسير بالرأي) [٣] وقال الشيخ حيدر الهروي وهو أحد الذين علقوا على الكشاف بما عنده من المعاني البديعة والأسلوب البليغ حيث قال في الكشاف: (فإن كتاب الكشاف كتاب على القدر الرفيع من الشأن) [٤] ويقول فيه ابن خلدون (والصنف الآخر هو ما يرجع إلى اللسان من معرفة اللغة والإعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب إنما جاء هذا بعد أن صار اللسان وعلومه صناعة. نعم قد يكون في بعض التفاسير غالبا ومن أحسن ما اشتمل على هذا من التفاسير كتاب (الكشاف) للزمخشري من أهل خوارزم العراق)[٥] وعَدَّ الزمخشري الإعجاز قائما بالنظم وخصائص الكلمة من تعريف وتنكير وغيرها وكل ما يتصل بعلم البيان حتى عد من واضعيه ويوضح نهجه في مقدمة تفسيره مبينا ما للبيان والمعاني من تأثير كبير في إبراز الإعجاز القرآني فهو يقول: (انه لا بدّ من علم البيان والمعاني لإدراك معجزة رسول الله .. وأن يكون فارسا في علم الإعراب ذا دراية بأساليب النظم والنثر ... وأن يوجد ذوق في الفكر والإدراك وان القرآن معجز على وجه كل زمان)[٦].

---

(١) التفسير والمفسرون، محمد حسن الذهبي ١/٤٤٣.

(٢) التعبير الفني، بكري شيخ أمين /١١٨ وينظر تفسير الزمخشري/ ١٢.

(٣) م.ن /١١٨.

(٤) دراسات في التفسير والمفسرين للدكتور عبد القهار داود عبد الله العاني / ١٣٤.

(٥) ينظر إعجاز القرآن الكريم /٨٦.

(٦) تفسير الكشاف/ ٢٣.

ابن عاشور وتفسيره
(١٨٧٩م - ١٩٧٣م)

يقول ابن عاشور في مقدمة تفسيره: (تفسير الكتاب المجيد الجامع لمصالح الدنيا والدين، وموثق شديد العرى من الحق المتين، والحاوي لكليات العلوم ومعاقد استنباطها، والآخذ قوس البلاغة من محل نياطها، طمعا في بيان نكت من العلم وكليات من التشريع، وتفاصيل من مكارم الأخلاق، كان يلوح أنموذج من جميعها خلال تدبره ومطالعة كلام مفسره).[1]

هذا هو يتكلم عن تفسيره يشير بذلك إلى أنه قد نظر إلى التفاسير السابقة وانه لم يغمط فضلهم لأن ذلك كفران للنعمة بل زاد عليها وهذبها[2].

ولقد كان اهتمامه بالجانب اللغوي والنحوي والبلاغي واضحا في تفسيره وقد سماه بـ (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد) واختصره فأصبح اسمه: (التحرير والتنوير من التفسير) وان ابن عاشور أفضل من طبق نظرية النظم تطبيقا يكاد يكون كاملا في تفسيره كتاب الله تعالى. فهو يقول: (إن القرآن كلام عربي فكانت قواعد العربية طريقا لفهم معانيه) وقواعد العربية هي: متن اللغة، والتصريف، والنحو والمعاني والبيان وأساليب العرب في خطبهم وأشعارهم وتراكيب بلغائهم ولعلمي البيان والمعاني وهما وسيلة لإظهار البلاغة القرآنية وما تشمل عليه الآيات من تفاصيل المعاني وإظهار وجه الإعجاز.

فتفسيره يمكن أن نعده كتاب لغة لأنه اشتمل على النحو والصرف والبلاغة ووظف علوم اللغة لفهم القرآن الكريم واهتم بتوضيح معاني الأدوات النحوية وذكر معانيها، ونوه بالوظائف المعنوية والبلاغية التي قامت بها. وانه لا ينسى الذوق وانه شيء وراء قواعد العربية وعلم البلاغة، به يحصل انكشاف بعض

---

(١) التحرير والتنوير ١/٥ من المقدمة.

(٢) ينظر: التفسير والمفسرون في العصر الحديث، عبد القادر محمد صالح /١١٠.

المعاني واطمئنان أنفاسها[١] وفي كل هذا يوضح أن للقرآن ثلاث طرائق وهي: إما الاختصار على الظاهر من المعنى الأصلي للتركيب مع بيانه وإيضاحه وهذا هو الأصل.

وإما استنباط معان من وراء الظاهر تقتضيها دلالة اللفظ أو المقام ولا يجافيها الاستعمال ولا مقصد القرآن، وتلك هي مستتبعات التراكيب وهي من خصائص اللغة العربية المبحوث فيها في علم البلاغة، ككون التأكيد يدل على إنكار المخاطب أو تردده، وكفحوى الخطاب ودلالة الإشارة واحتمال المجاز مع الحقيقة. وإما يجلب المسائل ويبسطها لمناسبة بينها وبين المعنى، وروعة عباراته فأسلوبه يخالف أسلوب الخطابة... بل جاء بطريقة كتاب يقصد حفظه وتلاوته وذلك من وجوه الإعجاز ومنها انه جاء على أسلوب التقسيم والتسوير وجاء أسلوبه بأنه تصرف في أقوال المحكي عنهم فيقتضيه أسلوب الإعجاز على الصيغة التي فيها ومن أسلوبه إيجاز الحذف مع عدم الالتباس إلى غير ذلك مما تعمق ابن عاشور في هذه النظرية وطبقها بكل ما أوتي من علوم لغوية ونحوية وبيانية وأسلوبية وبلاغية. فلم تقع عيني على تفسير مثله مهتم بهذه العلوم واخذ يوظفها في كل آيات القرآن الكريم لتبيان إعجازه البياني في نظمه وأسلوبه الفريد[٢].

وفي الفصول القادمة نرى تحولات النظم القرآني من آية إلى آية لتعطي معاني جديدة ومقاصد إضافية سواء في الحروف بأنها لا تدل على المعاني نفسها وإذا يقرأ الحرف أو الاسم أو الفعل وكذلك في التقديم والتأخير أو في الذكر والحذف أو في التعريف والتنكير وحتى لو أعيدت الآية المتشابهة نفسها لأنها تدل على معنى آخر أو مضاف إلى المعنى السابق وبذلك سنرى بإذن الله تعالى أنه لا تكرار في القرآن الكريم. وأن هذه التحولات في نظم القرآن تدل على الإعجاز البلاغي وان الله تعالى به تحدى الإنس والجن فعجزوا عن ذلك.

---

(١) ينظر التحرير والتنوير المقدمة الثانية /٢١.

(٢) ينظر: التفسير والمفسرون في العصر الحديث / ١١٢ - ١١٤.

المتشابه في الألفاظ والتراكيب

المتشابه في اللغة:

قبل أن نتكلم عن المتشابه فلا بد لنا أن نعرف معنى المتشابه لغة واصطلاحا، وإذا رجعنا إلى مادة المتشابه في معجماتنا العربية وما تعنيه هذه اللفظة نستطيع أن نعرف مدى الصلة بينها وبين دلالاتها الاصطلاحية.

دلت هذه اللفظة على المشاركة في المماثلة والمشاكلة التي تدل غالبا على الالتباس في المقصود. فلفظة المتشابه والمشتبه مأخودة من جذر واحد وهو (شبه) فالشبه ... تشابها واشتباها أي أصبح كل منها شبيها بالآخر حتى التبسا. فالشِّبهُ والشبهُ الشبيه بمعنى: (المثل) والجمع: أشباه وأشبه الشيء الشيء أي ماثله[١].

وقال الفراهيدي: (وفي فلان شبه من فلان) وهو شِبْهُهُ وشَبَهُهُ أي شبيهه[٢] وأَشبهتُ فلانا وشابهتهُ واشتَبهَ على وفي القرآن الكريم: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ (الأنعام: ٩٩) والمشتبهات من الأمور: المشكلات والمتشابهات: المتماثلات[٣] والشبهة بالضم: الالتباس والمثل ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ (البقرة:٢٥) ولاستحكام الشبه فاللون واحد والطعم مختلف[٤] فالتبس على أهل الجنة رزقهم لتشابه الرزقين في الشكل والصورة ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ (البقرة: ٧٠) أي اختلط والتبس علينا فلا نعرف البقرة المراد ذبحها[٥].

المعنى الاصطلاحي

فللتشابه إذن معنيان: وهما

١- الالتباس: قال ابن قتيبة: (أشكل أي دخل في شكل غيره فأشبهه

(١) لسان العرب ج٢ /٢٦٣ - ٢٦٤ ٢/٢٦٣ - ٢٦٤، مادة (شبه).

(٢) العين /٣/٤٠٤. مادة (شبه).

(٣) لسان العرب ٢/٢٦٦.

(٤) النسفي ج١/٥٠.

(٥) البحر المحيط ١/٤١٩.

وشاكله ثم ربطوا التشابه بالالتباس والشك وان لم يكن حاصلا في الأمر أو الشيء بل للنسبة بالغير)[١] ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ البقرة/٧٠ أي اختلط والتبس علينا فلا نعرف البقرة المراد ذبحها. ومنه قوله تعالى: ﴿ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ الرعد: ١٦، أي تشاكل الخلق بما يلتبس عليهم حتى لا يفصل فيه بين أحد الشيئين والآخر.

٢- المماثلة/ بمعنى المشابهة والمساواة[٢] ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ البقرة/ ٢٥ أي يشبه بعضه بعضا في الطعم واللون أو الكمال أو الجودة والحقيقة.

لو ألقينا نظرة على لفظة (شبه وصيغها) في القرآن الكريم لوجدناها قد ذكرت في القرآن الكريم في تسع آيات وهي:

١- ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ البقرة/ ٢٥.

٢- ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ البقرة/ ٧٠.

٣- ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ البقرة/ ١١٨.

٤- ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ﴾ آل عمران/ ٧.

٥- ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ النساء/١٥٧.

٦- ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ الأنعام/ ٩٩.

٧- ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ الأنعام/ ١٤١.

٨- ﴿فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ الرعد/ ١٦.

٩- ﴿ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ﴾ الزمر/ ٢٣.

---

(١) تأويل مشكل القرآن ٧٥/١.

(٢) بصائر ذوي التمييز ١٩٦/١.

إن ألفاظ التشابه التي جاءت في الآيات السابقة كلها تدور حول الشبه والمثل مع الشك والالتباس والقران كله محكم من ناحية، ومن ناحية أخرى كله متشابه فهو محكم في مراده وتوضيح مقصوده كما قال تعالى في سورة هود: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ هود/١ فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فهو محكم في ألفاظه ولا نقص فيه أو اختلاف وقيل في المحكم الذي يقابل المتشابه أقوال كثيرة منها ما استقل بنفسه أو مالا يحتمل تأويلا أو غير معناه.

جاء في التفسير[1]: أحكمت آياته بالأمر والنهي والحرام ثم فصلت بالوعد والوعيد قال الأزهري والمعنى والله أعلم أن آياته أحكمت ثم فصلت بجميع ما يحتاج اليه من الدلالة على توحيد الله وتثبيت نبوة الأنبياء وشرائع الإسلام والتدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾ الأنعام/٣٨ فالمحكم إذن: لايحتمل من التأويل إلا وجها واحداً وليس هنا مجال عملنا في الاسترسال عن توضيحه وإنما للوصول إلى موضوع المتشابه حتى لا يكون الناظر في الموضوع يرى نقيضه لأنه كلما ذكر المتشابه تذكر المرء ما يقابله وهو المحكم .

وان القرآن الكريم كله متشابه لأنه يشبه بعضه بعضا في سمو البلاغة وعلو البيان. وهذا ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ﴾ الزمر: ٢٣ .

وان بعضا منه محكم وبعضه متشابه وهذا ما ذكره الله تعالى في كتابه الكريم حيث قال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ آل عمران: ٧

(١) ينظر: تفسير البحر المحيط ٢/٣٩٦.

فالقرآن الكريم يوضح لنا أنه :

١- كله محكم.

٢- كله متشابه.

٣- منه محكم ومنه متشابه.

وقال الراغب الأصفهاني في مفردات القرآن (الآيات عند اعتبار بعضها ببعض ثلاثة أضرب: محكم على الإطلاق ومتشابه على الإطلاق ومحكم من وجه أو متشابه من وجه) [١] .

كلمة المحكم لغة/ المحكم اسم مفعول لأن الفعل أحكم فهو رباعي فتبدل ياء المضارعة ميما مضمومة ويفتح الفعل ما قبل الأخير. وحكم الشيء وأحكمه أي: منعه من الفساد وأحكمت فلانا/منعته وبه سمي الحاكم حاكما لأنه يمنع الظلم وحكمت السفيه وأحكمته: إذا أخذت على يديه، وفي الحديث (ما من آدمي إلا وفي رأسه حكمة إذا هم بسيئة فإن شاء الله تعالى أن يقدعه بها قدعة) [٢] .

والحكمة حديدة في اللجام تكون في أعلى أنف الفرس وحنكه تمنعه من مخالفة راكبه[٣] .

يقول الراغب في قوله تعالى: (كتاب أُحْكَمت آياته) أحكمت من محكم ومن حاكم فهو محكم ومُفيدٌ للحكم ففيه المعنيان جميعا[٤].

ويقول: فالمحكم ما لا يعرض فيه شبهةٌ من حيث اللفظ ولا من حيث المعنى) [٥] إذن فالمحكم اصطلاحا: ما عرف المراد منه في القرآن وما لا يحتمل إلا وجها واحدا أو ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان وقد مثل علماؤنا له ولناسخه وحلاله من حرامه وحدوده وفرائضه ووعده ووعيده.

---

(١) مفردات القرآن /٢٥٧.

(٢) غريب ابن الجوزي ٢٣٢/١.

(٣) لسان العرب (حكم) ١٤١/١٢.

(٤) المفردات /١٣٤.

(٥) المفردات /١٣٥.

المتشابه اصطلاحا / لم تقع عيني على تعريف اصطلاحي لهذه اللفظة يعطي الكلمة معناها الوافي وان كان بعضهم قد عرفها انطلاقا من التعريف من الأمور المشكلات وشبه فلان علي: إذا خلّط، واشتبه الأمر أي أختلط)(١)

أما ابن قتيبة فقد قال: (وأصل التشابه: أن يشبه اللفظ اللفظ في الظاهر والمعنيان مختلفان وشَبَّهْت علي إذا التبست الحق بالباطل ومنه قيل لأصحاب المخاريق أصحاب الشبه، لأنهم يشبهون الباطل بالحق ثم يقال لكل ما غمض ودق: متشابه وان لم تقع الحيرة فيه من جهة الشبه بغيره ألا ترى أنه قد قيل للحروف المقطعة في أوائل السور: متشابه وليس لشك فيها والوقوف عندها لمشاكلتها غيرها والتباسها بها)(٢).

وأما الراغب الأصفهاني فحاول أن يجعل للمتشابه أصولا فقال: (والمتشابه من جهة المعنى: أوصاف الله تعالى وأوصاف يوم القيامة فإن تلك الصفات لا تتصور لنا إذا كان لا يحصل في نفوسنا صورة ما لم نحسه أو لم يكن من جنس ما نحسه)(٣).

وان المتشابه من القرآن الكريم ما أشكل تفسيره لمشابهته بغيره من حيث اللفظ أو المعنى أو المتشابه فلا يتبين ظاهره من مراده(٤).

آراء السابقين في المحكم والمتشابه:

اختلف العلماء حول معرفة المحكم والمتشابه في القرآن الكريم نتيجة للوقف الذي يكون على (وما يعلم تأويله إلا الله) أو على (والراسخون في العلم) فاختلفت الآراء نتيجة لذلك فمن وقف على لفظة الجلالة نفى أن يكون أحد يعلم المتشابه ومن وقف على (والراسخون في العلم) ميز بين الناس بأن هناك من يعلم

---

(١) العين ٣/٤٠٤.

(٢) تأويل مشكل القرآن /١٠١.

(٣) المفردات /٣٧٣ - ٣٧٥.

(٤) المبني والمعنى في الآيات المتشابهات د. عبد المجيد ياسين /٤٢.

المتشابه من العلماء والراسخين ومن هنا تعددت وجهات نظرهم واختلافهم في معرفة المتشابه والمحكم.

وقد استطاع السيوطي أن يجمع كثيرا من الآراء حول معرفة المحكم والمتشابه بقوله: وقد اختلف في تعيين المحكم والمتشابه على أقوال فقيل: المحكم: ما عرف المراد منه إما بالظهور وإما بالتأويل، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة وخروج الدجال والحروف المقطعة في أوائل السور، وقيل المحكم ما لا يحتمل من التأويل إلا وجها واحدا والمتشابه ما احتمل أوجها، وقيل المحكم ما كان معقول المعنى والمتشابه بخلافه كأعداد الصلوات واختصاص الصيام برمضان دون شعبان ... وقيل المحكم ما استقل بنفسه والمتشابه ما لا يستقل بنفسه إلا برده إلى غيره[١].

إذن فالمحكم اصطلاحاً : ما عرف منه أو ما لا يحتمل إلا وجها واحدا أو ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان وقد مثل علماؤنا للمحكم في القرآن بناسخه وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه ووعده ووعيده.

أما المتشابه إما أنه قد استأثر الله بعلمه أو أنه لا يعلمه إلا الراسخون من العلم وفي تصوري أن الله سبحانه وتعالى ما نزل القرآن الكريم حتى لا يعرف معناه ولا يعلم مقصوده لأنه سبحانه جعله هاديا للبشرية ونورا فليس من المعقول أن ينزل عليهم شيئا أبهم عليهم فهمه ومراده ولذلك قال تعالى لرسوله (صلى الله عليه وسلم) ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ النحل/٤٤.

فلما كان القرآن الكريم يتكون من المحكم والمتشابه بنص القرآن من سورة آل عمران التي ذكرناها سابقا إذن فالمتشابه جزء من الذي أنزل إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد بينه ووضحه للناس حتى يستقيم فهمهم ويستنير طريقهم والبيان إما لمجمل في الكتاب كبيانه للصلوات الخمس في مواقيتها وسجودها وركوعها وسائر أحكامها، وكبيانه لمقدار الزكاة وما الذي تؤخذ منه من الأموال

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/٢٣٨.

وبيانه لمناسك الحج[١].

إذا فالمتشابه يمكن للراسخين أو لبعضهم معرفته وان لم يكن يعرف كل المتشابهات كقيام الساعة وخروج الدابة وهذا ما صرح به الإمام القرطبي في تفسيره حيث قال (والراسخون في العلم يعلمون بعضه قائلين آمنا به كل من عند ربنا بما نصب من الدلائل في المحكم ومكّن من ردهِ إليه فإذا علموا تأويل بعضه ولم يعلموا البعض قالوا آمنا بالجميع كل من عند ربنا)[٢].

ولا أريد أن استرسل في الموضوع لأنه ليس من الرسالة وإنما موضوعنا هو المتشابه اللفظي.

المتشابه اللفظي في القرآن الكريم/ ينقسم المتشابه إلى نوعين:

١- المتشابه المعنوي الذي يقابل المحكم كأوصاف الله تعالى وأوصاف يوم القيامة كما مر ذكره.

٢- المتشابه اللفظي وهو الذي يهمنا في هذه الرسالة.

قبل أن أبدا بشرح الآيات المتشابهات لفظيا لا بد لي أن ألقي نظرة شاخصة على المتشابه اللفظي من حيث تعريفه أو من حيث مدلوله اللفظي قرأت مصادر عديدة ولم أقف على تعريف واف ولا مدلول شامل لهذه اللفظة. فنرى مثلا (الكسائي ت ١٨٩) وله كتاب في هذا وسماه بـ (مشتبهات القرآن) فقد ذكر فيه ما تشابه من ألفاظ القرآن وتناظره في كلمات الفرقان فهو يشير إلى المتشابه اللفظي في القران أو المتماثل في الألفاظ والمتناظر منها[٣].

أما الإسكافي فقد ذكر في كتابه (درة التنزيل وغرة التأويل) في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز أنه أول من تطرق إلى هذا العلم وأنه (نظر في

---

(١) الجامع لأحكام القران للقرطبي ٣٨/١.

(٢) م. ن ١٨/٤.

(٣) مشتبهات القرآن /٦٠، ينظر إلى إيجاز الحذف في كتب المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، رسالة ماجستير لنوري صابر الزيباري/٣.

الآيات المتكررة بالكلمات المتفقة والمختلفة وحروفها المتشابهة والمتفرقة والمنحرفة، تطلبا لعلامات ترفع لبس أشكالها وتختص الكلمة يأتيها دون أشكالها فما وجدت أحدا من أهلها بلغ غاية كنفهها كيف ولم يقرع بابها ولم يغتر لهم عن نابها)[١].

أما الكرماني فقد قال: انه ذكر الآيات المتشابهات التي تكررت في القرآن ولم يحدد الآيات المتشابهات حيث قال: (فإن هذا كتاب أذكر منه الآيات المتشابهات التي تكررت في القرآن الكريم وألفاظها متفقة ولكن وقع في بعضها زيادة أو نقصان أو تقديم أو تأخير أو إبدال حرف مكان حرف أو غير ذلك اختلافا بينه الآيتين أو الآيات التي تكررت من غير زيادة ولا نقصان)[٢].

وابن الزبير ذكر في مقدمة كتابه ملاك التأويل .... (توجيه ما تكرر من الآيات لفظا واختلف بتقديم أو تأخير أو بعض زيادة في التعبير)[٣].

حيث اكتفى يعلل هذه الآيات المتشابهة والحكمة من تكرارها لفظا أو اختلف بالتقديم والتأخير أو الزيادة أو النقصان في التعبير، ولم يعرف المتشابه اللفظي وإنما أراد بالآيات المتشابهة في اللفظ أو في اختلاف بينها، ولكنه ركز على توجيه هذه الآيات ومقارنتها ببعضها والحكمة من إعادتها أو مع اختلاف يسير بين آياتها المتشابهة. فلم يأت بتعريف شامل وافٍ لما موجود من هذه الآيات في القرآن الكريم فقصر جهده على بيان الحكمة للرد على الملحدين في إعجاز القرآن الكريم ببلاغته ونظمه.

وأما ابن جماعة فيتناول كتابه المتشابه اللفظي اختلاف الألفاظ بالزيادة والنقصان أو الإفراد والجمع أو التنكير والتعريف أو التقديم والتأخير أو إبدال حرف مكان حرف أو اختلاف حروف العطف أو الجر أو التحول من الغيبة إلى

---

(١) درة التنزيل /المقدمة.

(٢) البرهان في متشابه القرآن /٩٨.

(٣) ملاك التأويل: المقدمة.

الخطاب وبالعكس ومن الماضي إلى المضارع ونحو ذلك من أسلوب الالتفات أو (تكرار الألفاظ مع تباين المعنى) فهو يقول: (مما لم يذكر بعضه أو أكثره في كتب التفسير المشهورة ولا ألّمت به في أسفارها المطورة من اختلاف ألفاظ معان مكررة وتنويع عبارات فنونه المحررة ومن تقديم وتأخير وزيادات ونقصان وبديع وبيان وبسط واختصار وتعويض حروف بحروف أغيار فتحل تلك الأسئلة بما يفتح الله تعالى به إما منقول أو غير منقول) [١] ومن المحتمل والبادي من الدراسة أن الزركشي هو أول من عرف المتشابه اللفظي حينما قال (وهو إيراد القصة في صور شتى وفواصل مختلفة. ويكثر في إيراد القصص والأنباء وحكمته التصرف في الكلام وإتيانه على ضروب ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك: مبتدأ به ومتكرراً) [٢].

نرى أن تعريفه قاصر إذ بين المتشابه بأنه إيراد قصة معينة بأشكال مختلفة وصور شتى فغفل عن الأنواع الأخرى في المتشابه حيث لا يحيط بكل ما ورد في الكتب المؤلفة في المتشابه اللفظي مثل إغفاله عن بعض منها مثل: حين يكون التشابه فيه في بعض الألفاظ دون أن يتحد المعنى العام للآيتين كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ من سورة غافر وتشبهها آية من سورة طه: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ طه: ١٥ .

وهكذا نقل عنه السيوطي [٣] حيث قال: (وذلك أن القصة الواحدة ترد في سور شتى وفواصل مختلفة بأن يأتي في موضع واحد مقدما وفي آخر مؤخرا كقوله تعالى في البقرة ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ البقرة/٥٨ وفي الأعراف : (وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا) الأعراف/١٦١ وفي موضع بزيادة وفي موضع

(١) كشف المعاني في متشابه المثاني /٤٩.
(٢) البرهان في علوم القران ١/١١٢.
(٣) معترك الأقران ١/٦٦.

بدونها نحو ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ البقرة/٦ و﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ ﴾ يس/١٠ ولذلك نقول إن تعريفه غير جامع في وصفه للمتشابه يميزه عن غيره وغير واضح في الدلالة عليه.

أما المحدثون فقد عرفوه بتعاريف مختلفة فمنهم من اقتصر على تعريف الزركشي ومنهم من زاد عليه ولكن هذه التعاريف كلها متقاربة ولا تعطي المتشابه اللفظي تعريفا دقيقا أو وافيا وشاملاً فمثلا يعرفه الدكتور عبد الجواد خلف بقوله: (المتشابه من آيات القرآن الكريم هو أن يتكرر مجيء الآيات في القصة الواحدة من قصص القرآن الكريم أو موضوعاته في ألفاظ متشابهة وصور متعددة وفواصل شتى وأساليب متنوعة مع اتحاد المعنى لغرض بلاغي)[1].

فنرى أن التعريف لا يفي بالغرض الذي نحن بصدده وذلك أنه قال : يتكرر مجيء الآيات فالمتشابه ليس بتكرار سنبين الفرق بينهما فيما بعد ثم ذكر الآيات ولم يذكر بعض آية أو مقاطع من الآيات.

ثم ذكر (مع اتحاد المعنى) ليس هناك في المتشابهات اتحاد المعنى تماما لأنه في كل آية لا بدّ أن يكون هناك معنى إضافي على التي تشبهها أو تختلف عنها.

وقد عرفه الأستاذ عبد الله عبد الحميد الورافي بقوله: (وأقصد بالآيات المتشابهات تلك الآيات التي تتحدث في موضوع واحد أو فكرة واحدة والكلمات في معظمها واحدة ولكن يوجد بينها نوع من الاختلاف مثل زيادة حرف أو مجيء كلمة بدل أخرى أو تقديم كلمة أو تأخيرها)[2].

نرى أنه ترك الآيات التي تتشابه تماما وإنما أخذ الآيات التي فيها التشابه مع نوع من الاختلاف فالآيات التي تتشابه تماماً وان كان هذا التشابه من جهة اللفظة تاما إلا انه هناك اختلاف في المعنى وعلى ضوء السياق الذي قبلها على ما سنوضحه عند حديثنا حول موضوع التشابه والتكرار.

وقد عرفه الدكتور عبد الكريم المشهداني بقوله: (آيات يكون التشابه فيها غير

(١) مقدمة تحقيق كشف المعاني /٤٥.
(٢) إغاثة اللهفان /٦.

تام إذ توجد فروق في مواضع تبني عليها معان جزئية تختص بهذا الوضع دون ذاك)[١].

فإنه اقتصر على الآيات وغفل عن ذكر مقاطع منها. بل انه لم يبين التشابه التام من حيث اللفظ فاقتصر على الآيات التي فيها تشابه مع اختلاف في مواضع.

أما الدكتور رشيد الحمداوي فقد عرف المتشابه بقوله بأنّه (المقاطع أو الآيات التي جاءت في أكثر من موضع مع اختلاف في بعض ألفاظها بنوع من أنواع الاختلاف)[٢].

والذي يبدو أن تعريفه قاصر لأنه ذكر الآيات أو المقاطع في أكثر من موضع مع اختلاف في بعض الألفاظ أي انه نسي الآيات المتشابهة المتطابقة تماما من حيث اللفظ.

هذه نبذة مختصرة عن تعريف المتشابه اللفظي قديما وحديثا مع إجلالي لهؤلاء المفكرين الذين ساهموا في خدمة القرن الكريم وبيان إعجازه وتيسير حفظه والرد على مطاعن الزنادقة الملحدين إلا أنه ما زال يحتاج إلى مراجعة ودقة في تحديده من العلماء ومع تصوري من هؤلاء العلماء الأكفاء من خلال النظر في مصادرهم.

ومن خلال نظرتي في هذه المصادر أريد أن اعرف المتشابه عسى أن أكون قد وفقت في تعريف المتشابه في ضبطه وشموليته.

(فالمتشابه اللفظي هو (آيتان أو مقطعان فأكثر بينهما تشابه تام من حيث اللفظ أو غير تام)

اقصد بالآيات المتشابهة تمام التشابه من حيث اللفظ كقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ

---

(١) الإعجاز بالنظم وآثره في الدراسات القرآنية ٢/٥١٢.

(٢) المتشابه اللفظي في القرآن / ومسالك توجيهه عند أبي جعفر الغرناطي /٣٢.

﴿ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ البقرة: ١٣٤ [(١)].

حيث وردت هذه الآية مرتين بتمام ألفاظها دون زيادة أو نقص ودون تقديم أو تأخير وكقوله تعالى في سورة الرحمن [(٢)]﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ الرحمن: ١٣ حيث ذكرت إحدى وثلاثين مرة في هذه السورة بكامل ألفاظها.

وأقصد (أو غير تام) الآيات المتشابهة من حيث اللفظ من حيث زيادة حرف أو نقصه أو تبديل حرف بحرف أو كلمة بأخرى أو تقديم أو تأخير أو ما تختلف فيه الآيتان ببعض اختلاف كقوله تعالى: ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ ﴾ البقرة/٦ في سورة وكقوله ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ في سورة (يس)/١٠.

وكقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ البقرة/ ٥٨.

وفي الأعراف ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا ﴾ /١٦١ بالواو في (وكلوا) وفي تبديل (ادخلوا) في سورة البقرة بكلمة (اسكنوا) في الأعراف.

المتشابه والتكرار:

لو رجعنا إلى معجماتنا العربية لوجدنا فرقا واضحا بين المتشابه والتكرار.

فالشبه: المثل وتشابها / أشبه كل منهما الأخر حتى التبسا. وأمور مشتبهة ومشبهة / مشكلة[(٣)] وفي لسان العرب وأشبه الشيء الشيء أي ماثله[(٤)].

ففي المعجمات تدور مادة الشبه والمتشابه حول المماثلة والمشاكلة التي تدل على الالتباس.

أما كلمة التكرار بمعنى الإعادة تقول: كر الليل والنهار: عادا مرة بعد مرة

---

(١) ينظر: ص: ٣٠٠ في شرح هذه الايه من الأطروحة.

(٢) ينظر: ص: ٣١٦ في شرح هذه الايه من الأطروحة.

(٣) القاموس المحيط ٢٨٨/٣.

(٤) لسان العرب ٢١٣/٢.

وكرر عليه الحديث: أعاده وكرر الشيء تكريرا وتكرارا أعاده مرة بعد مرة[١].

وكرر الشيء وكركره / أعاده مرة بعد أخرى[٢].

وفي النجو إذا كرر الحرف أو الكلمة أو الجملة فإنه يفيد التوكيد ولكن هذا التكرار سواء كان حرفا أم كلمة أم جملة يكون ذاته مبنى ومعنى فعند قولنا جاء زيد زيد فكلمة زيد هي نفس اللفظ والمعنى في لفظة زيد. ولو حذفنا زيداً لما اختل المعنى ولجاز ذلك.

قال سيبويه: (التكرار ضرب من ضروب التوكيد) [٣].

أما ابن قتيبة فقد ذكر التكرار، وجعله فصلاً من كتابه حيث قال: (ومن مذاهبهم التكرار، إرادة التوكيد والإفهام) [٤].

والتكرار له صلة قوية بالمباحث البلاغية للإعجاز القرآني ولهذا نرى الباقلاني يجعله في فن البديع [٥] وقال: انه من عادة العرب ليفهم عنها ولتبلغ إلى مرادها.

وأما ابن الأثير فقد أشار إلى التكرار وجعله من ضمن (علم البيان) وقسمه إلى قسمين:

١- تكرار اللفظ والمعنى

٢- تكرار المعنى دون اللفظ

إن كلاً من تكرار اللفظ والمعنى أو تكرار المعنى دون اللفظ مقيد وغير مقيد وما جاء في الكلام تأكيدا له وتشييدا من أمره فهو مقيد وعدا ذلك عيباً وخطلاً من غير حاجة إليه.[٦]

---

(١) المعجم الوسيط ٢/٧٨٨.

(٢) لسان العرب ٣/٢٤٧٠.

(٣) الكتاب ٣/ ٥٠.

(٤) تأويل مشكل القرآن /٢٣٥.

(٥) إعجاز القران /١٥٧.

(٦) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ٣/٤.

وإذا كان البعض من كتابنا قد جعلوا التكرار مكان المتشابه من حيث إعادة اللفظ فهذا لا يعني أنهم يقصدون من كلامهم تكرار اللفظ والمعنى لأنه يعتبر عيباً في القرآن

كابن قتيبة والسيوطي والزركشي لا كما قال محمود السيد شيخون لأن كلام المخلوقين مهما أوتوا من قوة البلاغة وسحر البيان إذا تكرر حصل مع تكراره هجمة في اللفظ وملت الآذان سماعه وأغلقت القلوب أبوابها دونه أما القرآن الكريم فكلما تكرر ازداد حلاوة في الأسماع وتأثيرا في القلوب فباين ذلك كلام المخلوقين.[١]

والذي يهمنا من هذا العرض الموجز لمفهوم التكرار أن نعرف هل أن التكرار يقصد به تكرار اللفظ أو تكرار المعنى أو تكرار اللفظ والمعنى؟

فهذا ابن رشيق القيرواني يقسم التكرار إلى ثلاثة أقسام:

١- تكرار اللفظ دون المعنى وهو الأكثر

٢- تكرار المعنى دون اللفظ وهو الأقل

٣- تكرار اللفظ والمعنى وحكم عليه الخذلان بعينه[٢].

فالتكرار إذن إما أن يكون في اللفظ وهذا كثير لأنه لا بدّ منه في ثنايا الكلام ووجوده في الكلام من أساليب النحو والبلاغة.

وإما أن يكون في المعنى دون اللفظ وهو إتيان المعنى الواحد بأساليب متنوعة وهذا لا يكون تكرارا وإذا ورد في أي أسلوب فمعنى ذلك فيه إضافة دون الألفاظ الأخرى.

وإما أن يكون في اللفظ والمعنى يعني مطابقة الكلام لفظا ومعنى للتوكيد ويكون هذا في الأسلوب العادي غير القرآن الكريم، لأنه اعتبره ابن رشيق خذلاناً.

---

(١) أسرار التكرار في لغة القرآن /٨٣.

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد /بيروت، دار الجبل ٥، ١٩٨١ ٧٣/٢.

أي أنه إذا تكرر اللفظ والمعنى في الجملة يكون عيبا فيمل السامع منه ولذلك نقول انه لا يمكن أن يكون هذا في كتاب الله تعالى لأنه كلام الله تعالى حيث لا يُمَلُّ منه على كثرة ترداده ولا تشبع منه القلوب والنفوس لأنه كلام الله المعجز.

أما القسم الأول من تقسيم ابن رشيق فهو تكرار اللفظ دون المعنى فإنه من باب شيوع إطلاق اللفظ فقط لأنه يضيف معنى جديدا .

وأما القسم الثاني فهو تكرار المعنى دون اللفظ وهو قليل جدا والذي يبدو لي أن هذا أيضا لا يسمى تكراراً لأنه المعنى الواحد قد جيء به بأساليب متنوعة فلا بد إذن أن يختلف المعنى من أسلوب إلى آخر. فإذا اختلف الأسلوب واختلف المعنى فلا يكون تكرارا.

وأما القسم الثالث فهو تكرار اللفظ والمعنى وهذا في الحقيقة تكرار فلا يفيد إلا التوكيد أي توكيد المعنى في ذهن السامع وأحيانا يكون مالاّ للأسماع ومنفرا لها وهذا فيما أشار إليه الخطابي بقوله (إن التكرار على ضربين:

١- مذموم وهو ما كان مستغنى غير مستفاد به زيادة معنى لم يستفيدوه بالكلام الأول لأنه حينئذ يكون فضلا من القول ولغوا، وليس في القرآن شيء من هذا النوع.

٢- ما كان بخلاف هذه الصفة[1].

فإذا تبين لنا من خلال تقسيم ابن رشيق ما يأتي:

أن ما يكون تكرارا باللفظ والمعنى ليس له وجود في كتاب الله تعالى لأنه تكرار بالمعنى الحقيقي. وإذا أطلق عليه من باب استخدام هذا اللفظ الشائع.

وأن الذين طعنوا في القرآن الكريم بأن فيه تكرارا باللفظ والمعنى ليس صحيحا فهم مخطئون. لأن اللفظ المكرر يزيد من معاني المفردات معاني جديدة قد نفهمهما من السياق وقد نفهمهما من مقتضى المقام.

وأما التكرار للمعنى أي أن نكرر الفكرة في كل تعبير ومع كل تعبير أو

(١) الخطابي / ثلاث رسائل ص٤٧ - ٤٨.

أسلوب إضافات جديدة من الفكرة الواحدة.

ونلاحظ ذلك في القصص القرآني حيث إن الله تعالى يعرض للقصة الواحدة بألفاظ وأساليب متنوعة فلما تنوعت الأساليب وتغيرت الألفاظ فلا يسمى هذه تكرارا.

إذن هناك فرق بين المتشابه والتكرار وقد توهم الدكتور عبد القادر أحمد عطا حين سمى كتاب (البرهان في متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان) لـ (أسرار التكرار في القرآن) لأن الأمانة العلمية تقتضي أن لا يغير اسم الكتاب من اسم إلى آخر ولأنّ المرء محاسب عليه فيما يغير من كلام الآخرين ولأنه لا تكرار في هذه الآيات التي ذكرها صاحب البرهان وهو الكرماني.

نستنتج ممّا مضى أن التشابه شيء والتكرار شيء آخر فما من آية متشابهة أو مقطع متشابه إلا وفيه معنى إضافي أو قصد زائد فإذا كررت بلفظها فمعنى ذلك زيادة المعنى وتوضيح للدلالة سواء من خلال السياق أو من خلال اقتضاء المقام أو سبب النزول. فإذن لا تكرار في كتاب الله.

وإذا ما جاءت آيتان أو أكثر متشابهتان في بعض ألفاظها لا تسمى تكرارا.

ولو اتجهنا إلى كتاب الله تعالى وإلى آياته التي هي في ظن بعض الكتاب أنها من التكرار وخاصة إذا كانت الآيات معادة بألفاظها فهي ليست منه[1] فمما جاءت بألفاظ تامة التطابق كقوله تعالى في سورة البقرة في الآية ١٣٤-١٤١ : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ البقرة: ١٣٤.

وما ذكره الكفوي (ت ١٩٤) في التكرار من خلط بين تكرار اللفظة الواحدة في الآيات وبين المتشابهات اللفظية حيث قال: (انه تكرار اللفظ إما بمرادفه نحو: ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ الأنعام/١٢٥ وإما بلفظه ويكون في الاسم نحو ﴿دَكًّا دَكًّا﴾ الفجر/٢١ وفي الفعل نحو: ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ الطارق: ١٧ ، وفي الحرف نحو:

(١) ينظر ص: ٢٩٩ من هذه الرسالة في الفصل السادس.

﴿ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ هود: ١٠٨ وفي الجملة نحو: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ الشرح: ٥ قلنا خلط لأنه لو أخذنا كل لفظة في القرآن الكريم قد أعيد ذكرها فيه ستصل إلى نتيجة أن كل الألفاظ في كتاب الله من المتشابهات اللفظية وهذا غير صحيح لأن منها لا يحتمل إلا وجها واحدا، والمتشابه ما يحتمل أكثر من وجه وفيه من اللبس والإشكال فما دامت اللفظة الواحدة لا إشكال فيها إذن فلا تكون من المتشابه اللفظي وإنما من الوجوه والنظائر فكلمة أمة قد وردت في القرآن الكريم عدة مرات:

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ المائدة: ٤٨

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ هود: ١١٨

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ الأعراف: ١٥٩

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ الأعراف:

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ يونس: ٤٧

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ﴾ يونس: ٤٩

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ﴾ هود: ٨

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ ﴾ يوسف: ٤٥

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ النحل: ٣٦

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ النحل: ٨٤

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ النحل: ٨٩

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ النحل: ١٢٠

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ القصص: ٢٣

﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن ﴾ الزخرف: ٣٣

﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ آل عمران:

﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ الزخرف: ٢٢

فنرى في آية المائدة ٤٨ تعني الجماعة الكثيرة أو بصورة خاصة تعني البشرية كلها وفي سورة الأعراف ١١٨ تعني الطائفة الخاصة وأحبارهم وفي سورة يونس / ٤٧ تعني قوماً كما قال تعالى ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ وفي سورة هود /٨ تعني فترة زمنية محدودة وفي سورة يونس ٤٥ بعد فترة وفي سورة النحل/ ١٢٠ تعني رجلا صالحا ولكنه يعادل أمة في صلاحه وصموده وثباته ودعوته وفي سورة القصص /٢٣ تعني جماعة قليلة وفي سورة الزخرف تعني على دين ومذهب.

إذن فالوجوه والنظائر تختلف عن المتشابه اللفظي ولا يمكن أن يكون من أقسام المتشابه اللفظي.

وما ذكر الدكتور سعد عبد العظيم محمد وتوسعه في المتشابه اللفظي أكثر مما وضحه السابقون بقوله: (استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات والمتأمل المدقق في القرآن الكريم يجد أن هناك كثيرا جدا من الآيات المتشابهات لم يشر إليها أحد جميعا وخاصة إذا قارنا ما ذكره بما هو موجود في المعجم الفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي أضف إلى هذا أن هناك بعض الآيات التي أشار إليها القدماء إلى بعض وجوه التشابه بينها لكنهم أغفلوا وجوها أخرى كما اغفلوا بعض الآيات التي تتشابه مع ما ذكروه)[1].

نراه قد ذكر ثماني عشرة آية وردت فيها صيغة (الحمد) وقد استمر في ضربه الأمثلة على هذا المنوال.

إن ورود لفظة معينة في كتاب الله في عدة مواضع لا نستطيع أن نجعلها من المتشابه اللفظي لأنها تعطي معاني جديدة سواء من السياق أو من أداء الطريقة.

(١) مجلة كلية العلوم العدد ٢٣ لسنة ١٩٩٩ ص١٠١.

وملخص القول في التكرار يمكن أن نوجزه بما يأتي:

١- انه يختلف عن المتشابه اللفظي لأنه لا بد من اختلاف في المعنى.

٢- إن المتشابه اللفظي يكون في المقاطع والآيات لا في الألفاظ المفردة.

٣- يكون في المتشابه اللفظي نوع من الالتباس سواء في اللفظ أم في اختلاف المعنى كما أسلفنا.

٤- إذا نفينا المتشابه في الألفاظ المفردة وجعلناها من الوجوه والنظائر فكذلك يكون الاختلاف في العبارات والمقاطع أو الآيات المعادة لفظا .

٥- ليس هناك تكرار في كتاب الله تعالى. فإن كل لفظة أو عبارة جاءت في مكانها المناسب لتعطي معنى إضافيا عما تشابهها من ألفاظ وتراكيب.

الفصل الأول

تحولات النظم القرآني في الحروف

الآيات المتشابهة من حيث اللفظ على نوعين :

١ - النوع الأول : ناقصة التطابق .

٢ - النوع الثاني : تامة التطابق .

فأما النوع الأول وهو ناقصة التطابق ، فهي الآيات المتشابهة لفظاً ، لكنها غير متطابقة من حيث الألفاظ والتركيب، فيها تقديم وتأخير في بعض الألفاظ أو زيادة ونقصان أو فيها نكرة، وأخرى معرفة، أو تكون لفظة اسم، وأخرى فعل، وهكذا بحيث لا تتطابق الآيات أو المقاطع في كل ألفاظها تطابقاً تاماً.

وقد قسمنا هذا النوع من الآيات المتشابهة إلى أقسام منها ما فيها من حيث الحروف ومنها ما فيها تغير في الأفعال ومنها ما فيها تحول في الأسماء والمشتقات ومنها اختلاف في التقديم والتأخير والتعريف والتنكير أو التأنيث والتذكير وهكذا فنبدأ بالفصل الأول ويشمل:

أ- حروف المباني.

ب- حروف المعاني: تكلمنا عن الآيات المتشابهة التي تغير حرف فيها وكانت تشمل:

١- حروف العطف.

٢- حروف الجر.

٣- حروف النفي.

والفصل الثاني كان في الأفعال: فتكلمت عن الآيات المتشابهة التي تغير فيها الفعل من آية إلى أخرى وانضوى تحت الفصل

١- الماضي مع الماضي.

٢- المضارع مع المضارع.

٣- الأمر مع الأمر.

٤- الماضي مع المضارع.

ويشمل الفصل الثالث الأسماء والمشتقات وكان في الموضوعات الآتية:

١- الاختلاف بين الآيات المتشابهة والمشتقات وكان في الموضوعات الآتية

أ) الاختلاف بين المفرد والمفرد.

ب) بين الجمع والمفرد.

ج) بين الجمع والجمع.

د) بين المشتقات.

١- على وزن فاعل وأفعل.

٢- على وزن فاعل وفعال.

٣- على وزن مفتعل ومتفاعل.

٤- بين المصدر واسم المصدر

ثم تحدثت عن الفصل الرابع وكان حاويا على

١- المتشابهات بالتذكير والتأنيث.

أ) التذكير والتأنيث في الأسماء الظاهرة.

ب) التذكير والتأنيث في الضمائر.

ج) الأفعال تذكيرها وتأنيثها.

٢- المتشابهات بالتعريف والتنكير بينت فيه:

أ) التعريف والتنكير بالألف واللام.

ب) التعريف بالاسم الموصول.

٣- المتشابهات في التقديم والتأخير وانضوى تحته

أ) التقديم والتأخير بين الجمل الفعلية.

ب) التقديم والتأخير بين الجمل الاسمية.

ج) التقديم والتأخير مع الجار والمجرور وكان فيه بين الجار والمجرور مع الفاعل ومع الحال ومع الصفة ومع المفعول به وبين الجار والمجرور ومثله وبين المفعول به والمعطوف عليه وبين الخبر والمعطوف عليه

وبين اسم وآخر.

وأما الفصل الخامس فقد احتوى على الذكر والحذف سواء في حروف المباني أو المعاني وكان في:

١- ذكر الحرف وحذفه.

٢- ذكر الكلمة المفردة وحذفها.

٣- ذكر الجملة وحذفها.

تحولات النظم القرآني في الحروف

الحروف موضوع متشعب كثير الفروع والاختلاف بين النحاة وأهل البلاغة، لأنه يخص المبني والمعنى ويحتاج إلى إمعان النظر وتركيز الذهن، وليس من شأننا في هذا البحث أن نفصل القول فيها بقدر ما يهمنا من الاختلاف بين الآيات المتشابهة وتمييز الفرق بين ذكر الحرف أو زيادته من حيث المعنى وتأثيره البلاغي في الكلمة أو التركيب أو السياق بصورة عامة ولكن من قبل أن نبدأ في موضوع المتشابهات بالحروف لا بدّ أن نعرف الحرف حتى يتوضح لنا ما هو؟ وما تأثيره البياني أو الدلالي أو النحوي وما هي أنواعه؟

فالحرف هو (كلمة تدل على معنى في غيرها فقط) (١). أو هو ما يدل بنفسه على معنى في غيره وهو أحد أقسام الكلم قال ابن مالك:

كلامنا لفظ مفيد كاستقم واسم وفعل ثم حرف الكلم

والكلم: اسم جنس واحده كلمة وهي إما اسم وإما فعل وإما حرف، لأنها إن دلت على معنى في نفسها غير مقترنة بزمان فهي الاسم وان اقترنت بزمان فهي الفعل وان لم تدل على معنى في نفسها بل في غيرها فهي الحرف(٢).

قال ابن يعيش "وقولنا دلت على المعنى في غيرها فضل ميزة من الاسم والفعل إذ معنى الاسم والفعل في أنفسهما ومعنى الحرف في غيره ألا تراك إذا قلت: الغلام فهم منه المعرفة ولو قلت: آل – مفردة لم يفهم منه معنى فإذا قرن بما

(١) الجنى الداني/ ٢٠ وينظر شرح المفصل ٣/ ٤٧١.

(٢) ينظر: شرح ابن عقيل: ج١/ ١٥.

بعده من الاسم أفاد التعريف في الاسم فهذا معنى دلالته في غيره"[١].

والحروف تنقسم إلى قسمين: ١- حروف المباني. ٢- حروف المعاني.

أ- **حروف المباني**: هي الحروف الهجائية التي تتكون منها الكلمة وليس للحرف منها معنى مستقل[٢] وقد وردت آيات متشابهة في القرآن اختلف فيها حرف أو أكثر في بنية الكلمة، فهذه الزيادة فيها فرق دلالي وبلاغي قد أضاف إلى معنى الفعل الذي تغير بالزيادة عن الفعل الأول، فلنلق نظرة على بعض هذه الآيات الكريمة التي يتجلى من خلالها بعض إعجاز كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ومن ذلك ما جاء على وزن (فَعَل وأفتعل) في قوله تعالى: ﴿ **قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ البقرة/ ٣٨، وقوله تعالى: ﴿ **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ** ﴾ (طه/ ١٢٣). لم يعلق الخطيب الإسكافي على هاتين الآيتين وقد عَدَّ الكرماني (تبع) و(اتبع) بمعنى واحد وأن (اتبع) جاءت موافقة لما ذكر من لفظة (يتّبعون) إذ قال: (تبع واتبع) بمعنىً، وإنما اختار في (طه) (اتبع) موافقة لقوله تعالى: ﴿ **يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ** ﴾[٣]طه/ ١٠٨ وأما ابن جماعة فجعل (اتبع) تفيد التجدد إذ قال: (يحتمل والله أعلم أن (فَعِل) لا يلزم منه مخالفة الفعل قبله و(افتعل) يشعر بتجديد الفعل وبيان قصة آدم هنا لفعله فجيء بمن تبع هداي، وفي طه بعد قوله ﴿ **وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا** ﴾ أو (وعصى آدم ربه فغوى) فناسب (من اتبع) أي: جدّد قصد الإتباع)[٤].

وأما البقاعي فإنه قال: (فمن تبع) أي أدنى اتباع يعتد به ولذلك اكتفى في جزائه بنفي الخوف الذي قد يكون عن توبة من ضلال بخلاف ما في (طه) (فمن اتبع))[٥]. وقد عبر بصيغة (افتعل) التي فيها تكلف للتتبع الناشيء عن شدة

(١) شرح المفصل ٤٧١/٣.

(٢) ينظر م. ن/ ٢٢.

(٣) البرهان/ ١٠٨.

(٤) كشف المعاني/ ٥٧.

(٥) نظم الدرر /ج١/ ١٠٩.

الاهتمام)[١] وبيّن ابن الزبير أن (تبع واتبع) بمعنى، لكن (تبع) هو الأصل (واتبع) هو الفرع ، قال: (إن تبع واتبع محصلان للمعنى على الوفاء وتبع: فعل وهو الأصل (واتبع) فرع عنه لأنه يزيد عليه وهو منبئ عن زيادة في معنى فِعل بمقتضى التضعيف فعلى هذا وبحسب لحظه ورعيه ورد (فمن تبع) و(فمن اتبع) وتقدم في الترتيب المتقرر فمن تبع لأنبائه عن الاتباع من غير تعمل ولا تكلف ولا مشقة، أما اتبع فإن هذه البنية أعني بنية افتعل تنبئ عن تعمل وتحميل للنفس فقدم ما لا تعمل فيه وآخر (اتبع) لما يقتضيه من الزيادة ولم تكن إحدى العبارتين لتعطي المجموع فقدم ما هو اصل وآخر ما هو فرع عن الأول)[٢] ثم يسترسل في الجواب عن هذا الاختلاف ويستشهد بقول سيدنا إبراهيم عليه السلام ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ﴾ إبراهيم / ٣٦ ف (مني) إشارة إلى الخاصة من سالكي سبيله فعبّر بما يشير إلى غاية التمسك والقرب فناسب ذلك قوله: (تبعني) يريد الجري على مقتضى الفطرة وميز الحق بديهة من غير إطالة أو كبير علاج لسبقية الهدى ووضوح الشواهد، ثم يقول: (لما تقدم آية البقرة قوله تعالى: ﴿ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ الأعراف/ ٣٥ وقوله ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ ولم يرد فيها مما كان من إبليس أخبر تعالى عنه من قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا ﴾ من غير تعرض لكيفية تناوله فناسب هذا (تبع) ولما ورد في (طه) ذكر الكيفية في إغوائه بقوله: ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ طه/ ١٢٠، فأفهمت الآية قوة كيد اللعين فصار تمييز الحق لا يحصل إلا بمعالجة وتحمل فناسب ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ ﴾ فورد كل على ما يناسب معنى ونظماً)[٣].

أما الدكتور عبد الحميد ياسين فيضيف إلى ما تقدم من توجيهات للآيتين بقوله: (إن الآية الأولى تتحدث عن المسلك الطبيعي وهو الاتباع بالفطرة وبصيغة الجمع ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ و﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ ﴾ وتدل على السير مع الركب والانقياد وتسليم الأمور من دون خوف او حذر، أما الآية الثانية فتتحدث

(١) م.ن: ٥/ ٥٤. (٣) ملاك التأويل ١/ ١٩٠ - ١٩١.

(٣) ينظر ملاك التأويل/ ٤٧.

عن الفرد وعن تقفي الأثر وطلب الأمر للحاق به وإدراكه ولذلك قال فيها: (فلا يضل ولا يشقى) أي أنه إذا تتبع اثر الجماعة سيلحق وإذا لحق سيسعد أكملها بقوله (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً)(١).

وأما الأنصاري فعدّ الفعل في سورة (طه) للتأكيد فهو يقول: (إن قلت لم عبر هنا بـ (تبع) وثمّ بـ (اتبع) مع أنهما بمعنى؟ قلت: جرياً على الأصل هنا وموافقة لقوله ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ ﴾ طه /١٠٨ ولأن القضية لما بنيت من أول الأمر على التأكيد بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ ﴾ طه/ ١١٥، ناسب اختصاصها بالزيادة المفيدة للتأكيد)(٢).

وبعد هذه التوجيهات لـ (تبع) و(اتبّع) نلاحظ أن (تبع) في سورة البقرة جاءت في معرض ذكر الله عز وجل الحديث الذي جرى بينه وبين الملائكة، ومن ثم أمر الله الملائكة بالسجود لآدم فأبى الشيطان واستكبر دون أن يدلي الشيطان بأي رأي منه وإنما خبره وعصيانه لرب العالمين وما جرى من إخراج آدم وزوجته من الجنة حين تبعوا الشيطان ولكن بهدوء فكان من المناسب أن يأتي الفعل (تبع) لهذا الهدوء. أما في سورة طه فقد كان للشيطان دوره في حديثه مع آدم بقوله: ﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ ... ﴾ طه /١٢٠ وثم شيء آخر هو أن الله اخذ العهد من آدم وتوكيد الله تعالى له ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾ (طه:١١٧) كان من المناسب مجيء الفعل المضعف ليوازن العهد والتوكيد هذا من جهة، ومن جهة أخرى وجود الفاظ قبلها فيها من قوة النطق وفخامة الجرس ما يوازيه الفعل (اتبع) مثل لفظة ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾ (طه:١١٧) أي قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ فكان الفعل (اتبع) مناسباً لما سبق من آيات من حيث المعنى والجرس واللفظ.

٢- قال تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ النحل/ ١٢٧.

---

(١) المبنى والمعنى / ١٣٣.

(٢) فتح الرحمن/ ٢٣.

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ النمل/ ٧٠.

عرض صاحب البرهان تخفيف (ولا تك) وعدم تخفيفها (ولا تكن) بقوله: (هذه كلمة كثر دورها في الكلام فحذف النون منها تخفيفاً من غير قياس بل تشبهاً بحروف العلة وذلك يأتي في القرآن الكريم في بضعة عشر موضعاً[1] سبعة منها (يك) بالياء وثمانية (تك) بالتاء وموضعان (نك) بالنون، وموضع (أك) بالهمزة، وخصت هذه السورة بالحذف دون النمل موافقة لما قبلها وهو قوله (ولم يك من المشركين) والثاني: لأن هذه الآية نزلت تسلية للنبي (ﷺ) حين قتل عمه حمزة (رضي الله عنه) ومثل به فقال (ﷺ) (لأفعلنَّ به ولأضعنّ) فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ إلى آخر السورة فبالغ في الحذف ليكون ذلك مبالغة في التسلي وجاء ما في النمل على القياس ولأن الحزن هناك دون الحزن هنا والله أعلم)[2]. ومادة يك في القرآن وردت إحدى وثمانين مرة جاءت على الأصل بإثبات النون في ثلاثة وستين موضعاً وفي ثمانية عشر موضعاً حذفت النون[3]، أما الإمام الرازي فعلل (حذف النون) بكثرة الاستعمال، ولأن النون إذا وقعت على طرف الكلام لم يبق عند التلفظ بها إلا مجرد الغنة فلا جرم أسقطوه والمعنى: فلاتك في شك من حال ما يعبدون في أنها لا تضر ولاتنفع[4] في حين عللّ البقاعي حذف النون للعدل في العقوبة ولتعظيم التسلية بالحمل على الصبر وأما ثبوت النون في (النمل) لأنه إخبار عن عنادهم واستهزائهم فليس من موجب للتناهي في

(١) وقد جاءت (يك) في القرآن الكريم ثماني مرات ينظر: الأنفال/٥٣، التوبة/ ٧٤، النحل/ ١٢، مريم / ٦٧، غافر/ ٢٨، ٨٥، القيامة/ ٢٣٧.

أما (تك) في القرآن الكريم سبع مرات ينظر/ النساء٤٠، هود ١٧، ١٠٩، النحل ١٢٧، مريم ٩، لقمان ١٦، غافر ٥٠ - أما (نك) في موضعين في المدثر آية ٤٣، ٤٤، و(أك) في موضع واحد في مريم ٢٠.

(٢) البرهان/ ٢٢٤، وينظر: فتح الرحمن/ ١٧٢.

(٣) المعجم المفهرس / ٦٤٠/ مادة كون.

(٤) مفاتيح الغيب/ ٨/ ١٧٨.

الإيجاز والإبلاغ في نفي الضيق، فيفهم في إثبات النون الرسوخ[١].

وقال الدكتور فاضل السامرائي: (فحذف نون (تكن) في آية النحل وأبقاها في آية النمل وذلك أن السياق مختلف في السورتين، فالآية الأولى نزلت حين مثل المشركون بالمسلمين يوم أحد: (بقروا بطونهم وقطعوا مذاكرهم فوقف رسول الله (ﷺ) على حمزة (رضي الله عنه) وقد مثل به فرآه مبقور البطن فقال: (أما والذي نفسي بيده لئن أظفرني الله بهم لأمثلن بسبعين مكانك) [٢] فنزل قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ۝ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ أي: لا يكن في صدرك ضيق مهما قلَّ، فحذف النون من الفعل إشارة إلى ضرورة إنهاء الضيق من النفس وهذا تطييب مناسب لضخامة الأمر وبالغ الحزن، وتخفيف لأمر الحدث وتهوينه على المخاطب فخفف الفعل بالحذف إشارة إلى تخفيف الأمر وتهوينه على النفس، أما الآية الثانية فهي في سياق المحاجّة في المعاد وهو مما لا يحتاج إلى مثل هذا التصبر[٣].

ويرى سيبويه أن حذف النون يرجع إلى:

كثرة استعمالها؛ لأن الشيء إذا كثر في كلامهم كان له نحو ليس لغيره مما هو مثله ألا ترى أنك تقول: لم أك ولا تقول: لم أق إذا أردت اقل التخفيف إذ أنهم حذفوا هذا، لكثرته وللإستخفاف[٤].

و يرى أبو حيان أن التخفيف ليس علة للحذف، وأي ثقل في لفظ (لم يكن) إنما العلة عنده كثرة الاستعمال أولا، وشبهها لأجل سكونها بحروف العلة ثانياً فكأنهم جددوا لها جزماً وتنوسي الجزم القياسي وجعلوا النون كأنها حرف مد، ولذلك لم يحذفوها من هذا اللفظ إلا في موضع لا تجب لها فيه الحركة فصارت

---

(١) ينظر نظم الدرر ٥/ ٤٤٧.

(٢) أخرجه الألباني في السلسلة الضعيفة والموضوعة ٢/ ٢٨، والحاكم ٣/ ١٩٧، والطبراني في الكبير ٣/٢٢٣.

(٣) ينظر: التعبير القرآني ٧٣، ٧٤، وينظر المبنى والمعنى/ ١٤٨.

(٤) الكتاب ١/ ٢٤.

عدة العلل المسوغة لحذف النون ثلاثاً: كثرة الاستعمال والاستخفاف وشبهها بأحرف العلة[١].

وأما إثباتها كما في آية النمل- فهو الأصل وأما حذفها كما جاء في آية النحل فلعله لأجل التخفيف، حيث تضمنت الآية أمرا ونهيين: (واصبر) (ولا تحزن)، (ولا تك) فكان السياق مناسباً للتخفيف فحذفت النون، ولا سيما وقد سبقها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ أما آية النحل فاشتملت على نهيين فأثبتت النون جرياً على القياس وكذلك لأن الآية نزلت تسلية للنبي (ﷺ) عقب غزوة أحد وقد قتل عدد من المسلمين ومثل ببعضهم ومنهم حمزة (رضي الله عنه) وقد حلف النبي (ﷺ) لأمثلن بسبعين منهم فجاء حذف النون هنا موافقة للمبالغة في التسلية[٢].

والبادي لي في هذا التحول في النظم من (تك) إلى (تكن) أسباب معنوية ولفظية هي:

١- ورود آيات في الدعوة وأساليبها فصاحب الدعوة لا يضيق صدره، ولهذا جاء الفعل بحذف النون ليكون النهي عن الضيق أسرع وأيسر. كقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ النحل: ١٢٥

٢- ردٌّ على قول رسول الله (ﷺ) (لأمثلّنّ بسبعين منهم) فنزلت (فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) نظراً للثقل الذي عاناه (ﷺ) من وطأة قتل عمه حمزة والتمثيل به.

٣- هزيمة المسلمين في أحد فاهتم رسول الله (ﷺ) كثيراً مع استشهاد سبعين منهم.

٤- ورود لفظة الصبر أربع مرات في هذه الآية والتي قبلها والتي تدل على عظم الهم بعد هذه المعركة.

---

(١) ينظر التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، لأبي حيان: ٢٣٦، ٢٣٨.

(٢) ينظر: متشابهات آي القرآن الكريم دراسة دلالية نحوية مقارنة/ ٥٢.

٥- ورود لفظة (ولم يك) في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾. النحل / ١٢٠.

٦- دلالة الفعل (ولاتك) على النهي من الضيق بحذف النون ليكون الرسول أقرب إلى الله فاختصر الفعل بحذف النون والواو ليبتعد عن الضيق المبعد عن الله ويقترب منه بالمقابل.

كل هذه الأسباب كان لها وقع كبير على رسول الله (ﷺ) ولهذا جاء الفعل محذوف النون.

أما الفعل في آية النمل فلم يكن في صدد المعركة ولا القتل أو التمثيل بشهداء المسلمين وإنما كان في معرض الجدال العام مع الكفار وعنادهم حول الألوهية والبدء بالخلق والإعادة وحول الفات نظرهم إلى من سبقهم من المجرمين، فلا يحتاج إلى التخفيف من المعاناة كما في سورة النحل ولذلك ورد الفعل على الأصل دون حذف النون لينسجم مع السياق.

٣- قال تعالى: ﴿ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ الأعراف/٧١.

وقال تعالى: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ ﴾ يوسف/ ٤٠.

وقال تعالى: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ النجم/ ٢٣.

إن الفعل (نزّل) في الآية الأولى على وزن فعّل وفي الآية الثانية على وزن أفعل فالأول يفيد التكثير غالباً ولو أنهما بمعنى واحد، قال سيبويه: (أن فعّل وأفعل يتعاقبان)[١] أي يأتي أحدهما مكان الآخر قال ابن عاشور: (على أن فعّل المضاعف إذا لم يكن للتعدية كان المقصود منه الدلالة على التكثير من المصدر. قال في الشافية: (وفعّل للتكثير غالباً) وقد يكون التكثير في ذلك مجازياً واعتبارياً بأن ينزل

(١) الكتاب/ ٤ / ١٦٣ - ١٦٤.

كدّ الفكر في تحصيل المعاني الدقيقة ثم في اختيار أضبط الأقوال لإبانتها منزلة العمل الكثير) [١] ثم يقول: (فأما إذا كان فعّل المضاعف للتعدية فإن إفادته التكثير مختلف فيها والتحقيق أن المتكلم قد يعدل عن تعدية الفعل بالهمزة إلى تعديته بالتضعيف لقصد الدلالة على التكثير، لأن المضاعف قد عرف بتلك الدلالة في حالة كونه فعلاً لازماً فمقارنته تلك الدلالة عند استعماله للتعدية مقارنة تبعية، وأرى أن استفادة معنى التكثير في حال استعمال التضعيف للتعدية أمر من مستتْبعات الكلام حاصل من قرينة عدول المتكلم البليغ عن المهموز الذي هو خفيف إلى المضعف الذي هو ثقيل فذلك العدول قرينة على المراد وكذلك الجمع بينهما في مثل كلام الكشاف قرينة على إرادة التكثير...... بناءً على أن كثرة الحروف تقتضي زيادة المعنى أو قوته والمعاني اللطيفة يناسبها المخفف والأجسام الكثيفة يناسبها التشديد) [٢].

وأما النيسابوري فقد قال: (وإنما قال في هذه السورة (الأعراف) (نزّل) وفي غيرها (أنزل) لأن نزّل للتكثير فيكون للمبالغة ويجري ما بعده مجرى التفصيل للجملة، أو أنواع للجنس والله اعلم) [٣].

ويعد البقاعي (نزل) بمعنى الفعل المجدد وبمعنى الفعل بالتدريج فهو يقول: "ولعله أتى بصيغة التنزيل لأن التفعيل يأتي بمعنى الفعل المجدد وبمعنى الفعل بالتدريج فقصد النفي بكل اعتبار سواء كان تجديداً أو تدريجاً وإشارة إلى أنه لو نزل عليهم في الأمر بعبادتها شيء واحد لتوقفوا فيه لعدم فهمهم لمعناه حتى يكرر عليهم الأمر فيه مرة بعد أخرى) [٤].

وأشار الكرماني إلى هذه المسألة فوضح أن (أفعل) للتعدي (وفعّل) للتعدي والتكثير فذكر في الموضع الأول بلفظة المبالغة ليجري مجرى ذكر الجملة والتفصيل وذكر الجنس والنوع فيكون الأول كالجنس وما سواه كالنوع[٥].

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٠.

(٢) التحرير والتنوير ١/ ١١.

(٣) تفسير غرائب القرآن ٣/ ٢٧١.

(٤) نظم الدرر ٣/٥٥.

(٥) ينظر: البرهان/ ١٧٢، وينظر شذا العرف / ٤٩، ٥٠.

وناسب الفعل في الأعراف من حيث السياق أولاً حيث وردت الآية (فاعبدوا الله ما لكم من آله غيره) قبل هذه الآية، حيث طلب هود (عليه السلام) من قومه تخصيص العبودية للآله الواحد الذي ليس له شريك ولاند وكذلك ورود آية أخرى قبلها في شأن العبادة وهي: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ وكذلك لورود عبارة التهديد والوعيد مع هذه الآية وهي قوله ﴿ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴾ لأن انتظروا فعل أمر يراد به التهديد مثل قوله تعالى ﴿ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ولأن قوم عاد كانوا من الضخامة والقوة، وان الله زادهم في الخلق والبسطة، فكان من المناسب أن يأتي الفعل مضعفاً ليتناسب مع ضخامة هؤلاء وفضاضتهم دون (أنزل) ولا سيما وقد ذكرت عبارة (وزادكم في الخلق بسطة) قبل الآية.

فضلاً عن أن الخطاب موجه إلى قوم عاد وهم جماعة في حين أنَّ الكلام في سورة يوسف مع اثنين من المسجونين ولهذا ناسب الفعل (أنزل) في سورة يوسف مع المخاطبين، والله أعلم، وكذلك الحوار مع كفار مكة حول آلهتهم الثلاثة (اللات والعزى ومناة) لأنها أسماء بلا مسميات فهم ابتدعوها فكان من المناسب ان يكون الفعل (أنزل) دون (نزّل) لأن آية الأعراف فيها الوعيد والتهديد ووقوع الرجس والغضب على قوم عاد.

ب- حروف المعاني

إن بناء العبارات والجمل يتكون من الحروف وتركيبها فلا يمكن لكلام أن يكون فصيحاً وبليغاً إلا من اختيار الحروف المناسبة، ولهذا يكون للحروف تأثير مباشر في الجمل البليغة وغيرها. والحروف على نوعين: حروف المباني أولاً كما أوضحنا في المبحث السابق وحروف المعاني ثانياً.

وحروف المعاني هي حروف تجري في كلام العرب وتعطي معاني مختلفة ودلالات متنوعة فمنها ما يفيد الجر ومنها ما يفيد الاستفهام ومنها ما يفيد الشرط ومنها ما يفيد العطف ولكل نوع تأثيره المباشر في فصاحة العبارة وبلاغة الجمل.

يقول العلامة محمد شاكر: "وحروف المعاني التي يتناولها هذا القسم الأول من جمهرة علوم القرآن العظيم أصعب أبواب هذه الجمهرة، لكثرتها، وتداخل

معانيها، فقلّ أن تخلو آية من القرآن العظيم من حرف من حروف المعاني. أما المشقة العظمية، فهي في وجوه اختلاف مواقع هذه الحروف من الجمل ثم اختلاف معانيها باختلاف مواقعها، ثم ملاحظة الفروق الدقيقة التي يقتضيها هذا الاختلاف في دلالته المؤثرة في معاني الآيات وهذا وحده أساس علم جليل من علوم القرآن العظيم"[١].

ولقد اهتم النحويون كثيراً بحروف المعاني وأفردوا لها مؤلفات خاصة وذلك لأثرها في دلالة الكلام وربط عباراته وصلة جمله بعضها ببعض. ولما لهذه الحروف من تأثير واضح لإبراز الجانب البياني والمعاني الدقيقة في اختيار حرف دون آخر.

وممن كتب في هذا المجال الزجاجي (ت ٣٤٠هـ)[٢] والرماني (٣٨٦هـ)[٣] والهروي (٤١٥هـ)[٤] والمرادي (٧٤٩ هـ)[٥] والمالقي (٧٠٢هـ)[٦].

أما البلاغيون فلم يفردوا لها كتباً مستقلة، وإنما ضمن شرحهم لآيات من القرآن الكريم فتطرقوا لهذه الحروف ومالها من دلالات بلاغية، ولكن الذين اهتموا بالمتشابه اللفظي كان لهم جهد مشكور ونظرات في غاية الدقة لهذه الحروف إذ أظهروا من الأسرار البلاغية والبيانية الدقيقة في القرآن الكريم. وكان لحروف العطف بالدرجة الأولى الحظ الأكبر، وأكثر الآيات المتشابهة التي تكلموا عليها كان الاختلاف فيها لحروف العطف ثم لحروف الجر ثم لحروف النفي وحروف أخرى من حروف المعاني.

١- حروف العطف:

إن علماء المتشابه اللفظي عندما وجهوا الآيات كان توجيههم حسب ترتيب السور في المصحف، فجاء حديثهم عن حروف المعاني متفرقاً حسب ما يمليه

---

(١) دراسات لأسلوب القرآن العظيم القسم الأول، الجزء الأول/٦.

(٢) حروف المعاني للزجاجي: تحقيق: د. علي الحمد.

(٣) معاني الحروف للرماني: تحقيق: د. عبد الفتاح سبكي.

(٤) كتاب الازهية في علم الحروف للهروي: تحقيق: عبد المعين الملوجي.

(٥) الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي: تحقيق: د. فخر قباوة ومحمد فاضل.

(٦) رصف المباني في شرح حروف المعاني: تحقيق: أ.د. أحمد محمد الخراط.

عليهم النص القرآني، وكذلك تحدثوا عن أكثر من حرف في الموضع الواحد نتيجة لطبيعة منهجهم فوضحوا مناسبة الحرفين بحيث يصعب فصل كل حرف بحديث لوحده، وعليه سأتناول حروف العطف مرتبة كالآتي:

أ- الواو والفاء:

إن الآيات المتشابهة التي جاء الاختلاف فيها بين الفاء والواو أكثر من الحروف الأخرى لهذا سأبدأ بها.

أ- قال تعالى: ﴿ **وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا** ﴾ البقرة/ ٣٥. فعطف لفظ (كلا) بالواو دون الفاء، وجاء اللفظ نفسه في سورة الأعراف معطوفاً (بالفاء) قال تعالى: ﴿ **وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا** ﴾ الأعراف/ ١٩. فالواو :حرف عطف للجمع المطلق فإذا قلت: قام زيد وخالد يحتمل أنهما قاما معاً أو أن أحدهما قام قبل الآخر، وقد يأتي للترتيب مثل الفاء ولذلك قال ابن هشام: (وقول السيرافي أن النحويين واللغويين اجمعوا على أنها لا تفيد الترتيب مردود، بل قال بأفادتها إياه قطرب والربعي والفراء وثعلب وأبو عمرو والزاهد وهشام والشافعي)[(١)].

وأما (الفاء) فإنها تفيد العطف ومعناها التعقيب فتشارك (ثم) في افادتها الترتيب وتفارقها في أنها تفيد الاتصال و(ثم) تفيد الانفصال، وذهب بعض النحويين إلى أنها قد تكون للمهلة مثل (ثم) وذهب آخرون إلى أنها قد تأتي لمطلق الجمع فتكون بمعنى الواو[(٢)].

وقال سيبويه: (واعلم أن الواو وان جرت هذا المجرى فإن معناها ومعنى الفاء مختلفان إلا أن الواو لا يكون موضعها في الكلام موضع الفاء، ولا تخلو الفاء من معنى السببية إن كانت عاطفة بين الجمل)[(٣)].

في الآيتين السابقتين حرفا عطف وهما (الواو) في الفعل (وكلا) في آية البقرة والفاء في (فكلا) في آية الأعراف والعطف بالواو لا يقتضي ترتيباً ما لم يفهم من

---

(١) مغني اللبيب ٢/ ٣٥٤، وينظر الجنى الداني / ١٥٨ - ١٥٩.

(٢) الكتاب: ٨٦/٣ ٢٣٤/٤، وينظر: الكتاب / ١ / ١٦١ - ١٦٢.

(٣) الكتاب ٣ / ١٠٥.

غيرها والعطف بالفاء يقتضي الترتيب والتعقيب ولكن لماذا هذا التخصيص في الآيتين والقصة واحدة؟

يرى الخطيب الإسكافي أن لفظ (اسكن) في البقرة معناه الإقامة والاستقرار وهي المقام وطول اللبث، فالمراد الجمع بين الإقامة فيها والأكل من ثمارها ولو كان العطف بالفاء لتأخر الأكل إلى حين الفراغ من الإقامة، ولذلك فإن من يدخل بستاناً قد يأكل منه وإن كان مجتازاً فلم يتعلق المعطوف بالمعطوف عليه. أما ما ورد في سورة الأعراف فإنه من السكنى المراد بها اتخاذ الموضع سكناً، فالله تعالى أخرج إبليس من الجنة فقال: ﴿ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا ﴾ الأعراف/ ١٨. ثم خاطب آدم عليه السلام باتخاذ السكن له ولزوجه، فجاء التعبير في البقرة بعد أن كان آدم في الجنة فالمراد اللبث والاستقرار، وفي الأعراف ورد قبل دخول الجنة فالمراد الدخول، إذاً فالفاء تفيد تعلق الأكل بالدخول كتعلق الجزاء بالشرط. ومثل هذا الموضع قوله تعالى في البقرة: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ (٥٨) مع قوله تعالى في الأعراف: ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ (١٦١) فعطف في الأولى بالفاء لأن وجود الأكل متعلق بالدخول فارتبط بالفاء، أما الآية الثانية فإن السكنى تعني طول اللبث، والأكل لا يختص بوجود السكنى فجاء العطف بالواو[١].

وقد نقل الفخر الرازي توجيه الإسكافي برمته دون أن يشير إليه[٢] أما الكرماني فكان توجيهه كالإسكافي ولكن العلة عنده في الزمان فالدخول سريع الانقضاء فيعقبه الأكل، والسكنى طويلة فيجمع بينهما[٣].

وقد وافق كل من الأنصاري وابن عاشور رأيه[٤].

والغرناطي نظر إلى السياق المتقدم للآيتين وبنى عليه التوجيه ففي الموضع الأول في قوله تعالى: ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا ﴾ و﴿ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ أوضح أن

(١) ينظر: درة التنزيل /٥.

(٢) ينظر: التفسير الكبير ٣ / ٤٥٣.

(٣) ينظر البرهان / ٢٧٢.

(٤) ينظر فتح الرحمن /٢٧ - ٢٨، والتحرير والتنوير ٨/ ٥٤.

المراد في البقرة مجرد الإخبار لرسول الله (ﷺ) بما جرى في قصة آدم عليه السلام من أحداث من غير ترتيب زماني أو مكاني أو تحديد غاية فناسبه الواو. أما آية الأعراف فمقصودها وغايتها تعداد نعم المولى جل جلاله على آدم وذريته ابتداءً بتسخير الأرض لهم وما يتبع ذلك من الخلق والتصوير ثم أمر الملائكة بالسجود لآدم ثم إخراج إبليس ثم أمر آدم بالهبوط ثم تأنيسه وتوصيته لذريته فناسب هذا التفصيل والتعداد للنعم العطف بالفاء المقتضية الترتيب[1].

وابن جماعة جعل السكنى في آية البقرة (بمعنى الإقامة وفي الأعراف اتخاذ المسكن وذكر مناسبة لطيفة بقوله: (فلما نسب القول إليه تعالى: (وقلنا يا آدم) ناسب زيادة الإكرام بالواو الدالة على الجمع بين السكنى والأكل ولذلك قال: (رغداً) وقال: (حيث شئتما) لأنه أعم) فالمسألة تدل على أحد أمرين أو كليهما إما بمناسبة المبنى لأن سياق البقرة إخبار بتفضيل آدم وبيان ما أنعم الله به عليه من السكنى والأكل والثانية تقدمها أمره سبحانه لإبليس بالخروج فالأمر بالسكنى مقدم على الأمر بالأكل وأما لسياق المعنى فالسكنى في البقرة يراد بها الإقامة والسكنى في الأعراف معناها الدخول فالمعنى الأول يقصد به الجمع بين السكنى والأكل والثاني يراد به الترتيب لأن الأكل يكون عقب الدخول والله أعلم[2].

وقال الدكتور راشد أحمد: (أما التعبير بـ (الواو) في سورة البقرة دون الفاء فلأن السكن هنا يراد به الاستقرار لكونهما كانا في الجنة لقوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ والأكل يجامع الاستقرار في الغالب فعطف (بالواو) الدالة على الجمع والمعنى، جمعاً بين الاستقرار والأكل.

أما في سورة الأعراف فالمراد بالسكن الدخول حيث كانا خارجها والدخول لا يجامعه الأكل بل يكون الأكل بعده فعطف بـ(الفاء) الدالة على التعقيب)[3]. وهو رأي لا يخرج عمّا قاله الإسكافي والكرماني وابن جماعة.

(١) ملاك التأويل ١/ ١٨٦ - ١٨٨.

(٢) كشف المعاني/ ٥٦.

(٣) متشابهات آي القرآن الكريم، دراسة نحوية دلالية/ ٢٠٥.

ب - قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴾ هود/ ٥٨.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ هود/٦٦.

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ ﴾ هود/٨٢.

وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴾ هود/٩٤.

في هذه الآيات ورد حرفا عطف وهما (الواو) و(الفاء) مع أن الآيات متشابهة فلماذا؟

فالخطيب الإسكافي يبين سبب العطف في قصة هود وشعيب بأن العذاب الذي حذرهم منه نبيهم قد تأخر عن وقت الوعيد فلم يتقدم الآية تخويف يدل على قرب ما حذرهم منه، وهذا يتقضي (الواو) دون (الفاء) فليس المراد قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴾ وفي قصة شعيب أخبر الله عنه أنه قال لقومه: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴾، فدعاهم للارتقاب ولهذا قرن التخويف بسوف الدالة على التسويف ولم يتوعدهم باقتراب العذاب.

أما قصة صالح ولوط عليهما السلام فإن ما قبل الفاء يقتضي ما بعدها فالوعد بقرب العذاب منصوص عليه ففي قصة صالح: ﴿ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴾ وفي قصة لوط: ﴿ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴾، وقصة هود لم يتقدم تخويف بقرب ما أوعدوا به ليدل على اتصال الثاني بالأول واقتضاء العطف بالفاء فكان الموضع موضع (الواو)، لأن المراد الجمع بين خبرين من دون ذكر ما يقلل الزمان بين الفعلين وكذلك قصة شعيب لم يدل فيها

على أنهم أوعدوا بعذاب قد أظلهم وقرب منهم فلم يتوعدهم بالاقتراب بل دعاهم إلى الارتقاب فالتخويف قارنه التسويف لقوله تعالى ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فكان الموضع موضع الواو لخروج ما قبله عما يقتضي اتصال الثاني به وليس كذلك الموضعان اللذان نسقا على الأول بالفاء وهما قوله تعالى في قصة صالح: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ (هود/ ٦٥)، وفي قصة لوط: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (هود/ ٨١)، ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ هود/ ٨٢. فكان بعقبه غير متراخ عنه فاقتضى الفاء التي تدل على التعقيب واتصال ما بعدها بما قبلها من غير مهلة بينهما[١].

وافق على توجيهه كل من الكرماني وابن جماعة والأنصاري وكذلك ابن الزبير[٢].

وقد علل البقاعي الاختلاف في الآية بقوله: وكان العطف (بالواو) لأنه لم يتقدم وعيد بوقت معين كما في قصتي صالح ولوط عليهما السلام يتسبب عنه المجيء ويتعقبه (ولما جاء أمرنا)[٣].

إن الآية الأولى ليس فيها تهديد أو تخويف قبل الواو ولا عن قرب وقوعه بل إن الخبر مجرد إخبار – إذ بين لهم هود عليه السلام أنه بلّغ رسالته وأنه يستخلف من بعدهم قوما آخرين فلما لم يقتض الاتصال الثاني بالأول أو الجزاء على الابتداء، ولكن في الفعل يستخلف نوعا من الارتخاء الزمني الذي تدل عليه حروف الزيادة في الفعل الهمزة والسين/ فإن هذا يقتضي الواو دون الفاء، وكذلك في قصة شعيب فإن قبل الآية ليس فيها تهديد قريب أو تخويف وإنما في السياق ما يدل على البعد الزمني من لفظة تعلمون وكذلك من الفعل (وارتقبوا) يدل على العقاب

---

(١) ينظر: درة التنزل/ ١٦٩.

(٢) ينظر البرهان/ ٢٠١، وكشف المعاني/ ١٢٣، وفتح الرحمن/ ١٤٦، وينظر ملاك التأويل ٢/ ٦٥٧.

(٣) نظم الدرر ٣/٥٧٢.

البعيد لما فيه من زيادة (الهمزة والتاء) ولم يكن الثاني جزاء للابتداء فكان المناسب (الواو) دون الفاء هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن (الواو) تدل على عطف الجمل بعضها على بعض في هذه الآية فكان من المناسب أن تكون في هذين الموضعين.

أما الآية الثانية التي هي في صدد قصة صالح. فإن مجيء (الفاء) لأن ما قبلها تهديد قريب ومحدد زمنيا حيث قال تعالى: ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ ثم أكد الوعد بالعذاب بأنه غير مكذوب وكذلك وجود قوله تعالى: ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن هناك اتصالا قبل الفاء وبعدها فكان كالشرط وجوابه فأقتضى (الفاء) لأنها تفيد الترتيب والتعقيب وكذلك فيها ما يشعر أن الثاني مسبّب عن الأول.

وكذلك الآية الأخرى في قصة لوط فالسياق يدل على قرب الهلاك بقوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ وكذلك بقوله تعالى: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ﴾ فضلا عن وجود الاستفهام الذي أفاد التقرير والتأكيد قرب الصبح فأقتضى (الفاء) دون (الواو)، وكذلك يشعر السياق أنَّ مجيء الأمر كان متعلقا بما قبله فكان من المناسب أن تأتي (الفاء) في هاتين الآيتين (قصة صالح ولوط) و(الواو) في قصة شعيب وهود.

ب- ثم مع (الواو)

(ثم) تفيد الترتيب مع التراخي ومعناها: انقضاء مدة زمنية بين وقوع المعنى على المعطوف عليه ووقوعه على المعطوف. قال القاضي أبو يعلى: وأما ثم فهو للفصل مع الترتيب فإذا قال: رأيت فلانا ثم فلانا اقتضى أن يكون الثاني متأخرا عن الأول في الرؤية، ولهذا يحتج أصحابنا بقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ المجادلة/٣. إن ذلك يقتضي أن يكون العود العزم على الوطء)[1].

ولها موضعان:

١- أن تكون حرف عطف مفردا على مفرد وجملة على جملة وأنها تفيد الترتيب خلاف الكوفيين.

---

(١) العمدة في أصول الفقه - القاضي أبو يعلى ت.د أحمد بن علي المباركي، ١٩٩/١.

٢- وإما أن تكون حرف ابتداء على الاصطلاح أي يكون بعدها المبتدأ والخبر، وإما ابتداء الكلام فالأول مثل: (اضرب زيدا ثم أنت تترك الضرب) وأما ابتداء كلام كقولك: هذا زيد قد خرج ثم انك تجلس[١] وإنها تفيد ثلاثة أمور[٢] :

١- التشريك في الحكم.

٢- الترتيب.

٣- المهلة.

ومن الآيات المتشابهة التي فيها ثم مع الواو:

قوله تعالى: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ التوبة/٩٤.

وقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ، التوبة /١٠٥.

جاءت (ثم) في الآية الأولى (ثم تردون) وجاءت (الواو) في الآية الثانية (وستردون)، فما السر في هذا الاختلاف؟ أجاب الخطيب الإسكافي ووضح لنا هذا السر إذ بين فرقا استوجب هذا التحول في حرف العطف، فالأولى نزلت في المنافقين الذين لا يطلع على ما في قلوبهم إلا الله ثم رسوله بعد أن يطلعه إياه فبين سبحانه وتعالى في هذه الآية أنهم يعتذرون، وان اعتذارهم قول باللسان يخالفه ما في قلوبهم.

وفي الآية الأولى تهديد ووعيد على فعلهم فبين كلامهم الظاهر وبين الجزاء الأخروي بعد زمني فلذلك جاء العطف بـ (ثم) التي تفيد التراخي، أما الآية الأخرى فهي وعد للمؤمنين، فبداية الآية حث على الخير والعمل الصالح وهذه الأعمال ظاهرة لله ولرسوله وللمؤمنين، ولذلك جاء الجزاء مقترنا به فقال: (فسيرى) وبعده (وستردون) فالواو والسين تفيدان قرب الجزاء والثواب. قال الإسكافي: (معنى قوله للمنافقين: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي سيعلم حقيقة عملكم وانه من غير صحة اعتقاد منكم وان اعتذاركم قول بلسانكم لا يطابقه

(١) رصف المباني /٢٥٠.

(٢) مغني اللبيب ١/١١٧.

منطوى ضميركم وهنا ظاهر يكون الجزاء عليه خلافه ففصل بينه وبين ردهم إلى الله للجزاء عليه بقوله: (ثم تردون) فلبعد ما بين الظاهر من عملهم وما يجازون به دخلت (ثم) وليست كذلك الآية الأخيرة لأن قبلها بعثاً على الخير لقوله: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ ...﴾ وهذا وعد والأول وعيد، وبعده (وستردون) لأنه وعد مما يشاكل أفعالهم ويطابق أعمالهم من حسن الثواب وجميل الجزاء ولم يبعد عنها كبعد جزاء المنافقين عما هو ظاهر من أعمالهم التي يراؤون بها ويعلم الله تعالى خلافها منهم، فجرى الكلام على نسق واحد فقال: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ الآية، ولم يدخل (ثم) التي هي للتراخي والتباعد)[1].

وقد نقل الكرماني توجيهه يكاد أن يكون نصا[2] وكذلك ابن جماعة وافق على هذا التوجيه[3] ووافقه ابن الزبير بعد أن وضح كثيرا وأطال موضحا سبب النزول وأقوال العلماء في الذين تخلفوا عن رسول الله في معركة تبوك[4].

أما الدكتور راشد بن أحمد فبين أن المعنى ستبعثون يوم القيامة بأعمالكم والتعبير بـ (ثم) للتراخي بين العمل والجزاء عليه ولما عبر بالواو وضامتها السين الدالة على حصول ذلك مستقبلا، ولتأكيده بعد الأمر بالعمل المتضمن الوعيد. فالآية الأولى في المنافقين بدليل قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ ولذا لم يأت لفظ (المؤمنون) في قوله: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ لأنه ليس كل مؤمن يطلع على أفعال المنافقين ويعلمها ولبعد ما بين الظاهر من أعمالهم وبين المجازاة عليها كان التعبير بـ (ثم) الدالة على التراخي. وان الآية الثانية فهي في المؤمنين بدليل قوله تعالى بعدها ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ التوبة/ ١٠٣، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ

---

(١) درة التنزيل /١٤٧.

(٢) بنظر البرهان /١٩١.

(٣) بنظر كشف المعاني /١١٦ - ١١٧.

(٤) بنظر ملاك التأويل ١/ ٦٠١ - ٦٠٢.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾التوبة/١٠٤.

ولما كان المؤمنون يرون هذه الأعمال الصالحة ويطلعون عليها ذكروا في قوله تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ، ولأن فيها بعثا على عمل الخير في وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ﴾ وجاء بعدها قوله تعالى: ﴿فَسَيَرَى﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾ فيدلُّ على سرعة المجازاة على أعمالهم الصالحة ففيها وعد للمؤمنين كما كان في الأولى وعيد للمنافقين(١).

أقول إن الآية الأولى في المنافقين وأنها نزلت على رسول الله وهو خارج المدينة في معركة تبوك(٢). فأعلم الله نبيّه باعتذار المنافقين الذين تخلفوا عن المعركة حين وصوله إلى المدينة، فاستعمل (السين) مع الفعل (يرى) ليدل على الحال والاستقبال القريب واستعمل (ثم) مع الفعل (تردون) لأنها تدل على التراخي لأنهم ظلموا أنفسهم والظالم يمهله ولا يهمله ولهذا فقد أعطاهم من الحياة فرصة أخرى لتتناسب مع بقائهم في الدنيا ومع هذا فإن الآية فيها تهديد ووعيد إن لم يعملوا صالحا.

أما الآية الثانية فكانت في المؤمنين فاستعمل (السين) مع (يرى) ليدل على الحال والاستقبال القريب أي في الدنيا وعطف عليه بالواو ليدل الفعل (ستردون) على القرب والإسراع كما في الفعل (فسيرى) لأنهم مؤمنون والمؤمن يعمل لاخرته كأنه هو فيها تستوي الدنيا والآخرة عنده كأنه يراها رأي العين ولهذا كان من المناسب الإتيان بـ (ثم) في الأولى وبـ (الواو) في الثانية.

٢- قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ الأعراف/١٨٩

قال تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ الزمر/٦

التحول في هاتين الآيتين بين حرفين وهما (الواو) في الآية الأولى (وجعل) وفي الآية الثانية ﴿ثُمَّ جَعَلَ﴾ مع أن الآيتين في قصة واحدة وألفاظ متشابهة.

---

(١) ينظر: المبنى والمعنى /٢١١ - ٢١٢.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، ٨/٢٣٠.

علل الزمخشري سبب الاختلاف بالسياق في آية الزمر لأنه يدل على الامتنان وذكر النعمة بإيجاد خلق الإنسان وأن (ثم) تدل على التراخي في الرتبة لا في الزمن. قال: (فإن قلت ما معنى قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وما تعطيه من معنى التراخي؟ قلت هما آيتان من جملة الآيات التي عددها دالاً على وحدانيته وقدرته وهما تشعب هذا الخلق الفائت للحصر وانتشاره من نفس آدم وخلق حواء من قُصَيْراه، إلا أن إحداهما جعلها الله عادة مستمرة والأخرى لم يجر منها العادة ولم تخلق أنثى غير حواء من قُصَيْرى رجل فكانت أدخل في كونها آية وأجلب لعجب السامع فعطفها بـ (ثم) على الآية للدلالة على مباينتها لها فضلاً ومزية وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية فهو من التراخي في الحال والمنزلة لا من التراخي في الوجود.)[1].

وأما ابن الزبير فقد علل هذا التحول من (الواو) إلى (ثم) إلى سياق آية الزمر وأن الغرض في ذلك تعظيم الحال فيما عطف وتحريك النفوس لمعرفة هذه النعمة الكبيرة فلما أراد الإنعام والامتنان والإنعام على الجنس الآدمي وتعداد ذلك تعظيما وتفخيما جاء العطف بـ (ثم)[2].

ولأبي حيان التوجيه نفسه، وقد أشار إلى الزمخشري في ذلك مع نقل توجيهه نصا[3].

وأما ابن عاشور يكاد يكون تعليله تعليل الزمخشري ولكن بأسلوب آخر حيث يقول: (وتقدم نظير هذه الجملة في سورة الأعراف إلا أن في هذه الجملة عطف قوله ﴿جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ بحرف (ثم) الدال على التراخي الرتبي لأن مساقها الاستدلال على الوحدانية وإبطال الشريك بمراتبه فكان خلق آدم دليلا على عظيم قدرته تعالى وخلق زوجه من نفسه دليلا آخر مستقل الدلالة على عظيم قدرته. فعطف بحرف (ثم) الدال في عطف الجمل على التراخي الرتبي إشارة إلى استقلال الجملة المعطوفة بها بالدلالة مثل الجملة المعطوفة هي عليها، فكان خلق زوج آدم

---

(١) الكشاف/ ٩٣٤.

(٢) ينظر: ملاك التأويل ٣٣١/١.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٤١٦/٧.

أدل على عظيم القدرة من خلق الناس من تلك النفس الواحدة ومن زوجها لأنه خلق لم تجر به عادة فكان ذلك الخلق اجلب لعجب السامع من خلق الناس فجيء له بحرف التراخي المستعمل في تراخي المنزلة لا في تراخي الزمن، لأن زمن خلق زوج آدم سابق على خلق الناس. فأما آية الأعراف فساقها مساق الامتنان على الناس بنعمة الإيجاد فذكر الأصلان للناس معطوفا احدهما على الآخر بحرف التشريك في الحكم الذي هو الكون أصلا لخلق الناس)[1].

فضلا عن ذلك فإن آية الزمر جاء قبلها خلق السموات والارض في قوله تعالى: (خلق السموات والأرض بالحق) فكما أن خلق السموات والارض شيء عظيم كذلك خلق الناس من نفس واحدة وخلق الزوج منها أكثر دلالة على العجب وابلغ لدى السامع، وكذلك لوجود قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ وهذا يدل على التراخي في الزمن من خلق إلى خلق في بطون الأمهات، ولهذا جاء بالحرف (ثم) هنا دون آية الأعراف فلم يسبقها هذا الخلق ولا هذه الأطوار في الخلق فكان من المناسب إتيان حرف (الواو) في الأعراف و(ثم) في الزمر ليتناسب كل في موضعه مما يدل على الإعجاز في دقة البيان القرآني في اختيار الحروف والألفاظ وأن هذا القرآن هو من عند العليم الخبير.

ج- ثم والفاء: ومن الآيات المتشابهة في ثم والفاء:

قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ الأنعام /١١

وقوله تعالى: ﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ النحل/٣٦

في هاتين الآيتين ورد الفعل انظروا مرة معطوفا بـ (ثم) وأخرى (بالفاء).

وضح الخطيب الإسكافي أن جميع الآيات التي ورد العطف فيها (بالفاء)، فيها أمر بالتفكير والاعتبار بعد السير، لأنه يؤدي إلى النظر فيقع بوقوعه فوقعت

(١) التحرير والتنوير ٣٣١/٢٣.

(الفاء) الدالة على التعقيب في الجزاء وفي هذا اتصال بين السير والنظر.

أما آية الأنعام فجاء العطف فيها بـ (ثم) التي تدل على التباعد الزمني بين السير والنظر، فقد جاء ذكر القرون السابقة وما حل بها، ففيها حث على النظر وكيف أهلك الله المفسدين وخرب ديارهم حتى يروا آثارهم وما عمها من دمار: قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ الأنعام/٦ . وفي هذه يدعو الله أن يسيروا في البلاد ليروا مشاهد الخراب والدمار وما حل بأقوام مضت في عصور طويلة وأمكنة مختلفة، ولهذا جاء اللفظ على التراخي بين الفعلين فجاء كل على حدة[١].

وأخذ بهذا الرأي كل من الكرماني وابن جماعة والأنصاري[٢].

وأما الغرناطي فكذلك وافق الإسكافي ولكنه ربط آية الأنعام بأول السورة كعادته في تعليله للآيات المتشابهة من حيث النظر إلى ما قبل الآية بل من بداية السورة إلى الآية التي يريد توضيحها او بيان توجيهها. فهو يقول: (وأما آية الأنعام فإنها افتتحت بذكر خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور وإنما ذكر هذا من الخلق الأكبر ليعتبر بذلك فإنه أعظم معتبر وأوسعه، قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ غافر/٥٧، فكأن الآية في قوة أن لو قيل: سيروا في الأرض فاعتبروا لخالقها، وكيف دحاها لكم وذللها لسكناكم وجعل فيها رواسي أن تميد بكم، وفجر فيها الأنهار إلى عجائب ما أودع فيها وكيف جعل السماء فوقها سقفا محفوظا بغير عماد ... ثم انظروا عاقبة من كذب فلم يعتبر فعطف هذا بـ (ثم) المقتضية مهلة الزمان حيث يراد ذلك)[٣].

أما الزمخشري فإنه وافق الإسكافي في بيان السبب بالعطف بالفاء ولكنه علل آية الأنعام من ناحية الاختلاف في الرتبة إذ قال: (جعل النظر مسببا عن السير في قوله: (فانظروا) فكأنه قيل: سيروا لأجل النظر، ولا تسيروا سير الغافلين، وأما قوله:

(١) درة التنزيل / ٨٠ - ٨١.

(٢) بنظر البرهان/ ١٤٩ - ١٥٠ وكشف المعاني ٩٢ - ٩٣ وفتح الرحمن/ ٩٢\١.

(٣) ملاك التأويل ٤٢٣/١ - ٤٢٤.

﴿ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ ﴾ فمعناه إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع، وإيجاب النظر في آثار الهالكين، ونبه على ذلك بـ (ثم) لتباعد ما بين الواجب والمباح)[١].

ووافق الرازي[٢] الزمخشري اذ نقل نص كلامه، أما البقاعي فاعتبر العطف بـ(ثم) مبالغة في التهديد حيث يقول: (ولما كان السياق للتهديد بالتحذير من مثل أخذ الامم الماضية وكان قد سلف أنه لا تقدمهم عن آجالهم أمهلهم في النظر فإنه أقوى في التهديد وأدل على القدرة وادعى إلى النصفة ولا سيما والسورة من أوائل القرآن نزولا وأوائله ترتيبا فقال: (ثم انظروا) وأشار إلى أن هذا أهل لأن يسأل عنه بقوله: (كيف كان عاقبة) أي آخر أمر (المكذبين) أي أمعنوا النظر وبالغوا في التفكر وأطيلوا التدبر إذا رأيتم آثار المعذبين لأجل تكذيب الرسل فإنكم إذا شاهدتم تلك الآثار كمل الاعتبار وقوي الاستبصار وذلك إشارة إلى أن الأمر في غاية الانكشاف، فكلما طال الفكر فيه ازداد ظهورا)[٣]

ورد أبو حيان الزمخشري في مسائل ثلاث هي:

١- عبارة الزمخشري متناقضة لأنه جعل النظر متسببا عن السير فكأن السير سبب للنظر. ثم قال: فكأنما قيل: سيروا لأجل النظر، فجعل السير مطلوبا بالنظر فالنظر سبب له.

٢- أن دعوى الزمخشري سببية الفاء لا دليل عليها وإنما معناها التعقيب فقط.

٣- جعله السير مع (ثم) على سبيل الإباحة، ومع (الفاء) على سبيل الوجوب حيث يحتاج هذا إلى فرق بين هذا الموضع وباقي المواضع[٤].

أما الدكتور راشد أحمد فلا أدري كيف اتهم الزمخشري في الرد عليه بقوله: (ولا شك أن التناقض بين عبارتي الزمخشري واضح إذ كيف يكون الشيء سببا

---

(١) الكشاف /٣٢١.

(٢) التفسير الكبير /٤/٤٨٨.

(٣) نظم الدرر ٢/٥٩٣.

(٤) البحر المحيط /٣/٨٥.

ومسببا في وقت واحد؟[1] مع أن عبارتي الزمخشري لا إشكال فيها ولا لبس حين قال: (قلت: جعل النظر مسببا عن السير).

وإذا تأملنا هذه الآراء والتوجيهات نجد أن ما ذكره الإسكافي والغرناطي هو أكثر دقة وابلغ في توضيح الإعجاز القرآني من الناحية اللفظية والمعنوية، لأن كليهما نظرا إلى السياق وإلى ملاءمته اللفظ في كل آية للمعنى المقصود.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ الكهف /٥٧

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ ﴾ السجدة/٢٢

معنى الآيتين لا أظلم من الذي يسمع آيات الله ويذكر بها، أي لا أحد أظلم منه و(من) استفهام استنكاري وفيها تهديد ووعيد لمن يذكر بها فيعرض عنها[2].

يوضح الإسكافي أن (ثم) تدل على التراخي فتكون على الاصل الذي وضعت له أي أن آية الكهف تكون في الأحياء من أهل مكة وهم المشركون فأعرضوا بعد التذكير مباشرة ولهذا جاءت الفاء الدالة على التعقيب، ولكن آية السجدة دالة على الكفار بعد موتهم لأنه قد تطاول العمر عليهم بعد التذكير فناسبه مجيء (ثم) لأنها تدل على التراخي الزمني[3].

وأما ابن الزبير فقد علل ذلك الاختلاف بأن سورة الكهف مكية ولم يخرج المتكلم من أول السورة إلى الآية إلى غير العرب أي لم يتعرض فيها إلى الإخبار بحال غيرهم إلا الذي عرفوه عن أصحاب الكهف وهذا من تنبيه اليهود ضمن الأسئلة الثلاثة التي سألوها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولذلك كانت الحجة قائمة على أهل مكة عقب سماعهم فوردت الفاء المقتضية للتعقيب[4]. وأما آية السجدة فقد عللها بقوله: (فإن الآية عامة في حق العرب وغيرهم والإخبار فيها إنما هو عن جميع من شاهد آية بينة وكذب ودليل هذا ما تقدمه هو على إطلاقه في العرب وغيرهم من قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾

(١) متشابهات آي القرآن الكريم، دراسة نحوية دلالية / ٢٢٤.

(٢) ملاك التأويل: ٢/ ٦٧٨.

(٣) درة التنزيل/١٩٨.

(٤) ملاك التأويل: ٢/ ٧٨٦.

السجدة/١٨. هذا عام في المكلفين ثم فصل حالهم فيما بعد، ثم قال معلما بحال الجميع على ما تورده العرب عند التعجب ليباعد بين الأحوال: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِئَايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ فالمراد بهذه الآيات كل ما قامت به الدلالة ووضح منه الشاهد كناقة صالح وانقلاب العصا حية فمن آيات موسى وآيات عيسى ... فلما انطوت (الآيات) في قوله (بآيات ربه) من التعميم بحسب الشاهد مما اقترن بها على ما لا يتوقف فيه ذو عقل إلا أن يمنعه مانع من ذلك عظم مرتكب المعرض فعطف بـ (ثم)... (ثم أعرض عنها) استبعاده للتوقف عن الإيمان والتصديق عند مسا هده والاعتبار عليه من الدلائل ولا إشكال فيه[١]. قال الزمخشري: (ثم) في قوله (ثم أعرض عنها) للاستبعاد، والمعنى أن الإعراض عن مثل آيات الله في وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل والفوز العظيم بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل كما تقول لصاحبك وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها استبعادا لتركه الانتهاز وقال: ومنه (ثم) في بيت الحماسة:

لا يكشف الغماء إلا ابن الحرة يرى غمرات الموت ثم يزورها[٢]

قال استبعد غمرات الموت بعد أن رآها واستيقنها واطلع على شدتها)[٣]

والبيضاوي وافق هذا التوجيه والمحتمل أنه قد تأثر بالزمخشري[٤] وكذلك للفيروز آبادي تعليل الإسكافي[٥].

وأرى أن آية الكهف جاء العطف فيها بـ (الفاء) وذلك لأن الجدال مع الأحياء كما ذكر ذلك، ولأن الآيات كانت واضحة والرسول صلى الله عليه وسلم هو نفسه آية أما آية السجدة فكان الحديث مع كفار قد ماتوا وأفنوا أعمارهم في الدنيا وكان من المناسب أيضاً مجيء الفاء في الكهف لأن الدعاء من المرسلين لهم يتطلب الإجابة ولا سيما أن هؤلاء القوم قد جعل الله على قلوبهم غطاء لا يعقلون، بها

---

(١) ملاك التأويل: ٢/ ٧٨٦.

(٢) البيت لجعفر بن علبة الحارثي، البحر الطويل. انظر شرح ديوان الحماسة للتبريزي ١/٥٠ وهو شاعر من مخضرمي الدولة الأموية والعباسية (ت ١٢٥هـ).

(٣) ملاك التأويل ٢/٧٨٥ - ٧٨٦.

(٤) تفسير البيضاوي / ٣ / ٢٨٥.

(٥) ينظر بصائر ذوي التمييز ١/٣٠٠.

وثقلا في آذانهم لا يسمعون بها وأحيانا كان جوابهم قبل أن تتم الدعوة وتتوضح الأمور لأنهم لا يسمعون ولا يعقلون ولهذا كانت استجابتهم سريعة وهذه تتطلب مجيء الفاء التي تفيد التعقيب الزمني والرتبي معا.

وكذلك فإن قبل آية الكهف (فاءات) متكررة كقوله تعالى: (فترى المجرمين .. فسجدوا... ففسق ... فلم يستجيبوا لهم .. فظنوا أنهم مواقعوها).

أما آية السجدة فقبلها (ثم) متكررة أكثر من الفاء كقوله تعالى: (ثم استوى على العرش ... ثم يعرج إليه ... ثم جعل نسله .... ثم سواه .... ثم إلى ربكم ترجعون) فناسب كل من الفاء (وثم) موضعه ليؤدي رسالته وإعجازه.

٢- حروف الجر

تقع حروف الجر بعضها موضع بعض، ولكن هذا لا يكون إلا لغرض بلاغي يستدعيه المقام ويتطلبه السياق. وفي القرآن الكريم آيات متشابهة لا تختلف ألفاظها إلا في حروف الجر فلا بد من أسرار في هذا التحول ودلالات.

وقبل أن نتكلم عن الآيات المتشابهة في هذا الموضوع فلا بد أن نعرف شيئا عن حرف الجر (عن) وهو (حرف جر) يفيد المجاورة أي لبعد شيء عن المجرور بها[1] مثل قولك : (أطعمته عن جوع) أي أزلت عنه الجوع.

وكذلك يأتي للبدل كقوله تعالى: ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ** ﴾ البقرة / ٤٨ أي بدلاً منها ويأتي للاستعلاء وللتعليل وبمعنى (بعْد) وبمعنى (من) و(الباء) [2].

أ- من وعن

- ومن الآيات المتشابهة التي جاءت فيها (من) و(عن) قوله تعالى: ﴿ **مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا** ﴾ النساء / ٤٦ وقوله تعالى: ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ** ﴾ المائدة / ١٣.

---

(١) ينظر شرح كافية بن الحاجب ٤ / ٣١٩ وينظر شرح المفصل ٣ / ٥٢٨.

(٢) ينظر معجم الأدوات، ١٥ - ١٥١.

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ﴾ المائدة /٤١.

يقول الإسكافي : (إن الآية (١٣ من المائدة) في اليهود الذين حرفوا ما أنزل الله من كلامه مما علموه تأويلاً له فيكون هذا تحريفاً من جهة التأويل، وحرفوا أيضاً من جهة التنزيل كما قال: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ آل عمران / ٧٨، فقولك (عن) في كلام العرب موضوع لما عدا الشيء يقول: (أطعمه عن جوع وكساه عن عري، وكانوا يعدلون بالكلم تأويله الذي له، وتنزيله الذي جاء عليه إلى غيره مما هو باطل، و(عن) في هذا تقرب من معنى (بعد) لأنك تقول أطعمه بعد جوع وكساه بعد عري، إلا أن الأصل في هذا المكان أن يستعمل (عن)؛ لأن (بعد) قد تكون لما تأخر زمانه عن زمانه بأزمنة كثيرة وبزمن واحد ، و(عن) لما جاوز الشيء إلى غيره ملاصقاً زمنه لزمنه والمراد إذا قال: أطعمه عن جوع وسقاه عن عطش ليس يراد به إلا أنه لما عطش سقاه ولما جاع أطعمه[(١)].

وأما ابن الزبير فقد علل ذلك بأنّ الآية الأولى في إخبار الله سبحانه لنبيه عليه السلام مرتكب من تقدم من كفار بني إسرائيل حين أخذ عليهم الميثاق، وأما الآية الثانية في أحوال معاصري اليهود للرسول (ﷺ) فكما أن الأوائل منهم حرفوا فكذلك المعاصرون حرفوا أيضا بعد الاستقرار وإنكارهم لصفة رسول (ﷺ) بعد مشاهدته ورؤيته، وهذا مما اختص به الخلف دون السلف لأن السلف كانوا يعرفون بمجيء الرسول (ﷺ) ولكن المعاصرين حرفوا بعد الاعتراف والثبوت زائداً إلى ما ارتكبه سلفهم من التحريف والتبديل ولهذا ناسب الإخبار عن مرتكبتهم ذكر البعدية. فالسلف منهم مبتدع مخترع والخلف محرف أيضا ومقلد متبع فالبعدية

---

(١) درة التنزيل / ٦٧.

لمن بعد والحالية المحكية لمن قبل على ما يناسب[١].

وأما ابن جماعة فقد فسر ذلك الاختلاف بالتحريف الأول عند نزول التوراة في آية النساء فجاءت (عن)، أما الآية الثانية فكان التحريف فيها في زمن النبي (ﷺ) عن المقول لهم في التوراة بغير معناه[٢].

وقد أجاب الزمخشري عن هذا الاختلاف بقوله : (فإن قلت : كيف قيل ها هنا (عن مواضعه) وفي المائدة : ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾؟ قلت عن مواضعه فعلى ما فسرنا من إزالته عن مواضعه التي أوجبت حكمة الله وضعه فيها بما اقتضت شهواتهم من إبدال غيره مكانه وأما من بعد مواضعه : فالمعنى أنه كانت له مواضع هو قمن بأن يكون فيها ، فحين حرفوه تركوه كالغريب الذي لا موضع له بعد مواضعه ومقاره ، والمعنيان متقاربان)[٣].

وأما الرازي ففسر التحريف : بالتأويلات الباطلة إذ قال : (قوله : ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ ، معناه أنهم يذكرون التأويلات الفاسدة لتلك النصوص ، وليس فيه بيان أنهم يخرجون تلك اللفظة من الكتاب وأما آية (المائدة ٤١) ، فهي دالة على أنهم جمعوا بين الأمرين، فكانوا يذكرون التأويلات الفاسدة وكانوا يخرجون اللفظ أيضاً من الكتاب)[٤].

وأما ابن عاشور فقد فسر الاختلاف بأن الآية من سورة النساء في وصف اليهود جميعهم وتحريفهم للتوراة فهو يقول : وقال هنا ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ وفي سورة النساء ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، لأن آية سورة النساء في وصف اليهود كلهم وتحريفهم في التوراة فهو تغيير كلام التوراة بكلام آخر عن جهل أو قصد أو خطأ في تأويل معاني التوراة أو في ألفاظها فكان إبعاداً للكلام عن مواضعه ، أي إزالة للكلام الأصلي سواء عوض بغيره أو لم يعوض ، وأما هذه الآية ففي ذكر طائفة معينة أبطلوا العمل بكلام ثابت في التوراة إذ ألغوا حكم الرجم الثابت فيها دون تعويضه بغيره من الكلام فهذا أشد جرأة من التحريف الآخر فكان قوله (من بعد

---

(١) ينظر ملاك التأويل، ١ / ٣٧٨ - ٣٧٩.

(٢) ينظر كشف المعاني / ٨٧.

(٣) الكشاف / ٢٣٩.

(٤) التفسير الكبير / ١٠ / ٩٣.

مواضعه) أبلغ في تحريف الكلام ، لأن لفظ (بعد) يقتضي أن مواضع الكلم مستقرة وأنه أبطل العمل بها مع بقائها قائمة في كتاب التوراة)(١) .

وأما البقاعي فإنه جعل للكلم حدين فإنهم يأخذون الكلم عن حده وطرفه إلى حد آخر فهو يقول : ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾ أي الذي يسمعونه عنك على وجهه فيبالغون في تغييره وإمالته بعد أن يقيسوا المعنيين : المغير والمغير عليه ، واللفظين فلا يبصروا به ، بل يأخذون بالكلم عن حده وطرفه إلى حد آخر قريب منه جداً ، ولذلك أثبت الجار فقال (من بعد) أي يثبتون الإمالة من مكان قريب من (مواضعه) أي النازلة عن رتبته بأن يتأولوه على غير تأويله أو يثبتوا ألفاظاً غير ألفاظه قريبة منها، فلا يبعد منها المعنى جداً وهذا أدق مكراً مما في النساء وهو من الحرف وهو الحد والطرف)(٢).

والبيضاوي فسر الاختلاف والتحريف باللفظ والمعنى حيث يقول : (أي يميلونه عن مواضعه التي وضعه الله فيها ، إما لفظاً : بأهماله أو تغيير وضعه ، وإما معنى بحمله على غير المراد وإجرائه في غير مورده)(٣) .

وبعد هذه الآراء البيانية للعلماء لتحولات الحرف في الآيات الكريمة أقول :

إن قوله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ من سورة النساء وقوله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾ الآية من سورة المائدة فإنهما في اليهود الأوائل بصورة عامة لأنهم كانوا يغيرون ألفاظ التوراة حسب أهوائهم كقوله تعالى (قولوا حطة) فقالوا : (قولوا حنطة) فكانوا يتهربون من الأوامر الإلهية بكل الوسائل سواء بتغير ألفاظ التوراة أو حذفها أو الاحتيال على أحكامها لأنه من معاني (يحرفون) (يغيرون)(٤).

---

(١) التحرير والتنوير ٦ / ٢٠٠.

(٢) نظم الدرر ٤ / ٤٥٦.

(٣) تفسير البيضاوي ٢ / ١٢٧.

(٤) المعجم الوسيط ١ / ١٦٧.

والتحريف بمعنى : إمالة الشيء عن جهته وصرفه[1] وقد جاءت لفظة التحريف دون مرادفاتها لأنها تدل على تغير الكلمة من ناحية حروفها والتغير في معناها أو إبدالها بلفظ قريب من اللفظ الأول عند طرفه أو حافته لأن من معاني (الحرف) : الحافة والطرف[2] أو إزالة اللفظة من موضعها الذي وضعت له، ولذلك كان من المناسب مجيء لفظة عن في قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ في سورة النساء والآية الأولى من سورة المائدة لأن اليهود بدلوا بعض ألفاظ التوراة بغيرها تكون قريبة منها كما أسلفنا في لفظة (حطة) بتبديلها بلفظة (حنطة) هذا التحول من حيث اللفظ، أما من حيث المعنى فقد جاءت لفظة (من بعد) في الآية الثانية من سورة المائدة لأنهم أرادوا تبديل حكم الله تعالى بحكم قريب منه سواء كان السبب في رجم الزاني وتبديله بالجلد أم كان السبب في قتيل من حيث الدية أو القود كما ذكر ذلك في الحديث النبوي روي (أن شريفاً من خيبر زنى بشريفة وكانا محصنين فكرهوا رجمهما فأرسلوها مع رهط منهم إلى بني قريظة ليسألوا رسول الله (ﷺ) عنه وقالوا : إن أمركم بالجلد والتحميم فاقبلوا وإن أمركم بالرجم فلا ، فأمرهم بالرجم فأبوا عنه فجعل ابن صوريا حكماً بينه وبينهم ، وقال له: أنشدك الله الذي لا إله إلا هو الذي فلق البحر لموسى، ورفع فوقكم الطور ، وأنجاكم وأغرق آل فرعون والذي أنزل عليكم كتابه وحلاله وحرامه هل تجدون في الرجم على من أحصن ، قال : نعم . فوثبوا عليه فقال : خفت إن كذبته أن ينزل علينا العذاب، فأمر رسول الله (ﷺ) بالزانيين فرجمهما عند باب المسجد)[3].

يقول الرازي : (إذا عرفت القصة فتقول : قوله ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ أي وضعوا الجلد مكان الرجم)[4].

وخلاصة القول أن الآية الأولى في اليهود الأوائل حيث كان التحريف والتبديل بالألفاظ بوضع لفظة موضع أخرى.

---

(١) عمدة الحفاظ ١ / ٣٩٢.

(٢) المعجم الوسيط ١ / ١٦٧.

(٣) التفسير الكبير ١١ / ٣٥٩.

(٤) ابن إسحاق في المغازي [زيلعي ١ / ٣٩٦]، ورواه أبو داود في سننه. باب الحدود في رجم اليهودية / ١٥٣.

وأما الآية الثانية (من بعد مواضعه) فدلت على أنهم يلجأون إلى معانٍ وراء ما وضع لها في أصل اللغة لتحقيق أهوائهم. ولذلك كانت لفظة (بعد) مناسبة ومنسجمة مع سبب النزول ومع سياق الآية بعدها إذ قال تعالى: ﴿ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ﴾ وقوله تعالى: ﴿ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ المائدة / ٤٢.

٢- (من) و(اللام)

ومن الآيات المتشابهة والمختلفة بحرف الجر قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ المائدة / ٩، وقوله: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ الفتح / ٢٩.

الآيتان متشابهتان إلا في لفظتين وهما : (لهم) و(منهم) فلماذا هذا التحول بحرف الجر من (اللام) في الأولى إلى حرف الجر (من) في الثانية؟

يقول الإسكافي : (وذلك أنه لمّا قال في الأولى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) علم أنهم وعدوا بما هو حق لهم فعدل عن ذكر المفعول إلى جملة تضمنت معناه: والجملة ابتداء وخبر وهي في موضع مفرد منصوب كأنه قال : وعد الله الذين آمنوا مغفرة ، وأما الآية الأخرى فإن (منهم) فيها متعلقة بـ (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) وهي من تمامها ولم يكن هناك ما ترتفع به (مغفرة) فتعدى إليها الفعل الذي هو وعد فجرى على الأصل في نصب المفعول به ... فإن قال : كيف يحتمل أن يبعض والقوم الذين أخبر الله عنهم بقوله: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ مع سائر ما وصفهم الله به فأثنى عليهم بذكره كلهم وعدوا (مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) الجواب عن ذلك من وجهين: أحدهما أن يقال : إن (من) في هذا المكان ليست للتبعيض، إنما هي لتبيين الجنس، كأنه قال: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) الذين هم هؤلاء كما قال: ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾ الحج / ٣٠، أي الرجس الذي هو الأوثان. الجواب الثاني: أن يكون

التقييد للتحذير ، لأنهم وإن علم الله منهم الثبات على ما هم عليه من العمل الصالح، فإنه لا يخليهم من الأمر والنهي والوعد والوعيد على معنى ، دوموا على ما أنتم عليه فإن من دام منكم عليه فقد وعده (مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) [١] .

أما الكرماني فقد علل هذا التحول إلى موافقة كل لفظة لفواصل الآيات[٢] وأمّا الغرناطي فوجه الاختلاف إلى أن الآية الأولى خطاب للمؤمنين وما خرج إلى سواهم، وأما الآية الثانية فإنها في المؤمنين مع رسول الله (ﷺ) بما فيهم المنافقين ولذلك جيء بقوله (منهم) مخرجاً من كان يتظاهر بالإيمان ويلزق بالمؤمنين وليس منهم ليحرز هذا المعنى الجليل ، فمن على هذا للتبعيض[٣] وأما ابن جماعة فله الرأي نفسه حيث يقول : (إن آية المائدة عامة غير مخصوصة بقوم بأعيانهم وآية الفتح خاصة بأصحاب النبي(ﷺ) وكان من جملة من صحبه منافقون ، فقال (لهم) تمييزاً وتفضيلاً ونصاً عليهم بعد ما ذكر من جميل صفاتهم ، وأيضاً آية المائدة بعدما قدم خطاب المؤمنين مطلقاً بأحكام فكأنه قال: (من عمل بما ذكرناه له مغفرة وأجر عظيم فهو عام غير خاص)[٤]

والأنصاري نقل عن الكرماني إذ قال : ((رفع (وأجر) هنا ونصبه في الفتح في قوله ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمًۢا﴾ موافقة للفواصل، ومفعول (وعد) هنا محذوف تقديره خيراً) [٥].

وذكر البيضاوي أن قوله تعالى (لهم مغفرة) استئناف بياني والجملة في موضع المفعول[٦] . والإخبار بالوعد يكون أبلغ لو ذكر الموعود قال الرازي : (بل الإخبار عن كون هذا الوعد وعد الله أقوى وذلك لأنه أضاف هذا الوعد إلى الله تعالى فقال ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ والإله هو الذي يكون قادراً على جميع المقدورات عالماً بجميع المعلومات غنياً عن كل الحاجات وهذا يمتنع الخلف في وعده لأن دخول

(١) درة التنزيل / ٦٥ - ٦٦.
(٢) ينظر البرهان / ١٤٤.
(٣) ينظر ملاك التأويل ١ / ٣٧٥ - ٣٧٦.
(٤) كشف المعاني / ٨٧.
(٥) فتح الرحمن / ٧٨.
(٦) ينظر تفسير البيضاوي ٢ / ١١٨.

الخلف إنما يكون للجهل حيث ينسى وعده وإما للعجز حيث لا يقدر على الوفاء بوعده وإما للبخل حيث يمنعه البخل عن الوفاء بالوعد وأما للحاجة ، فإذا كان الإله هو الذي يكون منزهاً عن كل هذه الوجوه كان دخول الخلف في وعده محالاً فكان الإخبار عن هذا الوعد أوكد وأقوى من نفس الإخبار عن الموعود به وأيضاً فلأن هذا الوعد يصل إليه قبل الموت فيفيده السرور عند سكرات الموت فتسهل بسببه)[١].

وأما ابن عاشور فقد ذكر أن الجملة الاسمية في إثبات المغفرة أدل على الثبات والتقرر[٢]. والبادي أن هذا التحول عائد إلى السياق حيث جاءت الآيات قبل آية الفتح وقد ذكر فيها لفظة: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً ﴾ الفتح / ٢٠ والفاصلة بالألف فكان من المناسب أن يأخذ الفعل مفعولين منصوبين فكان المفعول الثاني (أجراً) وكذلك قبل الآية ذكر الكافرون وفيها حرف الجر (منهم) الفتح/٢٥ فناسب مجيء (منهم) مع المؤمنين.

وأما السياق في آية المائدة فهو عام في المؤمنين وليس فيهم ما يستثنى منهم كقوله تعالى قبل الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ ﴾ المائدة/٨، والفاصلة قبلها مرفوع فكان من المناسب أن تأتي (لهم) لتشمل المؤمنين جميعاً والمعنى: أن آية الفتح في المؤمنين ومن معهم من المنافقين فلا بد من إخراج المنافقين أن يكون لهم الأجر والثواب، وإنما لمن آمن وعمل صالحاً فكان الحرف (من) للتبعيض ليشمل المؤمنين الصادقين مع رسول الله (ﷺ) وأما آية المائدة فالحكم عام في كل المؤمنين الذين إذا آمنوا وعملوا الصالحات فلهم الأجر والثواب فكان من المناسب كل حرف في مكانه الذي وضع له.

وجملة (لهم مغفرة) تفسيرية للمفعول الثاني تفسير السبب للمسَّبب فالجنة مسببة عن المغفرة وحصول الأجر العظيم.

ج- اللام وإلى:

ومن مواضع الاختلاف بين حرفي الجر (اللام وإلى) في الآيات المتشابهة

---

(١) التفسير الكبير ١١ / ٣٢١.

(٢) ينظر التحرير والتنوير ٦ / ١٣٦.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ لقمان / ٢٩.

وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ الرعد / ٢ وفي كل الآيات المشابهة جاء حرف الجر (اللام) [1] ما عدا سورة لقمان، إذ جاء حرف الجر (إلى أجل) فما السر في ذلك؟

يرى الخطيب الإسكافي أن (إلى) في الآية الأولى تدل على انتهاء الغاية وأما اللام في الآية الثانية فهي لبلوغ الأجل، وكذلك نظر في سياق الآيتين وتأمل قبلهما من الآيات وما بعدها واستنتج بأن آية لقمان وقعت بين آيتين دلتا على غاية ما ينتهي إليه الخلق، والقيامة غاية ذلك، ولهذا جاء الحرف (إلى) الذي يدل على الانتهاء والمعنى أن كلاً من الشمس والقمر يجريان إلى آخر وقت وهو يوم القيامة. وأما المواضع الأخرى التي وردت (اللام) فيها فهي إخبار عن ابتداء الخلق وابتداء جري الكواكب كما في آية الزمر وآية الرعد لأنها تجري حتى تبلغ غايتها ولكن آية (فاطر) فيها ذكر النعم في البر والبحر والمعنى في هذه الآيات التي فيها اللام أي : يجري كل مما ذكر لبلوغ الأجل : فهو يقول : ((أما معنى قوله: ﴿يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾) يجري لبلوغ أجل مسمى ، وقوله تعالى : (يجري إلى أجل مسمى ، معناه لا يزال جارياً حتى ينتهي إلى آخر وقت جريه المسمى له ، وإنما خص ما في سورة لقمان بـ (إلى) التي للانتهاء (واللام) تؤدي نحو معناها لأنها تدل على أن جريها لبلوغ الأجل المسمى، لأن الآيات تكتنفها آيات منبهة على النهاية والحشر والإعادة فقبلها: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ ﴾ لقمان/ ٢٨ وبعدها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ ﴾ لقمان / ٣٣ فكان

---

(١) فجاءت اللام في سورة فاطر ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ﴾ الآية / ١٣ وفي سورة الزمر: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ ﴾ الآية / ٥.

المعنى كل يجري إلى ذلك الوقت وهو الوقت الذي تكور فيه الشمس وتنكدر فيه النجوم كما أخبر الله تعالى. وسائر المواضع التي ذكرت فيها اللام إنما هي في الإخبار عن ابتداء الخلق وهو قوله: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ الزمر/ ٥ – ٦ فالآيات التي تكتنفها في ذكر ابتداء خلق السموات والأرض وابتداء جري الكواكب ، وهي إذ ذاك تجري لبلوغ الغاية. وكذلك قوله في سورة فاطر إنما هو في ذكر النعم التي بدأ بها في البر والبحر إذ يقول: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ فاطر/١٢- ١٣ فاختص ما عند ذكر النهاية بحرفها واختص ما عند الإبتداء بالحرف الدال على العلة التي يقع الفعل من أجلها)[١].

أما الكرماني فقد علل ذلك بأن قوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ جائز في الزمان لأنها بمنزلة التاريخ فتقول لثلاث بقين من الشهر وأما آية لقمان فإنه يرى فيها موافقة لفظية فقبلها ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ لقمان / ٢٢[٢]. وعلل ابن الزبير ذلك بطول آية لقمان فناسبها الحرف (إلى) وأن الآيات الأخرى فيها الإيجاز فناسبها حرف الجر (اللام)[٣].

أما الزمخشري فإنه وافق الإسكافي وأساء القول على من قال : (اللام)

(١) درة التنزيل / ٢٥٧ – ٢٥٨.

(٢) ينظر البرهان / ٢٠٨.

(٣) ينظر: ملاك التأويل ٢ / ٩٤٣ – ٩٤٤.

(وإلى) تدلان على الانتهاء فقال: ((فان قلت : يجري لأجل مسمى) ، و(يجري إلى أجل مسمى) أهو من تعاقب الحرفين؟ قلت : كلا ، ولا يسلك هذه الطريقة إلا بليد الطبع ضيق العطن ، ولكن المعنيين – أعني الانتهاء والاختصاص – كل واحد منهما ملائم لصحة الغرض لأن قولك (يجري إلى أجل مسمى) معناه : يبلغه وينتهي إليه ، وقولك (يجري لأجل مسمى) تريد يجري لإدراك أجل مسمى تجعل الجري مختصاً بإدراك أجل مسمى ألا ترى أن جري الشمس مختص بآخر السنة وجري القمر مختص بآخر الشهر فكلا المعنيين غير ناب عن موضعه))(١).

وقد خالف الألوسي الزمخشري إذ قال : (وتعديته بالأول (بإلى) باعتبار كون المجرور غاية ، وبالثاني باللام باعتبار كونه غرضاً فتكون اللام لام تعليل أو عاقبة وجعلها الزمخشري للاختصاص، ولكل وجه، ولم يظهر لي وجه اختصاص هذا المقام (بإلى) وغيره باللام)(٢).

وأراد ابن عاشور أن يوفق بين ما قيل في الحرفين فأكد مراد الزمخشري ((الذي كان يبغي إلى تحقيق الفرق بين معاني الحروف، وهو ما نميل إليه إلا أننا لا نستطيع ن ننكر كثرة ورود اللام في مقام معنى الانتهاء كثرة جعلت استعارة حرف التخصيص لمعنى الانتهاء)(٣).

د. اللام والباء:

قال تعالى: ﴿ **قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ** ﴾ الأعراف / ١٢٣.

وقال تعالى: ﴿ **قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ** ﴾ طه / ٧١.

وقال تعالى: ﴿ **قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ**

(١) الكشاف / ٨٣٩ – ٨٤٠.

(٢) روح المعاني / ٢٢ / ٢٨١.

(٣) التحرير والتنوير ١١ / ١٠١.

﴿الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الشعراء / ٤٩.

يرى الإسكافي أن قوله تعالى : (آمنتم به) (وآمنتم له) واحد لكن مرجعية الضمير تختلف في كل منهما في الأعراف يرجع الضمير لرب العالمين وفي طه والشعراء يرجع لموسى عليه السلام. قال: ((إن الهاء) في (آمنتم به) غير الهاء التي في (آمنتم له): وكل واحدة تعود إلى غير ما تعود إليه الأخرى، فالأولى (آمنتم به) لرب العالمين لأنه تعالى حكى عنهم (قالوا آمنا برب العالمين) وهو الذي دعا إليه موسى عليه السلام، وأما الهاء في (آمنتم له) فلموسى عليه السلام والدليل على ذلك أنها جاءت في السورتين – يقصد طه والشعراء – وبعدها في كل واحدة منهما: (إنه لكبيركم الذي علمكم السحر) فالهاء في (إنه) هي التي في (آمنتم له) ولا خلاف أن هذه لموسى عليه السلام والذي جاء بعد قوله : (أمنتم به) قوله : (إن هذا لمكر مكرتموه..) أي إظهاركم ما أظهرتم من الإيمان برب العالمين ... ويجوز أن يكون الهاء في (آمنتم به) ضمير موسى عليه السلام لأنه يجوز أن يقال: آمن بالرسول ..... فأقتضى هذا الموضع الذي ذكر فيه المكر إنكار الإيمان به. فأما الإيمان له في الموضعين الآخرين فاللام تفيد معنى الإيمان من أجله ومن أجل ما أتى به من الآيات.. فذلك خص باللام والأول خص بالباء. وقد تدل اللام على الإتباع فيكون المعنى اتبعتموه، لأنه كبيركم في عمل السحر وقد يؤمن بالخبر من لا يعمل عليه ولا يتبع الدّاعي إليه)[1].

وقد وافقه على ذلك كل من الكرماني وابن جماعة والأنصاري وابن عاشور[2].

أما ابن الزبير فاختصر توجيه الإسكافي واستفاد منه فذكر أن لفظ الإيمان يدل على التصديق والانقياد فإذا عدي باللام دل على الإذعان وإذا عدي بالباء دل على التصديق فهو يقول: ((إن الباء في قوله (آمنتم به) واللام في (آمنتم له) محتاج

(١) درة التنزيل / ١٢٩ - ١٣٠.

(٢) ينظر البرهان / ١٨٠، وكشف المعاني / ١٠٧ وفتح الرحمن / ١١٥ والتحرير والتنوير ١٦ / ٢٦٣.

إلى كل واحدة منهما من حيث أن التصديق والانقياد يحتاج إليهما ، والباء تحرز التصديق واللام تحرز الانقياد والإذعان)[١].

أقول إن التحول من (الباء) إلى (اللام) عائد إلى موسى (عليه السلام) لأن فرعون أساساً لا يؤمن بآله أو برب سواه لأنه قال: ﴿ **فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ** ﴾ النازعات/٢٤، ولأنه كان يؤمن أن موسى ساحر لكن الاختلاف في حرفي الجر سببه اعتقاد فرعون أن موسى (عليه السلام) يدعي الربوبية كما كان يدعيها هو فالإيمان به لأنه على الأكثر التعدي بحرف الباء إذا بالله تعالى أو برسله أو بكتبه أو بآياته أو بالغيب أو بالآخرة أو بالساعة أو بالباطل وما عداها على الأغلب أن يتعدى الفعل آمن (باللام)، ولهذا جاءت آيات كثيرة ومن ذلك قال تعالى:﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ** ﴾ البقرة / ٨ وقال: ﴿ **وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ** ﴾ البقرة / ٢٥٨ وقال﴿ **يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ** ﴾ البقرة / ٣ وقال: ﴿ **أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ** ﴾ النحل / ٧٢.

ومن هنا ندرك أن معنى (آمنتم به) أي صدقتم بموسى واعتقدتم أنه إله لأن من معاني الباء الإلصاق والتعظيم والمصاحبة)[٢].

أما (آمنتم له) في الآيتين الأخريين فيها أن من معاني اللام التعليل فلأجل ما جاء به من السحر الذي غلبكم به أنقدتم له واتبعتموه من أجله.

هـ- على وإلى:

من المواضع التي وردت (على) مع (إلى) في سورة البقرة قوله تعالى ﴿ **قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ** ﴾ البقرة/١٣٦، وقوله من سورة آل عمران ﴿ **قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ**

---

(١) ملاك التأويل ١ / ٥٧٢.

(٢) معاني النحو ٣ / ١٩.

مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران/٨٤.

بين الإسكافي أن الحرف (إلى) في آية البقرة يدل على الانتهاء إلى الشيء من أي الجهات كان ذلك وبما أن الكتب المنزلة من عند الله منتهية إلى الأنبياء وأممهم، وأن أول الآية خطاب للأمة وهو قوله (قولوا) أما آية آل عمران فإن (على) تكون للفوقية، وهذا خاص بالأنبياء فهذه الكتب منزلة عليهم وحدهم، ولذلك جاء الخطاب في أول الآية بقوله : (قل) وهو خطاب لنبينا محمد (ﷺ) نقرأ ذلك في قوله: إن(على) موضوعة لكون الشيء فوق الشيء ومجيئه من علو فهو مختص من الجهات الست كلها بجهة واحدة ، و(إلى) المنتهي ويكون المنتهي من الجهات الست كلها ، فإن توجه نحو الشيء شيء من عن يمينه أو عن شماله أو قدامه أو من ورائه أو من فوقه أو من تحته فإنه إذا بلغه يقال فيه انتهى إليه فلا يتخصص (إلى) بجهة واحدة كما يتخصص (على) فقوله تعالى ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ اختيرت فيها (إلى) لأنها مصدرة بخطاب المسلمين ، فوجب أن يختار له (إلى) ثم جعل ما عطف عليه على لفظه بحق الإتباع وإن صح فيه معنى الانتهاء، فالمؤمنون لم ينزل الوحي في الحقيقة عليهم من السماء ، وإنما أنزل على الأنبياء ثم انتهى من عندهم إليهم ، فلما كان (قولوا) خطاباً لغير الأنبياء وكان لأممهم كان اختيار (إلى) أولى من اختيار (على) ولما كانت في سورة آل عمران قد صدرت الآية بما هو خطاب للنبي (ﷺ) وهو قوله: ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ كانت (على) أحق بهذا المكان، لأن الوحي أنزل عليه ....[1].

وقد وافق كل من الكرماني وابن الزبير وابن جماعة والأنصاري على هذا التوجيه[2].

ولكن الزمخشري لم يقبل هذا التوجيه ورده بقوله: (ومن قال إنما قيل (علينا) لقوله: (قل)، و(إلينا) لقوله : (قولوا) تفرقة بين الرسول والمؤمنين، لأن الرسول يأتيه الوحي على طريق الاستعلاء ويأتيهم على وجه الانتهاء فقد تعسف ، ألا ترى إلى قوله: ﴿ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ﴾ النساء / ١٦٦، ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ المائدة / ٤٨

---

(١) درة التنزيل ٢٧ – ٢٨.

(٢) ينظر البرهان / ١١٨، وملاك التأويل ١ / ٢٣٩، وكشف المعاني / ٦٥، وفتح الرحمن / ٣٢.

وإلى قوله: ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[١] آل عمران / ٧٢.

وقد رد النيسابوري على الزمخشري بقوله : (الإنصاف أن هذا القائل لم يدع أن هذه المناسبة يجب اعتبارها في كل موضع وإنما ادعى اعتبارها في الموضعين فيصلح حجة للتخصيص)[٢].

وقد فسر اختلاف حرفي الجر في الآيتين بتفسيرات سواء من حيث تغيير الحرفين مكان الآخر أو من حيث السياق في السورتين منها:

١- أن الإنزال على نبي الأمة (ﷺ) إنزال عليها من حيث كانوا هم المأمورين المنهيين في القرآن منهم المخاطبون بتكاليفه ولذلك صحت إضافة الإنزال إليهم[٣].

٢- عدي (أنزل) بحرف الانتهاء في سورة البقرة ، وفي سورة آل عمران بحرف الاستعلاء لوجود المعنيين جميعاً لأن الوحي نزل من فوق وينتهي إلى الرسول فجاء تارة بأحد المعنيين وأخرى بالآخر[٤].

٣- لما كان الخطاب للأمة في آية سورة البقرة بقوله تعالى: (قولوا)، وقد وصل إليهم بوساطة النبي (ﷺ) كان لفظ (إلى) المختص بالإيصال أولى. ولما كان الخطاب في سورة آل عمران للنبي (ﷺ) بقوله: (قل)، وكان واصلاً إليه من الملأ الأعلى بلا واسطة بشر كان لفظ (على) المختص بالعلو أولى.

٤- (أنزل عليه) إنما يحمل على مأ أمر المنزل عليه أن يبلغ غيره، و(أنزل إليه) على ما خص به نفسه وإليه نهاية الإنزال ولذلك قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ ﴾ العنكبوت / ٥١.

وقوله سبحانه: ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾. خص هنا (إلى) كما كان مخصوصاً بالذكر الذي هو بيان المنزل.

٥- عدي (أنزل) بـ (إلى) في آية البقرة ، لأن (إلى) للأنتهاء ، وهو لا

(١) تفسير الكشاف / ١٨٠.

(٢) تفسير غرائب القرآن /٢/٢٠٢.

(٣) المحرر الوجيز: ٢١٥/١.

(٤) ينظر: الكشاف / ١٨٠.

يخص بجهة والكتب منتهية إلى المؤمنين وعدي (أنزل) بـ (على) في آية آل عمران لأنه للاستعلاء وهو مختص بالأنبياء وأفضلهم نبينا وهو المخاطب فكان الأنسب في كل موضع ما ذكر فيه. ولو رجعنا إلى الأصل اللغوي للفعل يتبين لنا أن (نزل) بمعنى هبط من علو إلى سفل[١] وإذا تعدى الفعل بـ (على) دل على الاستعلاء وإذا جاء بعده (إلى) دل على الانتهاء هذا من جهة، ومن جهة أخرى إن السياق وأسباب النزول مقصود الخطاب لها تأثير مباشر في تغيير المعنى أو إضافة مدلول على المعنى الذي وضع له في أصل اللغة، ومع هذا إنّ أي تغيير يجرى على الفعل سواء من حيث التعدية بحرف أو تغيير بنية اللفظة يكون لحكمة بيانية وسر بلاغي ولا يمكن للسياق القرآني أن يغير أو يبدل حرفا مكان آخر وله المعنى نفسه بل يضاف إليه شيء آخر من حيث المدلول المناسب مع الآية التي قبلها أو بعدها.

٣- (حروف النفي)[٢]

النفي / أسلوب من أساليب اللغة العربية المقصود منه نقض فكرة أو إنكارها وهو ضد الإثبات وهو صريح وضمني، فالصريح ما ذكر فيه إحدى أدوات النفي والضمني ما لم تذكر فيه أداة النفي كالاستفهام المتضمن معنى **النفي** كقوله تعالى: ﴿**وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ**﴾ آل عمران / ١٣٥ أي لا يغفر: وكقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ**﴾ فصلت / ٢٣ أي لا أحسن قولاً.

أو الشرط المتضمن معنى النفي مثل (لولا الهواء لهلكت الأحياء) أما النفي الصريح فله أدوات وكلها حروف ما عدا (ليس) وهو فعل ماض جامد و(غير) اسم.

والذي يهمنا في هذه العجالة حروف النفي التي وردت في الآيات المتشابهة، فتغير حرف النفي فيها ينطوي تحته مقاصد ودلالات يرمي إليها القرآن.

١- (لا) (لن)

ومن مواضع هذا النوع من المتشابه ورود (لن) و(لا) في آيتين متشابهتين هما قوله تعالى: ﴿**وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ**﴾ البقرة / ٩٥

(١) عمدة الحفاظ/ ٣/١٦٣.

(٢) ينظر: معجم أدوات النفي / ٢٤٠.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الجمعة / ٧.

يعلل الإسكافي أن الدعوى في آية البقرة أبلغ وأعظم فقد زعموا أن الدار الآخرة لهم خالصة من دون الناس قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا ﴾. فالدعوى هنا كبيرة وعظيمة ولذلك أكد الله تعالى نفيه ذلك بـ (لن) لأنها أبلغ في النفي من (لا) فهي لنفي المستقبل لأنها في النفي نقيضة السين وسوف فإذا قلت (سأفعل أو سوف أفعل) كان نقيضه (لن أفعل) وهي آكد في نفي الاستقبال من (لا) ومن خواصها أنها تنفي ما قرب ولا يمتد فيها كامتداد معناها.

أما آية الجمعة فدعواهم دون الأولى فقد ادعوا ولاية الله لهم بقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا ﴾ وهنا لا يلزمهم الثواب بالجنة لأنهم أولياء لله لوحدهم أو أن الجنة خاصة بهم دون غيرهم فاقتصر النفي بـ (لا) أي أنهم ليسوا أولياء لله تعالى[١].

وقد تابع الإسكافي كل من الكرماني وابن جماعة والأنصاري[٢] وقال به الزمخشري والرازي وأبو حيان الاندلسي[٣] وكان تعليل ابن الزبير في الفرق بين الآيتين من حيث الزمن، فآية البقرة عنده جواب حكم أخروي مستقبل فناسبه النفي بما وضع من الحروف لنفي المستقبل لأن (لن يفعل) جواب سيفعل ولكن آية الجمعة جواب لادعائهم أنهم أولياء لله من دون الناس وذلك حكم دنيوي حالي لا استقبالي فناسبه النفي (بلا) التي لنفي ما يأتي وغيره[٤] ولكن السهيلي رد سبب الاختلاف إلى الدلالة الصوتية لكلا الحرفين من حيث تأثيرها في المعنى ، لأنه من خصوصيات (لن) أنها تنفي ما قرب ولا يمتد معنى النفي فيها كامتداده في الحرف

(١) ينظر: درة التنزيل / ١٩.

(٢) ينظر البرهان ٣١٢/ وكشف المعاني ٦٣ / وفتح الرحمن: ٢٨.

(٣) ينظر الكشاف ٨٧ / والتفسير الكبير ٦٠٦ / والبحر المحيط ٤٧٨ - ٤٧٩.

(٤) أنظر ملاك التأويل ١ / ٢٢٧ - ٢٢٨.

(لا) فهو يقول حرف (لا) لام بعدها (ألف) يمتد بها الصوت ما لم يقطعه تضييق النَّفَس، فآذان امتداد لفظها بامتداد معناها ، و(لن) بعكس ذلك فتأمله فإنه معنى لطيف وغرض شريف. ألا ترى كيف جاء في القرآن البديع نظمه الفائق على كل العلوم علمه (ولا يتمنونه أبداً) بحرف (لا) في الذي اقترن فيه حرف الشرط بالفعل فصار من صيغ العموم فانسحب على جميع الأزمنة وهو قوله عز وجل ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ ﴾، كأنه يقول: متى ما زعموا ذلك لوقت من الأوقات أو زمن من الأزمان، وقيل لهم تمنوا الموت، فلا يتمنونه، وحرف الشرط دل على هذا المعنى، وحرف (لا) في الجواب بإزاء صيغة العموم لاتساع معنى النفي فيها، وقال في سورة البقرة : ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾ فقصّر من سعة النفي وقرّب، لأن قبله في النظم: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ ﴾، وليست (إن) هنا مع كان من صيغ العموم، لأن كان ليست بدالة على الحدث وإنما هي داخلة على المبتدأ والخبر عبارة عن معنى في الزمان الذي كان فيه ذلك الحدث فكأنه يقول عز وجل فتمنوا الموت الآن ثم قال في الجواب: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ ﴾ فانتظم معنى الجواب بمعنى الخطاب في الآيتين جميعاً)[١].

وعلى الرغم من وجود اختلاف في تعليل كل من الإسكافي والسهيلي من حيث اختلاف وجهات نظرهما إلى الحرفين (لن) و(لا) أو إلى النظر في قيمة الشرط في الآيتين الكريمتين، فإن الإعجاز القرآني يبقى في غاية البيان وسمو المعاني ودقة الأسرار لأنها جميعاً تصب في قالب واحد وهو الكشف عن عجائب هذا الكتاب العظيم وما فيه من علو الأسلوب وسر نظمه ودقة أسراره البلاغية.

فنرى الإسكافي يرى أن (لن) آكد لذلك جاءت مع زعمهم أن الدار الآخرة لهم وهذه غايتهم التي لا غاية بعدها فجاء النفي بالحرف الآكد وهو (لن) وأما السهيلي فإن (لا) أوسع عنده من (لن) وذلك لاحتباس الصوت مع (لن) وأما (لا) فحرف يمتد به الصوت فآذن امتداد معناها.

وأمر آخر اختلف الإسكافي فيه عن السهيلي فالإسكافي نظر إلى الآيتين من

---

(١) ينظر: نتائج الفكر: ١٣١ / ١٣٢.

حيث قيمة الشرط وهو خلوص الدار الآخرة لهم دون غيرهم فهو الأمنية العظيمة والغاية الكبرى للوصول إلى هذا الأمر العظيم وهذا يكون بالحرف (لن)، الذي يفيد القطع. وتوجه السهيلي للدلالة اللغوية فقد رأى أن الشرط في آية البقرة وصل بكان الداخلة على المبتدأ والخبر وهذا يدل على أن دخول الشرط ليس على فعل دال على الحدث، لأن كان لا تدل على الحدث وبذلك صار المعنى محصوراً في الماضي بخلاف قوله: (إن زعمتم) في آية الجمعة لأن الشرط الداخل على الحدث يفيد العموم فالمعنى في أي وقت يكون لكم الزعم أنكم أولياء لله فتمنوا الموت وهذا العموم يناسبه (لا) النافية التي يتسع فيها معنى النفي.

ومن الممكن أن نستخلص من الحرفين الملاحظ البلاغية الآتية:

١- خلوص الدار الآخرة لهم دون غيرهم، يحتاج إلى (لن) لأن فيه الشدة والقطع كمطلبهم وعظيم غايتهم فبتر الله غايتهم بلفظة (لن) في سورة البقرة.

٢- لن فيها القصر والبتر في النفس ليوصل الجواب إليهم بأقل لفظ وأوجز عبارة، ولهذا جاء الفعل بعدها منصوباً محذوف النون.

٣- ولما زعموا أنهم أولياء لله وهذا المطلب دون المطلب في سورة الجمعة فناسبته (لا) لأنها أخف على اللسان وإن كانت أطول نطقاً لتتناسب مع كل الأزمنة لأن (لا) تتكون من حرفين اللام والألف. والألف فيها المد ولكن فيها الخفة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى إن الفعل يتمنون لم يحذف حرف النون منه ليدل على امتداد المعنى وكماله، لأن كلما زاد المبنى زاد المعنى. فضلاً عن ذلك أن الضمير العائد في الفعل (يتمنوه) و(يتمنونه) عائد إلى الموت في الآيتين. ولكن في سورة البقرة لا تمد الهاء ست حركات لأن الواو ساكنة قبل الهاء ليدل على القطع والبتر بشدة، في حين نرى أن الهاء تُمَدُّ في سورة الجمعة لتمتد إلى كل الأزمنة والدهور وذلك لأن قبل الهاء مفتوحة وجاءت الهمزة بعد الهاء فتمد فناسب أمتداد الألف مع امتداد الهاء لينضوي بينهما كل الدهور والأزمان في تمني نفي الموت عنهم فجاء كلٌّ في موضعه المناسب.

٢- (لا)، و(لم):

١- قال تعالى ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾ الرعد / ٤١.

وقال تعالى: ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ الأنبياء / ٤٤.

الآيتان في كفار مكة تنبيهاً لهم ليؤمنوا وذلك أن أرض الكفرة ينقصها الله من أطرافها لأن المسلمين يستولون على أطراف مكة ويأخذونها منهم قهراً وجبراً فانتقاص أحوال الكفرة وازدياد قوة المسلمين من أقوى العلامات على أن الله تعالى ينجز وعده[١].

والاستفهام فيهما استفهام استنكاري تعجيبي تقريعي وذلك لعدم اهتدائهم إلى الإيمان الحق مع وجود الأمارات في اقتران الوعد بالموعود استدلالاً على قربه بحصول إرهاصاته وعلاماته. والرؤية هنا تشمل الرؤية البصرية والرؤية العلمية، لأن النظر إلى نقصان أرض الكفر يدلهم على الرؤية بعقولهم فلو رأوا ببصائرهم لعلموا أنهم هم المغلوبون وأن المسلمين هم الغالبون واختيار الجملة الاسمية في قوله تعالى: ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (دون) الفعلية لدلالتها بتعريف جزأيها على القصر أي ما هم الغالبون بل المسلمون إذ لو كان المشركون الغالبين لما كان عددهم في تناقص ولما خلت بلدتهم من عدد كثير منهم[٢].

فالهمزة في الآية الأولى استفهام استنكاري و(الواو) حرف عطف و(لم) حرف نفي وجزم وكذلك الهمزة في الآية الثانية للاستفهام الإنكاري التقريعي والفاء عاطفة. ورد حرفا نفي في الآيتين المتشابهتين وهما (لم) في الآية الأولى و(لا) في الآية الثانية وكل منهما مسبوق بحرف عطف وحرف استفهام فلماذا هذا الاختلاف؟

يقول الدكتور عبد المجيد ياسين: (ولمعرفة ذلك والإجابة عليه بكل دقة لا بد من تحليل هذا المركب والنظر فيه ثم إعادة تركيبه، فالهمزة في المركبين للاستفهام ولها أكثر من معنى تؤديه في هذين المركبين.

المعنى الأول والأهم هو: النفي وهي هنا لنفي النفي، والتقرير والأمر والتعجب والتحذير وغير ذلك من المعاني.

الواو: للتزيين أو للتمهل أو للإجمال أو لعدم الترتيب أو للتكرار أو لعدم

---

(١) ينظر: التفسير الكبير ١٩ / ٥٣.

(٢) ينظر التحرير والتنوير ١٦ / ٧٧، تفسير غرائب القرآن ٤ / ١٦٦.

المباشرة بالخطاب أو لكل هذه المعاني مجتمعة.

الفاء: هنا للمباشرة أو للاستئناف أو للتعقيب أو لها كلها.

لم: (حرف نفي وجزم وقلب، تنفي الفعل المضارع وتجزمه وتقلبه إلى الماضي ولا تقيّد هذا الماضي بزمن من أزمنة الماضي)[١].

وأما (لا): فأقدم حروف النفي وتدخل على الأسماء والأفعال وتدخل على المضارع فلا تقيده بزمن، للحال أو الاستقبال أو الاستمرار أو لها كلها[٢].

والفعل المضارع إذا نفي نفيه يصبح أكثر الأزمنة مساحة واتساعاً واستمرارا وطولاً فهو يغطي الماضي كله، بعيده وقريبه والحاضر كله والمستقبل كله أو لم: نفي النفي وهذا أقوى أنواع الإثبات إذا جاء بصيغة الاستفهام التقريري الذي ليس فيه مجال للإنكار.

أفلا يرون: هنا نفي النفي (أيضاً) أي: إثبات والإثبات عن طريق النفي أو الإثبات المقلوب وهذه أوسع وأوسع مما لو قال: انظروا كيف نأتي الأرض مع التعجب لعدم نظرهم، والأفكار والأمر بالنظر والمباشرة به وتكراره مرة ثانية وثالثة. ثم اختيار القرآن للفعل المضارع (يرون) دون غيره من الأفعال كـ (ينظرون) مثلاً لأن رأى تأخذ معنيين كما تعلم رأى البصرية، والقلبية أو العقلية أو الذهنية وهذه دعوة وأمر للرؤية الظاهرة والباطنة للمشاهدة وللتفكر بما يشاهدون وإعمال للبصر والبصيرة[٣].

وأما الدكتور راشد أحمد فلم يعلل لماذا الاختلاف من حيث تحول حرف النفي (لم) في الآية الأولى إلى حرف النفي (لا) وإنما اعتبر الآية الأولى في السابقين والثانية في كفار قريش وعلق على حرفي العطف وأن كلا منهما جاء وفقاً للسياق قبله أو بعده من حيث تكرار حرف العطف قبل (أولم) بالواو وبعده وكذلك تكرار العطف بالفاء قبل (أفلا يرون)[٤].

---

(١) ينظر: المبنى والمعنى /٥٦٦.

(٢) ينظر: معاني النحو ٤ / ٥٧٤.

(٣) ينظر: المبنى والمعنى / ١١١ - ١١٢.

(٤) متشابهات آي القرآن الكريم دراسة نحوية دلالية مقارنة / ٢٢٤ - ٢٢٥.

أقول: إن الآيتين في كفار مكة[1] بدليل قوله تعالى قبل آية الرعد: ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ الرعد: ٤٠، إن الضمير (هم) عائد إلى كفار مكة والرسول (ﷺ) من بينهم لأن رؤية ما يعدهم الله تعالى لرسوله تقتضي أن يكون المخاطبون هم أهل مكة وليس السابقين.

وكذلك الآية الثانية حيث سبق أسم الإشارة (هؤلاء): ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ﴾ الأنبياء: ٤٤ فالضمير (الواو) يعود إلى اسم الإشارة (هؤلاء) وعلى (آباءهم) والمقصود هنا كفار مكة وآباؤهم والإبدال الذي حدث في حرفي النفي من (لم) في آية الرعد إلى (لا) في سورة الأنبياء يعود إلى ما يأتي:

١- إن بداية سورة الرعد جملة من الآيات الدالة على إنزال القرآن الكريم بالحق مثل رفع السموات بغير عمد، وتسخير الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى، ومد الأرض وجعل الرواسي فيها والأنهار، وإخراج زوجين اثنين من كل الثمرات وغشيان الليل النهار وما في الأرض من جنات فيها من الأعناب والزرع والنخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ورؤية البرق وتنشئة السحاب الثقال وإرسال الصواعق فيصيب بها من يشاء إلى غير ذلك من الآيات الدالة وما يرون من علامات تنبؤهم على صدق الكتاب المنزل على رسوله (ﷺ).

٢- وجود (لم) قبل الفعل (يروا) ليكون أسرع إلى الرؤية البصرية ومن ثم القلبية مما لو كان بدون جزم لأن التلفظ بـ (يروا) أقصر وأوجز من حيث النطق من (أفلا يرون).

٣- وجود لفظة (ترونها) في بداية السورة: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ الرعد /٢ فهم قد رأوا الآيات، ولذلك جاء الاستفهام الإنكاري المنفي للنفي ليكون إثبات ما رأوا أي أنهم قد رأوها وهذا أسلوب أقوى مما لو جاء الفعل (يروا) بدون نفي. وقد جاءت أداة الاستفهام مع أداة النفي (لم) لتقريعهم وتوبيخهم لأنهم قد رأوها بأبصارهم وبصائرهم كأنما المعنى قد لصق لهم مع النطق بلفظة مباشرة دون فارق زمني.

---

(١) ينظر الكشاف / ٦٧٩، ٦٤٣ - وينظر المحرر الوجيز / ١٠٤٤، ١٢٨٢.

٤- الآية تهديد ووعيد لهم من عدم الاستجابة للرسول (ﷺ) في قوله تعالى: ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ الرعد / ٤٠ لينسجم مع التهديد الضمني في الآية المتشابهة نفسها من نقصان أرض الكفر وأزدياد أرض الإسلام وأن الله هو الذي يحكم ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب. وكذلك التهديد والوعيد الذي يأتي بعد الآية مباشرة في قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ الرعد / ٤٢.

٥- وجود لفظة (سريع الحساب) لتتلاءم مع سرعة الرؤية في أولم يروا.

٦- أما الآية الثانية وإن سبقها عرض الآيات الدالة على وحدانية الله من فتق السموات والأرض وجعل الماء أصل كل شيء حي ووضع الرواسي في الأرض لاستقرارها ومن جعل السماء سقفاً محفوظاً ومن خلق الليل والنهار والشمس والقمر إلا أن الآيات التي فيها الجدال مع الكفار فيها الهدوء وطول النفس أكثر مما موجود في الآية الأولى وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ الأنبياء /٣ وقوله: ﴿ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ٤ وإلى غيرها من الآيات التي تدل على المطاولة في الخصام ولكن مع اللين فاحتاج إلى الحرف (لا) الذي فيه المد وطول النطق دون القطع أو البتر كما في (أولم) وكما في آخر الآية التي فيها اسم فاعل الدال على المستقبل (أفهم الغالبون) والتراخي بأنهم هم المغلوبون، وكذلك تكرار حرف العطف (الواو) قبل آية الرعد وتكرار حرف الفاء قبل آية الأنبياء ليكون التركيبان قد جاءا كل في موضعه المناسب من حيث السياق والمعنى معاً.

وقيل في تفسير نقصان الأرض: تخريب المعمور منها أو موت البشر أو موت العلماء والظاهر هو ما ذكر أولاً وهو ازدياد عدد المسلمين ونقصان الكفار فتزداد أرض الإسلام وتنقص أرض الكفار[1].

وللعلم الحديث رأي آخر وهو: أن كوكب الأرض ليس كروياً بصورة

(١) ينظر الكشاف/٥٤٣، وينظر المحرر الوجيز /١٠٤٤.

هندسية تامة بل يتفلطح سطحه عند القطبين فيبلغ قطره القطبي (٧٩٠٠) ميل وقطره الاستوائي (٧٩٢٨) ميلاً ويعتقد العلماء أن هذه الزيادة في طول القطر الاستوائي عن طول القطر القطبي ترجع إلى تأثير عمليات دوران الأرض حول نفسها في أثناء المراحل الأولى عند بداية نشوئها وأطراف الأرض تتمثل في ناحيتين:

القمم والهامات العليا للجبال وهي أطراف رأسية وهي تتناقص بفعل عوامل التعرية أطرافها عند القطبين.

تعمل الأمواج على تنظيم السواحل وتآكلها والانتقاص من أطراف اليابسة ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾.

حتٌّ ساحلي من الأرض اليابسة وترسيب مقابل في قاع المحيطات والمنخفضات تتوالى ضربات الأمواج بقوة تصل إلى (٣٠ طن / م٢) على صخور الساحل ملايين من المرات وعلى النقاط ذاتها فيتراجع الساحل وتنقص ساحة اليابسة عبر الآف السنين لحساب البحر(١).

والآيات القرآنية تخاطب أولي الأبصار وأولي العقول ذات الإدراك السليم للحقائق الكبرى في كتاب الكون المفتوح لترى كل صفحة آية موحية لعظمة تصميم بناء هذا الكون كل هذا في الوقت الذي كانت البشرية تتخبط في جهلها وأساطيرها(٢).

ولا نريد أن نقحم الآيات القرآنية مع النظريات العلمية إلا إذا تحولت هذه النظريات إلى حقائق علمية فحينئذ لا تتبدل هذه التفسيرات مع القرآن الكريم، ومع هذا فالآيتان في صدد ازدياد عدد المسلمين فتزداد مساحة أرضهم وتنتقص أرض الكفر ولا مانع من انتقاص الأرض من أطرافها نتيجة للتعرية أو للحتّ البحري في انتقاص اليابسة من أطرافها، ولكن يبقى القرآن كتاب هداية ونور وليس كتاب كيمياء أو فيزياء، وإن جاءت الحقائق العلمية مشيرة ومطابقة لما في هذه الآيات:

---

(١) ينظر الإعجاز العلمي في القرآن الكريم في ضوء الدراسات الجغرافية الفلكية والطبيعية للدكتور حسن أبو العين ١ / ١١٠.

(٢) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة / ٤٥٩ - ٤٦٠.

(إنْ وما):

قال تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴾ الأنعام / ٢٩

﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴾ المؤمنون / ٣٧

﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ الجاثية / ٢٤.

وردت (إنْ) في الآية الأولى والثانية، والاختلاف بين الآيتين الثانية ذكرت فيها جملة (نموت ونحيا) حذفت في الأولى. ووردت في الآية الثالثة (ما) عوضاً عن (إن) النافية.

فما سر الاختلاف من تبدل (إن) إلى (ما) وما الفرق في زيادة (نموت ونحيا) دون الآية الأولى.

الآية الأولى في كفار مكة بدليل قوله تعالى قبل هذه الآية: ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ ﴾ الأنعام / ٢٥ والآية الثالثة كذلك في كفار مكة[١] أما الآية الثانية ففي قوم عاد أو قوم ثمود ويرجح أن يكونوا قوم ثمود[٢] والآيات بعد هذه الآية جدال مع نبي الله هود أو صالح إلى أن قالوا: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا..... ﴾.

والدهرية فئة لا تؤمن بالبعث ولا بالحياة الآخرى ولذلك كانوا يعتقدون أنه ليس لهم إلا هذه الحياة، وأن الزمان هو الذي يهلكهم كقوم عاد وكذلك أهل مكة، والقومان أكدوا اعتقادهم بأنه لا حياة بعد هذه الحياة التي يحيونها وقصروا الكلام بالنفي وأداة الاستثناء قال الدكتور راشد أحمد: (فدخلت (ما) و(إن) على الضمير (هي) التي في معنى الحياة الدالة على الجنس فوازنتا (لا) التي تنفي الجنس والتقدير: ما الحياة إلا حياتنا الدنيا، وإن الحياة إلا حياتنا الدنيا فلم يكتفوا بالإخبار عن المحصور فيقولوا: هي حياتنا الدنيا بل جمعوا بين النفي والحصر والمعنى: لا حياة إلا هذه الحياة الدنيا. وليست كلمة (الدنيا) هنا صفة مبينة لما قبلها تزيل الاشتراك، لأنهم لا يقرون أصلاً بأن هناك حياة غيرها ولكنه وصف على سبيل

(١) المحرر الوجيز / ١٧٣.

(٢) الكشاف / ٧٠٧ وينظر التحرير والتنوير ١٨ / ٥٩.

التوكيد، إذ لا حياة عندهم إلا هذه الحياة ومضمون الآيات أنهم ينكرون الحشر والجزاء، وأسلوب الحصر يأتي رداً على أمر ينكره المخاطب ولا يقال ابتداء، فهو تأكيد وإثبات لكلام سابق ورد على منكر له. فالآية الأولى يحتمل أن تكون معطوفة على ما قبلها وهو قوله تعالى: ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ الأنعام / ٢٨ أي لعادوا لما نهوا عنه ولقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا ﴾ كما كانوا يقولون قبل معاينة القيامة. ويحتمل أن تكون معطوفة على ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾، والمعنى وأنهم لقوم كاذبون في كل شيء فهم الذين قالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا[1].

فهم ينكرون البعث، وأثبتوا إنكارهم بهذا الأسلوب لمن أنكر عليهم هذا الوهم ولذلك جاء قوله تعالى بعدها ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْأٓخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ الأنعام / ٣٢ بالأسلوب نفسه الذي أنكروا به. وأما الثانية فجاءت تأكيداً أو إثباتاً لنفيهم البعث حيث قالوا: ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ المؤمنون / ٣٦ فجاء الإثبات بالنفي والاستثناء تأكيداً لنفي النفي. ولما وصفوا في الآية الثالثة بأنهم في غاية الضلال، حيث اتخذوا أهواءهم آلهة وختم على أسماعهم وطبع على قلوبهم وأغشيت أبصارهم جاء قولهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا ﴾ موافقاً لما عليه طبائعهم. ثم تمادوا في إثبات حقيقة ما في نفوسهم: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ الجاثية / ٣٢.

وجاء النفي بـ (إن) في سورتي الأنعام والمؤمنون، موافقة لسياقها من النفي بها، ففي سورة الأنعام سبق قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ

(١) المتشابهات في آيات القرآن الكريم / ٢٢٦ - ٢٢٧.

أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ الأنعام / ٢٥.

وفي سورة المؤمنون قوله سبحانه بعدها: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ المؤمنون / ٣٨.

أما في سورة الجاثية فكان النفي بـ (ما) لقوله في الآية نفسها: ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ الجاثية / ٢٤ وقوله بعدها: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ الجاثية / ٢٥ فكل موضع ناسب ما ذكر فيه)[1].

يلاحظ أن آية الأنعام قبلها جدال حاد بين الرسول (ﷺ) وبين هؤلاء الذين أنكروا البعث والحساب: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ الأنعام / ٢٥: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾ / ٢٦ فلما كان الجدال عنيفاً ناسبه مجيء (إن) التي تفيد القطع والشدة في النفي ليقابل ما ينفون من حياة أخرى بعد الموت، هذا من جهة ومن جهة أخرى لما كان نفي الآخرة وعدم الإيمان بالبعث أمراً خطيراً ووزراً كبيراً فقد جاء نفيهم للآخرة بين آيتين عظيمتين في التهديد وشديدتين في الوعيد وهما قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ الأنعام / ٢٧ وقوله تعالى بعد آية نفي الآخرة: (ولو ترى إذ وقفوا على ربهم...) الأنعام / ٢٩ لأن (إن) تدل على النفي بقوة وشدة فناسب التهديد والوعيد قبل الآية وبعدها.

ولشدة نفيهم الآخرة كما دلت (إن) كانت نتيجتهم الخسارة ولذلك أقترنت الخسارة بتكذيب الآخرة ولقاء الله تعالى، فجاءت آية قبلها وآية بعدها هما، قوله تعالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الأنعام / ١٢ وقوله تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ﴾ الأنعام / ٣١.

وكذلك ما جاء في سورة المؤمنون حيث الجدال كان عنيفاً لقوله تعالى: ﴿مَا

(١) ينظر: المتشابهات في آي القرآن الكريم / ٢٢٦ - ٢٢٧.

﴿هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ٣٣ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ٣٤ أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ٣٥﴾ (المؤمنون: ٣٣-٣٥) وقوله تعالى في أبعاد البعث وتكرار لفظة (هيهات): (هيهات هيهات لما توعدون) دال على استنكار الحياة بعد الممات بقوة فكان من المناسب مجي حرف نفي تناسب قوته قوة نفيهم. ووجود لفظة (بُعْداً) في قوله تعالى (فبعداً للقوم الظالمين) بعد آية النفي بـ (إن) ووجود لفظة هيهات التي بمعنى بعد وقد حوصرت آية النفي بمعنى البعد أي أن لفظة (بُعْداً) تناسب هيهات التي قالها الكافرون وتناسب النفي الشديد بـ (إن).

وكذلك السياق الذي ورد في كلتا الآيتين من سورة الأنعام وسورة المؤمنون حيث جاءت (إن) قبل آية الأنعام في قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۚ ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ الأنعام / ٢٥ وكذلك سورة المؤمنون حيث جاءت (إن) قبل آية النفي في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا ﴾ وورود (أنّ) بالتشديد التي هي قريبة من (إن) في قوله تعالى: ﴿ أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ﴾ وجاء بعدها قوله تعالى: ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾.

فلكثرة ورود النون في هذه الآية مثل﴿ وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ / ٣٨ و﴿ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ ﴿ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴾ /٤٠.

وأما آية الجاثية فالآيات التي قبلها ليس فيها جدال وإنما توضيح من البارئ جل جلاله وعظمة أسماؤه إذ جعل الله تعالى لرسوله شريعة عليه إتباعها وينهاه عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون، وأنّ هؤلاء لا يغنون عنك شيئا من الله وأن هذا بصائر للناس وهدى ورحمة للمؤمنين ولا يتساوى المسيئون والمؤمنون سواء في حياتهم أو مماتهم. وأنه خلق السموات والأرض بالحق، والذي اتخذ إلهه هواه فهو ضال لا يهديهم أحد سوى الله فناسبت (ما) في قوله تعالى: ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا ﴾ كما في (ما) من المد ولما سبق من زيادة في التوضيح وليس في الآيات قوة الجدال فناسبتها (ما) التي فيها اللين كذلك ولهذا لم يؤكد الفعل (يجمعكم) بالنون

الثقيلة كما في آية الأنعام في قوله تعالى: (ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه) وليس فيها من التهديد والوعيد كما في آيتي الأنعام والمؤمنون ولذلك ناسب كل حرف في مكانه المناسب.

وأما زيادة (نموت ونحيا) في آيتي المؤمنون والجاثية وحذفها في الأنعام واختلاف النظر فيها فيعلل ذلك ابن الزبير بقوله: (إن آية الأنعام لم يرد فيما تقدمها زيادة على ما أخبروا به من حالهم في إنكارهم البعث، ألا ترى أن بنيت الآية على ما تقدمها من قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ ﴾ الأنعام/ ٢٧، فكأن قد قيل لهم: إنكم كنتم تنكرون البعث ووجود هذه الحياة الأخروية، ولم يرد أثناء هذا ما يستدعي زائداً. أما آية المؤمنين فترتب الوارد فيها من قولهم: (نموت ونحيا) على ما تقدم من دعاء الرسل إياهم، وقد ذكر الإمداد في دنياهم الحامل على عتوهم وقولهم في المرسل إليهم: ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ المؤمنون / ٣٣ فلما طال هذا الكلام بما أغروا به سفهاءهم ناسب هذا الطول ما زيد هنا من قوله (نموت ونحيا) أي طائفة تموت وطائفة توجد. وأما آية الجاثية فهي المفصحة بمرتكبهم من إنكارهم فاعلاً مختاراً حين قالوا: ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ الجاثية / ٢٤ فزادوا إلى إنكارهم البعث الأخروي إنكارهم توقف الموت على آجال محدودة للخلائق ووقوعه بإرادة وتقدير من الواحد سبحانه ثم أتبعوا شنيع مرتكبهم هذا بقولهم للرسل تحكيماً لإنكارهم البعث: ﴿ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ الجاثية / ٢٥ أي إن كنتم صادقين في إنا نُحيا وبعد الموت فأرونا دليلاً على ذلك بإحياء من مات من آبائنا وبما ورد هنا من هذه الزيادة حصل التعريف بجملة مقالهم الشنيع، واستوفته هذه الآية من لايتأتى في غير هذا مما يتكرر)[1].

وأما ابن جماعة فقال: (إن (قالوا) هنا عطف على قوله تعالى: (لعادوا) أي: لعادوا وقال، وفي غيرها حكاية عن قولهم في الحياة الدنيا)[2] والأنصاري جعل

---

(١) ملاك التأويل ١ / ٤٤٣ - ٤٤٤.

(٢) كشف المعاني / ٩٥.

الزيادة والحذف. في مواقف قالوها يوم القيامة ولم يقولوها في موقف حيث يقول: (قاله هنا بدون (نموت ونحيا) وفي المؤمنون والجاثية به لأنهم في القيامة قالوه بموقف ولم يقولوه بآخر فأشار إلى الأمرين بما ذكر)[١].

(١) فتح الرحمن / ٩٤.

الفصل الثاني

تحولات النظم القرآني في الأفعال

وردت في القرآن الكريم آيات أو مقاطع متشابهة لكنها تختلف فيما بينها من حيث الأفعال، فمثلا قد تأتي آية متشابهة فيها فعل يختلف عن الفعل الذي في الآية الأخرى أو في المقطع الآخر. فهل ان هذا التغيير من فعل إلى آخر جاء عبثا أم جاء تفننا في الكلام دون سر بياني أو حكمة بلاغية.

لماذا لم يستخدم كل من هذين الفعلين أحدهما مكان الآخر؟ وهل يغني ذلك عنه وإذا غيرنا فعلا مكان فعل له المعنى نفسه يختل السياق او يتبدل المعنى؟ أو لا يتبدل المعنى ولا يختل النظام؟ ولقد جاء في القرآن الكريم انواع الفعل فمرة جاء الفعل الماضي مع الماضي أو الماضي مع المضارع أو المضارع مع المضارع أو المضارع مع الماضي واخرى جاء الأمر مع الأمر وهكذا.. ولماذا؟ لا بدّ أن تكون هناك حكمة الهية في هذا التغيير، لأن كتابه ليس كبقية الكتب ولا من تأليف بشر وإنما الذي أنزله هو العليم الحكيم يعلم أين يضع الأفعال او الأسماء أو الحروف كلها لتعجيز الأنس والجن، لأن القرآن الكريم لا تنتهي عجائبه ولا يمل منه ولا يخلق على كثرة ترداده وتلاوته. ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ الإسراء/ ٨٨.

وإذا ما تيقنا أن وراء هذا التغيير بين الأفعال من فروق أو معانٍ اضافية أو مقاصد تختلف من آية إلى آية أو من مقطع إلى آخر فلا بد لنا أن نبحث فيها لنرى حقيقة ما نقول. ولقد تحرى علماؤنا الأجلاء في هذا الموضوع فكان لهم القدح المعلى في السبق إلى كشف الأسرار وتبيان العبر والحكم البلاغية من كتاب الله تعالى. هذا ما يتأكد لنا عند البحث في هذه الآيات المتشابهة ولنا ان نقسم الافعال

التي جاءت في الآيات المتشابهة إلى أقسام هي:-

١- الماضي مع الماضي

هناك آيات كثيرة متشابهة فيها الفعل الماضي في آية فيتغير إلى فعل ماض آخر في آية أخرى. أو ليس هذا التغيير من الأفعال فيه من دقة المعنى بحيث لا يمكن أن يحتل هذا الفعل مكان الاخر، لأنه حينئذ سيختل النظام ويخرج إلى معنى آخر غير ما يريده رب العالمين. واليك هذه الآيات لنلقي نظرة فاحصة فيها وليتبين لنا السر في هذا التحول.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ البقرة/١٧٠

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ﴾ لقمان/٢١.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ المائدة/١٠٤.

ان الآيات الثلاث هي من المتشابه اللفظي وهذا التشابه غير تام لتغير عبارات وألفاظ من آية إلى أخرى. وقد تغير الفعل (ما ألفينا) في سورة البقرة إلى: (ما وجدنا) في سورة المائدة ولقمان. فهل هناك فرق بين (مدلول) (ألفى) ومدلول (وجد)؟ يقول الإسكافي: (إن (ألفينا) يقصد بها بعض الوجوه التي يستعمل عليه (وجدنا) لأنه يقال: (وجدت الشيء فلا يحتاج إلى مفعول ثان إذا وجدته عن عدم. ولوجدان الضالة تقول: وجدت الضالة وتقول وجدت زيداً عاقلا فيكون الوجود متعلقا بالخبر الذي هو المفعول الثاني ولا بد له في هذا الوجه منه ولا يكتفي بالمفعول الأول وأما قولهم (ألفيت) فإنها مخصوصة بهذا الوجه من وجوه (أوجدت) لا يقال ألفيت درهما بمعنى وجدت درهما ولا ألفيت الضالة بمعنى وجدتها وإنما يقال: ألفيت زيدا عاقلا، وألفيته على الهدى وعلى الضلالة فكان في الموضع الأول استعمال اللفظ الأخص. وتأخير اللفظ المشترك إلى المكان الثاني

أولى)) [١]

أما الكرماني فقال: (قوله تعالى: ﴿مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ في هذه السورة يعني (البقرة) وفي المائدة وسورة لقمان (ما وجدنا) لأن ألفيت يتعدى إلى مفعولين تقول: ألفيت زيدا قائما وألفيت عمرا على كذا، ووجدت يتعدى مرة إلى مفعول واحد نقول: وجدت الضالة ومرة إلى المفعولين تقول: وجدت زيدا جالسا فهو مشترك فكان الموضع الأول باللفظ الأخص أولى لأن غيره إذا وقع موقعه في الثاني والثالث علم أنه بمعناه)[٢].

وأما ابن جماعة فإنه قال: اما (ألفينا) و(وجدنا) فمعناها واحد واختلاف لفظهما للتفنن في الفصاحة والاعجاز) [٣].

وأما الامام أبو يحيى الأنصاري فنقل رأي الكرماني: (وألفى خاص فكان الموضع الأول أنسب به) [٤].

والغرناطي أعاد ما ذكره صاحب الدرة ولكنه أضاف توجيها آخر إلى ما سبق فقال: (وأخرى هي أن ألفى أكثر حروفا من وجد فناسب لفظ (ألفى) طول آية البقرة وناسب لفظ وجد ايجاز آية لقمان مراعاة لفظية) [٥].

ولو دقّقنا النظر في معنى (ألفى) في المعاجم اللغوية وكتب التفسير لعلمنا ان ثمة فرقا بين (ألفى) و(وجد) يقال: (ألفيت الشيء /وجدته ويستعمل بمعنى الظن فينصب مفعولين قوله تعالى﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴾ الصافات/٦٩ أي (وجدوهم) [٦]. وقال أبو حيان: (يقال: ألفاه، ووارطه، وصادفه ووالطه ولاظه كله بمعنى واحد) [٧] وكذلك عند الراغب الأصفهاني بمعنى: وجد نقول: (ألفيت/وجدت). وألفى الشيء: وجده يقال: ألفيت ألفيه إلفاءً: إذا وجدته وصادفته

(١) درة التنزيل/ ٣١.
(٢) البرهان في متشابه القرآن/١٢٠.
(٣) كشف المعاني /٦٦.
(٤) فتح الرحمن/ ٣٦.
(٥) ملاك التاويل ١/٢٤٧.
(٦) عمدة الحفاظ /٤/٢٣.
(٧) البحر المحيط ٥/٢٩٦.

ولقيته)[1]. أما الزجاج فيقول: ألفينا: صادفنا)[2] ويقول صاحب نظم الدرر: (ما الفينا) أي وجدنا قال الحرالي: (من الالفاء وهو وجدان الامر على ما الفه المتبصر فيه او الناظر اليه)[3].

وأما وجد: بمعنى أدرك تقول: (وجد مطلوبه وجدا ووُجْدا وجِدَةً ووجودا ووجدانا أدركه ويقال وجد الضالة ووجد الشيء كذا علمه اياه. وأوجد فلانا أغناه وأوْجَدني بعد ضعف قواه وأوجد الشيء: جعله يجده ويظفر به وأوجد مطلوبه اظفر به)[4] ووجد بمعنى: أصاب قال الخليل بن أحمد الفراهيدي: (وجدت الشيء أي أصبته)[5].

و (وجد) تستعمل مرة متعدية لمفعول به واحد ومرة متعدية لمفعولين نقول وجدت الشيء و(وجدت زيدا عاقلا) ويلمح منها البحث والقصد والتحري[6].

ولها استعمالان نحويان كما بينا فالأول بمعنى الايجاد من العدم كما في (وجدت الدرهم) وتتعدى في هذه الحالة إلى مفعول واحد وهو ما يسمى وجدان الضالة. أما الاستعمال الثاني مثل: (وجدت زيداً عاقلا) وتتعدى في هذه الحالة إلى مفعولين وهي متعلقة بالمفعول الثاني الذي أصله خبر وتشترك مع (ألفى) في الوجه الثاني فقط ولذلك فهي أخص من (وجد).

نستنتج مما مضى أن لفظة (ألفى) أخص من لفظة (وجد) ولم تأت لفظة (ألفى) في القرآن الكريم الا ثلاث مرات هي:

قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴾ الصافات /٦٩

وقوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ﴾ يوسف/٢٥

(١) المفردات /٤٥٦.
(٢) معاني القرآن واعرابه: ١/٢٠٩.
(٣) نظم الدرر.
(٤) المعجم الوسيط ٢/١٠٢٤.
(٥) العين /١٩٢٦.
(٦) البكريات في توجيه مفردات الآيات /١٧.

وقوله: ﴿ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ البقرة/١٧٠

وأن لفظة (ألفى) تكون بمعنى (وجد) ولكن فيها التعايش مع الموجود كأن الرائي والمرئي أليفان، ولهذا نرى الآية الأولى فيها ﴿مَآ أَلْفَيْنَا﴾ لورود الآيات التي تتكلم على الأصنام وأن هؤلاء الكفار يحبونهم كحب الله أو أشد حبّاً. وهؤلاء لم يمعنوا النظر في الشرك نظرة دقيقة ولا التدبر نظرا لعدم استعمال ابائهم عقولهم فما اهتدوا إلى ذلك سبيلا، لأن الآية الكريمة تنفي العقل من ابائهم ضمنا. فهم اعتادوا على الشرك لإلفتهم الأصنام والحياة مع آبائهم فكأنما تعودوا على هذا الأمر من دون أن يستعملوا عقولهم في تمحيص الأشياء ومن ثم الوصول إلى الحقائق (قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [1] البقرة/١٦٥ ومن معانيها أدرك من دون قصد أي الرؤية كانت مصادفة من غير تمحيص ولا تدبير قبل هذه الآية ولذلك جاءت (ما ألفينا) هنا دون (ما وجدنا) وكذلك لورود لفظة (اتبعوا) مرات عديدة في سورة البقرة ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ..... وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ في حين لم ترد في سورة لقمان لفظة (اتبعوا) الا مرة واحدة قبل هذه الآية ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ لقمان / ٢٠.

ولم ترد في سورة المائدة قبل هذه الآية في سياق قريب ولذلك تحول الفعل إلى عبارة (تعالوا) في سورة المائدة.

ومجيء لفظة (ما ألفينا) متناسبة مع لفظة (لا يعقلون) لأن أصل العقل: الحبس يقال عقلت البعير عقلا: قيدته بما يحبسه عن الانبعاث وسمي عقل الإنسان لأنه يمنعه ويحبسه عن محذورات، والعقال ما يعقل به البعير والعقل الذي هو لب الإنسان يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم ثم يقال للمستفاد بتلك القوة عقل) [2].

قلنا ان لفظة (ما ألفينا) تتناسب مع (لا يعقلون) فلما لم ينظروا إلى الأمور على حقيقتها ونظروا إلى ظاهرها كانوا لا يعقلون.

---

(١) عمدة الحفاظ ٣/١٠٧.

(٢) م. ن: ٣/ ١٠٧.

وأما مجيء عبارة ﴿ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ﴾ في سورة المائدة لأنهم قالوا (حسبنا) أي أنهم اكتفوا بعد الحساب الدقيق، لأن كلمة (وجد) تدل على الرؤية القلبية هنا فلما بالغوا بالعلم وأنهم على نهايته بعد ما أمر الله عز وجل بأن يرفعوا أنفسهم من الحضيض بكلمة (تعالوا) التي تدل على العلو والسمو فقابلوا ذلك بالحسم وأنهم على علم تام ولذلك تغيرت لفظة (لا يعقلون) في سورة البقرة إلى (لا يعلمون) في سورة المائدة لأن العلم أعلى منزلة من العقل أي أنه قابل الأعلى بالأعلى والداني بالداني او الأعم بالأعم والأخص بالأخص والله أعلم.

وفي آية لقمان اشارة إلى أن الاباء كانوا ضالين فاتبعوا الشيطان اللعين وقد دعاهم وآباءهم إلى عذاب السعير.

- قال تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ ٦٠/البقرة.

وقال تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ١٦١/الأعراف.

وردت كلمة (انفجرت) في الآية الاولى، (انبجست) في الآية الثانية مع أن القصة واحدة فلم تحولت هذه اللفظة على الرغم من أن الكلمتين تعطي معنى الشق والسيلان منه. ولكن لم تأت كل لفظة في مكانها الا لوجود حكمة بلاغية ولسر بياني اقتضاها سياق كل آية منهما.

وهذا الكرماني له توجيه فيهما: (قوله (فانفجرت) وفي الأعراف (فانبجست) لأن الانفجار: انصباب الماء بكثرة والانبجاس: ظهور الماء وكان في هذه السورة ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ ﴾ فذكر بلفظ بليغ وفي الأعراف ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا

﴿رَزَقْنَٰكُمْ﴾ وليس فيه (واشربوا) فلم يبالغ فيه)(١). أي انه ميز بين اللفظتين: أن الانفجار انصباب الماء بكثرة والانبجاس أقل منه وأن الله تعالى ذكر (كلوا واشربوا) بالغ فيه ولم يبالغ في سورة الأعراف لأنه لم يذكر (واشربوا).

وأما ابن الزبير فقد ذكر سبب اختصاص كل لفظة في مكانها وذلك لأنه في سورة الأعراف طلب بنو إسرائيل من موسى (عليه السلام) الاستسقاء، أما في سورة البقرة طلب موسى وأن الانبجاس بمعنى ظهور الماء أولا ثم الانفجار ثانيا هكذا ليتناسب كل منهما المكان الذي فيه فلما طلب قومه ابتداء فناسبت لفظة (انبجاس) التي تدل على الابتداء، ولما كان طلب موسى بعد طلب بني إسرائيل ناسبت لفظة الانفجار). فهو يقول: (فانفجرت) و(فانبجست) مع أن المعنى واحد فمعنى الانبجاس الانفجار... ان الفعلين وان اجتمعا في المعنى فليسا على حد سواء بل الانبجاس ابتداء الانفجار والانفجار بعده غاية له قال القرطبي (الانبجاس أول الانفجار) (٢) وقال ابن عطية: (انبجست) انفجرت لكنه أخف من الانفجار(٣) وإذا تقرر هذا فأقول ان الواقع في الأعراف طلب بنو إسرائيل من موسى (عليه السلام) السقي قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ والوارد في البقرة طلب موسى (عليه السلام) من ربه قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ فطلبهم ابتداء فناسبه الابتداء وطلب موسى (عليه السلام) غاية لطلبهم لأنه واقع بعده ومرتب عليه فناسب الابتداء الابتداء والغاية الغاية فقيل جوابا لطلبهم (فانبجست) وقيل اجابة لطلبه (فانفجرت) وتناسب ذلك وجاء على ما يجب ولم يكن ليناسب العكس والله أعلم)(٤).

وأما ابن جماعة فإنه قال في توجيه الايتين: (قيل إن الانبجاس دون الانفجار وان الانفجار أبلغ في كثرة الماء فعلى هذا ان سياق ذكر نعمته اقتضى ذكر الانفجار

(١) البرهان في متشابه القرآن/١١٢.
(٢) ينظر: الجامع لاحكام القرآن /٤١٦.
(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٢/٧٧.
(٤) ملاك التأويل ١/٢١٢.

وناسبه وقيل هما بمعنى واحد فيكون من تنويع الألفاظ والفصاحة)[(١)].

وذكر أبو يحيى زكريا الأنصاري أن (انفجرت) ابلغ من (انبجست) وانه قد جمع بين الأكل والشرب في آية البقرة فناسب ذلك فهو يقول: (عبر بدله في الأعراف بقوله (فانبجست) والأول أبلغ لأنه انصباب الماء بكثرة والانبجاس ظهور الماء فناسب ذكر (الانفجار) هنا الجمع بين الأكل والشرب الذي هو أبلغ من الاقتصار على الأكل)[(٢)].

ان هذه التوجيهات كلها تتناسب مع الايتين الكريمتين وقد بينت الدقة في النظم القرآني وما فيه من سياق ينسجم مع هاتين اللفظتين كل في مكانها الناسب.

ولو رجعنا إلى أصل الكلمتين اللغوي لتبين لنا بصورة أوضح أن هذا الكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فكلمة (انفجرت) فيها من الفخامة ما تناسب النعم الكثيرة التي جاءت قبل هذه الآية من سورة البقرة فمن معاني (انفجر): ظهر وانفجر الماء: انبعث سائلا. والفجر ضوء الصباح وأصل الفجر: الشق ثم استعمل في المعاصي[(٣)].

فلما عدد الله نعمه على بني إسرائيل في سورة البقرة قبل هذه الآية من: النجاة من آل فرعون والنجاة من الغرق وإغراق آل فرعون، وعفو الله تعالى عنهم بعد عبادتهم العجل وقبول توبتهم، وإيتاء موسى التوراة، وبعثهم بعد موتهم وتظليل الغمام عليهم وإنزال المن والسلوى عليهم فأنعم عليهم بعد ذلك بالماء الكثير، فتناسبت لفظة (انفجرت) وهي لفظة فخمة مع هذه النعم الوفيرة. وكذلك لوجود الآية ﴿ **كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ** ﴾ قبل هذه الآية ولوجود ألفاظ أخرى بعد الآية وهي ﴿ **لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ** ﴾. (البقرة: ٦١).

وكذلك من معاني (الفجر) العطاء والكرم فاستعمل الله تعالى هذه اللفظة لأن

---

(١) كشف المعاني/٦٠.

(٢) فتح الرحمن /٢٥.

(٣) تاج العروس ٢ /٦٨١، المعجم الوسيط ١٣ /٣٠٤.

الماء الوفير كرم واسع من تعداد النعم الكثيرة على بني إسرائيل، فضلاً عن أن من معانيها فسق وكذب وعَصِيّ فلما كان علم الله تعالى لاحد له علم بعلمه الأزلي أن هؤلاء القوم سيفسقون ويكذبون ويعصون فاستعمل لفظة تدل على انفجار الماء الكثير وعلى الكرم والسعة تناسقاً مع الآلآء على بني إسرائيل ودالة بإيماء على فسق بني إسرائيل وعصيانهم لخالقهم.

وأما كلمة (انبجست) فيها من الرقة لأن الله لم يعدد نعمه عليهم قبل الآية وإنما بعد الآية ولكن بصورة موجزة فانسجم هذا الايجاز مع (انبجست) بدلالتها لأن الانبجاس معناه: الينبوع في العين خاصة[١].

وكذلك جاءت اللفظة (انبجست) لأن قوم موسى هم الذين طلبوا السقيا في هذه الآية فكانت مناسبة مع القوم وحالتهم الايمانية. فهم الذين طلبوا الماء فجاءت لفظة (انبجست) الدالة على ابتداء ظهور الماء، وأما لفظة (فانفجرت) في سورة البقرة فموسى (عليه السلام) هو الذي طلب السقيا لقومه من ربه فكان كرم الله له كثيرا وكبيرا فجاءت اللفظة بشدتها وضخامتها لتتناسب مع نبوة موسى وصلاحه. ولطلبه ثانيا فضلاً عن أن الانفجار يعقب الانبجاس.

وقال تعالى: ﴿ **وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ** ﴾ الزمر/٤٨

﴿ **وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ** ﴾ الجاثية/٣٣

﴿ **فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ** ﴾ النحل/٣٤

﴿ **فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ** ﴾ الزمر/٥١

في الآية الأولى تغيرت لفظة (**مَا كَسَبُوا**) من سورة الزمر إلى لفظة (**مَا عَمِلُوا**) في سورة الجاثية ليس اعتباطا وإنما لغرض بلاغي وقصد بياني، ولذلك نرى الإسكافي يعلل ذلك أن (**مَا كَسَبُوا**) في سورة الزمر قد جاءت بناءً على سياق الآيات التي قبلها والتي بعدها في تكرار لفظة تنسجم مع ما قبل الآية وما بعدها، وكذلك

(١) تاج العروس ٤٣٦/١٥.

الآية الثانية من سورة الجاثية والتي فيها لفظة (مَا عَمِلُوا) لأن قبل الآية وبعدها ذكرت لفظة العمل لتتناسب مع الآيات السابقة واللاحقة.

فهو يقول: (ان يسأل السائل عن اختصاص سورة الزمر بقوله (كسبوا) وسورة الجاثية (عملوا) وعن الفائدة في ذلك. الجواب أن يقال إنما جاء قوله (كسبوا) في هذه السورة بناء على ما وقع الخبر به عن الظالمين في الآية التي قبل هذه. حيث يقول:﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ الزمر/ ٢٤، ثم اعترضت آيات تؤكد ما على الظالمين من الوعيد وتقوي ما للمصدقين من الوعد إلى أن انتهت إلى ذكر هؤلاء الظالمين الذين قيل لهم: ﴿ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ. وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ فكان المعنى ولو أن للظالمين الذين تقدم ذكرهم (ما في الأرض) (ومثله لافتدوا به من سوء العذاب) ثم قال: (وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟) أي الجزاء على ما كسبوا من سيآتهم كما قيل لهم: (ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ) أي: جزاؤه ثم اتبعه ذكر الكسب في الآيات التي بعدها في قوله: ﴿ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ. فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾. وأما الآية في سورة الجاثية فالطريق في اختيار (عملوا) فيها كالطريق في اختيار (كسبوا) في سورة الزمر. لأن قبلها قوله تعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وبعده (انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وتبع ذلك قوله: ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (عملوا) فبني على ما سبق كما بني هناك (كسبوا) على ما تقدمه)[1].

---

(١) درة التنزيل /٢٧٨ - ٢٧٩.

وقد أخذ الكرماني هذا الرأي قال: (قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ من سورة الزمر وفي الجاثية (ما عملوا) لأن (ما كسبوا) في هذه السورة وقع بين ألفاظ الكسب وهو (ذوقوا) ما كنتم تكسبون) ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ وبعده ﴿مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ وما في الجاثية وقع بين ألفاظ العمل وهو: ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وبعده ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ فخصت كل سورة بما اقتضاه طرفاه)[١].

وهذا الرأي أيضا ذكره النيسابوري بقوله: (وإنما قال في الجاثية: (سيئات ما عملوا) لمناسبة ألفاظ العمل وههنا قد وقع من ألفاظ الكسب) [٢] أي في سورة الزمر.

وأما ابن الزبير فله الرأي نفسه اذ قال: (انه إنما وردت تتمة لما تقدمه من قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ الزمر/٤٧. فقوله: ﴿ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ يتناول ما قدموه من سيء أعمالهم غافلين عنه وناسين اياه كان مما قصدوه أنفسهم أو دون ذلك فقد حمل من هذا مع ما بعده ما تحصل من قوله: ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ وكان قوله مع ذلك: ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ كالتتمة المؤكدة ومتناولا ما قصدوه وأعملوا أنفسهم فيه حصل من مجموع ذلك المكتسب وغير المكتسب فلا فرق بين آية الزمر وآية الجاثية. ولو قيل في آية الزمر (ما عملوا) لكان تكرارا لأن ذلك حاصل ما قبلها ولو قيل في آية الجاثية (ما كسبوا) لما كان وافيا بما بينا من انه مقصود الكلام فتبين خصوص كل من الواردين بموضعه وأن عكس الوارد لا يمكن)[٣].

ولهذا الرأي اتجه الدكتور فاضل السامرائي[٤] اذ قال: (سبب اختيار لفظ

---

(١) البرهان في متشابه القرآن /٢٩ - ٣٠.

(٢) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٦/٩.

(٣) ملاك التأويل ٢/٩٩١.

(٤) ينظر: التعبير القرآني.

(العمل) في النحل والجاثية هو وقوع الايتين بين ألفاظ العمل وسبب اختيار لفظ (الكسب) في الزمر هو وقوع الايتين بين ألفاظ الكسب. فقد جاء في النحل قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ النحل /٢٨وقوله: وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ النحل /١١١وجاء في الجاثية قوله: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ الجاثية/ ٢٩ وقوله: (انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) الجاثية/ ٢٨ وقوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ الجاثية/ ٣٠ وقع لفظ الكسب في الزمر بين الفاظ الكسب وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴾ الزمر/ ٢٤ وقوله: ﴿ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴾ الزمر/ ٥١ فخصت كل سورة بما اقتضاه سياقها. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ان سورة الزمر هي أكثر سورة تردد فيها لفظ (الكسب) من بين هذه السور الثلاث فقد ترددت فيها هذه اللفظة خمس مرات[1] في حين لم ترد هذه اللفظة في سورة النحل البتة وأما في سورة الجاثية فقد وردت ثلاث مرات[2] فوضع كل لفظة في الموطن الذي يقتضيها.

وهؤلاء جميعا أرجعوا اختيار لفظ (العمل) في الجاثية والنحل إلى وقوع الايتين بين ألفاظ العمل واختيار لفظ (الكسب) في الزمر إلى وقوع الايتين بين ألفاظ الكسب. أي أنهم نظروا إلى السياق اللفظي ولم يتطرقوا إلى مدلول الكلمتين من (الكسب) و(العمل) فلا بد من أن يكون هناك فرق في الدلالة والا كيف يحول الله تعالى لفظة (ما كسبوا) إلى لفظة (ما عملوا) ولو رجعنا إلى معاجمنا اللغوية لتبين الفرق لنا.

فالعمل كل فعل يكون فيه بقصد من الإنسان أو من الحيوانات بغير قصد والعمل يستعمل في الأعمال الصالحة والسيئة[3].

أما (الكسب): ما يتحراه الإنسان فيه اجتلاب نفع وتحصيل حظ ككسب

(١) انظر الآيات ٢٤، ٤٨، ٥٠، ٥١ ومرتين.

(٢) انظر الآيات ٢٢،١٤،١٠.

(٣) ينظر المفردات في غريب القرآن /٣٥١.

المال، وقد يستعمل فيما يظن الإنسان أنه يجلب منفعة ثم استجلب به مضرة والكسب يقال فيما أخذه لنفسه ولغيره وقد استعمل في القرآن الكريم للصالحات وللسيئات[1].

فالعمل أوسع معنى وأشمل، في حين إن الكسب أخص من العمل ولذلك نرى أن الله تعالى استعمل لفظة (ما كسبوا)، لأن هؤلاء الكفار اجتهدوا وبذلوا أقصى ما عندهم لينتفعوا به فكان من المناسب أن يأتي هذا اللفظ مقابل التهويل والوعيد الشديد الذي وعدهم اياه قبل هذه الآية من سورة الزمر قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ** ﴾ الزمر/٤٧ أي أنهم احتسبوا حساب كل شيء ينفعهم، لأن في لفظة الاحتساب مبالغة في الحساب ولو أن لهم جميع ما في الأرض بل مثله لافتدوا به فانظر إلى هذا الهول العظيم أيضا إذن أرادوا أن يفدوا بأنفسهم للهول العظيم ولذلك جاءت هذه اللفظة لتناسب عظمة العذاب والهول لأنه كما قلنا ان لفظة (ما كسبوا) تدل على رغبة الاعمال والاجتهاد فيها لظنهم أنه خاص أفعالهم وأعظمها نفعا لهم. أما في الجاثية فلم يذكر قبل هذه الآية العذاب الشديد أو التهويل العظيم، وإنما كان الجدال والنقاش مثل قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ** ﴾ الجاثية/٣٢ ولهذا جاءت اللفظة (ما عملوا) لتناسب سياق الآيات التي قبلها.

أما لماذا الاختلاف بين (وبدا لهم) (وأصابهم) فإن لفظة (بدا) تعني ظهر فتقول بدا يبدو بدواً وبداء أي (ظهر ظهورا بينا)[2] (والصواب) بمعنى: السداد في القول والصواب، ضد الخطأ وهو يقال على وجهين أحدهما باعتبار الشيء في نفسه فيقال: هذا صواب إذا كان مرضيا محمودا بحسب مقتضى الشرع والعقل، والثاني

---

(١) ينظر المفردات /٤٣٣ عمدة الحفاظ ٣٩٦/٣.

(٢) عمدة الحفاظ ٣٥٧/١ والمفردات في غريب القرآن/٢٩١.

يقال باعتبار الفاعل إذا أدرك المقصود فيقال أصاب كذا أي: وجد ما طلب(1).

وحينما نمعن النظر في هذه الآيات نعلم لماذا غير الله عز وجل لفظة (بدا) أو أصاب من سورة إلى أخرى. وآية سورة الجاثية جاء فيها(وبدا لهم) لأن قبلها آية تتكلم عن الساعة وعن الوعد، وأن الكفار كانوا قد أنكروها، لأن على أعينهم غشاوة لا يبصرون بها، ولذلك كان من المناسب أن تأتي لفظة (بدا) لأن معناها مأخوذ من البادية التي لا حاجز فيها ولا حاجب عن الأعين فجاءت منسجمة مع ما خفي ولم يُر، وكذلك في سورة الزمر جاءت لفظة (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) وقبل هذه الآية (يوم القيامة) فلما كانوا عميانا أصبحوا الآن يرون الأشياء على حقيقتها بأعين، ومن ثم جاءت الآية الأخرى لتبدأ بـ (وبدا لهم) لتنسجم مع ما قبلها وتتناسق، وأما لفظة ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ ﴾ من سورة النحل لأن قبل الآية ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ فقد خرجوا عن الصواب وسلكوا طريق الخطأ عمدا فلا بد أن يوجه اليهم السهم، ومن المناسب أن يستعمل أصاب مع السهم لسداد الضرب فكانت اللفظة متناسبة مع ما قبلها في هذه السورة، وكذلك في سورة الزمر، لانحراف الإنسان المُنعَم عليه برد النعم إلى ذاته دون الله فتجاوز الحد وأخطأ الطريق فلا بدّ من تصويبه، فكانت اللفظة المناسبة في هذا المكان هي (فأصابهم)، ثم أعقبها سيصيبهم فكانت منسجمة مع ما قبلها وما بعدها والله أعلم.

٢- المضارع مع المضارع

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ البقرة/٤٩.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ ١٤١/ الأعراف

وردت في هاتين الايتين المتشابهتين أربع كلمات مختلفة وهي (نجيناكم، وأنجيناكم، يذبحون، يقتلون).

(١) م. ن: ٢/٣٥٧ . وينظر: المفردات في غريب القرآن: ٢٩١.

ان النجاة معناها: الخلاص من المكروه والنجاة لا تكون إلا من أذى ولا يقال لمن لاخوف عليه: نجا، لأنه لايكون ناجيا إلا مما يخاف[١] والنجوة: النجاة: المكان المرتفع المنفصل بارتفاعه عما حوله وقيل سمي لكونه ناجيا من السيل[٢] (ونجا الإنسان ينجو نجاة ونجاءً في السرعة وهو معنى الذهاب والانكشاف من المكان)[٣]، وأصل النجاء الانفصال عن الشيء ومنه نجا فلان وفلان[٤].

فالفعل (نجّا) على وزن فعّل (وأنجى) على وزن أفعل والفعلان بمعنى واحد ولكن على حد سواء لأنه إذا ضعف الفعل دل على المبالغة والكثرة وإذا زيد بالهمزة دل على التعدية والسلب.

ولقد وضح ابن الزبير معنى الصيغتين (نجينا، وأنجينا) فقال ان في سورة البقرة مقصود بها تعدد النعم على بني إسرائيل وتوالي الامتنان عليهم ليبين شنيع مرتكبهم في مقابلة ذلك الانعام بالكفر، فلما كان الموضع تعداد النعم والآلاء ذكرهم الله تعالى بها ليزدجروا ويَرْدعوا عن المخالفة والعناد، ناسبه التضعيف الوارد بعده في قوله (يذّبحون)[٥]. أما الامام الكرماني فإنه يرى أن اللفظين (نجينا، وأنجينا) بمعنى واحد (وقوله (يذبحّون) اثقل لتضعيفه) فإنه أخذ بقراءة التخفيف في (يقتلون) وهي قراءة نافع) ولكن بالتشديد يدل على الكثرة والمبالغة[٦].

أما الدكتور راشد أحمد فله رأي آخر[٧] وهو أن الفعل (أنجيناكم) يدل على تدرج النتيجة وتكررها مرة بعد مرة فكان فيه تفصيل لنجاة آبائهم أولا فالخطاب للموجودين المخاطبين ولكن المراد به من سلفهم من آبائهم فلما كانت نجاة الاباء سببا لنجاة هؤلاء المخاطبين عبر بقوله: (أنجيناكم) والذي أتصوره أنه في الفعل (نجى) وليس (انجينا) لأن (نجينا) يفيد التدرج أي مرة بعد مرة.

---

(١) ينظر الفروق اللغوية /٢٣٧.

(٢) ينظر المفردات /٤٨٦.

(٣) مقاييس اللغة /٩٧٨.

(٤) المفردات /٤٨٦.

(٥) ينظر ملاك التأويل ١٩٨/١ - ١٩٩.

(٦) ينظر البرهان/ ١٧٢.

(٧) ينظر: متشابهات آي القرآن دراسة دلالية نحوية / ١٥٩.

وأما الدكتور فاضل السامرائي فقد أضاف معنى آخر بقوله: (فإن الملاحظ أن القرآن الكريم الكريم كثيرا ما يستعمل (نجّى) للتلبث والتمهل في التنجية ويستعمل (أنجى) للإسراع فيها فإن (أنجى) أسرع من (نجّى) في التخلص من الشدة والكرب، فإنه لما كانت النجاة من البحر لم تستغرق وقتا طويلا ولا مكثا استعمل (أنجى) بخلاف البقاء مع آل فرعون فإنه استغرق وقتا طويلا ومكثا فاستعمل له (نجّى) ونحو قوله تعالى في سيدنا إبراهيم (عليه السلام): ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ العنكبوت /٢٤ فإنه لم يذق حرقها وإنما كانت بردا وسلاما عليه فاستعمل (أنجاه)[1].

وأقول ان الله سبحانه ذكر (أنجى) في سورة الأعراف بدلا من (نّجى) للأسباب الاتية:

١- إنّ بني إسرائيل هنا مع فرعون وآله فالآيات تتكلم عن قصة بني إسرائيل عندما كانوا في مصر مع فرعون مدة طويلة وذاقوا العنت والذلة منهم. ولكن زوال آل فرعون واغراقه بسرعة ناسبهُ التعبير بـ (أنجينا).

٢- قبل الآية لفظة البحر ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ ﴾ ١٣٨/ الأعراف. كما ذكر عز وجل في سورة البقرة لفظة (فأنجيناكم) بعد البحر مباشرة قال تعالى: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ البقرة/٥٠.

٣- وجود لفظة (وجاوزنا) بمعنى قطعنا التي تدل على الخفة والسرعة فكانت متناسبة مع لفظة (أنجى) لأن من معانيها: الاسراع[2] ولأن النجاة من البحر لا تستغرق وقتا طويلا.

٤- في الفعل (أنجى) معنى السلب أي أن الله تعالى سلب ملك فرعون بإغراقه وفي الوقت نفسه رحمكم لأنه أنقذكم من فرعون وقومه كيف؟ تقول: أنجيناها: أي أمطرناها[3]، لأن المطر رحمة كما قال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ

(١) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني /٥٧ – ٥٨.
(٢) لسان العرب /٣/٥٩١.
(٣) لسان العرب ٣/٥٩١.

ﱡﭐ... ٱلرِّيَـٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ ﱠ[1]، فكما أن المطر يرحم الناس به كذلك أنتم رحمتم والذي دلت عليها لفظة (أنجى) وهو أيضا على وزن (أفعل) الذي يدل على السلب[2].

٥- استعمل الله تعالى هذه اللفظة (أنجى) لأنها تدل على القطع نقول أنجيت الشجرة أي قطعتها من أصولها[3]، فكذلك قطعنا فرعون فأنجيناكم كما تقطع الشجرة من اصولها وكما نقطع الاذى عن الإنسان حين نقول استنجيت أي قطعت الأذى عن نفسي[4].

٦- ان في لفظة (أنجى) دلالة على الراحة وذلك لما تقول أنجيت الفرس أي: كشفت الجلّ عن ظهرهَ وذلك لأن الفرس ترتاح عندما يزال عنها الجل لأنها لا تجل الا إذا أراد صاحبها أن يركبها للعمل أو السفر، فنزع الجل يدل على الراحة كذلك أنتم قد ارتحتم من الهم والعذاب والتعب الذي أثقل ظهركم كما يثقل ظهر الفرس عند الركوب.

أما كلمة (نجّى) فهي على وزن (فعّل) التي تدل على المبالغة والتكثير[5] فلما ضعف الفعل (نجى) أي نجاكم مرة بعد مرة فليست النجاة مرة واحدة ولكن مرات لتناسب مع النعم الكثيرة التي ذكرها الله في سورة البقرة.

وكذلك يدل الفعل (نجّى) على السلب كالفعل (أنجى) لأنه على وزن فعّل[6] أي أن الله سبحانه سلب ملك فرعون بأغراقه ونجاتكم منه ضمنا لأنه يتعدى الفعل إلى المفعول دالا على السلب منه.

وكذلك يدل الفعل (نجّى) على العلو والسمو لأنه بأنقاذكم من فرعون فأصبحتم في مكان أعلى وموضع أسمى، لأن الفعل (نجّى) فيه معنى الارتفاع الذي

---

(١) لسان العرب ٣/٥٩١.

(٢) لسان العرب ٣/٥٩١.

(٣) لسان العرب: ٣/٥٩١.

(٤) شرح ابن عقيل ٢/٦٠١.

(٥) شرح ابن عقيل ٢/٦٠١.

(٦) شرح ابن عقيل ٢/٦٠١.

لا يصل اليه الماء نقول: نجّى فلان أرضه تنجيةً إذا كسيها مخافة الغرق(١).

ولهذه الأسباب وما لا نعلمها جيء بالفعل (مضعفا) في سورة البقرة وجيء بالفعل أنجى في سورة الأعراف والله اعلم.

وأما كلمة (يذبّحون) في سورة البقرة وكلمة (يقتّلون) في سورة الأعراف، فوجدت أصحاب كتب المتشابه اللفظي يتكلمون حول واو العطف في سورة إبراهيم في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ سورة إبراهيم/٦ هل ان آية ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ معطوفة على يسومونكم سوء العذاب وأن الذبح نوع آخر من العذاب؟ أم أن يذبحّون في سورة البقرة بدلاً من يسومونكم؟ فمثلا الإسكافي يرى أن قوله تعالى: (يذبحون) في آية البقرة بدلاً من قوله تعالى: (يَسُومُونَكُمْ)، فآية البقرة اخبار من الله تعالى بنجاة بني إسرائيل ولم ترد في السياق المحن التي أصابت بني إسرائيل فوقع الفصل، أما آية إبراهيم فقد تقدمها قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ ﴾ ٥/إبراهيم وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ فلما تقدم ذلك ناسب العطف بالواو فعطف (يذبحون) على سوء العذاب للدلالة على أنه نوع آخر من العذاب، وهذا يعني عدد الفتن والمصائب على بني إسرائيل ومن ثم تذكيرهم بنعم الله عليهم فالآيات من كلام موسى (عليه السلام) حيث أمر الله أن يعدد النعم عليهم فكان الوصل أنسب.

يقول الإسكافي: (القول في ذلك أنه جعل يذبحون بدلا من قوله ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ لم يحتج إلى الواو وإذا جعل ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ عبارة عن ضروب من المكروه هي غير ذبح الأبناء لم يكن الثاني إلا بالواو وفي الموضعين يحتمل الوجهين إلا أن الفائدة التي يجوز أن تكون خصصت لها الآية في سورة إبراهيم بالعطف بالواو هي أنها وقعت هنا في خبر قد ضمن خبرا

---

(١) لسان العرب ٥٩١/٣ وينظر: المعجم الوسيط ٩١٢/٢.

متعلقا به، لأنه قال قبله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾ (إبراهيم: ٥)، ثم قال: (واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم) فضمن اخباره عن ارسال موسى اخباره عن تنبيه قومه على نعمة الله ودعائهم إلى شكرها فكان قوله (ويذبحون) في هذه السورة في قصة مضمنة قصة يتعلق بها في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا ﴾ والقصة المعطوفة على مثلها تقوي معنى العطف فيها فنجتاز فيما كان يجوز فيه العطف على سبيل الايثار لا على سبيل الجواز، وليس كذلك موقع (يذبحون) في الآية التي في سورة البقرة لأنه تعالى أخبر عن نفسه بإنجائه بني إسرائيل وهناك أخبر عن موسى (عليه السلام) أنه قال لقومه كذا بعد أن أخبر عنه انه أرسله اليهم بآياته فافترق الموضعان من هذا الوجه)[1].

والرأي نفسه نراه عند ابن جماعة حيث يقول: (انه جعل (يذبحون) هنا بدلا من (يسومونكم) وخص الذبح بالذكر لعظم وقعه عند الأبوين ولأنه أشد على النفوس، وفي سورة إبراهيم تقدم قوله تعالى: ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾. فناسب العطف على سوء العذاب للدلالة على أنه نوع آخر كأنه قال يعذبونكم ويذبحونكم ففيه يعدد أنواع النعم التي أشير اليها بقوله تعالى: ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ ﴾ وقد يقال: آية البقرة والأعراف من كلام الله تعالى لهم فلم يعدد المحن وآية إبراهيم من كلام موسى فعددها وقوله تعالى: (يقتلون) هو من تنويع الألفاظ، ويحتمل أنه لما تعدد هنا ذكر النعم أبدل (يذبحون) من (يسومون) وفي إبراهيم عطفه ليحصل نوع من تعدد النعم ليناسب قوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾[2].

وكذلك الأنصاري وافقهما في الرأي بقوله: (فإن قلت: ما الحكمة في ترك العاطف هنا وذكره في سورة إبراهيم؟ قلت لأن ما هنا من كلام الله تعالى فوقع تفسيرا لما قبله وما هناك من كلام موسى (عليه السلام) وكان مأمورا بتعداد المحن قوله تعالى: ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ ﴾ فعدد المحن عليهم فناسب ذكر العاطف[3].

(١) درة التنزيل /٩ - ١٠. (٢) كشف المعاني /٥٨.

(٣) فتح الرحمن /٢٤.

أما الكرماني فله التوجيه نفسه فهو يقول: (قوله تعالى (يذبحون) بغير واو ها هنا على البدل من (يسومونكم) ومثله في الأعراف (يقتلون أبناءكم) وفي إبراهيم (ويذبحون) بالواو لأن ما في هذه السورة والأعراف من كلام الله تعالى فلم يرد تعداد المحن عليهم والذي في إبراهيم من كلام موسى فعدّ المحن عليهم وكان مأمورا بذلك في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾[1].

وأما ابن الزبير فله التوجيه نفسه عند الإسكافي ولكنه عبر عنه بأسلوب آخر قال: (ان هذه السورة مبنية على الإجمال والايجاز فيما تضمنه من قصص الرسل وغير ذلك ولم يقصد فيها بسط قصة كما ورد في غيرها مما بني على الاستيفاء..... وانه انضم في هذه السورة إلى قصد الايجاز تغليظ الوعيد فلبنائها على هذين الغرضين ورد فيها قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ فأشار قوله سبحانه ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ إلى جملة ما امتحنوا به من فرعون وآله... فلما وقعت الأشارة إلى هذه الجملة ممن كانوا يمتحنونهم جرد منها وعين بالذكر أشدها وأعظمها امتحانا فجيء به معطوفا لأنه مغاير لما تقدمه فقيل (ويذبحون) أما آية البقرة فتحمل على البدل وعلى الاستئناف وهو الأولى وكأنه قيل: وما ذاك فقيل يذبحون أبناءكم) [2] وقد تبنى هذا التوجيه الامام الفخر الرازي[3] والزركشي[4] والآلوسي[5] وأبو حيان[6] وابن عاشور[7] وكذلك الزمخشري[8] إلا أنه عدّ الذبح في البقرة تفسيرا للعذاب وبيانا له.

وعلى هذا يكون الوصل بين جعل الجملة الثانية مستقلة بنفسها فلما عطفت

---

(١) البرهان /١٠٨ - ١٠٩.

(٢) ملاك التأويل ٢٠١/١.

(٣) التفسير الكبير: ٦٧/١٩.

(٤) البرهان في علوم القرآن ١١٦/١.

(٥) روح المعاني ١٨٠/٧.

(٦) البحر المحيط: ٤٠٦/٥.

(٧) التحرير والتنوير: ١٩١/١٣ - ١٩٢.

(٨) الكشاف: ٣٦٨/٢.

على ما قبلها فغايرتها من أجل المبالغة في المصائب والمحن التي منّ الله على بني إسرائيل حين فرج عنهم، ومن أجل التنويه بهذه النعم حيث صارت من قبيل عطف الخاص على العام.

امّا الدكتور عبد المجيد ياسين فإنه قال: (والذي يظهر لي في هذه المسألة أن آية البقرة جاءت ضمن سياق حديث الله المباشر مع بني إسرائيل ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ٤٧/البقرة. أما آية الأعراف فجاءت ضمن سياق قصصي لأحداث مضت وانتهت وإنما يذكرها تسلية فناسب هذا والله أعلم.)[١].

ولو رجعنا إلى المعاجم اللغوية وإلى التفاسير التي تهتم بالجانب البياني لعلمنا أن هناك فرقا دقيقا بين الفعلين (يذبحون) و(يقتلون) نقول: ذبحه: قطع حلقومه. ذبّح: أكثر من الذبح[٢] وأصل الذبح شق حلق الحيوان فقوله تعالى: (يذبحون أبناءكم) على التكثير: أي بذبح بعضهم إثْرَ بعض)[٣].

والذبح معلوم. والقتل ضروبه مختلفة ولهذا منع الفقهاء عن الاجارة على قتل رجل قصاصا ولم يمنعوا من الاجارة على ذبح شاة، لأن القتل منه لا يدرى أيقتله بضربة أو ضربتين أو أكثر وليس كذلك الذبح)[٤].

وغالبا ما استعمل القرآن الكريم لفظة الذبح للحيوان والقتل للإنسان فقد وردت لفظة الذبح في القرآن تسع مرات، وخمس مرات منها للحيوان

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾ البقرة/ ٦٧. أمر بني إسرائيل بذبح بقرة.

وقال تعالى: ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾٧١/البقرة في ذبح بقرة بني إسرائيل.

قال تعالى ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ﴾ ٣/المائدة في تحريم الحيوانات التي

---

(١) المبنى والمعنى في الآيات المتشابهات /٦٧.

(٢) المعجم الوسيط ١/٣٠٨.

(٣) المفردات /١٨٣.

(٤) الفروق اللغوية /١٢٠.

تذبح للأصنام.

قال تعالى: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ ١٠٧/ الصافات في كبش اسماعيل (عليه السلام).

قال تعالى: ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ ﴾ ٢١/االنمل. في هدهد سليمان – عليه السلام.

وثلاث مرات في ذبح بني إسرائيل من فرعون. وهذه المرات الثلاث لأن بني إسرائيل يشتركون مع الحيوان في الركون والاستسلام دون أن يكون لهم حول ولا قوة وضربت عليهم الذلة والمسكنة.

ولـذلك استعمل الله عز وجل الذبح معهم فكأنهم أنعام يذبحون لأنهم فقدوا الكرامة كما فقدت الأنعام كرامتها ووردت مرة واحدة على لسان إبراهيم قال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ الصافات/ ١٠٢.

وما وردت لفظة القتل للإنسان في القرآن الكريم كما أسلفنا إلا مرتين في الحيوان ولكن للحيوان عندما يكون غير أليف. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ ﴾ لأنه لا يستسلم بسهولة كالإنسان.

ووردت كلمة (الذبح) ثلاث مرات في سورة البقرة وكلمة (قتل) ثلاث مرات في الأعراف، ولهذا نرى أن الله استعمل لفظة الذبح في سورة البقرة بعد هذه الآية مرة مع بني إسرائيل لتناسب هذه اللفظة مع ما ذكر من لفظة الذبح فيها إذ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ﴾البقرة / ٦٧، وقال: ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ البقرة: ٧١ والمرات الثلاث في بني إسرائيل (واتفقت كلمتهم على اعداد رجال معهم الشفار يطوفون في بني إسرائيل فلا يجدون مولودا ذكرا إلا ذبحوه) [1]. أما كلمة القتل فقد وردت في سورة الأعراف كما بينا سابقا والمرات الثلاث أيضا في بني إسرائيل وهي:

(١) تفسير غرائب القرآن ١/٢٨٣.

١- قال تعالى ﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ الأعراف /١٢٧ قال ذلك فرعون في قتل أبناء بني إسرائيل.

٢- قال تعالى: ﴿ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ الأعراف / ١٤١

٣- قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ﴾ الأعراف / ١٥٠. وهذه في بني إسرائيل لقتل (هارون) – عليه السلام.

ولهذا استعمل الله عز وجل هذه اللفظة أي (يقتلون) في سورة الأعراف فجاءت قبلها آية (سنقتل أبناءهم) على لسان فرعون وهي تدل على المبالغة وجاءت لفظة (وكادوا يقتلونني) بعد هذه الآية وكلها تدل على أن القتل في بني إسرائيل، ولذلك جاءت مضاعفة في الآية الكريمة التي نحن بصددها من سورة الأعراف بلفظة التضعيف لتناسبها مع ألفاظ القتل الواردة قبل الآية وبعدها من السورة نفسها، ولكونها كلها على بني إسرائيل ولأن القتل أعم من الذبح فهو تفويت الروح على جميع الوجوه) [1] ولأن لفظة قتل: تفيد: الموت والتمثيل بالجثة[2] ولأن القتل بمعنى: ازالة الروح عن الجسد كالموت بفعل المتولي لذلك، ولأن القتل يكون بآلة الضرب أو بالحجر أو بالسم[3].

المضارع مع المضارع:

قال تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ البقرة/١٨٧

وقال تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ البقرة/٢٢٩

هاتان آيتان متشابهتان تشابها غير تام. حيث اختلف فيهما الفعل المضارع المسبوق كل منهما بـ (لا) الناهية. لماذا هذا الاختلاف؟ مع أن الايتين في حدود الله عز وجل إذن فيهما حكمة لتبيان أحكامه الشرعية، فلا بد أن ننظر إلى ما قبل الايتين للتعرف على الأحكام الشرعية ومن ثم يتميز عندنا الفرق بين الفعلين ويتوقف هذا الفرق على الحكم الشرعي من حيث الاقتراب أو الاعتداء.

(١) المفردات /٣٩٤.

(٢) المعجم الوسيط /٣٠٨.

(٣) لسان العرب ١٨/٣.

وعلماؤنا الأجلاء ما قصّروا فيما أبدوه من آراء جليلة حول هذا الفرق وبين الايتين، فهذا الخطيب الإسكافي وضح لنا سراً من أسرار هذا الفرق بقوله: (للسائل أن يسأل فيقول كيف اختص الموضع الأول بقوله: (فلا تقربوها) والموضع الثاني بقوله: ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ﴾؟ الجواب أن يقال الأول خرج على أغلظ الوعيد كما قال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ البقرة /٣٥. وإنما كان نهيٌ عن أكلها لا الدنو منها، فخرج مخرج قول القائل إذا نهى عن الشيء وشدد الأمر فيه: لاتقرب هذا الشيء. وما أحسن ما قال النبي (صلى الله عليه وسلم) في المنع من مقاربة الحرام: (من يرتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه)[1] وكما يُروى عن بعض الصالحين اني لأحب أن يكشف الحاجز بيني وبين ما حرم الله، فلما كانت حالة هذا الموضع الأول نهيا: عن مواقعة النساء في حالة الاعتكاف في المساجد صار فيه تحذير من دواعي المواقعة فاقتضى من المبالغة ما لم يقتضه قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ﴾ فكأنه قال: لاتتجاوزوها يعني: المرأة إذا افتدت لمهرها وخالعت زوجها لم يكن عليها إثم، وهذه حدود نهى عن تعديتها والحدود ضربان: حدٌّ هو منعٌ من ارتكاب المحظور، وحد هو فاصل بين الحلال والحرام فالأول ينهى عن مقاربته، والثاني ينهى عن مجاوزته وهما المذكوران في هذه السورة وحد النهي عنهما والسلام)[2].

وأما الامام الكرماني فيبدي رأيه فيهما (وهو أن الأول نهي وهو قوله تعالى ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ﴾ وما كان من الحدود نهيا أمر يترك المقاربة، والحد الثاني أمر، وهو بيان عدد الطلاق بخلاف ما كان عليه العرب من المراجعة بعد الطلاق من غير عدد وما كان أمرا أمر بترك المجاوزة وهو الاعتداء)[3].

أما العلامة ابن الزبير فيعد النهي عن المقاربة من المحرم أشد فيه وأغلظ فهو يقول: (ان النهي عن مقاربة الشيء عنوان عن تأكيد التحريم وتغليظه ولما كان قرب النساء بالمباشرة بالأجساد وما يجري ذلك داعيا إلى المواقعة وقلّ من يملك في

---

(١) رواه البخاري ٣/٧٠، ومسند أحمد بن حنبل ٤/٢٧٠.

(٢) درة التنزيل /٣٦.

(٣) البرهان /١٢٣.

ذلك نفسه ويغلب هواه ولهذا قالت عائشة (رضي الله عنها) وأيكم يملك اربه)[(١)]، والمقصود منه في أمثال هذه المواطن إنما هو الجماع وهو مؤكد التحريم عما هو أقرب شيء وأدعاه إليه تحذيرا من مواقعته وتعريفا بتأكيد تحريمه اطراداً ذلك فيما يرجع اليه إلى نحو هذا كقوله تعالى في الحيض: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ البقرة /٢٢٢. وإنما المحرم الجماع، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ﴾ الإسراء/ ٣٢. ومن هذا منع الطيب للمحرم لأنه داع إلى الجماع ففي هذا الضرب وما يلحق مما يراد شدة تحريمه من مآل مرتكب محرم مؤكد التحريم يرد النهي عن المقاربة، وإذا نهي عن مقاربة محرم ما علم من ذلك تأكيد تحريم ذلك المحرم، فأما إذا قصد بيان عام وفارق بين ما يحل ويحرم فلا يقع النهي عن مقاربة إذا لم يقصد إلاّ فرقان حاجز بين ما يحل ويحرم ولم يقصد بيان حال محرم ما من شدة أو خفة فإنما النهي في مثل هذا عن تجاوز حد مضروب بين محرم ومحلل، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ﴾ البقرة/٢٢٩. إلى قوله: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ البقرة/٢٢٩ ثم قال: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾[(٢)].

وأما ابن جماعة فإنه قال: (ان الحدود في الأولى عبارة عن نفس المحرمات في الصيام والاعتكاف من الأكل والشرب والوطء والمباشرة مناسب (فلا تقربوها) والحدود في الثانية أوامر في أحكام الحل والحرمة في نكاح المشركات وأحكام الطلاق والعدة والايلاء والرجعة وحصر الطلاق في الثلاث والخلع فناسب (فلا تعتدوها) أي لا تعتدوا أحكام الله تعالى إلى غيرها مما لم يشرعه لكم فقفوا عندها، ولذلك قال بعده: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[(٣)]

والامام برهان الدين البقاعي يعلق على الآية الكريمة (وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) بقوله: (ولما قدم سبحانه وتعالى ذكر هذه المحرمات ضمن ما قدم في

---

(١) البخاري /الحيض ١١٨/٥.

(٢) ملاك التأويل ٢٥٩/١ - ٢٦٠.

(٣) كشف المعاني /٦٨.

الأحكام، أما في المناهي فصريحا وأما في الأوامر فلزوما وتقدم فيها، لأنه سبحانه وتعالى في الأرض محارمه نبه على تعظيمها وتأكيد تحريمها باستئناف قوله مشيرا بأداة البعد: (تلك) أي الأحكام البديعة النظام العالية المرام (حدود الله) وذكر الاسم الأعظم تاكيدا للتعظيم، وحقيقة الحد الحاجز بين الشيئين المتقابلين ليمنع من دخول أحدهما في الاخر، فأطلق هنا على الحكم تسمية للشيء باسم جزئه بدلالة التضمن وأعاد الضمير على مفهومه المطابق استخداما فقال: (فلا تقربوها) معبرا بالقربان لأنه في سياق الصوم والورع به اليق، لأن موضوعه فطام النفس عن الشهوات فهي نهي عن الشبهات من باب (من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه) فيدخل فيه مقدمات الجماع فالورع تركها[1]. ومن ثم تطرق إلى الآية الأخرى وهي ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ فقال: (من تعدى تلك الحدود أي: الأحكام العظيمة التي تولى الله بيانها من أحكام الطلاق والرجعة والخلع وغيرها (حدود الله) أي شرائع الملك الأعظم الذي له جميع العزة من الأوامر والنواهي التي بينها فصارت كالحدود المعروفة في الأراضي ولما كانت شرائع الله ملائمة للفطرة الأولى السليمة عن نوازع النقائض وجواذب الرذائل أشار ذلك سبحانه بصيغة الافتعال في قوله: (فلا تعتدوها) أي لا تتكلفوا مجاوزتها، وفيه أيضا اشارة إلى العفو عن المجاوزة من غير تعمد. ولما أكد الأمر تارة بالبيان وتارة بالنهي زاد في التأكيد بالتهديد فقال عاطفا على ما تقديره: فمن تعدى شيئا منها فقد ظلم)[2].

أما ابن عاشور فإنه علق على الآية (تلك حدود الله فلا تقربوها) بقوله: (تذييل بالتحذير من مخالفة ما شرع اليه من أحكام الصيام. والاخبار عنها بالحدود عيَّن أن المشار اليه بالتحديدات المشتمل عليها الكلام السابق وهي قوله: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ ﴾ وقوله (إلى الليل – وأنتم عاكفون) من كل ما فيه تحديد يفضي تجاوزه إلى معصية، فلا يخطر بالبال دخول أحكام الاباحة في الاشارة مثل (أحل لكم) ومثل (فالآن باشروهن). والحدود: الحواجز ونهآيات الأشياء التي إذا تجاوزها المرء دخل في شيء آخر وشبهت الأحكام بالحدود لأن تجاوزها يخرج

---

(١) نظم الدرر /١/٣٥٧.

(٢) نظم الدرر، ١/٤٣٢.

من حل إلى منع)[١]

ثم شرح الآية الثانية ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ بقوله: (وحدود الله استعارة للأوامر والنواهي الشرعية بقرينة الاشارة شبهت بالحدود التي هي الفواصل المجعولة بين أملاك الناس لأن الأحكام الشرعية تفصل بين الحلال والحرام والحق والباطل)[٢]

أما الامام الفخر الرازي فلا يكاد أن يخرج عن الآراء السابقة قال: (والأمور المتقدمة بعضها اباحة وبعضها حضر فكيف قال في الكل (فلا تقربوها) والثاني انه تعالى قال في آية أخرى ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ وقال في آية المواريث ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾ النساء/١٤ وقال ها هنا (فلا تقربوها) فكيف الجمع بينهما؟ إن من كان في طاعة الله والعمل بشرائعه فهو متصرف في حيز الحق، فنهى أن يتعداه لأن من تعداه وقع في حيز الضلال ثم بولغ في ذلك فنهى أن يقرب الحد الذي هو الحاجز بين الحق والباطل، لئلا يداني الباطل وأن يكون بعيدا عن الطرف فضلا عن أن يتخطاه[٣].

أقول لو رجعنا إلى المعاجم اللغوية والمصطلحات الشرعية لعلمنا الفرق الدقيق بين الفعلين (فلا تقربوها)، (فلا تعتدوها). فكلمة المباشرة في كتاب الله (لا تباشروهن) بمعنى الافضاء بالبشرتين وكني به عن الجماع[٤] وبشرت الأديم: أخذتُ بشرتَه، البشارة الخبر السّار ولا يقع في شر إلا على سبيل التهكم كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وقيل يستعمل في الخير والشر لأن البشارة عن خبر يتغير له البشر وذلك يكون في الشر كما يكون في الخير. قال الراغب[٥] بين هذه الألفاظ فروق فَبَشَرْتُه عام وأبْشَرَتْه نحو أحمدته وبشَّرته على التكثير. وتباشير الصبح اوله وتباشير الوجه ما يبدو من سروره وتباشير النخل ما يبدو من رطبه. قال

(١) التحرير والتنوير ٢/١٨٦.

(٢) م.ن ٢/٤١٣.

(٣) التفسير الكبير ٢/٢٧٨.

(٤) عمدة الحفاظ ١/١٩٤.

(٥) المفردات /٥٨.

الفراء إذا ثقل فمن البشرى وإذا خفف فمن السرور[١]. نستنتج من معاني لفظة (بشر) ان المباشرة تعني الكناية عن المواقعة أو مقدمات المواقعة. أما الفعل (فلا تقربوها) والقرب والبعد يتقابلان فتقول قربت منه أقرب قربا وقربته أقربه قربانا وقربا ويستعمل في الزمان نحو قوله تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ ﴾ القمر/١. وفي المكان ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ البقرة/٣٥. والنسبة ولو كان ذا قربى والحظوة والمنزلة كقوله تعالى: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ المطففين/٥٨ والرعاية ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ البقرة/١٨٦. والقدرة كقوله تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ ق/ ١٦. والتقريب ضرب من السير سمي بذلك لقربه من العدو. وأقربوا أبلهم ادنوها من الماء. والمُقْرب/ الحامل[٢]. أما الفعل (فلا تعتدوها) يقال عدا يعدو عدوا وعدواناً: إذا تجاوز ما حُدّ له. وأصل العَدْو: التجاوز وعدم الالتئام فتارة يعتبر بالقلب فيقال: العداوة والمعاداة ومرة بالمشي فيقال له: العدْو وتارة إخلال بالعدالة فيقال له: العدوان والعدو، ومرة بأجزاء المقرّ فيقال له: العدواء وأصله الأرض الغليظة يقال له العدواء. فالاعتداء. مجاوزة الحد والظلم والعدوة: هي الجانب كقوله تعالى: ﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ الأنفال/٤٢ كأنه متجاوز للقرب. ونهى الله العين عن التجاوز كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ الكهف/٢٨ وفي الأصل أي نهى صاحبها في المعنى[٣].

فإذا علمنا أن القرب والبعد متقابلان وان التقرب إلى الله يكون بأداء الفرائض ويكون بأداء النوافل وبامتثال أوامره واجتناب نواهيه وكما قال الله تعالى في الحديث القدسي: (ولن يتقرب الي بمثل أداء ما افترضت وانه ليقترب الي بعد ذلك بالنوافل حتى أحبه)[٤].

فإذا كانت العبادة هي التقرب إلى الله بالفرائض وبالنوافل فكذلك تكون بالابتعاد عن النواهي والمحظورات فلو كان الأمر متعلقا بالأحكام الشرعية من

---

(١) معاني القرآن.

(٢) ينظر/عمدة الحفاظ ٣/٢٨٩ - ٢٩٠.

(٣) ينظر عمدة الحفاظ ٣/ ٣٩ - ٤٠.

(٤) البخاري/ الرقاق /٣٨ وفي باب التواضع برقم ٦١٣٧.

الأكل والشرب والمواقعة لاستعمل لفظة (ولا تعتدوها)، لأن هذا واضح لمخالفتها الأحكام القطعية التي وردت سواء في آية الصيام حيث الأكل والشرب والجماع في الليل وتحريمها في نهار رمضان والمباشرة حين الاعتكاف في المساجد أم في تحريم التزاوج بين المسلمين والمشركات أو أحكام الحيض أو أحكام الطلاق والرجعة والخلع في الآية الثانية. ولكن الاختلاف كان فيما أبيح في غير الصيام كالذي يفضي إلى ارتكاب محظور سواء كان في الجماع أم غيره، ولذلك نرى المضمضة العميقة منهياً عنها في أثناء الصيام سواء كانت نهي تحريم أم نهي تنزيه كما قال الفقهاء[1]، فلو كان الأمر جزما لاستعمل لفظة (فلا تعتدوها) ومن ثم ناسبت هذه اللفظة ما قبلها من سياق الآيات لأنه في القاعدة الأصولية (ما أدّى إلى الحرام فهو حرام) هذه من جهة، ومن جهة أخرى فإذا كان التقريب: نوعاً من السير لقربهِ من العدو فالعدو والتقريب نوعان من أنواع الجري، فكذلك هنا في آية الصيام نوعان من الأحكام لا يجوز الاقتراب منها أو تجاوزها سواء كان في نهار الصوم أم مكان الاعتكاف لدلالة اللفظة على أنها بعدم التقرب منها تكونون من المقربين كقوله تعالى ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ المطففين /٢٨.

والتعبير هنا أشد تحريما وأغلظ فإذا كان التقرب من المحظور منهياً عنه فكيف بارتكابه؟ ولهذا استعمل الله عز وجل عبارة (فلا تعتدوها) حينما كانت الأحكام الشرعية واضحة ومعروفة فهي على صيغة افتعل التي دلت على الكثرة وشدة التجاوز وكذلك لوجود لفظة الرفث إلى النساء التي حدد لها الوقت وهو ليلة الصيام ولوجود لفظة (يتقون) التي تدل على التخلص من الشبهات أو المباحات المنهية في الصيام، لأن الحسنة تتضاعف في بعض الأزمنة والامكنة كمضاعفة الأجر في رمضان وفي بيت الله الحرام ومسجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) والمسجد الأقصى والمساجد العامة دون غيرها، وكذلك السيئة يختلف وزرها من نبي أو ولي أو عالم أو جاهل وفي الأوقات المقدسة أو الأمكنة المقدسة كما بينتها الشريعة الغراء. ولهذا جاءت كل لفظة في مكانها المناسب من الايتين. وفي الايتين استعارة حيث شبه الأحكام بفواصل الأرض (الحدود). إذ حذف المشبه وأبقى

---

(١) ينظر: الفقه الإسلامي وأدلته ٣/٦٩١.

المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية وذلك لتجسيد المعاني العقلية بالأمور الحسية لأنها أشد تأثيرا في المخاطب.

٣- الأمر مع الأمر

قال تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ الأعراف /١١١

قال تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ الشعراء /٣٦

في هاتين الايتين جاء فعلا أمر أحدهما (وأرسل) والاخر (وأبعث) مع أن الايتين متشابهتان في الألفاظ والعبارات وفي قصة واحدة وهي: الحوار الذي دار بين فرعون وملئه في كيفية الخلاص من موسى وما معه من معجزات باهرة أخذت لب فرعون وأفقدته الصواب حتى أنه نسي ما كان يدعيه (أنا ربكم الأعلى) ونسي ما كان له من جبروت وطغيان. فما السر من هذا التحول للفعل (وأرسل) في سورة الأعراف إلى (وابعث) في سورة الشعراء؟

وقد فسر لنا علماؤنا السابقون السر في هذا الاختلاف ومنهم الخطيب الإسكافي إذ علّق على اللفظتين بقوله: (اللفظتان نظيرتان تستعمل احداهما مكان الاخرى وقد جاء بعث الرسول وارساله معا، الا أن أرسل يختص ما لا يختص به (بعث) لأن البعث لا يتضمن ترتيبا وإلارسال أصله تنفيذ من فوق إلى أسفل، وأرسل في سورة الأعراف حكاية قول العامة للملأ المؤدين كلام فرعون اليهم، فلما تعالى عليهم ولم يخاطبهم بنفسه كان قولهم في جواب ما استأمرهم فيه واستشارهم في فعله على الترتيب الذي رتب لهم في الخطاب فكانت الحكاية باللفظ الذي يفخم به المخاطب كما فخم في تحميله ملئه أن يؤدوا كلامه إلى من دونهم، ولما تناول الحكاية في سورة الشعراء ما تولاه فرعون بنفسه من مخاطبة قومه بإسقاط الحجاب بينهم وبينه وتسوية قدرهم بقدره لقوله: (قال للملأ حوله) كان هذا الموضع مخالفا للموضع الأول في مقتضى الحال من التفخيم فخص باللفظ الذي ليس فيه ما في الأول من التعظيم وهو قوله ابعث)[1].

أما الكرماني فقد أخذ برأي الإسكافي وتوجيهه ولكن بأسلوب آخر، قال: (لأن الإرسال يفيد معنى البعث ويتضمن نوعا من العلو لأنه يكون من نوع فخصت

(١) درة التنزيل /١٢٥ - ١٢٦.

هذه السورة به لما التبس ليُعلم أن المخاطب به فرعون دون غيره)[١].

وابن الزبير وجه اللفظتين بتوجيه آخر هو أن الارسال فيه توجيه فيه معنى الانتقال حقيقة أو مجازا. وبعث فإنه أوسع يقع بمعنى الارسال وبمعنى الاحياء ومنه البعث الأخروي ولهذا جاء الارسال أولاً في الآية الأولى لأنه أخص ثم جاء البعث في الثانية ليكون تنويعا للعبارة وعلى الترتيب في موضع اللفظ المطرد في القرآن)[٢].

وأما ابن جماعة فأوعز الاختلاف إلى التفنن في الكلام وأن (أرسل) أكثر تفخيما من (ابعث) وأعلى رتبة لاشعاره بالفوقية، ففي الأعراف حكى قول الملأ لفرعون فناسب خطابهم به بما هو أعظم رتبة تفخيما له، وفي الشعراء صدر الكلام بانه هو القائل لهم فناسب تنازله معهم ومشاورته لهم[٣].

وأما الإمام أبو يحيى الأنصاري: فإنه جعل التحول من (أرسل) إلى (ابعث) للتكثير في التعبير عن المراد بلفظين متساويين معنى)[٤].

وأما الدكتور عبد المجيد ياسين فإنه لم يقتنع بما كان لدى هؤلاء العلماء من توجيهات وآراء حول هذا التحول إذ قال: والذي أراه أن اللفظتين ليستا نظيرتين وليس فيها فوقية وتحتية وعامة وخاصة واسقاط حجاب وليست القضية تنويع بالعبارات ولا ترتيب مطرد كما يقرر الغرناطي ويجعله قاعدة ثابتة في القرآن الكريم)[٥] بل يرى أمرين وهما:-

١- التعريف الدقيق لـ (أرسل) و(أبعث) فالارسال كما مرّ الاسترسال بالسير والانبعاث على التؤدة وإلى جهة معينة اما برسالة أو برسول ويدل على الكثرة بالرسل والكثرة بالمرسل اليهم والارسال قد يقتضي التبليغ ولا يقتضي المكث ليبلغ رسالته ويعود ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ المائدة/٩٩. والبعث: اثارة الشيء وتوجيهه فالمبعوث مهمته أوسع وصلاحيته أكبر وعمله أكثر من الرسول فهو

(١) البرهان في متشابه القرآن /١٧٨.

(٢) ينظر ملاك التأويل ١/٥٦٥.

(٣) ينظر: كشف المعاني /١٠٩.

(٤) ينظر فتح الرحمن /١١٥.

(٥) المعنى والمبنى في الآيات المتشابهات: ٩.

يطوف بالبلاد يستحث السحرة ويستثيرهم ويبحث عن السحرة الماهرين ويختبرهم وينتقيهم ويحضرهم معه والبعث قد يقتضي المكث قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ الجمعة/٢

٢- ما جاء بعد (أرسل) قوله تعالى: ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ فساحر اسم فاعل وهذا يدل على أنه سيأتيك كل من كانت مهنته السحر صغيرا كان أم كبيرا بارعاً أم غير بارع، وما جاء بعد (ابعث) قوله تعالى: ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ فسحار على وزن فعال وهو من مبالغات اسم الفاعل أي يأتوك بالبارعين من السحرة كثيري السحر والمتعمقين به أي يأتوك بأساتذة السحر والسحرة ومعلميهم ومدربيهم. فالارسال على الكمية والبعث يدل على النوعية)[1].

٣- ومن الممكن التعقيب على هذا الرأي بما يأتي: إذ ذكر الدكتور أن المبعوث مهمته أوسع وصلاحيته أكبر وعمله أكثر من الرسول فهو يطوف بالبلاد يستحث السحرة ويستثيرهم عن السحرة الماهرين والبعث قد يقتضي المكث قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ.... ﴾ الجمعة/٢

فهل أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ما استحث الناس على الايمان؟ أو أنه لم يطف بالبلاد أو لم يهاجر من داره. وكيف يكون المبعوث مهمته أوسع وصلاحيته أكبر وعمله أكثر؟ ورسولنا (صلى الله عليه وسلم) ارسله الله تعالى إلى الإنس والجن وإلى خيري الدنيا والآخرة.

ومن جمال لفظة الرسول وكمالها أن الله أطلقها على من اصطفاهم من عباده من الملائكة والناس ولم يطلق عليهم لفظة (مبعوثين) لأننا نبحث عن اللفظة القرآنية وما يتعلق بها من معانٍ دقيقة. وقوله: (ما جاء بعد (أرسل) قوله تعالى (يأتوك بكل ساحر عليم) فساحر اسم فاعل ليدل على أنه سياتيك كل من كانت مهنته السحر صغيرا كان أم كبيرا بارعا أم غير بارع. وهذا مردود لأن الله وصف الساحر بالعلم وجاء بصيغة المبالغة لتكون صفة للساحر فأخرج بهذه الصفة من

(١) ينظر: المبني والمعني / ١٩٦ - ١٩٧.

ليس بارعا وليس له علم غزير بالسحر.

وأما قوله فالارسال يدل على الكمية أيضا قد حاد عن الصواب لأنه ليس المأتي بهم كل السحرة وإنما من كان ساحرا عليما متقنا للسحر.

يقول أبو هلال العسكري في الفرق بين الارسال والبعث: (انه يجوز أن يبعث الرجل إلى آخر لحاجة تخصه دونك ودون المبعوث اليه كالصبي تبعثه إلى المكتب فتقول: بعثته ولا تقول: أرسلته، لأن الإرسال لا يكون الا برسالة وما يجري مجراها)[1].

وأصل الارسال: الانبعاث على التؤدة ويقال ناقة رسلة: سهلة السير فقيل على رسلك إذا أمرته بالرفق وتارة الانبعاث.

والارسال: يقال في الإنسان وفي الأشياء المحبوبة والمكروهة وقد يكون ذلك بالتسخير كإرسال الريح والمطر ﴿ **وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا** ﴾ الأنعام/٦ وقد يكون ببعث من له اختيار نحو ارسال الرسل كقوله تعالى: ﴿ **وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً** ﴾ الانعام/ ٦١ ﴿ **فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ** ﴾ الشعراء/٥٣.

والارسال يقابل الامساك كقوله تعالى: ﴿ **مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ** ﴾ فاطر/٢.

وتأتي بمعنى متتابعا فنقول: جاؤا ارسالا: أي متتابعين). والرسل: اللبن الكثير المتتابع الدر[2].

اذن الارسال ياتي للرسل أي البشر ويأتي للرحمة والخير قال تعالى: ﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا** ﴾ الانعام/٦.

ويستعمل للشر والعذاب كقوله تعالى: ﴿ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ ...** ﴾ الأعراف/١٣٣. ﴿ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا**

(١) الفروق اللغوية /٢٩٩.

(٢) ينظر المفردات /٢٠٢ وعمدة الحفاظ ٢ /٩١.

يَفْسُقُونَ ﴾ الأعراف/١٦٢. ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا... ﴾ العنكبوت/٤٠. ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ فصلت/١٦. ﴿ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴾ الذاريات/ ٤١. ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ الذاريات/٣٣. ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ ﴾الرعد/١٣. ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ ﴾ الرحمن/٣٥.

ويطلق الارسال على الملك كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ مريم/ ١٩. ويطلق على الشخص العادل كقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ ﴾ يوسف/٥٠.

وتطلق المراسيل ويراد بها الابل السراع والمرسلات في القرآن الكريم بمعنى: الرياح[١].

أما كلمة البعث فأصلها: اثارة الشيء وتوجيهه ويختلف البعث بحسب اختلاف ما علق به، فبعثت البعير أثرته وسيرته ﴿ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ الأنعام/٣٦. أي يخرجهم ويسيرهم فالبعث ضربان: بشري كبعث البعير وبعث الإنسان في حاجة، والهي وذلك ضربان: أحدهما ايجاد الأعيان والأجناس والأنواع وذلك يختص بالباري تعالى، والثاني في احياء الموتى.

(فهذا يوم البعث) الروم/٥٦، يعني الحشر وقوله تعالى: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ المائدة/٣١. أي قيضه ﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ ﴾ التوبة/٤٦، أي توجههم ومضيهم[٢].

إذن علمنا أن مادة (ارسل) هي الانبعاث على التؤدة ولا يكون الا برسالة أو ما يجري مجراها ويطلق على النبي وعلى الملك وعلى الشخص المبعوث من أي واحد لآخر ويستعمل في الأشياء المحبوبة ويستعمل للخير وكذلك للعذاب ويستعمل للتتابع ولكن ليس فيه شدة وعنف ولا اثارة الشيء وتوجيهه كمادة (البعث) التي من معانيها أيضا الارسال كبعث النبي وكبعث البعير وبعث الإنسان في حاجة وفيه معنى الايجاد للأعيان والأجناس والأنواع وفيه معنى احياء الموتى

(١) ينظر / مجمل اللغة /٢٤٩.

(٢) ينظر المفردات /٦٣. وينظر: عمدة الحفاظ ٢/٩٠ - ٩١.

وفيه معنى الحشر.

ولقد ورد في القرآن الكريم بمعنى الارسال ولكن مع الايحاء بالعنف والصراع كقوله تعالى: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ .... ﴾ البقرة/٢١٣، فأوحت الآية أن مع البعث بأن هناك انذاراً لمن لا يطيع النبيين، ومثل قوله تعالى عندما طلب بنو إسرائيل أن يجعل عليهم ملكا لاستردادهم أموالهم وأراضيهم قال تعالى: ﴿بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ ﴾ البقرة/٢٤٧. وحتى الآية التي تتكلم عن الغراب وهو حامل غُراباً نتيجة للصراع الذي حصل وقتل أحد أبناء آدم (عليه السلام) ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا﴾ وكذلك لما قطّع بنو إسرائيل إلى أسباط وأمم وجعل عليهم نقباء، قال تعالى: ﴿ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ ﴾ المائدة/١٢. للتهيؤ للصراع والعنف المنتظر للدخول إلى الأراضي المقدسة وبيت المقدس.

ويأتي بمعنى الارسال مع التسلط كقوله تعالى: ﴿ جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ ﴾ الإسراء/٥، أي ارسلنا عليكم عبادنا مع التسلط عليكم.

وكذلك سُلّط على بني إسرائيل من يذيقهم العذاب إلى يوم القيامة قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ﴾ الأعراف/١٦٧.

ويأتي بمعنى يحيي الموتى ويحيي النائم بعد نومه وبمعنى الحشر. والذي يهمنا هو أن البعث فيه العنف وفيه الاثارة وفيه البحث وفيه الارسال لكن مقترنا بإثارة الشيء وتوجيهه.

فلو ألقينا نظرة على الفعلين (أرسل) و(ابعث) لعلمنا أن من خلال المعاني لهاتين اللفظتين ومن خلال السياق الذي قبل كل آية وبعدها ومن خلال حالة فرعون في الآية الأولى وحالته في الثانية سنرى في سورة الأعراف ما يأتي:

١- ليس فيها نقاش بين الله تعالى وبين موسى، وإنما موسى (عليه السلام) يتلقى الأوامر منه للذهاب إلى فرعون بعد أن كلفه ربه بدون تردد.

٢- بلغ موسى فرعون بأنه رسول من رب العالمين، وأنه جاء بدليل

واضح على صدق رسالته وطلب من فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل وأظهر البينة أمامه وهي انقلاب العصا إلى ثعبان مبين وبدت يده بيضاء للناظرين.

٣- رد الملأ بأن هذا ساحر عليم فأجابهم فرعون فماذا تأمرون؟ ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ (الأعراف: ١١١-١١٢)

في حين نرى في سورة الشعراء مايأتي:

١- سيدنا موسى (عليه السلام) حين كلف بالذهاب إلى فرعون يتردد خوفا من التكذيب ومن أن يضيق صدره ولا ينطلق لسانه، ويخاف منهم لأنه مطلوب بقتل نفس منهم وأن الله عز وجل يطمئنه بقوة بلفظة (كلا) و(انا معكم مستمعون).

٢- يبدأ الحِوار بين موسى (عليه السلام) وبين فرعون حول لبثه عندهم وأنهم ربّوه وكيف يمنن عليه. برده موسى (عليه السلام) بقوله: (تلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل) أي لولا فعلك هذا ما جئت إلى بيتك.

٣- ثم يبدأ النقاش حول قضية مهمة تخص عقيدة فرعون في ادعائه الألوهية والربوبية وبعد أن ينهي موسى ربوبية فرعون ويثبت أن للعالمين ربا غيره وللأرض والسموات وما بينهما وأنه ربكم ورب آبائكم الأولين وبعد ما ادحضه اتهم موسى بالجنون كاتهام الكفار للمرسلين حينما يغلبون، ثم تهديده لموسى بالسجن وبعد أن رأى الآيات البينات اتهم موسى بتهمة أخرى وهي أنه ساحر عليم وأعقبها لاستفزاز ملئه بأنه يريد اخراجكم من أرضكم.

٤- السلاطين والطغاة عندما تضيق بهم الأرض يلجأون إلى بطانتهم للاستشارة وجعل اللوم عليهم حتى يتخلص من شر قادم عليه وعليهم.

٥- نصحوه أن يرجىء المبارزة ويبعث في المدائن جنده ليأتوا بالسحرة لميقات يوم معلوم.

٦- نستنتج من ذلك:

- أن لفظة (وابعث) تناسب الآية من سورة الشعراء وذلك: لما في لفظة (وابعث) من الاثارة والهيجان مع الحوار الذي دار بين الله تعالى وبين موسى. وتردده وخوفه من تكذيبهم له وأن يضيق صدره ولا ينطلق لسانه وتذكر قتله القبطي

فخاف أن يقتلوه ثم الحوار العنيف الذي دار بين موسى (عليه السلام) وبين فرعون كما أسلفنا يناسب لفظة (وابعث) في هذا المقام.

- رعب فرعون وما رأى من موسى (عليه السلام) من اظهار البيّنات جعله في حالة نفسية مهزوزة اذ أضاف كلمة (بسحره) عن آية الأعراف قال تعالى: ﴿ **يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ** ﴾ لأن المرعوب والمكذوب يتكلم كثيرا لدفع ما يلاقيه من حالة نفسية.

- اتيان الملأ بلفظة (سحار) (يأتوك بكل سحّار عليم) بدلا من (ساحر) في سورة الأعراف، وذلك لما رأوا من فرعون فزعه واضطرابه حين قال للملأ حوله (ان هذا لساحر عليم) فكان جواب الملأ له لاذهاب الفزع عنه فأبدلوا لفظة (ساحر) من سورة الأعراف بسحّار في هذا المقام، لأنها أشد مبالغة فإذا كان هذا ساحرا عليما فإن هناك من هو أسحر منه وأمهر.

- بعد أن خسر المعركة هو والسحرة اتهمهم وهددهم (إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف)... فجاءت لفظة (فأرسل) في الآية ٣٥ من سورة الشعراء دون (ابعث) لأن الناس علموا، ولما في لفظة الارسال من التهدئة والدعوة دون الاثارة أو التسلط وكذلك لفظة (وارسل) في سورة الأعراف تناسب قول الملأ لأنهم ما كانوا مضطربين كفرعون في سورة الشعراء، ولأنه في سورة الأعراف هو الذي قال: (ان هذا لساحر عليم).

- لفظة (أرسل) تناسب المقام في سورة الأعراف لأنه لم يكن حوارا عنيفا مع فرعون، ولا تردد موسى حين كلفه الله -سبحانه- بالذهاب إلى فرعون.

فضلا عن أن لفظة (الإرسال) ومشتقاتها وردت في سورة الأعراف أكثر من سورة الشعراء حيث وردت في سورة الأعراف ثلاثين مرة، في حين لم ترد في سورة الشعراء الا سبع عشرة مرة، وذكرت لفظة (وابعث) مرة واحدة في سورة الشعراء فأتى بها في حين وردت في سورة الأعراف ثلاث مرات وهي ﴿ **قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾ ١٤، ﴿ **ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ** ﴾ ١٠٣، ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ** ﴾١٦٧.

-لفظة (وابعث) في سورة الشعراء توحي بارسالٍ أتباع فرعون إلى المدينة

ليس لتبليغهم فقط، وإنما حثهم على المجيء وانتقاء من هو أمهر السحرة ترغيبا وايماءً بالترهيب من فرعون.

- أراد فرعون بعد أن دُحض أمام موسى من صرفه. إلى أمور غير ما يؤمن به، ولكن موسى (عليه السلام) أدرك وعلم فأرجعه إلى قضيته الأصلية وهي دعوته إلى رب السموات والأرض والتخلي عما يدعيه فرعون في شأن الربوبية. فرده بقوله ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الشعراء/٢٦ وأعقبها تعالى بقوله ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ دلالة على ذكاء موسى وفطنته بأنه لا يستطيع أحد أن يصرفه عن دعوته بأي أسلوب شيطاني، فلما عجز فرعون عن اقامة الحجة بالحجة انبرى للتهديد والوعيد وهذا شأن العاجز الضعيف في كل زمان ومكان.

- زيادة بعض العبارات في سورة الشعراء سواء من حيث الحروف أو الأسماء مثل (اذن) في سورة الشعراء. فهو حرف جزاء وشرط، لأن الموقف موقف حسم عن قريب ليتأكد السحرة أن لهم أجرا بزيادة حرف الاستفهام في سورة الشعراء دون الأعراف، فكان المناسب أن يزيد فرعون تلهفا منه لبدء المعركة والغلبة له بـ (اذن) وليطمئن السحرة بالكرم الوفير وأنهم من المقربين وأكدوا قسمهم بفرعون وعزته لأنهم الآن في ساحة المنازلة، وهذا دين المنحرفين والأتباع مع أسيادهم في كل زمان ومكان لينالوا رضاهم ويكتسبوا المزيد من الحظوة عندهم، ثم ذكر كلمة (ضير) أي لا ضرر علينا، لأنهم الان رأوا ما جعلهم يؤمنون بأن الحق قد بان، فناسبت لفظة (وابعث) مع شدة رفضهم لدعوى فرعون وتهيجهم له ولكل ما ذكرنا ناسبت لفظة (وأرسل) في الأعراف ولفظة (وابعث) في الشعراء، فجاءت كلّ في مكانها سواء على الجانبين اللفظي أو المعنى والله تعالى أعلم.

- قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ الأنبياء /٩٢

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ المؤمنون/٥٢

في هاتين الايتين المتشابهتين فعلا أمر أحدهما (فاعبدون) والاخر هو (فاتقون)، فضلا عن حذف حرف الواو في الأنبياء وذكره في المؤمنون. ولقد تغير الفعل (فاعبدون) من سورة الأنبياء إلى (فاتقون) في سورة المؤمنون لاختصاص كل منهما في مكانه المناسب وذلك من ناحيتين الأولى: الجانب اللفظي والثاني:

الجانب المعنوي. وما جعل الله حرفا في آية أو كلمة أو عبارة دون آية أخرى الا ومن ورائها دقائق المعاني وزيادة المقاصد.

اجتهد المفسرون والبلاغيون في تبيان الفروق اللغوية والنحوية والبلاغية والدلالية فيهما، ومن هؤلاء العلماء الخطيب الإسكافي اذ بين أن الفعل (فاعبدون) جاء في سورة الأنبياء، لأن الخطاب للأحزاب والأقوام التي تفرقت في طرق الباطل ولم تخلص في عبادة الله، فجاءت اللفظة (فاعبدون) دون (فاتقون)، وجاء الفعل (فاتقون) في سورة المؤمنون، لأنه خطاب للرسل صلوات الله وسلامه عليهم لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ. وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴾ المؤمنون/٥١-٥٢. فلما كان أكثر من خوطب في سورة المؤمنون الأنبياء والمؤمنون وهم يعبدون الله جل ذكره وضم اليهم غيرهم من الفرق وغلبوا عليهم فخوطبوا بما يخاطب به المؤمنون وهو: اتقوا الله اذ كان أكثرهم له عابدين، ومعنى اتقوه: احترزوه بطاعته مما أعده لأهل معصيته، وامتنعوا بموجبات الثواب عن موجبات العقاب فكان هذا موضع (فاتقون) وفي الأولى موضع (فاعبدون)[١].

أما الكرماني فقد جعل (فاعبدون) مناسبا في الأولى لأن الخطاب للكفار فأمرهم بالعبادة التي هي التوحيد وفي (المؤمنون) الخطاب للنبي والمؤمنين بدليل قوله تعالى قبله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ والأنبياء والمؤمنون مأمورون بالتقوى)[٢].

أما أبو يحيى الأنصاري فإنه كرر توجيه الكرماني يكاد أن يكون نصا فقال (ان الخطاب هنا للكفار فأمرهم بالعبادة التي هي التوحيد ثم قال: (وتقطعوا) بالواو لا بالفاء لأن مدخولها ليس مرتبا على ما قبلها بل هو واقع قبله ومن قال: الخطاب مع المؤمنين فمعناه دوموا على العبادة. والخطاب ثم للنبيّ وأمته بدليل قوله قبل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ والأنبياء وأمتهم مأمورون بالتقوى)[٣].

---

(١) ينظر: درة التنزيل ٢١٣ - ٢١٤.

(٢) ينظر: البرهان /٢٤٣ - ٢٤٤.

(٣) فتح الرحمن /٢٠٢.

وأما ابن جماعة فقد وجه الخطاب للناس جميعا في الآية الأولى وفي الثانية للأنبياء ثم قال: (فاعبدون) فلأنه خطاب لسائر الخلق فناسب أمرهم بالعبادة والتوحيد ودين الحق وقوله تعالى (فاتقون) خطاب للرسل فناسب الأمر بالتقوى[١].

وأما ابن الزبير فكان جوابه على اختصاص كل فعل في مكانه فجاء الامر بالعبادة في الآية الأولى ولم يذكر لفظ التقوى فيها[٢]، ولكن سورة المؤمنون تكرر لفظ التقوى فيها في ثلاثة مواضع مراعاة لما تقدم في السورة الأولى وما تحتويها من لفظ التقوى في الثانية، فهو يقول: (ان سورة الأنبياء لم يرد فيها ذكر لفظ التقوى في أمر ولا خبر من أولها إلى آخرها وورد الأمر بالعبادة في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ ٢٥/ الأنبياء. وأما سورة المؤمنون فتكرر فيها ذكر التقوى في ثلاثة مواضع، أولها قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ المؤمنون/٢٣. وفي القصة التالية لهذه: ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ المؤمنون/٣٢. وفي ما بعد الآية المتكلم فيها ﴿ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ فروعَي في الأولى ما تقدمها ونوسب بالثانية ما اكتنفها)[٣].

وللدكتور فاضل السامرائي توجيه قريب من التوجيهات السابقة ولكن بصياغة خاصة (ان قوله تعالى في سورة الأنبياء (فاعبدون) وفي سورة المؤمنون (فاتقون) جاء بما يقتضيه سياق كل سورة. فقد جاءت الآيات في سورة المؤمنون مشحونة بالتحذير والتهديد والتخويف، وجاء فيها ذكر عقوبات طوائف كثيرة من الأمم ممن عصوا الرسل واهلاكهم والتوعد لهم أما ما جاء في سورة الأنبياء فما يدل على الاحسان والتفضيل واللطف التام كما في قصة ايوب وزكريا ومريم فناسبها (فاعبدون) كما ناسب سورة المؤمنون (فاتقون) ومسألة اخرى تعبيريه فإن لفظ العبادة ومشتقاتها قد وردت في سورة الأنبياء ثماني مرات ووردت في المؤمنون

---

(١) كشف المعاني /١٤٦.

(٢) ذكر لفظ المتقين في آية (٤٨) من السورة.

(٣) ملاك التأويل /٢/٨٤٩.

مرتين فقط أما لفظ الاتقاء والتقوى ومشتقاتها فإنها لم ترد في سورة الأنبياء البتة في حين وردت في سورة المؤمنون أربع مرات فيكون على هذا الأمر بالتقوى في آية المؤمنون في موطنه ومعدنه. والأمر بالعبادة في آية (الأنبياء) كذلك).[1]

العبودة والعبودية والعبدية معاناها اللغوي: الخضوع والتذلل أي أن يستسلم المرء وينقاد لأحد انقيادا لا مقاومة معه ولاعدول ولا عصيان له حتى يستخدمه هو حسب ما يرضى وكيف ما يشاء[2].

قال ابن فارس (العين والباء والدال أصلان صحيحان كأنهما متضادان والأول من ذينك الأصلين يدل على لين وذل والاخر على شدة وغلظ)[3]. فالاول العبد وهو المملوك والجماعة العبيد وثلاثة أعبد قال الخليل: إلا أن العامة اجتمعوا على تفرقة ما بين عبادة الله والعبيد المملوكين، يقال هذا عبد بيّن العبودة ولم نسمهم يشتقون منه فعلا ولو اشتق لقيل: عَبُد أي صار عبدا وأقرّ بالعبودة ولكنه أُميت الفعل فلم يُستعمل، قال وأما عَبَد يعبُد عبادة فلا يقال إلا لمن يعبد الله تعالى، يقال منه عبد يعبد عبادة. واستعبدت فلانا / اتخذته عبدا، وأما عبْد في معنى خدم مولاه، فلا يقال عبده ولا يقال يعبُد مولاه. ويقال للمشركين عبدة الطاغوت والأوثان وللمسلمين عباد يعبدون الله. والبعير المعبّد أي المهنوء بالقطران لأنه يذله ويخفض منه والطريق المعبّد: هو المسلوك المذلل والعَبَدة/ هي القوة والصلابة يقال هذا ثوب له عبدة إذا كان صفيقا قويا[4]. وأصل العبادة: التذليل والعبادة والخضوع والاستكانة قرائب في المعاني... وكل خضوع ليس فوقه خضوع فهو عبادة للمعبود سواء كانت طاعة ام غير طاعة وكل طاعة لله على جهة الخضوع والتذلل فهي عبادة والعبادة نوع من الخضوع لا يستحقه إلا المنعِم أعلى أجناس النعم كالحياة والفهم والسمع والبصر والشكر والعبادة ولا تستحق إلا بالنعمة لأن أقل القليل من العبادة يكبر عن ان يستحقه إلا من كان له أعلى جنس من النعمة إلا الله سبحانه فلذلك لا

---

(١) التعبير القراني/٢٣٩.

(٢) المصطلحات الاربعة في القرآن: ٩٥.

(٣) م.ن /٧٠١. مقاييس اللغة: ٧٠١.

(٤) ينظر مقاييس اللغة /٧٠٢. مادة (عبد).

يستحق العبادة إلا الله)[١].

وإذا رجعنا إلى كلمة العبادة ومشتقاتها وجدنا أن أكثر استعمالها قد جاء بمعنى العبد للمملوك مثل قوله تعالى: ﴿عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أو بمعنى الخضوع مثل قوله تعالى: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ و ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وبمعنى تألّه له: أي اتخذ الها كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى﴾ غافر/٦٦. وكقوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ سبأ/٤١. وأينما جاءت عبادة الله تعالى في القرآن الكريم ولم تكن قبلها أو بعدها مناسبة تحصر كلمة العبادة في معنى بعينه من المعاني المختلفة فإن المراد بها العبودية والاطاعة والتأله)[٢].

نقول: وقاه الله كل سوء وقا به ووقيا وواقية ووقاه توقيةً: صانه، وأصل التقوى: وقْوى ابدلت الواو تاءً وكذلك اتقى يتقي أصله اوتقى يوتقي فقلبت الواو ياءً لانكسار ما قبلها وأبدلت منها التاء وأدغمت)[٣].

والتقوى تطلق في القرآن الكريم على ثلاثة أشياء:

١- بمعنى الخشية والهيبة كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ البقرة /٢١٨

٢- بمعنى الطاعة والعبادة قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾آل عمران /١٠٢

٣- بمعنى تنزيه القلب عن الذنوب، وهذه هي الحقيقة في التقوى دون الأوّلين قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ النور/٥٢ ولهذا ذكر أولا الطاعة ثم الخشية ثم التقوى ومنازل التقوى ثلاثة: تقوى عن الشرك وتقوى عن البدعة وتقوى عن المعاصي الفرعية، وقد ذكر الله سبحانه ذلك في آية واحدة وهي قوله عز وجل: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

---

(١) ينظر مقاييس اللغة /٧٠٢. مادة (عبد).

(٢) المصطلحات الأربعة في القرآن (١١٣).

(٣) بصائر ذوي التمييز ٥/٢٥٦.

جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ المائدة/٩٣. وقد ذكر الفيروزأبادي[1] الغزالي في التقوى حيث قال (قال: ووجدت التقوى بمعنى اجتناب فضول الحلال وفي الخبر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال:(إنما سمى المتقون متقين لتركهم ما لا بأس حذرا عمّا به بأس) [2].

وبعد النظر في مدلول العبادة من خلال المعجمات اللغوية والمصطلحات القرآنية والاطلاع على بعض كتب المتشابه اللفظي تبيّن الفرق لدينا حول تحول الفعل في السورتين وذلك لأن كل فعل اختص في مكانه المناسب ولا يقبل أي تبدل إلا في موضعه وذلك لأن:

١- سورة الأنبياء تدعو المشركين (مشركي مكة) إلى الايمان بالقرآن وتوضح صفات الرسل وخلق السموات والأرض من غير عبث، وأنّ الملائكة لا يستكبرون عن عبادة الله وتناقش المشركين حول الألوهية وصفات الإله وتفند دعوى البنوّة لله أو الملائكة ثم تلفتهم إلى قدرة الخالق في فتق السموات والأرض وجعل كل شيء حي من الماء، وترشدهم إلى النظر في الأرض والرواسي التي عليها حتى لا تميد بهم، وتلفت نظرهم إلى السماء والليل والنهار والشمس والقمر، ومن ثم إلى موت الإنسان وبعثه ووجود العقاب والثواب بعد الموت كل هذه دعوة إلى نبذ الشرك والايمان بالله الواحد الحي القيوم فكان من المناسب أن تأتي لفظة (فاعبدون).

٢- دعوة الأنبياء لأقوامهم ومحنهم أو حوارهم وما لاقوه من أقوامهم حول الألوهية والحاكمية فكان من المناسب مجيء (فاعبدون) دون (فاتقون) لأن العبادة أولا ثم التقوى ثانيا.

٣- ان الملائكة لا تستكبر عن عبادة الله ولا تستحسر (ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون) الأنبياء /١٩.

٤- ان كل رسول كان يدعو قومه إلى عبادة الله قال تعالى ﴿ وَمَآ

---

(١) ينظر بصائر ذوي التمييز ٢٥٨/٥ - ٢٥٩.

(٢) لم أعثر عليه في كتب الصحاح.

أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ الأنبياء/٥٣

٥- ورود لفظة التماثيل وعبادة الكفار لها ﴿ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾ الأنبياء /٣٥.

٦- ذكر سبعة عشر نبيا في سورة الأنبياء وأغلبهم حاوروا أقوامهم بهدوء ودعوهم إلى نبذ عبادة الأصنام وترك عبادة أي شيء غير الله تعالى، والذي جعل منهم أئمة يهدون الناس وكانوا لله عابدين، فالمفروض أن يكون من هو غير نبي عابدا كما كان هؤلاء الأنبياء.

٧- فإذا كان هؤلاء الأنبياء والصالحون قدوة لأمتنا وهي أمة واحدة فكما عبد هؤلاء ربهم فأمرنا بعبادته قال تعالى ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء:٩٢)

٨- مناسبة بداية السورة مع آخرها حيث الدعوة إلى العبادة من أولها وإلى أن يرث الأرض عباده الصالحون) فكان من المناسب مجيء (فاعبدون) دون (فاتقون).

٩- وردت لفظة العبادة ومشتقاتها في سورة الأنبياء اثنتي عشرة مرة وأربع مرات في سورة المؤمنون[١] ولفظة التقوى ومشتقاتها مرة واحدة في سورة الأنبياء[٢] وأربع مرات في سورة المؤمنون.

١٠- لما تساوى ذكر عدد الفاظ العبادة مع ألفاظ التقوى فكان من المناسب مجيء (فاتقون) في سورة المؤمنون. لأن الأقوام دعوا إلى العبادة مع التخويف والشدة والوعد والوعيد لذلك تناسبت هذه اللفظة مع جو السورة سواء في سياقها المعنوي أو اللفظي دون ذكر (فاعبدون).

١١- تقديم سورة الأنبياء من حيث الترتيب مقدم على سورة المؤمنون كما أن العبادة أولا وبعد ذلك التقوى.

١٢- ما في سورة المؤمنون من الخشية لله والاشفاق منه، وأن قلوب

---

(١) ينظر الآيات ٨٧،٥٢،٣٢،٢٣.

(٢) ينظر الآية ٤٨.

المؤمنين وجلةٌ، وأخذ المترفين بالعذاب وأنهم يجأرون من الرعب فكان من المناسب (فاتقون) لأنها مأخوذة من الوقاية على اطلاق اللفظة سواء الوقاية من النار كقوله تعالى: ﴿ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ البقرة/٢٠١ أو الوقاية من عذاب السموم كقوله تعالى: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ الطور/٢٧، أو الوقاية من عذاب جهنم، كقوله تعالى ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ غافر/٧.

لهذه الأسباب ولغيرها كان الفعل (فاعبدون) مناسبا في سورة الأنبياء والفعل (فاتقون) في سورة المؤمنون والله تعالى أعلم.

الأمر مع الأمر

قال تعالى: ﴿ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ البقرة/١٠٦.

وقال تعالى: ﴿ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ التوبة/٢٤.

في هاتين الايتين المتشابهتين ثلاثة أفعال أمر جاء في الآية الأولى فعلا أمر وهما (فاعفوا واصفحوا) وفي الآية الثانية (فتربصوا).

لماذا هذا التحول؟ فلا بد لهذا التغيير من أسباب، وهذه الأسباب تدفعنا إلى أن نبحث عن سبب نزولهما والفروق اللغوية بين هذه الأفعال حتى نصل إلى الفهم الدقيق لكل آية ولكل كلمة تغيرت.

ان سبب نزول الآية الأولى هو: أن حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر ذهبا إلى المدراس (وهو بيت تدرس فيه التوراة لأبناء اليهود) وفي هذا البيت فنحاص بن عازوراء وزيد بن قيس وغيرهما من اليهود فقالوا لهما: الم تروا ما أصابكم يوم أحد ولو كنتم على الحق ما هزمتم فارجعوا إلى ديننا فهو خير ونحن أهدى منكم[1]

ان كثيرا من اهل الكتاب كانوا يتمنون ارتداد المسلمين عن دينهم سواء أحبارهم أو عامتهم حسداً من عند أنفسهم لإذلال المسلمين ولعلمهم أن دينهم قد رفع من منزلتهم وارتقى بهم في كل جوانب الحياة. ولكن الصحابيين الجليلين

---

(١) ينظر الكشاف: ٩١،: ١٢٤.

رفضا طلبهم، فطلب الله عز وجل من المسلمين العفو والصفح ولكن لمن؟ وماذا تعني هاتان الكلمتان \؟ ولقد وضح المفسرون معاني الآيتين ومن ضمنها هاتين الكلمتين قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قال النيسابوري: (فاسلكوا معهم سبيل العفو بترك المقاتلة والاعراض عن الجواب، والمراد (بأمره): أنه المجازاة يوم القيامة وقيل: قوة الإسلام وكثرة المسلمين)[1].

وأما الالوسي فقال: (العفو ترك عقوبة المذنب، والصفح: ترك التثريب والتأنيب وهو أبلغ من العفو وآثر العفو على الصبر على أذاهم ايذانا بتمكين المؤمنين ترهيبا للكافرين)[2].

أما الرازي فيقول: (فاعفوا واصفحوا) فهذا يدل على أن اليهود بعدما أرادوا صرف المؤمنين عن الايمان احتالوا في ذلك بالقاء الشبه على ما بيناه ولا يجوز أن يأمرهم تعالى بالعفو والصفح على وجه الرضا بما فعلوا، لأن ذلك كفر وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ أي: ترك المقابلة والاعراض عن الجواب أو حسن الاستدعاء واستعمل ما يلزم فيه من النصح والإشفاق والتشدد فيه والمراد بالأمر: إمّا مجازاة يوم القيامة أو أنه قوة الرسول وأمنه أو الأمر بالقتال[3].

وأماّ الامام البقاعي فقد قال: (أي عاملوهم معاملة العافي بأن لا تذكروا لهم شيئا مما تظهره تلك الودادة الناشئة عن هذا الحسد من الأقوال والأفعال ولا تأخذوا في مؤاخذتهم به فإنهم لا يضرونكم ولا يرجعون اليكم. (واصفحوا) أي اظهروا لهم أكم لم تطلعوا على شيء من ذلك وأصل معناه من الاعراض بصفحة العنق عن الشيء كأنه لم يره وأمرهم مطلق الصفح ولم يقيّده بالجميل الذي اختص به خطاب نبيهم (صلى الله عليه وسلم) في قوله (فاصفح الصفح الجميل) لتنزل

---

(١) غرائب القرآن ١/٣٦٦، ينظر الكشاف /٩١.

(٢) روح المعاني ١/٣٥٧.

(٣) التفسير الكبير: ١/٦٥٢.

الخطاب مراتبه ويستحق مواقعه)[١].

أما الدكتور عبد المجيد ياسين فبين الفرق بين الفعلين بقوله: (ان آية البقرة هذه افتتحت بقوله تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ فالمسألة رغبة وأماني وحسد لا أكثر ولا أقل، أمور كامنة في النفس ووسوسة شيطان وهوى فاتركوهم حتى يكشف الله أمرهم ويفسد كيدهم. والآية نزلت فيما قاله بعض اليهود لعمار وحذيفة بن اليمان بعد وقعة أحد[٢].

والآية الثانية نزلت في موضوع المقاطعة بين المؤمن والكافر مهما كانت قرابته ومهما كان الأمر المترتب على ذلك من مضار دنيوية أو مادية. ومن لم يفعل ذلك فلينتظر عقوبة عاجلة أو آجلة، وهذا وعيد وفيها أيضا فسق وخروج عن طاعة الله إلى معصيته وهذا تهديد فناسب الأولى الصفح وناسب الثانية التربص والتهديد والوعيد والله أعلم [٣].

بعد أن اطلعنا على آراء العلماء وتوجيهاتهم في هذا الاختلاف وأن أغلبهم عد العفو بأنه ترك العقوبة والإعراض عما بدر من هؤلاء، ولكن الذي بدا لي أن الفعل (فاعفوا) هنا في هذه الآية لا يعني ترك العقوبة وإنما معناه الابتعاد والتجافي عن الردة والمعصية، لأن من معاني العفو (التجافي) [٤] أي أن الله تعالى يريد منا أن نبتعد عن المعصية وعن الردة التي أرادهما بعض أهل الكتاب من بعض المسلمين هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن في لفظة (اعفوا) إيماء إلى المحو والزوال: أي: امحوا ما سمعتم من أهل الكتاب أن ديننا خير من دينكم) من اذهانكم لأنك تقول (عفت الريح الأثر: محته)[٥].

وأما الفعل (واصفحوا) فليس المقصود منه العفو والمغفرة وإنما المقصود أعرضوا، أي أعرضوا عن هؤلاء الكفار وما قالوا من كلمة الكفر لكم، وفيه إيماء

---

(١) نظم الدرر ٢٨١/١.

(٢) المبنى والمعنى / ١٧١.

(٣) ينظر: التفسير الكبير: ٢٥٥/٢.

(٤) عمدة الحفاظ: ٩٧/٣.

(٥) المعجم الوسيط: ٢/ ٦١٨.

إلى عدم الخوض في صراع مع هؤلاء الان كيف لأن من معاني اصفحوا الضرب بالسيف بعرضه والضرب بالسيف يكون بحده لا بعرضه وهذا كناية للانصراف عن القتال. إن في لفظة (فاصفحوا) وان كان معناها: عرض الشيء وجانبه، إلا أن فيه تلميحا بالبشرى للمؤمنين وراحة وذلك تقول: صفحت جبهته صفحا: أي انبسطت انبساطا، وانبساط الشيء دال على السرور والفرحة، أي أن الله تعالى أمر المسلمين أن يبتعدوا عن كفر هؤلاء ويتجافوا عنه ويتناسوه، فالفرج آت والنصر قريب (حتى يأتي الله بأمره) فيها تهديد ووعيد لأن (الأمر) نكرة وإذا كانت نكرة أخذت بهم كل ما يتخيله الإنسان من عذاب الله عز وجل في الدنيا وفي الآخرة فليس من المعقول أن يطلب الله من المسلمين أن يعفوا بمعنى ترك العقوبة لكل من يحارب الإسلام أو يسخر في عقيدة من عقائده، سواء على وجه الرضا قولا أو فعلا، لأن هذا يتنافى مع ما نؤمن به.

أما الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

قيل في سبب هذه الآية وقبلها أنه لما أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الناس بالهجرة إلى المدينة جعل الرجل يقول لأبيه ولأخيه ولقرابته انا قد أمرنا بالهجرة فمنهم من يسرع إلى ذلك ويعجبه، ومنهم من تتعلق به زوجته وعياله وولده فيقولون: ننشدك الله أن لا تدعنا إلى غير شيء فنضيع فيرق فيجلس معهم ويدع فنزل فيهم: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا) الايتين وذكروا في وجه النظم أن هذه الآية جواب عن شبهة أخرى قالوها وهي أنه كيف يمكن دعوى البراءة من الكفار وبينهم وبين المسلمين قرابات ومواصلات ومعاملات؟ فذكر الله تعالى الانقطاع عن الاباء والأبناء والاخوان واجب بسبب الكفر. وقيل: نزلت في التسعة الذين ارتدوا ولحقوا بمكة فنهى الله عز وجل عن موالاتهم[1].

نهى الله عز وجل المسلمين عن موالاة الكفار وعليهم قطع الصلة بينهم، لأن الكفر فرق بينهم فلا وشيجة تربطهم ولا صلة فيما بينهم ما دام هناك ايمان في ناحية الموالاة والبراءة، المؤمن لا يتخذ الكافر وليا وان كان من أقرب الأقربين اليه سواء

(١) ينظر: نظم الدرر ٤٦٦/٣.

كان أبا أم ابنا أم زوجا أم عشيرة أم تجارة (ومن يتولهم) يكون ظالما قد تجاوز حدود الله تعالى وفيه تهديد ووعيد لكل مسلم خالف أمر الله في هذا الجانب.

ثم أمر الله المؤمنين بالتربص بقوله: (فتربصوا) وهو فعل أمر لكن فيه تهديد ووعيد لأن معانيها الانتظار فالتربص الانتظار بالشيء سلعة كانت يقصد بها غلاءً أو رخصا أو أمراً ينتظر زواله او حصوله وتربص به: انتظر به خيرا أو شرا[١]

وقد علق البقاعي على هذه الآية بقوله: (فتربصوا) أي انتظروا متربصين وهو تهديد بليغ. وقوله: (بأمره) أي الذي لا تبلغه أوصافكم ولا تحتمله قواكم)[٢]

وأما صاحب التحرير والتنوير فقد وضحها بقوله: (التربص:الانتظار وهذا أمر تهديد، لأن المراد انتظار الشر وهو المراد بقوله: (حتى يأتي الله بأمره) أي الأمر الذي يظهر به سوء عاقبة ايثاركم محبة الأقارب والأموال والمساكن على محبة الله ورسوله والجهاد والأمر: اسم مبهم بمعنى الشيء والشأن، والمقصود من هذا الابهام التهويل لتذهب نفوس المهددين كل مذهب محتمل، فأمر الله يحتمل أن يكون العذاب أو القتل أو نحوهما، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ تذبيل والواو اعتراضية وهذا تهديد بأنهم فضلوا قرابتهم على محبة الله ورسوله والجهاد، فقد تحقق أنهم فاسقون فحصل بموقع التذييل تعريض بهم بأنهم من الفاسقين)[٣].

ولو نظرنا إلى الاستعمال القرآني لمادة (التربص) لتوضح لنا الفرق في وضع كل فعل في مكانه المناسب. فلقد ذكرت لفظة (التربص) ومشتقاتها سبع عشرة مرة ثلاث مرات بين الزوج وزوجته حول الطلاق والإيلاء ووفاة الزوج، وأربع عشرة مرة في الحرب وحوادث الدهر والموت، وكلها تدل على الانتظار لكن مع حصول الشر أو الأذى وحتى مع الزوج وزوجته فإن فيها أذى للزوجة أو الزوج سواء في الطلاق أو في الإيلاء أو في وفاة الزوج يقول تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ ﴾ الحديد/١٤.ويقول: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ

(١) لسان العرب ١/١١٠٦.

(٢) نظم الدرر ٣/٢٩٢.

(٣) التحرير والتنوير: ١٠/ ١٥٤. وينظر: البحر المحيط: ٥/٢٤.

فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ التوبة/٥٢.

ويقول: ﴿ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ﴾ التوبة/ ٩٨. ويقول: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ ﴾ النساء/١٤١. وهكذا في بقية الآيات هذا من جهة، ومن جهة أخرى ما جاءت لفظة (التربص) في آية الا وقبلها لفظة (عذاب) أو (أمر الله) في سياقها يقول تعالى ﴿ قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ.. ﴾ طه/١٣٥. وقبلها: ﴿ وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ ﴾ طه/١٣٤. وكقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ ﴾ الحديد/١٤.

وقبلها ﴿ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴾ الحديد/١٣، وجاءت ﴿ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ مع الآية نفسها) الحديد /١٤. فنرى أن لفظة (فتربصوا) فضلا عن الانتظار فإن فيها ما يوحي إلى العذاب أو الانتقام الالهي. ومن جهة ثالثة أن لفظة (التربص) ذكرت في سورة التوبة سبع مرات أي نصف عدد ما ذكرت هذه اللفظة في القرآن الكريم فمن المناسب أن تذكر هذه اللفظة هنا دون غيرهما من الأفعال والله أعلم.

٤-الماضي مع المضارع

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ الأعراف /٥٧.

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴾ ٤٨/الفرقان

جاء فعلان في هاتين الايتين المتشابهتين أحدهما فعل مضارع يرسل والاخر فعل ماض (أرسل). ان هذا التحول من صيغة المضارع إلى الماضي يوجب أنّ كل لفظة في القرآن جاءت في موضعها المناسب لأسباب معنوية ولفظية لا تقبل غيرها ولا يؤدي سواها دورها ومن ذلك ما كشفه لنا الخطيب الإسكافي بقوله: (بل كل ما

يوجب في الاختيار اللفظ الذي جاء عليه وان كان الله وصفه بأنه (أرسل الرياح) فبسط بها السحاب فساقه فأنزل منه الأمطار فاحيا به البلاد كوصفه بأنه يفعل ذلك في المستقبل، لأنه قادر كما كان وقد عود فعل ذلك وأعلمناه مشاهدة، الا أن الآية التي جاءت فيها (يرسل) بلفظة المستقبل لأن قبلها ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ الأعراف/٥٥-٥٦. فكان في ذلك بعث على الدعاء والتضرع وتعليق الخوف والطمع بما يكون منه الرحمة وصنوف ما رزق الله الخلق من النعمة فكان لفظة المستقبل أشبه بموضع الخوف والطمع للداعين وأدعى لهم إلى الدعاء. وأما في سورة الفرقان ومجيء هذا اللفظ فيها بلفظ الماضي فلأن قبل الآية: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا. ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا. وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا .وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ ﴾ فلما عدد أنواع ما أنعم به وكان ارسال الرياح في جملته عده بعدما تقدمه واخبر منه عما فعله واوجده)[1].

وقد اختصر الكرماني رأي الخطيب بقوله: (لأن ما قبلها في هذه السورة نعني بها الأعراف ذكر الخوف والطمع وهو قوله: ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ الأعراف/٥٦ وهو ما يكون في المستقبل لا غير فكان يرسل بلفظ المستقبل أشبه بما قبله... وفي الفرقان ﴿ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ الفرقان/٤٥.... ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ﴾. وبعد الآية ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ﴾ الفرقان/٥٣ و﴿ خَلَقَ ﴾ الفرقان/٥٤ فكان الماضي أليق به)[2].

وأما ابن جماعة والانصاري فلهما الرأي نفسه بل قد نقلا هذا التوجيه من الإسكافي والكرماني[3].

وأما ابن الزبير فإن تعليله كان موافقا لتعليل الإسكافي في آية الفرقان، أما آية

---

(١) درة التنزيل ١٠٧.

(٢) البرهان/ ١٦٨.

(٣) ينظر كشف المعاني ١٠٤، فتح الرحمن /١٠٩ - ١١٠.

الأعراف فإنه يرى أن المضارع أفاد التجدد والحدوث وهو المناسب لمعنى تجدد ارسال الرياح وانزال الغيث[١].

وأما الدكتور راشد أحمد فإنه وجه الفعل (يرسل) على وجهة ابن الزبير بأنه يفيد التجدد والاستمرارية ولكن بصيغة أخرى اذ يقول: (فعبر في سورة الأعراف بالمضارع (يرسل) وبالماضي (أرسل) في سورة الفرقان وسياق آية الأعراف كان يقتضي التعبير بالماضي كما جاء في بقية الأفعال (أقلت) (سقناه) (فأنزلنا) (فأخرجنا) ولكن عبر بالمضارع في مفتتح الآية لافادة الاستمرارية وتجدد الحدوث....

وناسب التعبير بالمضارع كذلك لذكر ما يدل على المستقبل قبله في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ (الأعراف: ٥٦).

والخوف والطمع إنما يكونان في المستقبل هذا من جهة وليتناسب مفتتح الآية مع مختتمها في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فالنظر في تجدد ارسال الرياح وتكرره بالحث على التفكر في كيفية احياء الموتى وهو غرض الآية حيث ان التمثيل بإرسال الرياح إنما كان تدليلا على بعث الأموات من مهمة أخرى وحيث كان ارسال الرياح وما يتبعه من سوقه وانزال الماء منه واخراج النبات والثمر مخصوصا بالله تعالى، ولا ينكر ذلك عليه لا في ماضٍ ولا حال ولا استقبال وجاء ارسال الرياح ضمن هذه الحملة من النعم الحاصلة التي عددها سبحانه كان التعبير بالماضي في سورة الفرقان، وناسب التعبير به هنا لتكرار التعبير بالزمن الماضي قبل الآية وبعدها)[٢].

وبعد توجيهات العلماء في الاختلاف بين صيغتي الفعلين (أرسل) و(يرسل) في كلتا الايتين فلي وجهة نظر عسى أن يكون فيها اضافة لما ذكروا من أسرار القرآن الكريم فأقول: ان الله عز وجل لما بين للمسلمين والناس جميعا دلائل ألوهيته وآيات صنعه من خلق السموات والأرض واستوائه على العرش، وألفت

---

(١) ينظر: ملاك التأويل ٤٩٨/١ - ٥٠١.

(٢) المعنى والمبنى /١٥٢ - ١٥٣.

النظر إلى غشيان الليل النهار وتسخير الشمس والقمر والنجوم وايجاد المخلوقات من العدم وله الأمر كله كان يستحق هذا الاله أن يُدعى، ولهذا أمر الله الناس أن يدعوه ولكن هذه الدعوة بصورتين: صورة التذلل وصورة السر مع الخوف والطمع، فالخوف يناسب التضرع، والطمع يناسب الخفية مع ما في نفس الإنسان من آمال وأطماع فإذا حصلت الدعوة منكم بهذه الكيفية كانت سببا قريبا إلى وصول الرحمة اليكم لأنكم أصبحتم محسنين ولهذا أعقبه قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فكما أن الرياح سبب لإنزال الرحمة فإذا حصلت الرحمة نتيجة للدعاء بذلك كذلك نحن نرسل الرياح لتنزل الرحمة. فإذا دعونا الله تعالى في الحاضر والمستقبل حصلنا على الرحمة لأن الفعل (ادعوا) ربكم يدل على الاستقبال فكان من المناسب أن يأتي الفعل (يرسل) لأنه يقابل الفعل (ادعو) من حيث انه وسيلة للوصول إلى الرحمة كذلك (يرسل) وسيلة موصلة إلى الرحمة وانزال المطر، ومن عجائب النظم القرآني أن الله سبحانه جعل هذا القرآن بعضه يفسر بعضا من غير اختلاف ولا خلل. ولقد ذكر الله تعالى أنواعا من الرياح كما أثبتتها الدراسات الحديثة فمنها مايقتصر على إثارة وجه الماء لإحداث الرذاذ المائي فوق الأمواج ومنها لحمل السحاب بعد حدوثه ومنها لسوق السحب والجري بها برفق ولين ومنها لتقسيم الغيوم المطيرة وتوزيعها على مناطق الأرض، فأقسم الله تعالى بأنواع الرياح كما عرضها العلم الحديث مؤخرا قال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا * فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا * فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا * فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ (الذاريات: ١-٤) فأقسم الله تعالى:

١- بالرياح التي تذرو التراب والرذاذ.

٢- وبالرياح التي تحمل السحاب الثقيلة.

٣- وبالرياح التي تسوق السحب وتجريها بلين ورفق.

٤- ثم بالرياح التي تقسم كميات السحاب الممطرة وتوزعها على الأرض أنى يشاء الله تعالى الغيث والرحمة أو الهلاك والدمار[1].

فانظر إلى التناسق بين هذه الآيات من سورة الذاريات وبين آية الأعراف من حيث التقسيم: أولا: ارسال الرياح تقابل والذاريات ذروا.

---

(١) ينظر موسوعة الاعجاز العلمي /٢١٥ للمؤلف يوسف الحاج أحمد.

ثانيا: أقلت سحابا ثقالاً تقابل والحاملات وقرا.

ثالثا: سقناه تقابل الجاريات يسرا.

رابعا: فأنزلنا به الماء تقابل فالمقسمات أمرا.

وأقول ان ما جاء بعد (وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته) هو تفصيل وتوضيح لما يحصل بين الارسال وبين الرحمة، فكان من المناسب أن يكون الفعل مضارعا هنا لا أن يكون ماضيا لاثبات قدرة الله على اخراج الموتى والبعث للحياة من جديد وحتى يتذكر المرء خالقه وما خلق له. وكذلك لوجود الأفعال المستقبلة قبل هذا الفعل وهي: يغشي الليل – يطلبه – نخرج – وتذكرون).

أما الفعل (أرسل) في سورة الفرقان فقد جاء بعد ﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا** ﴾ اوجاء بعد (أرسل) ﴿ **وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا** ﴾ فكان الفعل أرسل مقدما وجاء فعل ماض بعده (وأنزلنا) فكان من المناسب أن يكون الفعل (أرسل) ماضيا ليناسب ما قبله وما بعده من جهة اللفظ والسياق، وأما من جهة المعنى فيما أن النهار يبدد ظلام الليل وينشر النائمين كذلك الماء تحيى به البلدة الميتة، فالبلدة الميتة تقابل الليل والنوم واحياء الميتة تقابل نشور النهار، وجاء ارسال الرياح بينهما والنتيجة رحمة وطهور واحياء وسقي، فكان من المناسب أن يكون الفعل ماضيا وذلك لأن الله تعالى عدد النعم وأنه مد الظل و(شاء ولجعله، جعلنا، قبضناه، جعل لكم الليل... وجعل النهار... وهو الذي ارسل) وكان من جملة النعم أنه أرسل الرياح ليتناسب مع النظم والسياق هذا الفعل الماضي (وأرسل) دون (يرسل) والله أعلم بذلك.

الماضي مع المضارع

قالى تعالى: ﴿ **كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ** ﴾ الحجر/١٢

وقال تعالى: ﴿ **كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ** ﴾ الشعراء /٢٠٠

تغير الفعل نسلكه في الحجر وهو فعل مضارع إلى فعل ماضٍ في سورة الشعراء (سلكناه). بيّن ابن الزبير سبب هذا التحول فهو يؤكد دلالة الماضي والمضارع الزمنية، وقد علل ذلك من خلال سياق الايتين في السورتين. فسورة

الحجر تناولت من أولها أخبار المكذبين من كفار قريش وما لهم من عداوة للرسول (صلى الله عليه وسلم) فجاء التعبير في الآية بزمن المضارع الذي يشعر بديمومة عداوتهم، وأما الآية من سورة الشعراء فقد جاء قبلها ذكر أحوال الأنبياء مع أقوامهم مثل سيدنا نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى (عليهم السلام)، ثم جاء الحديث عن القرآن الكريم وأنه من رب العالمين ثم جاء بعد ذلك قوله (وانه لفي زبر الأولين) ١٩٦. فالكتب السابقة تصدقه ثم جاءت الآية (كذلك سلكناه) فلأجل ذلك ناسب ذكر الماضي في الآية [١].

وأما ابن عاشور فإنه يرى أن المعنى في الايتين واحد والمقصود منهما واحد فوجه اختيار المضارع في آية الحجر بأنه دال على التجدد لئلا يتوهم أن المقصود ابلاغ مضى وهو الذي ابلغ لشيع الأولين لتقدم ذكرهم فيتوهم أنهم المراد بالمجرمين مع أن المراد كفار قريش فناسبها حكاية وقوع هذا الابلاغ منذ زمن مضى وهم مستمرون على عدم الايمان وأمّا آية الشعراء فلم يتقدم فيها ذكر لغير كفار قريش فناسبها حكاية وقوع هذا الابلاغ منذ زمن مضى) [٢].

وكذلك هو الرأي نفسه عند البقاعي اذ قال: (وعبر بالمضارع الدال مع التجدد على الاستمرار لاقتضاء المقام له كما تقدم في أولها فقال: (نسلكه) أي (الذكر) (في قلوب المجرمين) أي العريقين في الاجرام في كل زمن كما يسلك الخيط والرمح ونحوه فيما ينظم فيه من مخيط وغيره بغاية العسر فلا يتسع له المحل فلا ينفع حال كونهم لا يؤمنون) [٣].

ان الضمير في قوله تعالى (نَسْلُكُهُۥ) راجع إلى الذكر لقوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ وقد سبقت هذه الآية (كذلك نسلكه) وقيل راجع إلى الاستهزاء والتكذيب أو إلى الكفر لكن الصحيح أن الضمير في كلتا الايتين راجع إلى القرآن الكريم لأنه سبق الايتين الحديث عن الذكر والقرآن الكريم في كلا الموضعين، وهو مدار الحديث لاقامة الحجة على الكفار والمكذبين المستهزئين؛

(١) ملاك التأويل ج٢ ٧٢٤ - ٧٢٥.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ١٩/١٩٤.

(٣) نظم الدرر ٤/٢١٠.

لأن الله سبحانه أوصل كلامه وأدخله في قلوب هؤلاء المجرمين ليكون حجة عليهم كما سلكه في قلوب المؤمنين به حتى لا يبقى عذر لمعتذر او حجة لمقصر. وجاء التعبير بالمضارع لأنه يدل على الاستمرارية والتجدد أي في كل زمن يسلكه الله في قلوب المجرمين.

وأما التعبير بالفعل الماضي وذلك لتحقق وقوعه، ولذلك ناسب في سورة الحجر أن يأتي الفعل مضارعا ليوافق التعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾ و﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ ﴾ وموافقة لقوله سبحانه ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾.

وناسب التعبير بالماضي في سورة الشعراء لأن قبلها ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾، ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾. حيث جاء محققاً ما كانوا هم عليه ثم جاء اسم الفاعل الذي يدل على الثبوت والدوام.

الفصل الثالث

تحولات النظم القرآني في الأسماء والمشتقات

الاختلاف بين الآيات المتشابهات من حيث الأسماء

١ - بالأسماء:

أ - الاسم المفرد مع الاسم المفرد:

لو ألقينا نظرة فاحصة في كتاب الله - تعالى - لرأينا آيات كثيرة متشابهة بالأسماء المفردة، أي أننا نرى آيتين أو مقطعين فأكثر فيهما التشابه من حيث الألفاظ، إلاّ في اسم يكون الاختلاف فتذكر آية اسماً معيناً، والآية المتشابهة لها اسماً آخر مختلفاً.

فهل هذا الاختلاف هو أمر لا قيمة له؟ أم أن هذا الاختلاف فيه الحكمة والدقة في التعبير وانتقاء اللفظة كلٌّ في مكانها المناسب، إنّ القرآن الكريم معجز في لغته وفي بلاغته وفي أسلوبه، فلا بدّ أن تكون كل لفظة في مكانها المعجز، فلا تعوض عنها لفظة أخرى، لأنه كتاب الله - تعالى - الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فكلما غاص الإنسان في بحر معانيه وجد لآلئ وكنوزاً لا يعلمها إلاّ الله - تعالى -، ومن هداه سبيلها وأنار له طريقها. فليس هناك فيه المترادف اللفظي، وإن كانت اللفظتان تؤديان معنىً عاماً واحداً، إلاّ أنّه بينهما الفروقات الدقيقة والمعاني الإضافية، بحيث إن كلاًّ منهما لاتصلح في سياق الأُخرى.

ومن خلال دراستنا لهذه الآيات تكشّفت لنا هذه الفروقات المعنوية، وتبين لنا بعض حكمها، وبهذه الآيات المتشابهة تضاف معجزة بيانية أخرى إلى كتاب الله - تعالى - الذي تحدى الناس به إلى يوم القيامة، وإليك بعض هذه الآيات لنقف على حقيقة ما قُلناه وصدق ما ذكرناه:

١ - قال - تعالى -: ﴿ **وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا**

مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: الآية ٨٩]، وقال - تعالى - في السورة نفسها: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الآية ١٠١].

نرى في الآيتين تشابهاً كلياً إلاّ في لفظة واحدة، حيث ذكر - تعالى - في الآية الأولى اسم ﴿ كِتَـٰبٌ ﴾، وفي الثانية اسم ﴿ رَسُولٌ ﴾، لماذا اختلف الاسم في الاثنتين؟ وما الحكمة من ذلك؟

إنَّ الآية الأولى التي ذكر فيها ﴿ كِتَـٰبٌ ﴾ قد ناسبت الآيات قبلها التي ذكر فيها الكتاب والكتابة، حيث قال - تعالى -: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: الآيتان ٧٨ - ٧٩]، فقد ذكر الله - تعالى - لفظة الكتاب وما كتبت أيديهم، وقال - تعالى: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ ﴾ [البقرة: من الآية: ٨٥]، ثم ذكر موسى عليه السلام، وما آتاه الله - تعالى -، حيث قال - تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ [البقرة، من الآية: ٨٧].

كل هذه الآيات تذكر الكتب والكتابة، وكان حقّاً أن يُؤتى بلفظة كتاب دون ذكر الرسول ﷺ على الرغم من أنه لا كتاب بدون رسول، فكلمة الكتاب تشير إلى رسول ما، ولكن الله - تعالى - عدل عن لفظة الرسول لتناسب سياق الآيات السابقة.

أما الآية الثانية التي ذكر فيها لفظة ﴿ رَسُولٌ ﴾ يعني رسولنا ﷺ وأن الرسول ﷺ يختلف عن بقية الرسل كيف؟ رسولنا ﷺ رسول وقرآن متحرك، لأن الرسل السابقين عليه كان معهم الكتاب لكن رسولنا ﷺ فيه الكتاب، كما قال - تعالى -: ﴿ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [البقرة: من الآية ٩٧] ولما سُئِلَتْ عائشة (رضي الله

عنها) عن خُلُقِ رسول الله ﷺ قالت: كان خُلُقهُ القرآن[1]، فالقرآن مودع في قلب رسول الله ﷺ، فلمّا ذُكر في الآية ﴿ رَسُولٌ ﴾ وذكر معه الكتاب ضمناً كان المناسب لهذه الآية لفظة الرسول ﷺ؛ وما سبقها من آيات فيها رسله وجبريل وميكال، فهؤلاء رسل الله - تعالى -، فجيء بهذه اللفظة (الرسول) ﷺ لأنها تناسب الآية هنا دون لفظة الكتاب لسببين نوجزهما بـ:

١ - الآية مسبوقة بآيات فيها ذكر الرسل والملائكة وجبريل وميكال.

٢ - كلمة ﴿ رَسُولٌ ﴾ هنا تعني رسولنا ﷺ فهو رسولٌ وكتاب منزّل في قلبه.

٣ - قال - تعالى -:﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران، من الآية ١٤].

﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ [آل عمران، من الآية ١٩٥].

لو رجعنا إلى كلمة ﴿ ٱلۡمَـَٔابِ ﴾ لعلمنا أن معناها: المرجع، قال أبو هلال العسكري: " فالإياب: هو الرجوع إلى منتهى القصد"، وقال: " ولهذا قال أهل اللغة: التأويب، أن يمضي الرجل في حاجته ثم يعود فيثبت في منزله". وقال أبو حاتم السجستاني - رحمه الله - (ت ٢٥٥ هـ)[2]: "التأويب أن يسير النهار أجمع ليكون عند الليل في منزله، وهذا يدل على أن الإياب الرجوع إلى منتهى القصد، ولهذا قال - تعالى -: ﴿ إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ﴾ [الغاشية، الآية: ٢٥]، كأن القيامة منتهى قصدهم لأنها لا منزلة بعدها " [3].

"والأوب ضرب من الرجوع، لأن الأوب لا يُقال إلاّ في الحيوان ذي الإرادة بخلاف الرجوع، فإنه يُقال فيه وفي غيره آب يؤوب أوباً وأوبةً، وقوله (مآباً) أي مرجعاً، ويجوز أن يكون اسم مكان"[4].

---

(١) صحيح البخاري: ٣ - ١ اخلاق الرسول ٢٣١/٨.

(٢) الفروق اللغوية: ٣٣٩، وانباه الرواة: ٢ / ٥٨.

(٣) الفروق اللغوية: ٣٣٩.

(٤) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: ١ / ١٣٧.

والأوّاب: الكثير الرجوع لربه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ومدح الله - تعالى - النبي أيوب عليه السلام بقوله: ﴿ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص، من الآية ٤٤]، أي كثير الرجوع إلى الله.

ومن معاني الأواب: الراحم وقيل المسبّح. وقال أهل اللغة: "الأوّاب الذي يرجع إلى التوبة والطاعة"[١].

والأواب: "بمعنى السرعة والريح والسحاب وجماعة النحل والقصد والاستقامة والطريقة والعادة والجهة والناحية يُقال جاءوا من كل أوب"[٢]. والمآب: مصدر واسم مكان واسم زمان"[٣].

وإذا رجعنا إلى بداية الآيتين الكريمتين لتبين لنا معنى ﴿ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ و﴿ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ والفرق بينهما.

١ - قال - تعالى -: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران، الآية: ١٤].

٢ - قال - تعالى - ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ [آل عمران، الآية: ١٩٥].

كلمة (زَين) تدل على الجمال الظاهري، كما قال - تعالى -: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴾ [يونس، من الآية: ٢٤]، أي إذا بدت الأرض مزخرفة ومزينة، فيها ما يدعو إلى البهجة والسرور جاء أمر الله ليجعل ما فيها حصيداً كأن لم تغن بالأمس.

---

(١) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: ١ / ١٣٧.

(٢) المعجم الوسيط: ١ / ٣٢.

(٣) المفردات في غريب القرآن: ٩٧.

وبُنِيَ الفعل ﴿ زُيِّنَ ﴾ للمجهول ليدل على نيتين متضادتين، فإذا أحسن الإنسان النية في التمتع بهذه الشهوات من إعفاف النفس وتكثير النسل وإعانة الفقراء والمساكين ومن اقتناء الخيل والأنعام وحراثة الأرض لينفع العباد والبلاد بها كان فاعل ذلك الفعل هو الله - تعالى - لأنه قال - عزّ من قائل -: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأعراف، من الآية ٣٢:]، وقال: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف، الآية: ٤٦]، وقال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف، الآية ٧]، فهذه الشهوات زيّنها الله - تعالى - للعباد لتكون وسيلة تحث على الحصول على ما هو خير منها وأبقى.

واستعمل مع كلمة ﴿ زُيِّنَ ﴾ لفظة (حُسْنَ) لأنهما تدلان على النضارة والبهاء والجمال. ولذلك قال - تعالى - في آية أخرى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾ [فاطر، من الآية: ٨]. وقد قرن لفظة ﴿ حَسَنًاۖ ﴾ مع ﴿ زُيِّنَ ﴾.

وبما أنّ هذه الشهوات من النساء والبنين والذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام كلها موجودة في الجنة، كذلك بيّن الله - تعالى - أنها متاعٌ قليلٌ في الدنيا فلاتركنوا إليها، لكن اجعلوها وسيلة لإرضاء الله - تعالى - لتعود إليكم في حياة أبدية.

ومن ثمَّ ﴿ حُسْنُ ﴾ منسجمة مع لفظة ﴿ زُيِّنَ ﴾ و﴿ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ مع وجود هذه الأمتعة، لأن الإنسان المستقيم سيرجع إليها في الآخرة.

أما النية الأخرى التي يريدها الإنسان فهي نية سوء للتمتع بها لذاتها والابتعاد عن الغاية التي وُجدت لها أو أُنيطت بها، وهذا من الشيطان لأنه هو فاعل ﴿ زُيِّنَ ﴾ عندئذٍ، وكما قال - تعالى -: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [العنكبوت، من الآية: ٣٨]، وقال: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الحجر، من الآية ٣٩].

وإذا ابتعد الإنسان عن النية السليمة وانحرف إلى النية العليلة كان التزيين من

الشيطان، ومن ثَمَّ أراد الله - تعالى - أن يبعد هؤلاء المغرورين بهذه الامتعة من النية الخبيثة والقصد القصير إلى متاع أبدي أجمل مما سبق وأحسن، ولمّا كانت هذه الامتعة زائلة والدنيا فانية، فلا بد من الرجوع إلينا لتروا المتاع الحسن والمآب الأفضل.

أما الآية الأخرى فقد وردت فيها كلمة ﴿ ٱلثَّوَابِ ﴾ لأن هذه اللفظة معناها: الجزاء على العمل في الخير أم في الشر. يقول صاحب عمدة الحفّاظ: " الثواب والمثوبة: الجزاء على الفعل من خير أو شر، وأصله من: ثاب يثوب، أي: يرجع، فالثواب ما يرجع من الجزاء إلى العامل من حسن وسيئ، وقيل: أصل الثواب رجوع الشيء إلى حالته الأولى التي كان عليها، أو إلى حالة المقدر المقصودة بالفكرة، وهي الحالة المشار إليها بقولهم: آخر الفكرة أول العمل، فمن الأول ثابتْ إليه نفسه وثابَ إلى داره، ومن الثاني سمي بذلك، لأنّ الغزْل رجع إلى الحالة التي قُدّر لها بالفكرة والثواب من ذلك"(١).

والثواب على الأكثر يستعمل في الخير: "والثواب وإن استعمل في الخير والشر كما تقدم، إلاّ أنه غُلِبَ في الخير، وكذلك المثوبة والإِثابة"(٢).

فلما وجدت لفظة العمل والعامل في الآية الكريمة الثانية، وبيّنت جنس العمل من الهجرة والإكراه على الخروج من الديار والإيذاء في سبيل الله - تعالى - فكان من المناسب أن يعطوا ثوابهم، وبما أنّ الثواب جزاء العمل في الخير اقترنت لفظة ﴿ حُسْنُ ﴾ بها لتدل على العطاء الكبير والهبة الكثيرة، وكذلك لوجود لفظة ﴿ثَوَابًا﴾ قبل ﴿ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ ولفظة ﴿ ثَوَابًا ﴾ إما مفعول مطلق جاء لتأكيد الخبر، أو أنها حال من الضمير أو بدل من الجنات وكلها تزيد معنى في الآية وتضيف مقصوداً آخر في بيان هذه المكرمة والعطاء.

في الآية الأولى ذكر الله - تعالى - ﴿ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾، أي: حُسن الرجوع والعودة، وإنّ هذا المكان وما فيه من نعيم مقيم، فهو أفضل لكم لأنه خلود فيه ولا نفاد لنعيمه.

---

(١) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: ١ / ٢٩٢.

(٢) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: ١ / ٩٣.

وأما الآية الثانية فتبيان لحصول الأجر والثمن، وأنّ هذا الثواب كامل العطاء لا بخس فيه ولا نقص، مع الإشارة ضمناً إلى أنه الرجوع مع الأجر الوافي والكرم الجزيل.

ومن هنا ناسبت كلمة ﴿ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ في الآية الأولى لتناسقها مع من قبلها، فضلاً عن أنّ في الآية مراعاة للنظير، لأن الله - تعالى - عَدَّدَ النعم التي في الدنيا والتي يشتهيها الإنسان في مقابلة ما هو في الجنة من النعيم.

وإذا أُريد بلفظة ﴿ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ اسم مكان، فإنّ في الآية مجازاً مرسلاً علاقته الحالية، وذلك لإرادة النعم التي قد حلّت فيها.

٣ - قال - تعالى -: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾[النساء، الآية: ٧٨].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ [الكهف، الآية: ٩٣].

لو دققنا النظر في لفظتي ﴿ حَدِيثًا ﴾ و﴿ قَوْلًا ﴾ لعلمنا أنّ هناك فرقاً معنوياً بينهما. فمعنى (حديث): كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحي في يقظته أو منامه، يُقال له حديث "[(١)]. قال - تعالى -: ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا ﴾ [التحريم، من الآية: ٣]، وقال - تعالى -:﴿ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ ﴾ [يوسف، من الآية: ١٠١]، أي: ما يحدِّث له الإنسان في نومه، وسمى - تعالى - كتابه حديثاً، قال: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ ﴾ [الطور، من الآية: ٣٤]، وقال - تعالى -: ﴿ أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴾ [النجم، الآية: ٥٩] "[(٢)].

ففي الآية الأولى، قال - تعالى -: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ

---

(١) المفردات: ١١٧.

(٢) المصدر نفسه: ١١٧.

مِنْ عِندِكَۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [النساء، الآية: ٧٨]، فالآية تتكلم عن الآجال وأنّ الموت يدركهم، ولو كانوا في قصور محصنة، وتوضح لهم أنّ الحسنات من الله - تعالى - والسيئات من خلقه، وحاشا أن يأمر بالسوء، وأوضحت الآية العقيدة السليمة في ما يصيب الإنسان من حسنات أو نكبات، ولذلك جاءت لفظة ﴿ حَدِيثًا ﴾ لتناسب الآيات السابقة لها، لأنها أكثر دلالة وأعمق معنىً من (قولاً) في هذه الآية سواء أراد الله - تعالى - من هذه اللفظة كتابه الكريم، أو ما وراء لفظة الحديث من معان دقيقة وقصد مناسب في الأمور العقيدية التي أوضحتها الآية الكريمة، لأن أمور القضاء والقدر تحتاج إلى ألفاظ ذات معانٍ دقيقة تناسب القضاء والقدر، ولذلك تحتاج إلى إمعان الفكر فيها والتدبر في مقاصدها، ولهذا اختيرت هذه اللفظة ﴿ حَدِيثًا ﴾ في هذا المكان لتناسقها مع قوة العقيدة والمبدأ.

أما الآية الثانية ﴿ لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾، فمن معاني ﴿ قَوْلًا ﴾: " أن يكون للمركب من الحروف المبرز بالنطق مفرداً كان أو جملة، فالمفرد كقولك: زيد وخرج والمركب زيد منطلق"[(١)]. ومن معانيها أيضاً: أن يكون معنى في النفس قبل الإظهار باللفظ، ولهذا يقول الأصفهاني: " يُقال للمتصور في النفس قبل الإبراز باللفظ قولٌ فيقال في نفسي قول لم أظهره، قال - تعالى-: ﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ ﴾ [المجادلة، من الآية: ٨] فجعل ما في اعتقادهم قولاً"[(٢)].

وإذا رجعنا إلى الآية الكريمة وما سبقها من آيات لتوضحت لنا معانيها، قال - تعالى -: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ [الكهف، الآية: ٩٣] إنّ ذا القرنين وصل إلى السدّين، فوجد دونهما ناساً لا يفهم لغتهم، ولاهم يفهمون لغة ذي القرنين ومن معه إلاّ بصعوبة، وذلك لِبُعدِ بلادهم وبُعْدِ لغتهم عن بقية الناس، قال البقاعي: "أي: لا يقربون من أن يفهموه ممن مع ذي القرنين فهماً جيداً كما يفهم غيرهم ودلّ وصفهم بما يأتي على أنهم يفهمون

(١) المفردات: ٤١٥.

(٢) المصدر نفسه: ٤١٧.

منهما ما بعد بُعد ومحاولة طويلة لعدم ماهر بلسانهم ممن مع ذي القرنين وعدم ماهر منهم بلسان أحد ممن معه، وهذا يدل على أنّ بينهم وبين بقية سكان الأرض غير يأجوج ومأجوج براري شاسعة وفيافي واسعة منعت من اختلاطهم بهم، وأن تطبّعهم بلسان غيرهم بعيد جداً لقلّة حفظهم لخروج بلادهم عن حد الاعتدال أو لغير ذلك"(١).

فلمّا كان هؤلاء القوم في أنفسهم تصورات وأقوال ولم يستطيعوا أن يعبروا عنها أتى الله - تعالى - بهذه اللفظة ﴿ قَوْلًا ﴾ لأن من معانيها كما أسلفنا (تصورات في أنفسهم) فهؤلاء لا يفهمون قولاً من ذي القرنين ولا ممن مع ذي القرنين، وذلك لجهلهم بلغات الناس ولا هم يفهمون ما في أنفس ذي القرنين ومن معه إلاّ قليلاً، ولذلك استعمل لفظة ﴿ لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾، واستعمل كلمة ﴿ لَّا يَكَادُونَ ﴾ التي تدل على القرب والنفي معاً فكلمة (كاد) تدل على النهاية، ومع النفي تدل على الفهم القليل، واستعمل كلمة ﴿ يَفْقَهُونَ ﴾ للدلالة على جهلهم بالأقوال.

وشيء آخر هو أن المنافق يقول بعكس ما في قلبه متعمداً، فيلبس الحقائق بالأكاذيب، وهنا إن القوم لا يستطيعون أن يعبروا عمّا في نفوسهم، فتخرج الأقوال خلاف ما في قلوبهم من غير عمد، فكأنما هنا شبّه بينهما، إلاّ أنهما يفترقان، لأن أحدهما منافق والآخر جاهل باللغة، ولذلك استعمل الله ﷻ هنا لفظة ﴿ قَوْلًا ﴾ بدلاً من ﴿ حَدِيثًا ﴾. وما ذكره د. مجيد ياسين من: "أن القرآن الكريم عندما قصد المعنى قبل اللفظ قال ﴿ حَدِيثًا ﴾، وعندما قصد اللفظ قبل المعنى قال ﴿ قَوْلًا ﴾ فبعيد لأنه كيف؟ ولماذا لم يقصد المعنيين معاً واللفظتين؟"(٢).

والذي اعتقده أن لفظة (الحديث) أكثر ارتباطاً بالعقيدة من كلمة (القول) لأن لفظة القول تكون غالباً في الأخبار. والله أعلم.

وقد وردت آيتان متشابهتان فيهما لفظتا ﴿ حَدِيثًا ﴾ و﴿ قِيلًا ﴾ في موضعين

---

(١) نظم الدرر / ٤ / ٥٠٣ - ٥٠٤.

(٢) ينظر: المبنى والمعنى / ٢٤٩.

آخرين من القرآن وهما:

١ - قال - تعالى -: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴾ [النساء، الآية: ٨٧].

٢ - قال - تعالى -: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴾ [النساء، الآية: ١٢٢].

قلنا لفظة (حديث) تدل على الكلام إذا أخبر الإنسان عن طريق السمع أو الوحي في يقظته أو منامه وأطلقت على القرآن الكريم كذلك، وقلنا إن هذه اللفظة مناسبة للآيات، لأنها تتكلم عن الأمور العقيدية والشركية لأنها أشمل من لفظة القول. وهنا يذكر الله ﷻ أنه لا إله إلاّ هو سبحانه، فإنها مفتاح التوحيد الخالص لتثبيت الإيمان الكامل مع إثبات يوم البعث والحشر، مع التأكيد بكلمة لا ريب فيها والقائل لنا هو الله والمحدث هو رب العالمين، فهل هناك أصدق من الله - تعالى - استفهام استنكاري يفيد النفي والتعجب معاً إن لم تصدقوا هذا الحديث قولاً وفعلاً.

أما في الآية الثانية، فقد سبقتها آيات، وهي قوله - تعالى -: ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ۝ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ۝ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴾ [النساء، الآيات: ١١٨ - ١٢٢].

وقد فسّر كثير من المفسرين كلمة ﴿ قِيلٗا ﴾ بالوعد، والزمخشري واحد

منهم[(١)]، وقد علّق على الآيات الكريمة د. عبد المجيد ياسين، وبيّن الحكمة من استبدال الحديث بالقيل، فقال: "أما الآية الثانية ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ فقد فسّر بالوعد، فقال الزمخشري: "وعد الله حسن مصدران مؤكدان الأول لنفسه والثاني لغيره و﴿ قِيلًا ﴾ توكيد ثالث بليغ، وفائدة ذلك معارضة مواعيد الشيطان الباطلة لافترائه بوعد الله الصادق لأوليائه ترغيباً للعباد

والتنبيه على أن وعد الله أولى بالقبول وأحق بالتصديق من قول الشيطان الذي ليس أكذب منه"[(٢)].

وعلى الرغم من وجود إشارة في لسان العرب إلى شيء مما ذكرناه من أن القيل: هو الوعد والعهد، فقد جاء فيه: "يُقال: أقاله، يقيله، إقالة وتقايلاً إذا فسخا البيعة، قال: وتكون الإقالة في البيعة أو العهد، وفي حديث ابن الزبير: لمّا قُتل عثمان ﷺ قلت: لااستقيلها أبداً، أي: لا أقيل هذه العزة ولا أنساها"[(٣)].

وأشار الدكتور عبد المجيد ياسين إلى أن الشيطان لمّا بالغ في القول والوعد جاء بما هو أكثر منه وأكبر منه وأبلغ منه وأعمق معنى ولفظاً، فقال: ﴿ قِيلًا ﴾ على جمع المعنيين[(٤)].

ولنا وجهة نظر فضلا عمّا ذكره د. عبد المجيد ياسين نوجزها بما يأتي:

١ - إنّ الله أطلق لفظة الحديث على كتابه الكريم، قال - تعالى -: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ ﴾ [الطور، من الآية: ٣٤]، وقال: ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴾ [النجم، الآية: ٥٩].

٢ - أطلق كلمة القول على القرآن الكريم، قال - تعالى -: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۞ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴾ [الطارق، الآيتان: ١٣ - ١٤]، وقال: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [الحاقة، الآية: ٤٠].

---

(١) ينظر: الكشاف: / ٢٥١، وينظر: التفسير الكبير: م ٢، ج ٢ / ٥٢.

(٢) المبنى والمعنى: ٢٤٩.

(٣) لسان العرب: ١١ / ٢٨٠، مادة: قيل.

(٤) ينظر: المبنى والمعنى / ٢٥٠.

٣ - لم يطلق رب العالمين على كتابه العزيز كلمة (قيل).

٤ - وردت لفظة (قيل) في القرآن الكريم أربع مرات، في الآية المذكورة، وفي سورة الزخرف قوله - تعالى -: ﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الآية: ٨٨]، وكذلك في سورة الواقعة قوله - تعالى -: ﴿ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ﴾ [الواقعة، الآيتان: ٢٥ - ٢٦]، ووردت كذلك في سورة المزمل قوله - تعالى -: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴾ [الآية: ٦].

٥ - أنّ لفظة (قيل) أرق من لفظة (قولاً) لأن الواو مفخمة، في حين إنّ الياء مرققة.

٦ - أنّ لفظة (قولاً) في آية سورة الكهف وصف لقوم فيهم من الخشونة والغلظة لأنهم بعيدون عن بقية الناس، فناسبت هذه اللفظة معهم.

٧ - إنّ لفظة ﴿ قِيلًا ﴾ من معانيها الوعد والعهد والقول والبيعة. فلمّا قال الشيطان ووعد أتباعه ومنّاهم بالغرور فتحداهم رب العالمين بقول أقل دلالةً وألين لفظاً وأرق معنى، فإذ غلّظ الشيطان في قوله وأقسم ووعد بالغرور والطغيان، مع علم الله له بمخالفته لقوله وأنه لايبرّ بقسمه ومنح أتباعه الوعود الكاذبة والأماني الفارغة قابله رب العالمين بالسلم والسلام في الجنة والقول اللّين المناسب لذكر الجنة التي لا لغوّ فيها ولا تأثيم، وكذلك لو ألقينا نظرة على الآيات السابقة التي وردت لفظة (قيل) فيها لعلمنا أن هذه اللفظة تدل على الهدوء والانقياد بدون تهور أو صخب، وذلك في سورة الزخرف ﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الآية: ٨٨] تضرع من الرسول ﷺ لربه وتوسل منه ليؤمن هؤلاء القوم. وأما في سورة المزمل ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴾ [الآية: ٦] فإن ﴿ قِيلًا ﴾ تنسجم مع سكون الليل وهدأة الوجود، فتكون القلوب أصفى والأقوال أرق، وفي الآية (ومن أصدق من الله قيلا) استفهام استنكاري يفيد النفي، أي: ليس هناك من هو أصدق مما يقول الله ويعد، فإن كان الشيطان قد قال ووعد وأغلظ في القول والأماني والغرور فإن الله - سبحانه - إذا قال ووعد بأقل الأقوال، فهو يفي ويصدق، لأنه يستحيل عليه الكذب - حاشاه -.

ولهذا استعمل هذه اللفظة في مكانها المناسب لتدل على القول والوعد

والعهد دون كلمة (قولاً) أو (حديثاً) لتلاؤمها مع الجنة وسلام أهلها بعضهم لبعض، لأن فيها الأمن والسلام وطيب الحياة والكلام.

٢ - بين الجمع والمفرد:

١ - قال - تعالى -:

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾

[الأعراف، من الآية ٧٨].

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [الأعراف، من الآية: ٩١].

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾

[العنكبوت، من الآية: ٣٧].

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾

[هود، من الآية: ٦٧].

﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾

[هود، من الآية: ٩٤].

عندما كفرت ثمود وكذّبت نبي الله صالحاً عليه السلام، وبعد أن طلبوا منه ناقة من الصخرة لتكون دليلاً على نبوته، خلق الله - تعالى - هذه الناقة وأخرجها منها، وأخذت تدر عليهم حليباً لهم بعد أن جعل ماءهم قسمةً بينهم وبين الناقة فعتوا عن أمر ربهم وازدادوا عناداً وكفراً وعقروا الناقة بعد أن نهاهم نبي الله صالح عليه السلام بعدم مسها. أنذرهم بعذاب الله، قال - تعالى -: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ۝ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ۝ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [هود، الآيات: ٦٥ - ٦٧].

وهذا العذاب كان صاعقة وصيحة ورجفة وطاغية، قال - تعالى -: ﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۝ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴾ [الذاريات، الآيتان: ٤٤ - ٤٥]، وقال - تعالى -: ﴿ وَقَالُوا يَا صَالِحُ

ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف، الآيتان: ٧٧ - ٧٨]، وقال - تعالى - وقال - تعالى -: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۞ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴾ [الحاقة، الآيتان: ٤ - ٥].

وعندما انتهت الأيام الثلاثة باصفرار وجوههم في اليوم الأول، واحمرارها في اليوم الثاني، واسودادها في الثالث جاءهم العذاب في اليوم الرابع صباحاً، قال - تعالى -: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾ [الحجر، الآية: ٨٣]، وكان العذاب صيحة، أي: صوتاً شديداً [(١)]، وكانت الصيحة مرة واحدة، قال - تعالى -: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ [القمر، الآية: ٣١]، والمحتظر هو صاحب الحظيرة الذي يبنيها لدوابه من المواشي[(٢)]، فيقدم لها العلف والنبات اليابس لتأكله.

وأمّا قصة قوم شعيب عليه السلام فإن قومه عذبوا بأنواع ثلاثة من العذاب، فمرة بالرجفة، قال - تعالى -: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۞ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف، الآيتان:٩٠ - ٩١]، و﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۞ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [العنكبوت، الآيتان: ٣٦ - ٣٧]. ومرة أخرى بالصيحة، قال - تعالى -: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود، الآية: ٩٤]، ومرة ثالثة بيوم الظلّة، قال - تعالى -: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء، الآية: ١٨٩].

---

(١) عمدة الحفاظ: ٢ / ٣٦٤.

(٢) مواقف الأنبياء: ٩٧.

وإذا أمعنا النظر في عذاب القومين تبين لنا أن العذاب واحد عليهما، فقد أرسل عليهما الرجفة والصيحة والصاعقة، والنظر في الآيات بدقة يوصل إلى الفهم الثاقب لألفاظها وما فيها من معانٍ متناسقة مع المعنى العام للآيات السابقة لهذه الآيات وما فيها من ألفاظ، فمعنى كلمة الرجفة الاضطراب الشديد، وهذا ما ذكره الأصفهاني، إذ قال: "الرجف الاضطراب الشديد يُقال رجفت الأرض والبحر"[(١)]. والصيحة، هي صوت شديد، إما من ملك، أو من رعد أو من ريح[(٢)]. والصاعقة، هي صوت الرعد الذي يصعق به الإنسان، أي يغشى عليه، وهي على ثلاثة أوجه:

١ - بمعنى الموت، كقوله - تعالى - ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر، الآية: ٦٨].

٢ - العذاب، كقوله - تعالى -: ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت، الآية: ١٣].

٣ - النار، كقوله - تعالى -: ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ ﴾ [الرعد، الآية: ١٣]، قال الراغب الأصفهاني:(ما ذكره فهو أشياء حاصلة من الصاعقة، فإنّ

الصاعقة هي الصوت الشديد من الجو، ثم يكون منه نار فقط أو عذاب أو موت وهي في ذاتها تأثيرات منها)[(٣)].

وقد أطلق القرآن الكريم على العذاب الذي وقع على قوم صالح وقوم شعيب بالرجفة والصيحة، والصاعقة على ثمود، والظلّة على شعيب. فهذه الأنواع هي خارجة بعضها من بعض، فالقنبلة عند الانفجار تخرج منها نار ويخرج صوت ويحدث منها زلزال فكيف بالقنبلة الإلهية!؟ نارها أكبر وصوتها أشد وزلزالها أعظم.

إذن فلا تعارض بين هذه الألفاظ، فالعذاب الإلهي أرسل وفيه النار وفيه الرجفة وفيه الصيحة.

لكن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن لماذا ذكر الفعل (أخذ) مع قوم صالح،

---

(١) المفردات: ٢٨٥.

(٢) ينظر: عمدة الحفاظ: ٢ / ٣٦٤.

(٣) المفردات: ١٩٦.

قال - تعالى -: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ۝ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود، الآيتان: ٦٦ - ٦٧]، وأنّث الفعل (أخذت) مع قوم شعيب، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود، الآية: ٩٤].

يقول الإسكافي " إنّ الله - تعالى - أخبر عن العذاب الذي أهلك به قوم شعيب عليه السلام بثلاثة ألفاظ هي: ﴿ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ [الأعراف، الآية: ٩٠]، و﴿ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ [هود، الآية: ٩٤]، و﴿ ٱلظُّلَّةِ ﴾ [الشعراء، الآية: ١٨٩]، فلمّا اجتمعت ثلاثة أشياء مؤنثة الألفاظ في العبارة عن العذاب الذي أهلكوا به وردت على التأنيث"[١]، وقد وافق على هذا الرأي الزركشي في كتابه **البرهان**[٢]، وابن القيم في **بدائع الفوائد**[٣]، والدكتور فاضل السامرائي في كتابه **دراسة المتشابه اللفظي**[٤].

وأما أبو يحيى زكريا الأنصاري فإنه قال: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود، الآية: ٦٧]، قاله هنا في قصة صالح بلا (تاء) وقاله بها بعدُ في قصة شعيب في سورة هود، الآية: ٩٤، وكلٌّ صحيح، لكن اختص الثاني بها، لأن قوم شعيب وقع الإخبار عن عذابهم بثلاثة ألفاظ مؤنثة في الأعراف والعنكبوت ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ [الأعراف، الآية: ٧٨، والعنكبوت، الآية: ٣٧]. وهنا ﴿ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ وفي الشعراء ﴿ٱلظُّلَّةِ ﴾ [الآية: ١٨٩]، وقعت لهم الثلاثة في ثلاثة أوقات)[٥]. أما الغرناطي، فقد قال بعد ذكر الآيتين في ثمود وقوم شعيب: "يسأل عن سقوط علامة التأنيث من الفعل في قوله ﴿ وَأَخَذَ ﴾، في قصة صالح

(١) درة التنزيل: ١٦١.

(٢) البرهان: ٣ / ٢٦٨.

(٣) بدائع الفوائد: ١ / ١٢٦.

(٤) دراسة المتشابه اللفظي: ٩٦.

(٥) فتح الرحمن: ١٤٧.

وثبوتها فيه في قصة شعيب مع التساوي في الفاعل وهي ﴿ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ والتساوي في الفصل الواقع بين الفعل وفاعله الرابع له؟ والجواب عن ذلك: أنّ التأنيث على ضربين حقيقي وغير حقيقي، فالحقيقي لا تحذف تاء التأنيث من فعله غالباً إلا أن يقع فصل نحو: قام اليوم هند، وكلما كثر الفصل حسن الحذف ومن كلامهم حضر القاضي اليوم امرأة والإثبات مع الحقيقي أولى ما لم يكن جمعاً، وأما التأنيث غير الحقيقي فالحذف فيه مع الفصل حسن، قال - تعالى -: ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ ﴾ [البقرة، الآية: ٢٧٥]، ومنه قوله - تعالى -: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ [هود، من الآية: ٦٧]، فالحذف والاتيان هنا جائزان، والحذف أحسن فجاء الفعل في الآية الأولى على الأولى، ثم ورد في قصة شعيب وهي الثانية بإثبات علامة التأنيث على الوجه الثاني، جمعاً بين الوجهين، إذ الإتيان في سورة واحدة وتقدمها الأولى، على ما ينبغي. والله أعلم، وهذا ما لم يكن الفاعل ضمير مؤنث فله أحكام محضة"(١).

وقد ذكر د. عبد المجيد ياسين سبباً آخر هو: "لأن ليس هناك حذف في الفعل وإنما الحذف في الفاعل المذكر والتقدير: وأخذ الذين ظلموا صوت الصيحة فعل الصيحة عذاب الصيحة مرسل الصيحة، فحذف هنا توسعاً في المعنى، لأنه لا يمكن أن يعيد القرآن ويكرر آية مرتين بنفس الصيغة وبنفس الأسلوب وبنفس المعنى"(٢).

إنّ هذه الآراء التي عرضتها في بيان إلحاق تاء التأنيث بالفعل (أخذ) وعدم إلحاقها أراها بعيدة، وذلك لِما يأتي:

إنّ ذكر ثلاثة ألفاظ مؤنثة مع قوم شعيب أوجبت إلحاق التاء بالفعل (أخذ) فلماذا لم تلتحق التاء مع الفعل (أخذ) عند الحديث عن قوم صالح، على الرغم من أن القوم عذبوا أيضاً بألفاظ لا أقول ثلاثة مؤنثة، بل أربعة وهي كما يأتي:

فقد ذكر الله - تعالى -:

---

(١) ملاك التأويل: ٢ / ٦٦٠ - ٦٦١.

(٢) المبني والمعنى: ٤٠٩.

(١) ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ۞ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الذاريات، الآيتان: ٤٣ - ٤٤].

(٢) ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾ [الحجر، الآية: ٨٣].

(٣) ﴿ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۞ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [الأعراف، الآيتان: ٧٧ - ٧٨].

(٤) ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۞ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ [الحاقة، الآيتان: ٤ - ٥].

فنرى الألفاظ الصاعقة والصيحة والرجفة والطاغية كلها ألفاظ مؤنثة!؟. وما ذكره د. عبد المجيد ياسين من تقدير مضاف قبل الفاعل فبعيد أيضاً، لأنه كان بالإمكان حذف التاء من الفعل ومن ثم التقدير[1].

أقول والله أعلم أننا لو قرأنا كل الآيات التي في صدد انزال العذاب على القومين، لوجدنا أنّ الفعل أنّث في جميعها، إلاّ آية سورة (هود) لماذا؟ لا بدّ من حكمة بيانية ومن سبب بلاغي، وهو أنه مع كل الآيات لم يرد لفظ الجلالة ﷲ أو صفة من صفاته قبل الفعل (أخذ) إلاّ في هذه الآية، فقد ذكر قوله - تعالى -: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ۞ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [هود، الآيتان: ٦٦ - ٦٧] ليناسب الفعل المذكر مع ﴿ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾، لأنه الفاعل الحقيقي، ولقربه المباشر مع أخذ وليتناسب كذلك مع الفاعل المجازي وهو ﴿ الصَّيْحَةُ ﴾ ولوجود الفاصل الطويل بينه وبين الفعل، ولهذا نرى أن الله - تعالى - ذكر بهلاك الأمم فعقّب بقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود، الآية: ١٠٢]، لتنسجم اللفظة ﴿ أَخْذُ ﴾ مع ما قبلها ومع ما بعدها. والله أعلم. وكذلك فإنّ لفظة التأنيث أضعف شأناً من لفظة التذكير، لأن القاعدة العامة الذكر أقوى من الأنثى.

(١) ينظر: المبنى والمعنى: ٤٠٩.

ويتبادر سؤال آخر إلى الأذهان لماذا أفردت لفظة (الدار) في الآيات السابقة إلاّ في اثنتين وهما: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود، الآية: ٦٧]، ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود، الآية: ٩٤].

وقد أجاب الإسكافي عن ذلك: "إذا كان الجمع والتوحيد جائزين كان وجه التوحيد على طريقين:

أحدهما: أن يُراد بدارهم: بلدهم فيوحد ذهاباً إلى معنى الدار وهو موحدٌ، ويذهب به مذهب الجنس، كما تقول: دينارهم شر من درهمهم... بني الكلام في اختصاص موضع بالتوحيد وموضع بالجمع وأن يقال هل ذلك لفائدة تخصصه به؟ أنّ الله - تعالى - وهو في كل مكان ذكر في ابتدائه ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ ﴾ [الأعراف، الآية: ٧٣] و﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ ﴾ [الأعراف، الآية: ٨٥]، ولم يذكر إخراج النبي ومن آمن معه من بينهم فجعلهم بني أب واحد وجعلهم كذلك أهل دار واحدة ورجا أيضاً أن يصيروا بالإيمان فرقة واحدة، وكل موضع أخبر عن تفريقه بينهم وإخراج النبي ومن آمن منهم معه أخبر عنهم الإخبار الدال على تفرق شملهم وتشتت أمرهم وذهاب المعنى الذي كان يجمعهم لأب واحد ودار واحدة وأن يصيروا مع المؤمنين فرقة واحدة، فقال: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ * وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود، الآيتان: ٦٦ - ٦٧]، وقال - تعالى -: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود، الآية: ٩٤]، فإن قال: فقد قال في قصة شعيب عليه السلام في سورة الأعراف ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ * ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الآيتان: ٩١ - ٩٢]، فوحد الدار وقد خرج شعيب عليه السلام من بين أظهرهم ووقع الحكم بتفرق شملهم، فكان ما ذهب إليه يقتضي أن يجمع الدار، فيقال: ديارهم هذا المكان.

الجواب أن يُقال: إنه لم يتقدم في هذا الموضع ذكر إخراجه من بينهم مع الذين آمنوا معه، كمال ذكر في الموضعين الأخيرين في قصته عليه السلام في سورة هود وفي قصة شعيب عليه السلام فيها ألا ترى أنه قال في قصة صالح عليه السلام في سورة الأعراف وسورة هود قبل أن أخبر أنه نجّاه ومن آمن معه منهم (لمّا جاء أمره) مرتين فوحد الدار فيهما، وفي الموضع الذي ذكره بقصته مع المؤمنين جمع الدار فيهما، وكذلك جاء في قصة شعيب في موضعين أحدهما جمع فيه وفي الآخر وحده والجمع حيث ذكر إخراجه منهم مع المؤمنين معه"[1].

أي أنّ الإسكافي وضّح أن كل موضع ذكر فيه النبي وقومه بوصف أنه أخوهم جاء إفراد الدار لأنهم أبناء أب واحد وديارهم دار واحدة بشرط أن لا يذكر إخراج النبي والذين آمنوا معه كما في الأعراف: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ [الآية: ٧٣] إلى قوله: ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [من الآية: ٧٨] من دون أن يذكر إخراج النبي والذين آمنوا معه.

وكذلك قوله سبحانه وتعالى في قصة شعيب عليه السلام في سورة الأعراف أيضاً: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [من الآية: ٨٥]، إلى قوله - تعالى -: ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [من الآية: ٩١].

أما إذا ذُكر إخراج النبي والذين آمنوا معه فإن ذلك يقتضي الجمع، لأن الكفر فرّق بينهم فلم يكونوا أهل دار واحدة، ولهذا قال - تعالى - في سورة هود في قصة صالح عليه السلام ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ [من الآية: ٦٧] جاء بعده ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [من الآية: ٦٧]، بجمع لفظة (ديار)، وكذلك ورد في قصة شعيب، قال - تعالى -: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [هود، الآيتان: ٦٦ - ٦٧].

(١) درة التنزيل: ١١٥.

ولذلك نرى أن نظرته صائبة فعندما نأتي إلى سورة العنكبوت نرى قصة شعيب قد أفردت فيها (الدار)، لأنه لم يذكر إخراج النبي والذين معه، يقول - سبحانه -: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [الأعراف، من الآية: ٨٥]، وفي الآية التي بعدها: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [الأعراف، من الآية: ٩١].

أما الكرماني فإنه علل الإفراد والجمع بتعليل آخر، وهو رأي مبني على فهم الدلالة للنص وربط الدلالة بسياق النظم القرآني حيث لاحظ أن الجمع للدار جاء مع الصيحة والإفراد جاء مع الرجفة التي في أصلها اللغوي الاضطراب الشديد كما أسلفنا، ولما كانت من جهة السماء كان بلوغها أعظم وأثرها أشد فوافق ذلك جمع لفظة (الديار) لأن الجمع يدل على الكثرة وعلى المبالغة، كما ناسب سياق الآية الثانية الإفراد لمناسبة لفظة ﴿ الرَّجْفَةُ ﴾ ولما يفيده الإفراد من الخصوص والتقييد. يقول الكرماني: "حيث ذكر ﴿ الرَّجْفَةُ ﴾ وهي الزلزلة وحدّ الدار، وحيث ذكر الصيحة جمع لأن الصيحة كانت من السماء فبلوغها أكثر وأبلغ من الزلزلة فاتصل كل واحد بما هو أليق"[(١)].

وعندما نقارن هذه النظرة على ما جاء في القرآن الكريم نرى أن الإفراد مع الرجفة جاء في موضعين في سورة الأعراف في قصة صالح عليه السلام ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [الآية: ٩١]، وفي قصة شعيب عليه السلام ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [الآية: ٧٨].

وأوضح ابن الزبير أن الصيحة فيها اطلاق دون تقييد، أما الرجفة ففيها خصوص[(٢)] أما ابن جماعة والأنصاري فقد وافقا الكرماني ونقلا نص كلامه[(٣)].

وعلى هذا يمكن أن تحمل الآية على توجيه الإسكافي، كما يمكن أن تحمل على توجيه الكرماني، لأن الأسرار البلاغية لا تتزاحم مهما كثرت، ويمكن أن

---

(١) البرهان: ٨٥.

(٢) ينظر: ملاك التأويل: ١/ ٥٣٤.

(٣) ينظر: كشف المعاني: ١٨٠، وفتح الرحمن: ١٤٣.

تجمع التوجيهات معاً. ومن خلال تأملي في هذه الآيات استنتجت شيئاً آخر هو أن الرجفة تعني الزلزلة والاضطراب الشديد، ويكون تأثيرها على المنازل والمساكن دون العراء والصحاري، أما الصيحة فتأثيرها يكون على المنازل والمساكن وعلى من كان في العراء والصحاري، لأن الصوت الشديد يسير مع الهواء، فإذا استطاع البعض من هؤلاء الأقوام النجاة من الرجفة إذا كانوا خارج منازلهم، فإن الصوت يلاحقهم في مساكنهم وخارجها، ومن هنا ناسبت كلمة الديار مع الصيحة، لأنها لا تكون في المنازل فحسب، بل في الصحاري والفيافي، فأصبحت دياراً متعددة وهم جاثمون فيها هلكى، ولأن العذاب مع لفظة الصيحة سيكون أكبر، ويشمل من كان ساكن المنزل أو خارجه، ولهذا السبب جمع لفظ الدار.

٢ - قال - تعالى - ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾ [المعارج، الآية: ٣٤].

وقال – تعالى- ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾ المعارج، الآية: ٣٤ ذكر الله ﷻ لفظة ﴿ صَلَوَٰتِهِمۡ ﴾ جمعاً في سورة المؤمنون وأفردها في المعارج، فلا بدّ من حكمة من هذا التغيير، ومن سر بلاغي في هذا التبديل، قال ابن الزبير في ذلك: "إنّ ذلك مناسب لما اكتنف هذا الوصف في آية سورة المؤمنين لما كان ذكر محافظتهم على صلاتهم قد اكتنفه ما تقدمه وما تأخر عنه من تفخيم الوصف في المتقدم وتفخيم الجزاء في المتأخر ناسب ذلك تفخيم العبارة عن فعلهم، فورد بلفظ الجمع في قراءة الأكثرين فقيل: " ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾ أما تفخيم الوصف المتقدم فذكرهم بالفلاح وهو الظفر بالمراد والبقاء في الخير وذكّرهم بالخشوع في صلاتهم وإعراضهم عن اللغو، ولم يقع في متقدم وصفهم في سورة المعارج ما يوازن هذه الأوصاف... وأما نعتهم الوارد في جزائهم فوصفهم بأنهم الوارثون ثم تخصيصهم بإرث الفردوس، وهو أعلى الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة، ووصفهم بالخلود فيها، ولا يوازن هذا بقوله عقب آية المعارج ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ﴾ [الآية: ٣٥]، فالجمع يفيد التفخيم، فجاء مع الآيات التي فيها تفصيل في فضائلهم والجزاء الذي أعدّ لهم"[١].

---

(١) ملاك التأويل: ١ / ٤٦٠ - ٤٦١.

أما الزمخشري فكان له رأي آخر وهو: "فإن قلت كيف كرر ذكر الصلاة أولاً وآخراً؟ قلت هما ذكران مختلفان، فليس بتكرير وصفوا أولاً بالخشوع في صلاتهم وآخراً بالمحافظة عليها، وذلك أن لايسهوا عنها ويؤتوها في أوقاتها ويقيموا أركانها ويوكلوا نفوسهم بالاهتمام بها وبما ينبغي أن تتم به أوصافها، وأيضاً فقد وحدت أولاً ليفاد الخشوع في جنس الصلاة أي صلاة كانت وجمعت آخراً كنفاد المحافظة على اعدادها، وهي الصلوات الخمس والوتر والسنن المرتبة مع كل صلاة وصلاة الجمعة والعيدين والجنازة والاستسقاء والكسوف والخسوف وصلاة الضحى والتهجد وصلاة التسبيح وصلاة الحاجة وغيرها من النوافل"(١).

وكذلك قال بهذا التوجيه أبو حيان (٢)، وابن عاشور(٣) في تفسيريهما. وتوجيه الزمخشري مقبول، وذلك لتقدم ذكر الصلاة والتنبيه على خشوعها في بداية السورة بصيغة الإفراد، فالمراد منها جنس الصلاة، فلما تكرر ذكر الصلاة والتأكيد عليها جاء اللفظ بصيغة الجمع، ولهذا قال ابن عاشور: وإنما ذكر هذا مع ما تقدم من قوله - تعالى -: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون، الآية: ٢]، لأن ذكر الصلاة جاء تبعاً للخشوع فأُريد ختام صفات مدحهم بصفة محافظتهم على الصلوات ليكون لهذه الخصلة كمال الاستقرار في الذهن لأنها آخر ما قرع السمع من هذه الصفات، وقد حصل بذلك تكرير ذكر الصلاة تنويهاً بها... لتزداد النفس قبولاً لسماعها ووعيها فتتأسى بها"(٤).

أما توجيه ابن الزبير ففيه من الدقة والتمحيص للسياق، لأن الموصوفين في آية المعارج قد وعدوا بالجنة كما هو حالهم في سورة المؤمنون، ولكن وصف الجنة في آيات سورة المؤمنون أعظم، لأن الفردوس لا ينالها إلاّ المصطفون من الأخيار، وكذلك الذين وصفهم الله - تعالى - بأنهم هم الوارثون لأفضل ما في الجنة، وأما سورة المعارج فلم تذكر الفردوس ولا الإرث.

---

(١) الكشاف: / ٤ ٠ ٧.

(٢) ينظر: البحر المحيط: ٦ / ٣٦٨.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٩/١٨.

(٤) التحرير والتنوير: / ١٨/ ١٨.

٣ - بين الجمع والجمع:

تكلمنا عن المفرد والمفرد، وبين المفرد والجمع في الآيات المتشابهات، وهنا سنتكلم عن الآيات المتشابهة التي فيها اختلاف من حيث الجمع والجمع، أي: بذكر لفظة جمع في آية وفي آية أخرى جمع آخر، أي: قد يكون جمع تكسير في آية أو جمع مذكر سالماً في آية أخرى أو جمع تأنيث في أخرى، وفي ذلك أسرار بيانية، وفوائد كثيرة تترتب على هذا التغيير بين الآيات المتشابهة.

وبصورة عامة ينقسم الجمع إلى جمع قلّة وجمع كثرة، فجمع القلّة ثلاثة إلى العشرة، ولها أربعة أوزان هي: أفعل مثل أكعُب، وأفعال مثل أفراس، وأفعلة مثل أرغفة، وفِعلة مثل غِلمة، وكذاك ما جمع بالواو والنون والألف والتاء، أي جمع مذكر سالماً وجمع مؤنث سالماً، وما عدا ذلك يكون جمع كثرة [1]، وإذا تبين لنا هذا فإنّ الله ﷻ أبدل لفظ جمع مذكر سالماً بلفظ جمع تكسير أو جمع إناث، فليس من العبث أن يكون الإبدال وإنما لحكمة بلاغية ولسر بياني، وإليك أمثلة لذلك:

١ - قال - تعالى -:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [البقرة، من الآية: ٦١].

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ [آل عمران، من الآية ١١٢].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران، الآية: ٢١].

وردت في هذه الآيات الثلاث كلمة ﴿ النَّبِيِّينَ ﴾ في سورتي البقرة وآل عمران، ووردت كلمة ﴿ الْأَنْبِيَاءَ ﴾ في سورة آل عمران، فلماذا هذا التغيير، مع العلم أنها جميعاً تتكلم عن كفر بني إسرائيل وقتلهم الأنبياء؟ ولقد أجاب الكرماني

---

(١) شرح المفصل: ٢ / ٣٧٤.

عن ذلك بقوله: "لأن ما في البقرة إشارة إلى الحق الذي أذن الله أن تقتل النفس به، وهو قوله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [الإسراء، من الآية: ٣٣]، فكان الأَولى بالذكر لأنه من الله - تعالى -. وأما في سورتي آل عمران نكرة، أي: بغير حق في معتقدهم ودينهم، فكان هذا بالتنكير أولى، وجمع النبيين جمع السلامة في سورة البقرة لموافقة ما بعده في جمع السلامة وهو: (الذين، الصابئين)، وكذلك في آل عمران (الذين، ناصرين، ومعرضون، بخلاف الأنبياء في السورتين)"[١].

فالكرماني في شرحه للآيات المتشابهات يعتمد على التناسق في بناء الألفاظ وتوافقها في سياق الآيات في الاهتداء إلى الفروق المعنوية فيها، وكذلك ذهب إلى الرأي نفسه الفيروز آبادي[٢].

أما ابن الزبير فيقول: "إنّ جمع التكسير يشمل أولى العلم وغيرهم، أما جمع السلامة فيختص في أصل الوضع بأولى العلم، وإذا تقرر هذا فورود جمع السلامة في سورة البقرة مناسب من جهتين:

إحداهما: شرف الجمع لشرف المجموع.

والثانية: مناسبة زيادة لمد لزيادة أداة التعريف في لفظ الحق.

ولما لم يكن في الآية الثانية سوى شرف المجموع، وكانت العرب تتسع في جموع التكسير فتوقعها على أولى العلم وغيرهم، أُتي بالجمع هنا مكسراً لتحصل اللغتان حتى لا يبقى لمن تَحدى بالقرآن حجة إذ هم مخاطبون بما في لغاتهم"[٣].

ويرى أبو حيان الأندلسي أنه لا فرق قي الدلالة بين النبيين والأنبياء لأنه إذا دخلت عليهما (ال) التعريف تساويا بخلاف حالهما إذا كانا نكرتين، لأن جمع السلامة إذ ذاك ظاهر في القلّة وجمع التكسير على أفعلاء ظاهر في الكثرة، وأوضح أن نافعاً قرأ بالهمز ﴿ النَّبِيِّينَ ﴾ وحده أما غيره بالتسهيل"[٤].

---

(١) البرهان: ١١٢.

(٢) بصائر ذوي التمييز، ١ / ١٤٤.

(٣) ملاك التأويل: ١ / ٢١٨.

(٤) البحر المحيط: ١ / ٢٣٧.

وفي كلامه رد على ابن الزبير حين قال: "مناسبة زيادة المد لزيادة أداة التعريف في لفظ الحق، لأن التعليل يعتمد على قراءة نافع التي تمد اللفظ مداً متصلاً، نظراً لإثبات الهمز، فإذا جاءت قراءة أخرى غير قراءة نافع اختفى المد وبه يختفي التعليل"[1].

ولو تتبعنا كلمة ﴿ ٱلْأَنۢبِيَآءَ ﴾ في القرآن الكريم سنجد أنها قد جاءت خمس مرات، كلها مع القتل إلاّ مرة واحدة، وإليك الآيات:

١ - ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة، من الآية: ٩١].

٢ - ﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ [آل عمران، من الآية: ١٨١].

٣ - ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ [النساء، من الآية: ١٥٥].

٤ - ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ [آل عمران، من الآية: ١١٢].

٥ - ﴿ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾ [المائدة، من الآية ٢٠].

وأما كلمة ﴿ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ فقد جاءت ثلاث عشرة مرة، مرتين مع القتل والباقيات في الإيمان وإرسال النبيين وعدم اتخاذهم أرباباً وأخذ الميثاق منهم وحشر المؤمنين معهم، وتفضيل بعضهم على بعض، ورسول الله خاتم النبيين، والمجيء بهم يوم القيامة.

نستنتج من ذلك:

أن لفظة ﴿ ٱلْأَنۢبِيَآءَ ﴾ في الآية: ١١٢ من سورة آل عمران تدل على جمع القلّة وإن كانت على وزن (أفعلاء)، والتي قال النحاة أنها لجمع الكثرة، وذلك للأسباب الآتية:

---

(١) ملاك التأويل: ١ / ٢١٧.

(١) أنّ النحاة قالوا: "إن العرب تستعمل جمع الكثرة مكان جمع القلّة وبالعكس، كقولهم قلم وأقلام، واستغنوا بهذا عن جمع الكثرة"[١].

(٢) لأن السياق في الآية:١١٢ من سورة آل عمران يدل على القليل فقبل هذه الآية ورد قوله - تعالى -: ﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران، من الآية: ١١٠]، وجاء بعدها قوله - تعالى -: ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ [آل عمران، الآيتان: ١١٣ - ١١٤]، أنّ أهل الكتاب أمة قليلة لو قيسوا بالبشرية ومنهم المؤمنون قبل الآية وأمة قائمة مؤمنون بعد الآية.

إذن فلا بدّ أن تكون كلمة ﴿ ٱلْأَنۢبِيَآءَ ﴾ دالة على القلّة.

(٣) لفظة ﴿ ٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ في القرآن الكريم دلّت على الكثرة، لأنه يجب الإيمان بكل المرسلين، والله ﷻ هو الذي بعثهم فهل يعقل أن يرسل قسماً ولن يبعث آخرين أو أن يتخذ بعضهم أرباباً أو أخذ الله ميثاق بعضهم دون بعض أو يُؤتى ببعض النبيين يوم القيامة ولم يؤتَ ببعضهم، كل ذلك ورد مع ﴿ ٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ وليس مع ﴿ ٱلْأَنۢبِيَآءَ ﴾.

(٤) أن عدد المقتولين من ﴿ ٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ قليل لو قورنوا بجميعهم، ولهذا وردت لفظة (قتل) مع الأنبياء في الآيات الأربع والمرة الخامسة جاءت بأن جعل قسماً منهم أنبياء، قال - تعالى -: ﴿ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾ [المائدة، من الآية:٢٠]، وكذلك فإن الملوك منهم قلّة فناسب ذكر ﴿ ٱلْأَنۢبِيَآءَ ﴾ منهم دلالة على القلة....

(٥) إنّ لفظة ﴿ ٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ في الآية: ٦١ من سورة البقرة، وإن جاءت مع القتل مرتين، لكنها تدل على القلّة لأنها جمع مذكر سالماً ولتلاؤمها مع الآيات اللاحقة بها، وهي ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ

---

(١) ينظر: شرح المفصل: ٢ / ٢٧٥.

وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة، الآية: ٦٢] والسابقة عليها ﴿ **وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ** ﴾ [البقرة، من الآية: ٦١]، حيث جمع الذل والمسكنة معاً حيث تخاطب اليهود فقط.

وأما كلمة ﴿ **ٱلْأَنۢبِيَآءَ** ﴾ فقد جاءت متناسقة مع الألفاظ بعدها، حيث وردت ﴿ **لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ** ﴾ [آل عمران، الآية: ١١٣].

(٦) إنّ لفظة ﴿ **ٱلْأَنۢبِيَآءَ** ﴾ جاءت في سورة آل عمران دالة على القليل، ولكنها في الوقت نفسه تدل على التهويل والتعظيم لعظم الوزر وشناعة الإثم، لأن قتل النفس يعدل قتل الناس جميعاً، كما قال - تعالى -: ﴿ **مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا** ﴾ [المائدة، من الآية: ٣٢]، فكيف بقتل نبي من عند الله، ودلّ على هذا التهويل العقوبة الإلهية التي استحقوها.

٢ - قال - تعالى -:

﴿ **نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ [البقرة، من الآية: ٥٨].

﴿ **نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ [الأعراف، من الآية: ١٦١].

إذا أردنا أن نعرف معنى الآيتين فعلينا أن نميز الفرق بين ﴿ **خَطَٰيَٰكُمْ** ﴾ و﴿ **خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ** ﴾ سواء في أصل الكلمتين من حيث الوضع أو من حيث السياق الذي وردت كل منهما فيه، فحينئذٍ تتبين لنا الحكمة من التحول من آية إلى أخرى.

وقد قيل في معنى (خطيئة): الذنب القاصر على فاعله والإثم هو الذنب المتعدي إلى الغير كالظلم والقتل، وقيل: الخطيئة: ما لا ينبغي في فعله سواء كان

بالعمد أو الخطأ[1]، وقيل أيضاً: إن الخطيئة تكون عن عمد وغير عمد. وقال الأزهري: "الخطيئة والخطأ: الإثم ويقوم مقام الخطأ وهو ضد الصواب"[2]. وقيل: الخطأ: العدول عن ذلك وذلك أنواع:

أحدها: أن يريد غير ما يُحسن إرادته فيفعَلَهُ، وهذا هو الخطأ التام المأخوذ به فاعله، ويقال منه: خطئ يخطأ خِطأً وخطأة.

والثاني: أن يريد ما يُحسنُ فعله، ولكن يقع خلاف ما يريد ويقال منه أخطأ أخطاءً فهو يخطئ وهذا مصيب في إرادته فخطئ في فعله وإياه عني بقوله ﷺ **((من اجتهد فأخطأ فله أجرٌ))**[3]. وقوله ﷺ: **((رُفِع عَنْ أمتي الخطأ والنسيان))**[4].

والثالث: أن يريد ما لا يحسن فعله ويسبق منه فِعله، فهذا عكس ما قبله من أنه مصيب في فعله مخطئ في إرادته، فهذا مذموم بقصده غير محمود على فعله، وجملة الأمر أن، من أراد شيئاً واتفق منه غيره يُقال: أخطأ وإن وقع منه، كما أراد يُقال: أصاب الخطأ وأخطأ الصواب وأخطأ الخطأ، وهذه اللفظة مشتركة مترددة بين معانٍ كما ترى فيجب على من يتحرى الحقائق أن يتأملها)[5].

وفي القاموس المحيط: "والخطيئة: الذنب أو ما تعمد منه والخطأ ما لم يتعمد جمعه خطايا"[6].

إذن **الخطيئات**، هي: الذنوب التي يرتكبها الإنسان متعمداً مخالفاً لأمر الله ﷻ عارفاً بعصيانه لخالقه. وأما **الخطايا**: فهي الذنوب التي يرتكبها الإنسان جاهلاً بالعقوبة التي تترتب عليها، ومفردها (خطأ) فهي الأمور التي لا يُحاسب الإنسان عليها، فالمخطئ كالناسي والمجنون عند الشافعية والمالكية والحنابلة لا يترتب

---

(١) ينظر: غرائب الفرقان: ٢ / ٤٩٣.

(٢) القاموس المحيط للفيروز آبادي ٢/٤٩٣.

(٣) صحيح البخاري، باب في الاعتصام، رقم الحديث (٦٩١٩)، وصحيح مسلم، باب في الأقضية، رقم الحديث (١٧١٦).

(٤) ابن ماجه: ١ / ٦٥٢، والمعجم الكبير: ١١ / ١٣٣.

(٥) عمدة الحفاظ: ١ / ٥١٠ - ٥١١، وينظر: المفردات: ١٥٦.

(٦) القاموس المحيط: ١ /١٤.

على عبادته أي عقد أو التزام"(١).

الخطأ والخطّاءُ: ضد الصواب، وقد أخطأ، وفي التنزيل: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ ﴾ [الأحزاب، من الآية: ٥]. عداّه بالباء لأنه في معنى عثرتم أو غَلِطتُم"(٢). وأخطأ الطريق عدل عنه، وأخطأ الرامي الغرضَ لم يصبه. وخَطِئَ الرجل يخْطَأُ وخِطْأة: أذنب. والخَطَأَ: ما لم يُتَعمّد. والخِطأُ ما تُعُمِّدَ. والمخطئ: من أراد الصواب فصار إلى غيره. والخاطئ: مَنْ تَعمد لما لا ينبغي. قال المنذري: سمعت أبا هيثم يقول: خَطِئتُ: لما صنعه عمداً"(٣). والخطيئة: الذنب على عَمْد والخِطْأ: الذنب، قال - تعالى -:﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء، من الآية: ٣١]، أي: إثماً.

والخطيئات: جمع مؤنث سالم يفيد القلّة، والخطايا جمع تكسير على وزن فعائِل لأن نظيرها من الصحيح صحيفة صحايف.

وقد فسّر العلماء هذه الكلمة حسب السياق وحسب مدلول الكلمتين من حيث القلّة أو الكثرة، ومن هؤلاء العلماء الخطيب الإسكافي الذي قال: "أنّ السر في استعمال ﴿خَطَـٰيَـٰكُمْ ﴾ التي تفيد الكثرة في آية البقرة، أن صدر الآية جاء بإِخبار الله - تعالى - عن نفسه، وهذا تعظيم فناسبه ذلك يقول: "أما الكلام في الخطايا" واختيارها في سورة البقرة فلأنها موضوع للجمع الأكثر، والخطيئات جمع سلامة، وهي الأقل، فاستعمال لفظ الكثير في الموضع الذي جعل الإخبار فيه عن نفسه، بقوله - تعالى -: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ ﴾ [البقرة، من الآية: ٥٨]. وشرط لمن قام بهذه الطاعة ما يشرطه الكريم إذا وعد من مغفرة الخطايا كلها.. فأتى باللفظ الموضوع للشمول فيصير كالتوكيد للعموم، ولما لم يسند الفعل في سورة الأعراف إلى نفسه عزّ اسمه، وإنّما قال: ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ ﴾ [الأعراف، من الآية: ١٦١]، فلم يسم الفاعل أتى بلفظ الخطيئات، وإن كان المراد بها الكثرة، كالمراد

(١) الفقه الإسلامي وأدلته: ٤/ ٣٠٤١.

(٢) لسان العرب: ١ / ٨٥٤.

(٣) لسان العرب: ١ / ٨٥٤.

بالخطايا، إلاّ أنه في الأول لما ذكر الفاعل بما هو لائق"[١].

وقد وافقه الكرماني، لكنه أوجز بقوله: "وفي هذه السورة ﴿ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾ - يعني بها سورة البقرة - بالإجماع، وفي سورة الأعراف ﴿ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ﴾ مختلف لأن خطايا صيغة الجمع الكثير، ومغفرتها أليق بالآية لإسناد الفعل إلى نفسه - سبحانه - "[٢].

أما ابن الزبير فلم يوجه الآيات هذه توجيه الإسكافي بل على ما بنيت عليه آيات البقرة من كثرة النعم والآلاء على بني إسرائيل، وفي الأعراف بالخطيئات، لأن الآيات لم تبنَ من قصد تعداد النعم، فيقول: "فورد جمعها في البقرة مكسراً يناسب مابنيت عليه آيات البقرة من تعداد النعم والآلاء، لأن جمع التكسير ما عدا الأربعة أبنية التي هي: أفعل وأفعال وأفعلة وفعلة، إنما ترد في الغالب للكثرة، فطابق الوارد في سورة البقرة ما قصد من تكثير الآلاء والنعم. وأما الجمع بالألف والتاء فبابه القلّة في الغالب أيضاً ما لم يقترن به ما يبين أن المراد به الكثرة، فناسب ما ورد في سورة الأعراف من حيث لم تبنَ آيها من قصد تعداد النعم على ما بنيت عليه آي سورة البقرة، فجاء كل على ما ناسب. والله أعلم"[٣].

أما الآلوسي فقد ذكر "أن الاختلاف هو من باب التفنن الذي هو من دأب البلغاء وفيه دلالة على رفعة شأن المتكلم"[٤].

ولو تتبعنا كلمة (خطأ) ومشتقاتها في القرآن الكريم لعلمنا أن العقوبة الإلهية ما جاءت إلاّ مع الخاطئ والخاطئة والخطيئات، فنرى الطعام من غسلين يأكله الخاطئون، قال - تعالى -:﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۞ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴾ [الحاقة، الآيتان: ٣٦ - ٣٧]، وقال: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة، الآية: ٨١].

ونرى اللفظة جاءت وقد اعترف مرتكبها بالإثم، أي أنه كان متعمداً في الفعل

(١) درة التنزيل: ١١.

(٢) البرهان في تشابه القرآن: ١١٠.

(٣) ملاك التأويل: ١ / ٢٠٧.

(٤) روح المعاني.

الذي قد صدر منه، وهؤلاء إخوة يوسف ﷺ يعترفون بأنهم قد أثموا معه، قال - تعالى -: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ [يوسف، من الآية ٩١]. وهذه امرأة العزيز يعترف زوجها بخطئها المتعمد، قال - تعالى -: ﴿ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ [يوسف، من الآية: ٢٩].

أما كلمة خطايا فلم ترد عقوبة عليها في القرآن الكريم، وقد جاءت خمس مرات، مرتين على لسان سحرة فرعون، وهم يدعون الله ﷻ أن يغفر لهم خطاياهم بعدما رأوا الحقيقة مع موسى ﷺ، قال - تعالى -: ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا ﴾ [طه، من الآية: ٧٣]، وقال: ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ ﴾ [الشعراء، من الآية ٥١]، ومرتين في سورة العنكبوت، قال - تعالى -: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الآية ١٢]، ومرة خامسة في بني إسرائيل في سورة البقرة والتي نحن بصدَدها.

نستنتج من ذلك:

أنّ الله ﷻ استعمل كلمة (الخطيئات) في سورة الأعراف، لأن اللفظة فيها التعمد والإصرار على الذنب، وذلك أن رب العالمين أخرج المؤمنين من (الخطيئات) قبل هذه الآية، قال - تعالى -: ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [الآية: ١٥٩]، وقال بعد: ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ﴾ [الآية: ١٦١]، مباشرةً: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ [من الآية: ١٦٢]، حيث أخرج المؤمنين من قوم موسى، فأرسل على الظالمين رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون، ولهذا جاءت العقوبة لهم، باستعمال كلمة (خطيئات) عوضاً عن ﴿خَطَٰيَٰكُمْ﴾.

أما في سورة البقرة، فكان التعبير بالخطايا لأنها عامة لبني إسرائيل المؤمنين منهم والظالمين، فهي ﴿ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾ تفيد الكثرة، وأنها دالة على الذنوب التي تعمدوها أو تلك التي لم يتعمدوها.

د - المشتقات:

ويعنينا منها ما ورد في الآيات المتشابهة مثل ما جاء على وزن فاعل وأفعل، وفاعل وفعّال، ومفتعل ومتفاعل.

١ - على وزن فاعل وأفعل:

قال - تعالى -:

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾ [هود، الآية: ٢٢].

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [النحل، الآية: ١٠٩].

الاختلاف حاصل بين ﴿ الْأَخْسَرُونَ ﴾ و﴿ الْخَاسِرُونَ ﴾ ف﴿الْأَخْسَرُونَ ﴾ اسم تفضيل فعدل عنه إلى اسم فاعل في الآية الثانية، فلا بدّ من حكمة وسر بلاغي وقد علّق الإسكافي على هاتين الآيتين وما بينهما من اختلاف، وجعله يعود إلى سببين:

١ - من جهة المعنى، وهو أنّ آية هود جاء قبلها قوله - تعالى -: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾ [من الآية: ٢٠]، فصدوا عن السبيل وصدّوا غيرهم عنه صدّاً استحقوا تضعيف العذاب لأنهم ضلّوا وأضلّوا، فهذا موجب الأخسرين دون الخاسرين من طريق المعنى. أما آية النحل، فلم يخبر فيها عن الكفار بأنهم مع ضلالهم أضلوا من سواهم، فلم يذكر ما يوجب مضاعفة العذاب.

٢ - أما الوجه الآخر، فهو عن طريق اللفظ، وهو موافقة الفواصل، ففي سورة هود قبل قوله: ﴿ الْأَخْسَرُونَ ﴾ و﴿ يُبْصِرُونَ ﴾ و﴿ يَفْتَرُونَ ﴾ فما قبل الواو والنون متحركات، لا يعتمدان على ألف قبلها بخلاف ﴿ الْخَاسِرِينَ ﴾ في آية النحل، فإنها موافقة لما تقدمها ك﴿ الْكَافِرِينَ ﴾ و﴿ الْغَافِلِينَ ﴾، فاقتضى هذان الشيئان أن يُقال: ﴿ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف، من الآية: ١٧٨]. كما اقتضى الشيئان في

الأولى المخالفات للشيئين هنا أن يُقال: ﴿ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴾ [(١)].

وقد وافق الكرماني على هذا التوجيه وأشار إليه بقوله: "لأن هؤلاء صدّوا عن السبيل وصدّوا غيرهم فضلّوا وأضلّوا منهم الأخسرون يُضاعف لهم العذاب، وفي سورة النحل صدّوا فهم الخاسرون، قال الخطيب: "لأن ما قبلها في هذه السورة ﴿ يُبۡصِرُونَ ﴾ و﴿ يَفۡتَرُونَ ﴾ لا يعتمدان على ألف بينهما، وفي سورة النحل ﴿ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ و﴿ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾ فللتوفقة بين الفواصل جاء في هذه السورة على ﴿ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴾ وفي الأخرى ﴿ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾" [(٢)].

ولقد ذهب ابن الزبير إلى توجيه الإسكافي بموافقة الفواصل وأوغل بشرحها، إذ قال: "أن آية هود قد تقدمها (ما يفهم) المفاضلة، ألا ترى أن قوله - تعالى -: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [هود، الآية: ١٧]، يفهم من سياقها أنّ المراد: أفمن كان على بينة من ربه كمن كفر وجحد وكذّب الرسل؟ ثم أتبع هذا بقوله: ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ ﴾ [هود، من الآية: ١٨]، فهذا صريح مفاضلة... فناسب لفظ ﴿ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴾ بصيغة التفاضل ومقصود التفاوت. ما تقدم مما يفهم ذلك من قوله - تعالى -: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [هود، من الآية: ١٧] وأفعل من كذا في قوله:﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ ﴾ [هود، من الآية: ١٨]، فالآيات من لدن قوله (أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ) إلى قوله (هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ) بينات على ما ذكرناه غير خارجة عن هذا المقصود، ولو ورد هنا ﴿ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ مكان ﴿ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾ لتنافى النظم وتباين السياق، ولم يتناسب".

وأما آية سورة النحل فلم يقع قبلها أفعل التي للمفاضلة والتفاوت ولا ما يفهمها، وإنما قبلها ﴿ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴾ و﴿ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ و﴿ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾، فتأمل

(١) درة التنزيل: ١٥٧ - ١٥٨.

(٢) البرهان: ١٩٩.

هذه الفواصل واتفاقها في اسم الفاعل المجموع جمع السلامة في قوم متفقي الأحوال في كفرهم إلى أن ختم وصفهم وما قصد من ذكرهم بقوله: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾ [هود، الآية: ٢٢]، فتناسبت الآي في السياق والتواصل، وختمت بمثل ما بدأت به.

ولم يكن ليناسب ما ورد هنا لفظة المفاضلة، إذ ليس في الكلام ما يستدعي ذلك لا من لفظه ولا من معناه، ووضح اختصاص كل من العبارتين بمكانه وإن العكس لا يلائم"[١]، وكذلك الأنصاري وافق على توجية الإسكافي في الأول وهو التوجيه المعنوي واختصره[٢].

إنّ الاختيارين مقبولان، ولكن الاختيار الأول أنسب وأولى ببلاغة القرآن الكريم، ويمكن أن يكون للآية علتان فأكثر، لأن التوجيه اللفظي ينظر إلى جانب التلاؤم الصوتي الذي عدّه الرماني أحد وجوه الإعجاز، كما ذكره الرافعي في إعجاز القرآن[٣].

ولو استقصينا معنى ﴿ خَسِرَ ﴾ لزادنا وضوحاً في الفرق بين الكلمتين، فكلمة ﴿ الْخُسْرَانُ ﴾ هو ذهاب رأس المال كلّه ثم كثر حتى سُمّي بعض رأس المال ﴿ خُسْرَانًا ﴾، وقال الله - تعالى -: ﴿ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ [هود، من الآية ٢١] لأنهم عدموا الانتفاع بها فكأنها هلكت وذهبت أصلاً فلم يقدر منها على شيء، وأصل ﴿ الْخُسْرَانُ ﴾ في العربية الهلاك "[٤].

ومن معاني ﴿ الْخُسْرَانُ ﴾ تقول: خسرتَهُ، وأَخْسرتَهُ، إذا أنقصته، قال - تعالى -: ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ [المطففين، الآية: ٣]، ومن معانيها العجز، والضلالة، ونقص الكيل، والباقين في العقوبة[٥].

---

(١) ملاك التأويل: ٢ / ٦٥٢.

(٢) فتح الرحمن: ١٨٨.

(٣) ينظر النكت في إعجاز القرآن، للرماني (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن): ٩٦، وينظر إعجاز القرآن، للرافعي: ٢١٧.

(٤) الفروق اللغوية: ٣٤١.

(٥) بصائر ذوي التمييز: ٢ / ٥٣٨.

إنّ الفرق بين ﴿ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾ و﴿ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ يجلّيه السياق فقد ذكر الله ﷻ في سورة هود أن هؤلاء الظالمين لم يكتفوا بظلم أنفسهم، بل تعدى ظلمهم إلى غيرهم، حيث ضلّوا وأضلّوا غيرهم، ولهذا ضوعف العذاب لهم، عذاب لأنفسهم وعذاب نتيجة صدّهم عن سبيل الله، فجاءت لفظة ﴿ يُضَٰعَفُ ﴾، إنّ هؤلاء الكافرين عطلوا سمعهم وأبصارهم فلم يستعملوها، فحين صمّوا آذانهم عن سماع الحق وأغشوا أبصارهم، فكان العذاب ضعفاً مرة لسمعهم ومرة لأبصارهم، لأنه جاء قبل هذه الآية ﴿ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴾ [هود، من الآية: ٢٠]، وجاء في سورة النحل ﴿ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ﴾ [من الآية: ١٠٨]، وفي سورة هود تحولت لفظة ﴿وَأَبْصَٰرِهِمْ ﴾ إلى جملة فعلية، ﴿ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴾، فأصبح العذاب على السمع وعلى البصر والبصيرة، فكان العذاب ضعفاً وذلك هو الخسران المبين.

ومن ثم وجود كلمة ﴿ خَسِرُوٓا۟ ﴾ قبل الآية، فلمّا بيّن الله ﷻ خسارة هؤلاء الكافرين، ولكنّ هذه الخسارة لا كبقية خسارة الآخرين، وإنما هم (ٱلْأَخْسَرُونَ)، فأطلقت اللفظة (الأخسر) لتدل على الخسارة الفادحة والهلاك العظيم، في حين لم ترد في سورة النحل لفظة ﴿ خَسِرُوٓا۟ ﴾ ولا ألفاظ التفاضل ولا أنّ هؤلاء صدّوا الآخرين عن سبيل الله، فكان جزاؤهم أنهم ﴿ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾، أي: هلكى ومعذبون، فكانت مناسبة للآيات التي قبلها.

فضلا عن وجود لفظتي الأعمى والأصم فيما بعد الآية من سورة هود، قال - تعالى -: ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود، الآية: ٢٤]، وفي الآية الكريمة تشبيه، حيث شبّه حال فريق الكفار بحال الأعمى بعدم الانتفاع بالنظر في دلائل آيات وحدانية الله - تعالى - من مخلوقاته بحال الأعمى، وشبهوا بعدم الانتفاع بأدلة القرآن بحال من هو أصم.

٢ - على وزن فاعِل وفعّال:

ومن الآيات المتشابهة، قوله - تعالى -:

﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ [الأعراف، الآية ١١٢].

وقوله تعالى: ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ [الشعراء، الآية: ٣٧].

لا بدّ أن يكون فرق بين الكلمتين، لأن كلمة ﴿سَٰحِرٍ ﴾ على وزن (فاعل)، وهو اسم فاعل، في حين أن لفظة ﴿ سَحَّارٍ ﴾ على وزن (فعّال) وهي صيغة مبالغة، فما دامت الآيتان متشابهتين واختلفت لفظة ﴿سَٰحِرٍ ﴾ مع ﴿ سَحَّارٍ ﴾ إذن هناك فرق بينهما، ولا بدّ أن تكون كل كلمة جاءت في مكانها المناسب من الآيتين، لتدل على معاني خاصة بها. أو بعبارة أوضح إن لفظة ﴿ سَحَّارٍ ﴾ تدل على معنى أوسع ومقصود أشمل، فنرى الكرماني يقول في توجيهه لهاتين الآيتين: "لأنه راعى في هذه السورة (الأعراف) ما قبله وهو قوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٠٩].

وراعى في الشعراء الإمام، أي: المصحف الإمام المعتمد رسمه في كتابة المصحف، فإنّ فيه ﴿ بِكُلِّ سَحَّارٍ ﴾ وقرئ في هذه السورة يقصد الأعراف ﴿ سَحَّارٍ ﴾ أيضاً طلباً للمبالغة وموافقة لما في الشعراء، وقد قال بهذا الرأي الأنصاري كذلك[١].

ولقد نظر الكرماني إلى المناسبة اللفظية في سورة الأعراف، حيث تقدم الآية فوله تعالى: ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ [الأعراف، الآية ١١٢]، فجاءت لفظة ﴿سَٰحِرٍ ﴾ في هذه الآية للتي تقدمتها من جهة، ومن جهة أخرى نظر في اختلاف القراءة، حيث رأى أن الآية في سورة الأعراف قد قُرئت بقراءة أخرى، وهي ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾، وهي قراءة حمزة والكسائي، في حين ان آية الشعراء اتفق القرّاء عليها أي ﴿ سَحَّارٍ ﴾ فكانت أصلاً، وبذلك وافقت آية الأعراف آية الشعراء، وبعد ذلك بيّن أن صيغة (فعّال) تفيد المبالغة للدلالة على قوة المعرفة بالسحر[٢].

ولكن ابن عاشور بيّن أن ﴿ سَحَّارٍ ﴾ على المبالغة في معرفة السحر فيكون

---

(١) فتح الرحمن: ١٤٨.

(٢) البرهان: ١٧٨.

وصف ﴿ عَلِيمٍ ﴾ تأكيداً لمعنى المبالغة، لأن وصف ﴿ عَلِيمٍ ﴾ هو من أمثلة المبالغة للدلالة على قوة المعرفة بالسحر[١]، وهذا هو المعنى الذي أراده الكرماني. أما ابن جماعة فقد قال: "وأما قوله هنا: ﴿ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾، وفي الشعراء ﴿ بِكُلِّ سَحَّارٍ ﴾ فلتقدم قوله ﴿ بِسِحْرِهِۦ ﴾ [الشعراء: ٣٥]، فناسب صيغة المبالغة ﴿ سَحَّارٍ ﴾"[٢].

وقد ذكر الدكتور عبد المجيد ياسين: "أن المقصود بقوله ﴿ بِكُلِّ سَٰحِرٍ ﴾ الكمية والعدد و﴿ بِكُلِّ سَحَّارٍ ﴾ النوعية والخبرة"[٣].

أما الدكتور راشد أحمد فقال: "وفي قوله ﴿ سَحَّارٍ ﴾ زيادة في المعنى اقتضتها صيغة (فعّال) الدالة على تكثير الفعل والمبالغة فيه، وكانت هذه الصيغة مناسبة لسياقها، حيث إن سادة القوم من أتباع فرعون لمّا رأوا شدة خوفه واضطرابه حيث قال للملأ حوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾، فلما علموا ذلك فيه أتوه بكلمة تدل على الإحاطة والمبالغة تطميناً لنفسه وتسكيناً لبعض قلقه، فوعدوه أن يجلبوا له مهرة السحرة ومتمرسيهم والضالعين في السحر. أما في سورة الأعراف، فإن القول صدر عن أشراف القوم لا عنه. قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٠٩]، ولم يكونوا على درجة من القلق ما في نفس فرعون ولا حرصهم على الرئاسة مثل حرصه ولم يكونوا مخلصين له العمل.

ولما كانت سورة الشعراء أكثر اقتصاصاً للأحوال التي كانت بين موسى عليه السلام وعدوه فرعون، حيث اشتملت على ذكر ابتداء مبعثه إليه في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠] ناسبها ذكر الصيغة الدالة على المبالغة ﴿ بِكُلِّ سَحَّارٍ ﴾"[٤].

(١) التحرير والتنوير: ٩ / ٥٤.

(٢) كشف المعاني: ١٠٩.

(٣) المبنى والمعنى في الآيات المتشابهات: ٢٨٥.

(٤) متشابهات أي القرآن الكريم - دراسة نحوية دلالية مقارنة .: ١٧٦ - ١٧٧.

ولنا بعد ذلك أيضاً أن نستنتج مما ورد في السورتين ما يأتي:

١ - أنّ لفظة (السحر) ومشتقاته ذكرت في سورة الشعراء أكثر من سورة الأعراف، وقد ذكرت ثمان مرات في سورة الشعراء وست مرات في سورة الأعراف، ولذلك كان من المناسب أن تأتي هذه اللفظة بصيغة المبالغة ﴿ سَحَّارٍ ﴾.

٢ - إنّ الكلام كان فيه من الشدة والقوة في الشعراء، بين الله تعالى وبين موسى، مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾[الشعراء: ١٠ - ١١]، ثم رد موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [الشعراء: ١٢ - ١٤] ثم يجيبه رب العالمين بكلمة ردع قوية ﴿ كَلَّا ﴾ [الشعراء: ١٥]، والمناقشة الحادة التي دارت بين موسى وفرعون مثل: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ ﴾ [الشعراء: ١٨ - ١٩] ومثل: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ٢٢]. فضلا عن أنّ الألفاظ التي جاءت فيها مضاعفة مثل عبّدت، لأجعلنك، فكان من المناسب اتيان صيغة المبالغة مع الألفاظ ككلمة ﴿ سَحَّارٍ ﴾.

٣ - على وزن مفتعل - متفاعل:

قال - تعالى -: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام، الآية: ٩٩].

وقال - تعالى -: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام، الآية: ١٤١].

هاتان آيتان فيهما من التشابه في:

١ - ﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ﴾

٢ - ﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ ﴾.

هاتان آياتان فيهما من التشابه في تحول اللفظ من (مشتبه) إلى (متشابه) وتبدلت لفظة (انظروا) إلى (كلوا). هذا التغيير في الآيتين لحكمة بلاغية ولمعنى مقصود لأن أي تغير سواء كان حرفاً أو كلمة أو جملة لا يأتي عبثاً في كتاب الله - تعالى - لأنه كتاب معجز للبشرية جمعاء والجن كذلك، إلى يوم البعث والنشور، وهذا التغيير له مغزاه في الآيتين، وقد بحث عنه علماؤنا وكلٌّ منهم قد أدلى بدلوه، فمنهم من أصاب ومنهم من اقترب ولكل واحد وجهة نظر أضاف بها معنىً وسراً لم يكن معروفاً لدى الآخرين، فهذا الإمام الكرماني يوضح لنا ما نجهله في هذا الاختلاف إذ يقول: "إن أكثر ما جاء في القرآن الكريم من هاتين الكلمتين جاء بلفظ التشابه نحو قوله: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًاۖ﴾ [البقرة، الآية: ٢٥] و﴿ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ﴾ [البقرة، الآية: ٧٠] و﴿ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْۗ ﴾ [البقرة، الآية: ١١٨] و﴿ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ ﴾ [آل عمران، الآية: ٧]، فجاء: ﴿ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ﴾ في الآية الأولى و﴿ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۚ ﴾ في الآية الأخرى على تلك القاعدة. ثم كان لقوله: ﴿ تَشَٰبَهَ ﴾ معنيان، أحدهما: التبس، والثاني: تساوى، وما في البقرة معناه: التبس فحسب فبيّن بقوله: ﴿ مُشْتَبِهًا ﴾ ومعناه: ملتبساً أن ما بعده من باب الالتباس أيضاً لا من باب التساوي (والله أعلم)[1].

فهو يرى أن أكثر ما جاء في القرآن الكريم من هذه الصيغة جاء بلفظ (تشابه ومتشابه) وعدّ ذلك أصلاً وبذلك جاءت الآية الثانية ﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۚ ﴾ أما الآية الأولى فيها مشتبهاً ومعناه ملتبساً، ويوضح ذلك

(١) البرهان:١٥٩.

الكلمة الثانية التي وردت في الآية نفسها ﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۚ ﴾.

أما ابن الزبير فقد اختلف توجيهه حين جعل الخفة والثقل بين الألفاظ هو المعيار، فهو يقول: "لا فرق بينهما إلاّ ما لا يعد فارقاً، فالافتعال والتفاعل متقاربان أصولهما الشين والباء والهاء من قوله: أشبه هذا هذا إذا قاربه وماثله ورد في أولى الآيتين على أخف البناء وفي الثانية على أثقلهما رعياً للترتيب المتقرر[(١)]، أي ترتيب الآيات في المصحف. وقد أشار الزمخشري بإيجاز[(٢)] إلى هذا الرأي، وكذلك قال بهذا الرأي الفخر الرازي وأبو حيان الأندلسي والآلوسي[(٣)].

أما ابن عاشور فله رأي آخر فهو يقول: "والجمع بينهما في الآية للتفنن وكراهية إعادة اللفظ، ولأن اسم الفاعل من التشابه أسعد بالوقف لما فيه من مد الصوت بخلاف (مشتبه) وهذا من بديع الفصاحة[(٤)].

وقد ذكر الدكتور فاضل السامرائي الفرق بينهما فقال: "إنّ الفعل اشتبه أكثر ما يفيد التشابه بين الشيئين أو الأشياء والمشاركة بينهما في معنى من المعاني سواء أدى ذلك إلى الالتباس أم لم يؤدِ[(٥)]، ومن ثم بيّن الدكتور فاضل السامرائي سبب التخصيص فقال: "إن الآية الأولى في بيان قدرة الله وآياته والأخرى في بيان ما يُؤكل من الفواكه والزرع، قال في الآية الأولى: ﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ ﴾ وهو نظر تدبر وتأمل، في حين قال في الآية الثانية: ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ ﴾، ومعلوم أن الذي يستطيع أن يشبه الأمور حتى تلتبس على الناظر أو المتأمل فلا يميز بينها أقدر من الذي يقدر على أن يجعل مجرد تشابه بين شيئين وأن الأمور المشبهة كلما دقت كانت أدل على القدرة والبراعة. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن الأمور المشتبهة تحتاج إلى زيادة نظر وتأمل لإدراك حقيقة أمرها،

---

(١) ملاك التأويل: ١ / ٤٦٦.

(٢) الكشاف: ٢ / ٤٠.

(٣) ينظر: التفسير الكبير: ١٣ / ٩، والبحر المحيط: ٤ / ١٢٩١، وروح المعاني: ٧ / ٢٢٧.

(٤) التحرير والتنوير: ٧ / ٤٠٢.

(٥) المفردة في القرآن الكريم: ٥٥.

فوضع ﴿مُشْتَبِهًا﴾ في السياق الدال على قدرته وآياته، وفي موضع الأمر بالنظر ﴿ انظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ ﴾ دون الموضع الآخر مما لبس في هذا السياق فكان كل تعبير أنسب في سياقه الذي ورد فيه"[١].

وقد ذكر الدكتور راشد أحمد أن السبب في الآية الأولى ﴿ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾ يرجع إلى ما سبق صيغة (متفاعلاً) في قوله: (متراكباً)، وعبّر بقوله: ﴿ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾ في الثانية لسبق صيغة مفتعلاً في قوله: (مختلفاً)، فحيث تقدمت (متفاعلاً) جاء بعدها (مفتعلاً)، وحيث تقدمت (مفتعلاً) جاء بعدها (متفاعلاً) للمزاوجة بين الألفاظ والاتساع في التعبير[٢].

إنّ ما ذكره العلماء من فروق معنوية بين (مشتبه) و(متشابه) تحتمله النصوص كما تبين الإعجاز البياني للفظة القرآنية، ويمكنني الاستدراك بما يأتي: أن كلمة (تشابه واشتبه) جذرهما واحد من (شبه) فتقول: تشابه الشيئان واشتبها أشبه كل واحد منهما صاحبه[٣].

وجاء في تاج العروس: (وتشابها واشتبها أشبه كل منهما الآخر حتى التبسا) ومنه قوله - تعالى -: ﴿ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾[٤].

وكما ذكر الدكتور فاضل السامرائي أن: (اشتبه) أكثر ما يفيد التشابه بين الشيئين أو الأشياء والمشاركة بينهما في بعض من المعاني سواء أدى ذلك إلى الالتباس أم لم يؤدِّ. أي أن مادة (اشتبه) فيها المماثلة لكنها فيها نوع من الالتباس أحياناً أي: يكون الشيء مساوياً ومثلاً للشيء تمام المساواة، فإذا علمنا هذا فكلمة (مشتبه) فيها المشابهة مع نوع من الالتباس.

في الآية الأولى يتكلم الله - تعالى - عن مراحل خلق الأشجار والزروع الدالة على وحدانية الله تعالى، فبدأ بكلمة (أنزل، فأخرجنا، فأخرجنا منه، نخرج..) فبما أن كلمة (مشتبه) تتكون من خمسة حروف فجاءت الأفعال أربعة وحذف

(١) المفردة في القرآن الكريم: ٥٣ - ٥٤.

(٢) متشابهات في أي القرآن الكريم: ١٧٨.

(٣) ينظر لسان العرب (مادة شبه): ١٧ / ٣٩٨.

(٤) تاج العروس (مادة شبه): ٩ / ٣٩٣.

الخامس في قوله - تعالى -: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ ﴾ [الأنعام، الآية: ٩٩] لأنه غير الأسلوب هنا، لأن (المقصود بالإخبار هنا التعجيب) من خروج القنوان من الطلع وما فيه من بهجة، وبهذا يظهر وجه تغيير أسلوب هذه الجملة عن أساليب ما قبلها وما بعدها إذا لم تعطف أجزاؤها عطف المفردات على أن موقع الجملة بين أضوائها يفيد ما أفادته أخواتها من العبرة والمنة"(١). ليدل كل حرف على مرحلة من مراحل خلق الأشجار والزروع، فجاءت هذه اللفظة (مشتبهاً) دون (متشابه).

وفي الآية الثانية جاءت لفظة ﴿ مُتَشَٰبِهٌ ﴾ وهي تتكون من ستة حروف، لتدل على الغاية من خلق الأشجار والزروع وهي: (الأكل)، وبذلك اكتمل خلق الأشجار والزروع والأثمار وأصبحت جاهزة في ستة مراحل على عدد حروف ﴿مُتَشَٰبِهٌ ﴾ في الآية، والتي دلّت عليها أيضاً لفظة ﴿ أَنشَأَ ﴾ بمعنى خلق، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ذكر الله ﷻ في الآية الثانية لفظة (مختلفاً) لتدل على أن لفظة (مشتبه) فيها نوع من الاختلاف سواء في الفواكه أو الزروع ولا سيما أنها على وزن: (مُفتعِل) وأنها لا تُؤدي معنى التشابه بين ما ذكر من الزيتون والرمان في الآية الثانية، فجاءت لفظة (متشابه) وإن كان اختلاف بينهما، لكن هناك نوع من التشابه، لأن الآية الثانية في صدد صورة الخلق والشكل وأن هذا الخلق الغاية منه هي الأكل كما أسلفنا، ودلّت عليه لفظتا ﴿ أَنشَأَ ﴾ و﴿ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾، ولهذا قال في الآية الثانية ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ ﴾. والآية الأولى دلّت على آيات خلقه ومراحله لتناسب كلمة " انظروا) دقة الخلق ومراحله حتى تؤمنوا بالله تعالى، فالذي خلق هذه الأشياء يجب الإيمان به دون غيره، ولهذا جاءت ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام، الآية: ٩٩]، والآية الأخرى في الأكل فأعقبها بقوله: ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام، الآية: ١٤١]

٤ - بين المصدر واسم المصدر:

١ - قال - تعالى -: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٧ / ٤٠٠.

لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت، الآية: ٨].

٢ - وقال - تعالى -: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأحقاف، الآية: ١٥].

اسم المصدر ما ساوى المصدر في الدلالة - على معناه - وخالفه بخلوّه - لفظاً وتقديراً - من بعض ما في فعله دون تعويض كعطاء فإنه مساوٍ لإعطاء معنى ومخالف له بخلوه من الهمزة الموجودة في فعله وهو خالٍ منها لفظاً وتقديراً ولم يعوض عنها بشيء[١]، فاسم المصدر دال على الحدث الذي يدل على المصدر، وعلى هذا يكون المصدر واسم المصدر معناهما واحد[٢].

وقيل في تعريف اسم المصدر "اسم يدل على لفظ المصدر الذي يدل على الحدث فيكون اسم المصدر دالاً على الحدث بواسطة دلالته على لفظ المصدر وعلى هذا يكون معنى المصدر ومعنى اسم المصدر مختلفاً"[٣].

أما المصدر "فهو اللفظ الدال على الحدث مجرداً من الزمان متضمناً أحرف فعله لفظاً مثل علم علماً، أو تقديراً قاتل قتالاً، أو معوضاً مما حذف لغيره، وعدّ عدّة، سلّم تسليماً، العلم مشتمل على أحرف علم والقتال مشتمل على أحرف قاتل، تقديراً لأنه أصله قيتال فالياء في قيتال أصلها الألف في قاتل وصارت ياءاً لانكسار ما قبلها والعدة أصلها الوعد حذفت الواو وعوّض عنها تاء التأنيث"[٤].

الآيتان متشابهتان إذ تحولت لفظة (حسنا) في سورة العنكبوت إلى (إحسانا) في سورة الأحقاف. إن كل تحول يحدث في آية من القرآن الكريم من لفظ إلى

---

(١) شرح ابن عقيل: ٢ / ٩٨.

(٢) م. ن: ٢ / ٩٨.

(٣) شرح ابن عقيل: ٢ / ٩٨ (الهامش).

(٤) معجم الشامل: ٨٥٧.

آخر كان من ورائه سر من أسرار الإعجاز البلاغي كما قلنا ولكن هذا السر ينكشف عند التمعن فيه ومن خلال ربط السياق بعضه ببعض ولكن مع تقوى الله تعالى وابتغاء مرضاته وبدونه لا تنفتح المغاليق ولا تظهر الخفايا ولهذا يقول تعالى: (واتقوا الله ويعلمكم الله) البقرة/ ٢٨٢ وان هاتين الآيتين وآية من سورة لقمان وهي قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ * وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ١٤، ١٥. قد نزلت في السور الثلاث في سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه الصحابي المبشر بالجنة وأحد الستة من أصحاب الشورى[١] وهذا هو رأي الجمهور[٢] وذلك لما علمت أم سعد بإسلامه قالت له: يا سعد بلغني أنك صبأت فو الله لا يظلني سقف بيت وأن الطعام والشراب علي حرام حتى تكفر بمحمد، وبقيت كذلك ثلاثة أيام فشكا سعد ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية فقال لها سعد: يا أماه تعلمين لو كان لك سبعون نفسا فخرجت نفسا نفسا ما تركت ديني هذا لشيءٍ فلما رأت ذلك أكلت وشربت فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يداريها ويترضاها بالإحسان.

وقيل نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي عندما أراد الهجرة وأقسمت أمه أن لا تطعم ولا تشرب ولا تأوي بيتا وقد قيده أبو جهل وأخوه الحارث وكانا أخوي عياش لأمه فقالت له أمه: لا تزال بعذاب حتى ترجع عن دين محمد[٣].

ولو نظرنا إلى اللفظتين وهما (حسنا) و(إحسانا) وتتبعنا معناهما والاختلاف لعلمنا أن هناك فروقا دقيقة بينهما ولهذا تغير اللفظ من آية إلى أخرى سواء كان من حيث السياق أو من حيث الفرق الدقيق في المعنى بينهما ومن خلال النظر إلى تفسير الايتين في كتب المتشابه اللفظي وإلى التفاسير والمعجمات اللغوية يتوضح

---

(١) ينظر أسد الغابة/ ٢٩٣.

(٢) ينظر البرهان في متشابه القرآن/ ٢٦٥، والجامع لأحكام القرآن ١٣/٢١٧ - ٢١٨.

(٣) ينظر التحرير والتنوير ٢٠/٢١٣.

لنا ما قلناه.

ويرى الإسكافي: أن موقع آية العنكبوت مشبه مواقع الآيات التي قبلها والتي بعدها وذلك أنه جعل فيها الإحسان كقوله تعالى: (ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون) العنكبوت/ ٧ لأنه اشتمل على جميع معاملة المؤمنين في الدنيا والآخرة وهي في الدنيا إيمانهم وصالحات أعمالهم التي يكفر بها السيئات، فلا يؤاخذ بها من ضمن جزائه على أحسن عمله وهو طاعة الله تعالى التي أخلصها له، ولم يقصد أن يعلمها خلقه ثم قال ووصينا الإنسان بوالديه حسنا: أي: الزمناه حسنا في أمر والديه وقياما بحقوقهما عليه[1] وللكرماني الرأي نفسه[2]. وأما ابن جماعة فإنه قال: إن هنا أي: آية العنكبوت: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ العنكبوت/٧ وبر الوالدين من أحسن الأعمال، فناسب ذكر الإحسان إليهما، وآية الأحقاف نزلت فيمن أبواه مؤمنان فناسب وصيته بالإحسان إليهما) [3] وقيل نزلت آية الأحقاف في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه[4].

أقول إن لفظة (حسنا) مفعول مطلق فعله محذوف تقديره يحسن أو أن تكون مفعولا به حذف فعله لدلالة الحال عليه أو أن تكون صفة لموصوف محذوف تقديره: وصيناه أمرا حسنا.

وجاءت لفظة (إحسانا) منصوبة على المصدر أي أمرنا الإنسان بأن يحسن إلى والديه إحسانا).

ومعنى (حسنا) و(إحسانا) واحد ولكن بينهما نوع من الاختلاف فالأولى مصدر والثانية اسم مصدر. فجاءت الأولى في سورة العنكبوت لتتناسب مع سياق الآيات قبلها لأنها إيجاز وليس فيها من تفصيل لأن حروفها اقل من لفظة (إحسان) فلما كان المقام مقام إيجاز واختصار فناسبتها هذه اللفظة. إضافة إلى ذكر لفظة (أحسن) قبل الآية أما آية الأحقاف ففيها من التوضيح والتفصيل لما حملته الأم

---

(١) ينظر درة التنزيل/ ٢٣٩.

(٢) ينظر البرهان في متشابه القرآن/ ١٦٤.

(٣) كشف المعاني في متشابه المثاني/ ١٦١.

(٤) اسباب النزول/ ٣١٨.

وعانت من العنت والشدة أثناء الحمل وبعده ناسبتها لفظة (إحسانا) لأنها أكثر حروفا من (حسنا) فلما تضاعف التعب تضاعف الأجر والثواب فجيء بلفظة إحسانا.

فلما كان السياق في العنكبوت فيه تهديد لمن يعمل السيئات التي تقابل الحسنات فجيء بلفظة (حسنا) تمهيدا بمجيئها لأن الحسن ضد القبح ونقيض الشيء والحسن شيء من الحسن والحسن شيء من الكل[١].

أما الإحسان فهو ضد الإساءة ومعناه الإخلاص وهو شرط في صحة الإيمان والإسلام معا لأنه من تكلم بالكلمة وجاء بالعمل من غير إخلاص لم يكن محسنا وان كان إيمانه صحيحا[٢].

والحسن هو الشيء المبهج لمن ينظر إليه والمرغوب فيه وذلك اما من جهة العقل أو الشرع أو الهوى أو الحِسّ [٣].

ولما كانت الآية قد نزلت بسبب الأم الكافرة وهي أم سعد فقد جيء بلفظ أقل من لفظ الإحسان لأن الكافرة يحسن إليها لكونها (أما) بخلاف آية الأحقاف التي نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه لأن والديه كانا مسلمين ومن هنا يحسن إليهما لكونهما مسلمين فكان الجزاء أن يضاعف لهما الحسن ولهذا قال تعالى: (قال رب أوزعني ان اشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي) فلما كانت النعمة نعمتين وهما عليه وعلى والديه) فكان الأجر أجرين فزيد الحسن إلى (إحسان) لأنه إذا زاد المبنى زاد المعنى.

كذلك إن لفظة (حسن) غالبا ما تستعمل في تعارف العامة في المستحسن بالبصر فلما كانت والدة سعد لم تستعمل عقلها في الهداية وغشت بصيرتها كان من المناسب أن يحسن إليها بالحسن دون الإحسان ولكنه في آية الأحقاف استعمل والدا أبي بكر رضي الله عنهم بصائرهم وأبصارهم كان من المناسب مجيء لفظة الإحسان التي غالبا ما تستعمل للمستحسن من جهة البصيرة إضافة إلى اعتراف

---

(١) لسان العرب ١/٦٣٩.

(٢) ينظر: م.ن /٦٣٩.

(٣) ينظر: المفردات: ١٢٦.

الكفار بأن المؤمنين قد سبقوهم إلى هذا الشيء وأبو بكر رضي الله عنه في مقدمة هؤلاء فالسابق يحسن إليه أكثر من غيره وكذلك وجود لفظة المحسنين في قوله تعالى (وبشرى للمحسنين) لأنها اسم فاعل من أحسن فلما كان المؤمن في هذه الآية محسنا فليس جزاؤه إلا الإحسان.

لكل هذه العلل جاءت كل لفظة في موضعها المناسب.

الفصل الرابع

تحولات النظم القرآني في التذكير والتأنيث والتعريف والتنكير والتقديم والتأخير

أولاً: المتشابهات بالتذكير والتأنيث

إن موضوع التذكير والتأنيث موضوع مهم وقد تناوله علماء اللغة والنحو وبينوا أسراره وأغراضه في الشعر والنثر وقد فصلوا في ذلك كثيرا[1] ولكن الذي يهمنا في هذا الفصل هو ما ذكره العلماء في المتشابه اللفظي في القرآن الكريم من تأنيث لفظة قرآنية وتذكيرها في الآيات المتشابهة فمثلاً جاء في القران الكريم تذكير لفظة في آية كان بالإمكان وضع لفظة مؤنثة مكانها وبالعكس. ومن هنا اجتهد العلماء وجدوا في توضيح وتبيين الأسرار التي تكمن وراء هذا التحول. والآيات المتشابهة في هذا الموضوع قليلة جداً بالقياس إلى الموضوعات الأخرى، وعلماء البلاغة تعرضوا لها ولكن بجزء يسير حين الحديث عن صور خروج الكلام عن خلاف مقتضى الظاهر[2] ولكن العلماء في المتشابه اللفظي أوضحوا صورة جميلة في المفردة القرآنية من حيث التذكير والتأنيث. وسأتناول الموضوع بثلاثة أقسام: القسم الأول في التذكير والتأنيث في الأسماء الظاهرة، والقسم الثاني في الضمائر، والقسم الثالث في الأفعال المسندة إلى ضمير المذكر أو المؤنث.

١. التذكير والتأنيث في الأسماء الظاهرة

وهي الأسماء التي تكون ظاهرة في الآية اسم موصول كان أو اسم إشارة،

---

(١) ينظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام ٢٨٦/٤ وما بعدها، وينظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، القسم الثالث ١٩٦/٤ وما بعدها.

(٢) ينظر: الإيضاح ٨٢/٢ وينظر: خصائص التراكيب، محمد أبو موسى ١٨٧ - ١٩٣.

وقد وردت ثلاث آيات في القرآن الكريم من المتشابه اللفظي في هذا القسم.

أ. التذكير والتأنيث في الأسماء الظاهرة

وأول هذه الآيات قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ الأنعام: ٩٠، وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ يوسف/١٠٤، وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ التكوير/٢٧.

(إن) نافية و(هو) ضمير عائد على القرآن الكريم[1] في محل رفع مبتدأ إلا أداة حصر و(ذكرى) مصدر خبر مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر و(ذكرى) أي عظة وتذكيرهم كافة من جهته سبحانه فلا يختص بقوم دون آخرين.

في هذه الآيات المتشابهة جاءت لفظة (ذكرى) مؤنثة وجاءت لفظة (ذكر) مذكراً وذلك لحكم بيانية وأسرار بلاغية ولهذا يقول الكرماني في تعليله لذلك: قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ الأنعام: ٩٠ في هذه السورة وفي سورة يوسف ﴿إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ : ٦٩، لأن في هذه السورة تقدم (بعد الذكرى) الأنعام/ ٦٨ (ولكن ذكرى) الأنعام/٦٩ فكان الذكرى أليق بها[2].

فهو قد لاحظ السياق في تعليله وهو المذهب الذي سار عليه في تعليلاته للآيات المتشابهة ولم ينظر إلى قرب النص أو بعده، وكذلك لم يعلل ما في سورة يوسف أو التكوير من حيث تذكير اللفظة واكتفى بآية الأنعام إشعاراً من أن التذكير هو الأصل. وإن توضيحه لآية الأنعام في وجود السبب الموجب للتأنيث كان مكتفياً في بيان التذكير في الآية الأخرى.

أما ابن الزبير فقد جاء تعليله لآية التكوير التي جعلها في مقابل آية الأنعام من حيث الآيات التي تقدمها بأن الضمائر كلها مذكر، وكذلك جاءت لفظة (ذكر) مذكراً. فيرى: (أن آية التكوير لما تقدمها القسم على القرآن بقوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ إلى ما وقع القسم به، ثم ورد ضمير المقسم عليه في قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ١٩ أي أن القرآن لقول رسول كريم والمراد به جبريل ﷺ، ثم أتبع

(١) تفسير أبي السعود ٤١٣/٢ وينظر: نظم الدرر ٦٧١/٢ وينظر: البحر المحيط ١٨٠/٤.

(٢) البرهان: ١٥٥ - ١٥٦.

بوصفه إلى قوله ﴿ثَمَّ أَمِينٍ﴾ ٢١ ثم قيل: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ ٢٥ فجرت هذه الضمائر على التذكير على ما يجب، ثم أتبع بقطع تعلقهم فقيل ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ ٢٦ أي إن كل ما رمتم به من رميه عليه الصلاة والسلام، به من السحر والجنون والتقوّل لا يقوم شيء من ذلك على ساق ولا يتوهم ذلك ذو عقل سليم ثم قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ والضمير للقرآن ولا يمكن وروده على خلاف هذا لمنافرة التناسب ومباعدة التلاؤم.

وأما آية الأنعام فتقدمها قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ الأنعام: ٨٩ فنوسب بين قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ وبين ما تقدم فكأن التقدير إن هو أي الأمر أو المراد المقصود أو ما ذكر من الكتاب والحكم والنبوة إلا ذكرى فناسب ذكرى هنا لما تقدم بيانه ولم يتقدم هنا ما يستدعي لفظ التذكير ويناسبه فجاء كل ما يجب)[1].

تعليله ممتاز وبخاصة وقفاته مع الآيات التي تقدمت آية التكوير، ويرى أنه لا يمكن مجيؤها خلاف هذا لمنافرة التناسب ومباعدة التلاؤم، ومع هذا فإنه تبع الكرماني حين رجع إلى السياق الأسلوبي في الاختلاف بين الآيتين المتشابهتين.

- ومن الآيات المتشابهة في هذا الصدد آيتان متشابهتان في سورة السجدة وسورة سبأ.

قال تعالى: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ السجدة ٢٠ وقال تعالى: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ سبأ ٤٢.

آيتان متشابهتان اختلف فيها الاسم الموصول فجاء مذكراً في سورة السجدة ومؤنثاً في سورة سبأ واختلف الضمير العائد إلى الاسم الموصل (به) مذكراً في حين ورد في سورة سبأ بالتأنيث.

بين الإسكافي سبب الاختلاف بأن لفظة (النار) في آية السجدة اسم ظاهر وقع موقع الضمير والضمير لا يوصف فوُصف العذاب، فحسن التذكير يقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أما آية سبأ فإنه لم يتقدم ذكر

---

(١) ملاك التأويل ١/٤٦٠.

النار في الآية فحسن وصف النار فجاءت الآية بالتأنيث يقول تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ : إن (النار) في قوله في سورة السجدة ظاهر موضع المضمر، لتقدم ذكره في قوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ فأضمرت (أعيدوا فيها) ثم أظهرت ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي عذابها، فوقعت مظهرة مكان المضمر. والتي في سورة سبأ لم تجئ هذا المجيء لأنها في مكانها مظهرة فلما كان المضمر لا يوصف بَعدُ عن الوصف ما حل محله لأنه سد مسده فوصف ما أضيف إليه وهو العذاب فجاء ﴿عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ ولما لم يتقدم ما في سورة سبأ ما منزلته منزلة المضمر، صحّ الوصف له فأجري عليه وجاء (عذاب النار التي كنتم بها تكذبون) ألا ترى أن أوله: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾[1].

أما الكرماني فقد اختصر كلام الإسكافي إذ قال: ﴿عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ وفي سبأ ﴿عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ لأن النار في هذه السورة وقعت موقع الكناية لتقدم ذكرها والكنآيات لا توصف فوصف العذاب. وفي سبأ لم يتقدم ذكر النار فحسن وصف النار[2] ولقد تابعهما الأنصاري في ذلك[3].

أما ابن الزبير فقد لاحظ أن هناك عناية بالعذاب، وهذا العذاب يشمل الدنيا ويشمل الآخرة والذي سماه القرآن بالأدنى والأكبر وهذا هو المقصود فعاد الضمير عليه وقد تكرر اللفظ تأكيداً له قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ فناسب عود الضمير إلى العذاب فقال: ﴿عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ ولكن التأنيث فمرجعه لفظة (النار). قال: "إن آية السجدة اقترن بها ما يستدعي أن يناسب وهو قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ ٢١ فلما تفصل ذكر العذاب إعلاماً بإلحاق ضريبة الأدنى والأكبر بمن جرى الوعيد لهم والعذاب مذكر، وقد تكرر فتأكد رعيه، فناسبه عودة الضمير قبله إلى العذاب المضاف إلى النار مذكراً ليجري ذلك كله مجرى واحداً. ولما لم يكن

(١) ينظر: درة التنزيل/٢٦١.

(٢) البرهان/٢٧٤.

(٣) ينظر: فتح الرحمن/٢٤٦.

يتلو آية سورة سبأ ولا قبلها ما يستدعي ذلك أعيد الضمير إلى النار مؤنثاً، ليحصل في السورتين ورود الوجهين الجائزين كما تقدم مع التناسب"[١].

أما ابن عاشور فقد رأى أن التكذيب في آية سبأ علق بنفس النار فجيء باسم الموصول المناسب لها أي بالتأنيث، ولم يعلق بالعذاب كما في آية سورة السجدة، لأن القول المخبر عنه هو الله تعالى وحكمه وقد أذن بهم إلى جهنم وشاهدوها كما قال تعالى: ﴿**وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ**﴾ ٣٣ وأما القول المحكي في سورة السجدة فهو قول ملائكة العذاب بدليل قوله تعالى: ﴿**كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ**﴾[٢].

ولي وجهة نظر أخرى هي أنه: ذكر الاسم الموصول في آية السجدة وذلك، لأنهم كانوا يزعمون أنهم لا يعذبون بعد الموت كما قال تعالى على لسانهم: ﴿**إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**﴾ الشعراء ١٣٨ وكذلك قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**﴾ سبأ/٣٥، ولذلك رد الملائكة عليهم بأن يذوقوا من عذاب النار الذي كانوا به مكذبين جزاءً لهم على تكذيبهم العذاب بعد الموت، ولهذا عاد الضمير على اسم العذاب دون النار.

أما في سورة سبأ فكانوا يكذبون وجود النار في الآخرة ولهذا رد الله عليهم مباشرة بقوله ﴿**وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ**﴾ منهم قد كذبوا بوجود النار لقوله تعالى: ﴿**هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ**﴾ الطور/١٤ فلما كذبوا في الدنيا ووجدوا النار التي وعدهم الرسل بها في الآخرة أنّث اسم الموصول والضمير الذي يعود إلى النار.

أي أنهم لما كذبوا العذاب ذكر اسم الموصول والضمير العائدين إلى العذاب ولما كذبوا النار أتى اسم الموصول والضمير العائدان إلى النار.

فضلاً عن ذكر العذاب مرات في سورة سبأ كقوله: ﴿**وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ...**﴾ ٣٣ وقوله: ﴿**وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**﴾ ٣٥ وقوله تعالى: ﴿**أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ**﴾ ٣٨ فلما أكثر من ذكر العذاب

---

(١) ملاك التأويل ٢/٩٤٦.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ٢٢/٢٢٥.

وفصله. ولم تذكر النار كان من المناسب أن يوضح هذا العذاب أنه من تلكم النار التي كانوا يكذبون بها ولهذا أنّثَ الاسم الموصول في هذه الآية.

أما سورة السجدة فقد ذكرت لفظة العذاب قبل هذه الآية وبعدها ثلاث مرات[1] أقل من ذكرها في سورة سبأ فكان من المناسب تذكير الاسم الموصول والضمير العائد إليه ولا سيما أن لفظة العذاب لم تفصل هنا كما في سورة سبأ فجاء كل لفظ في موضعه المناسب.

ب. التذكير والتأنيث في الضمائر

ورد التأنيث والتذكير في الضمائر في خمس آيات متشابهة مرةً جاء الضمير مذكراً وأخرى مؤنثاً من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿**وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا**﴾ الأنبياء/٩١. وقوله تعالى: ﴿**الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا**﴾ التحريم/١٢.

هاتان الآيتان في (مريم) عليها السلام[2] وهي شهادة لها بالطهر والعفاف، إذ وصفها الله تعالى بالإحصان لفرجها وقيل إن المراد بالفرج فرج القميص، أي أن ثوبها طاهر، وهي كناية عن عفتها وطهارتها. وفروج القميص هي: الكمان والدرع والأعلى والأسفل قال السهيلي: فلا يذهبن وهمك إلى غير هذا فإنه من لطف الكناية لأن القرآن أنزه معنى وأوزن لفظاً وألطف إشارة وأحسن عبارة من أن يريد ما يذهب إليه وهم الجاهل، لا سيما والنفخ من روح القدس بأمر القدوس فأضيف القدس إلى القدوس، ونزه المقدسة المطهرة عن الظن الكاذب والحدس[3]، وقد بين القرآن الكريم أن النفخ كان من جبريل عليه السلام لقوله تعالى: ﴿**فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرحمن مِنْكَ إِنْ كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا**﴾ مريم/١٧-١٩.

في الآيتين المتشابهتين اختلف الضمير فيها مرة جاء مذكراً وأخرى مؤنثاً، فالهاء في سورة الأنبياء تعود إلى (التي) ويقصد بها (مريم) عليها السلام فأحصنت مريم فرجها، والتي عوض عنها اسم الموصول (التي) زيادة في رفعتها وطهارتها

---

(١) ينظر الآيات: ١٤، ٢١، ٢٢.

(٢) ينظر: تفسير الكشاف/٦٨٦ والمحرر الوجيز/١٢٩٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٣٣٨/٦.

حين لم يذكر هنا اسمها مباشرة، ونفخنا في مريم من روحنا للدلالة على بدن مريم كله. أمّا (الهاء) في سورة التحريم تعود إلى (فرجها) ويقصد به أحد الفروج الأربعة والأغلب على فرج درعها، لأنه لفظ مذكر فذكرّ الضمير هنا أي فنفخنا في فرجها من روحنا، ولا تناقض بين الآيتين وذلك مرة في بدنها وهو تعبير عام ومرة على وجه الخصوص في سورة التحريم وهو (الفرج) وهذا من ذكر الخاص بعد العام ولا سيما أن سورة التحريم مدنية والأنبياء مكية، ولهذا جاء الخاص بعد العام وأما سبب تحول النظم من المؤنث إلى المذكر فإن الخطيب الإسكافي يرى أن آية سورة التحريم جاءت على الأصل ولا يراد منه التعجب بل أريد من الآية ذكر إحصانها وتصديقها بكلمات ربها، وكان النفخ أصابها فخصت بالتذكير، ولكن آية الأنبياء أريد التعجب منها وما كان من أمرها بعد ذلك فأصبحت هي وابنها آية فاختصت بالتأنيث[1].

أما ابن الزبير فلم يبتعد في تعليله عن الإسكافي وإنما توسع فيه وفصل في الآية الأولى علل التأنيث بالتشريف وأنه تكريم جليل وآية واضحة وعجيبة في ذكرها وذكر ابنها في حين إن في آية التحريم لم يقصد التوسع في المدح كالآية الأولى وإنما تخصيصها في ذاتها بعظيم إيمانها وجعلها من القانتين[2].

والكرماني وافق الخطيب الإسكافي في توجيهه للآيتين واختصره[3] أما ابن جماعة فقد علل ذلك بأن لفظ التذكير أخف من التأنيث فجاء في آية الأنبياء لعدم تكرره وفي آية التحريم تكرر لفظ التأنيث بقوله: (مريم) و(ابنة)، و(أحصنت) و(فرجها) ولذلك جاء بالتذكير تخفيفاً من تكرر التأنيث[4] وهذه التوجيهات كلها حسنة إلا أن توجيه ابن الزبير أنسب ولأن قصد التشريف مقدم على قصد التعجب.

ومن المناسب أيضاً أن اسمها ذكر في سورة التحريم من بين النساء دون ذكر أسمائهن بل قد أضفن إلى أزواجهن إلاّ مريم عليها السلام، لأنها لم تكن متزوجة وللتأكيد أنها كانت بنتاً قد أحصنت فرجها من الحلال والحرام، أما في سورة

---

(١) ينظر: درة التنزيل/٢١٢.

(٢) ينظر: ملاك التأويل ٢/٨٤٥ - ٨٤٧.

(٣) ينظر: البرهان/٢٧٠ - ٢٧١.

(٤) ينظر: كشف المعاني/١٤٦.

الأنبياء فلم يذكر اسمها، لأن الحديث عن الأنبياء المرسلين وهم رجال فمن غير المناسب أن يذكر اسمها بين الرجال زيادة في عفتها وعزة في كرامتها كما أنها ذكرت عقب الأنبياء المصطفين الأخيار للإيحاء بأنها من النساء المصطفيات لهذه الحكم ذُكر الضمير في التحريم وأُنث في الأنبياء.

- **ومن الآيات المتشابهة والمختلفة في الضمير تذكيراً وتأنيثاً أيضاً**

قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ**﴾ النحل ٦٦، وقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ**﴾ المؤمنون/٢١.

إن الآيتين في صدد العبرة من الأنعام والعظة، قال ابن عاشور: (هذه حجة أخرى ومنة المنن الناشئة عن منافع خلق الأنعام. أدمج في متنها العبرة بما في دلالتها على بديع صنع الله تبعاً لقوله تعالى: ﴿**وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ فجملة ﴿**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً**﴾ معطوفة على جملة ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ**﴾، أي كما كان لقوم يسمعون عبرة في إنزال الماء من السماء لكم في الأنعام عبرة أيضاً إذ كان المخاطبون وهم المؤمنون القوم الذين يسمعون)[1].

أما التذكير في الضمير وتأنيثه فيرى الخطيب الإسكافي أن آية المؤمنون التأنيث فيها يعود إلى اللفظ، وأما التذكير في آية النحل فإنه يعود إلى معنى الآية أي: البعض ويقصد بها الإناث ولذلك خصت الآية: ﴿**مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ**﴾ وهذا لا يكون إلا في الإناث، لأن اللبن من الإناث دون الذكور فالتقدير: وإن لكم في بعض الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه فالتذكير يناسب هذا المعنى. ولكن في سورة المؤمنون يختلف قال تعالى: ﴿**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ**﴾ ولذلك جاء بعد الضمير المؤنث ﴿**فِي بُطُونِهَا**﴾ جمل عطفت على الجمل السابقة فلما عطف عليه ما

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/١٩٩.

يرجع إلى الجميع ولا يكون خاصاً بالبعض أنث حملاً على الأنعام[(١)].

والكرماني اختصر توجيهه[(٢)] وكذلك نقله ابن جماعة[(٣)]. وأما النيسابوري فإنه علل ذلك بأنّ الأنعام لفظها مفرد ومعناها جمع كالرهط والقوم والنعم فجاز تذكيره حملاً على اللفظ وتأنيثه على المعنى[(٤)]. والقرطبي علل ذلك بأن التذكير عائد إلى لفظ الجمع، والتأنيث عائد إلى لفظ الجماعة[(٥)].

وأما ابن الزبير فقد وجه الاختلاف بقوله: (نسقيكم مما في بطونه) بإفراد الضمير وتذكيره مراد به الجنس وقد حكى سيبويه رحمه الله أن من العرب من يقول: هو الأنعام وعليه حمل آية الأنعام[(٦)] في تذكير الضمير وورد في سورة المؤمنون على التأنيث والجمع لما بني على ذلك من قوله: ﴿نُسقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ ٢١-٢٢ فنوسب بضمير الأنعام ما اتبع به من الضمائر في قوله: (فيها، ومنها، وعليها) فورد بصورة التأنيث والجمع[(٧)].

أما الزمخشري فبيّن أن لفظة (أنعام) اسم مفرد ولهذا جاء الضمير مفرداً مذكراً وعاد إلى معناه بالتأنيث[(٨)].

وأما أبو حيان والرازي والآلوسي والأنصاري فقد وافقوا الزمخشري في تعليله[(٩)].

ج. الأفعال تذكيرها وتأنيثها:

والمقصود من ذلك إلحاق علامة التأنيث بالفعل أو عدمها. وهذه الأفعال

---

(١) ينظر: درة التنزيل/١٨٩ - ١٩٠.

(٢) ينظر: البرهان/٢٢٢.

(٣) ينظر: كشف المعاني/١٣٢.

(٤) ينظر: تفسير غرائب القرآن: ٢٧٧/٤.

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٢٣/١٠ - ١٢٤.

(٦) يقصد من كلامه (وعليه حمل آية الأنعام) الآية من سورة النحل فهي تسمى بسورة النعم.

(٧) ملاك التأويل: ٧٤٨/٢. وينظر: الكتاب لسيبويه ٢٣٠/٣.

(٨) الكشاف: ٥٧٦.

(٩) ينظر البحر المحيط:٤٩٢/٥. والتفسير الكبير: ٢٣٢/٢٠. وروح المعاني: ١٧٦/٧ وفتح الرحمن:١٦٨.

جاءت في أربع آيات متشابهات فقط في القرآن الكريم وهي قوله تعالى: ﴿**فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ**﴾ آل عمران/١٨٤، وقوله تعالى: ﴿**وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ**﴾ فاطر/٤.

وقوله تعالى: ﴿**وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ**﴾ هود/٦٧، وقوله تعالى: ﴿**وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ**﴾ هود/٩٤.

فالآيتان المتشابهتان من سورة هود قد تكلمت عليهما في موضوع تبدل اسم مفرد مكان اسم مفرد[١] وأما الآية الأولى وهي قوله تعالى: ﴿**فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ**﴾ آل عمران، والآية الثانية قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ**﴾ فاطر، فنتناولهما بالتحليل.

الآيتان متشابهتان: وقد زيد في إحداها (تاء التأنيث في الفعل (كذب) في آية (فاطر) وتحول الفعل الماضي الذي هو فعل الشرط من سورة آل عمران إلى الفعل المضارع في آية فاطر فلا بُد من حكمة في هذا التغيير ومن سر بلاغي في هذا الاختلاف.

وقد وضح لنا ذلك ابن الزبير بأن المفعول المقام مقام الفاعل في الآيتين وهو (رسل) هو جمع تكسير يجوز فيه التأنيث والتذكير فقد جاء في الآية الأولى: (فقد كذب) على رعي التذكير وفي الثانية: (فقد كذبت) على معنى التأنيث لزوماً أيضاً مع وحدة اللفظ في المرفوع المفعول وما يجوز فيه من التأنيث والتذكير وذلك بقوله: (ورد في هاتين الآيتين المفعول المقام مقام الفاعل وهو (رسل) مكسر والاسم المجموع جمع تكسير يجوز فيه التذكير والتأنيث فورد في الآية الأولى: (فقد كذب) على رعي التذكير ولم يقرأ بغيره، وفي الآية الثانية على معنى التأنيث لزوماً أيضاً مع وحدة اللفظ في المرفوع المفعول وما يجوز فيه من التذكير والتأنيث... إن كلتا الآيتين مراعى فيه ما يلي تابعاً للمرفوع من الوصف في الأولى وما عطف في الثانية، أما الأولى فقال تعالى: ﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ﴾. ولا يمكن هنا إلا هذا فجرى على ما هو الأصل في جمع المذكر المكسر من التذكير فلم تلحق الفعل علامة التأنيث. وأما آية الملائكة (فاطر) فلحقت التاء الفعل رعياً لما عطف على

(١) ينظر: ص:١٦٤.

الآية من قوله ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ فليس في هذا إلا التأنيث سواء بني الفعل للفاعل أو للمفعول فنوسب بين الآيتين فقيل: (كذبت) على الجائز الفصيح في تأنيث المجموع المكسر ليحصل التناسب ولا يمكن عكس الوارد)[1].

أقول: إن هناك نسقاً بين السياقين من حيث التذكير والتأنيث، وذلك أنه جاء بعد الفعل وقبله (كذب) في الآية الأولى فعلان مذكران وهما ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ١٨٣ وجاء بعده قوله تعالى: ﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ ١٨٤ فوافق الأفعال المذكرة قبله وبعده، أما الآية الثانية فجاء فعل مؤنث هو (ترجع) بعد الفعل (كذبت) فناسب الآية الأولى التذكير والثانية التأنيث هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ الآية خاصة في بني إسرائيل بدليل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ ١٨٤.

وأما الآية الثانية فهي عامة للناس جميعاً بدليل قوله تعالى قبل هذه الآية وبعدها ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ ٣ وبعدها قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ ٥ فكان من المناسب مجيء تاء التأنيث في فعل هذه الآية لأنها تدل على الكثرة كما قال الدكتور فاضل السامرائي بخلاف المذكر[2] وذلك لأن الرسل هنا تشمل رسل بني إسرائيل وغيرهم بخلاف الآية الأولى فإنها خاصة في رسل بني إسرائيل وبالطبع أن رسل بني إسرائيل أقل من الرسل بصورة عامة ولذلك ذكر الفعل في الآية الأولى وكذلك لوجود الفعل (قتلتموهم) لأن من المعلوم ان بني إسرائيل لم يقتلوا رسلهم جميعاً وإنما قسماً منهم. وكذلك لوجود لفظتي الرحمة والنعمة قبل آية فاطر في قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ وقوله: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ فناسبها التأنيث دون التذكير.

---

(١) ملاك التأويل: ١/٣٢٥ - ٣٢٦.

(٢) ينظر: التعبير القرآني/١٦٠.

ثانياً: المتشابهات بالتعريف والتنكير

إن تعريف اللفظة القرآنية أو تنكيرها في الآيات المتشابهة يعدّ من الموضوعات المهمة عند علماء المتشابه اللفظي، وقد بذلوا جهداً ملحوظاً في بيان العلل من هذا التغيير من التعريف إلى التنكير أو بالعكس، ووضحوا المغزى من كل منهما ولما كان للتعريف أساليب مختلفة فقد وضحوا لنا الطرق والأساليب في الآيات المتشابهة في ألفاظها فتكلموا عن الألف واللام سواء من حيث إفادتها العهد أو دلالتها على العموم أو استغراق الجنس، وتحدثوا عن الاسم الموصول لأنه جزء من التعريف ولا سيما (الذي).

وميزوا الفروق المعنوية الدقيقة بين الأسماء الموصولة مثل: (من) و(ما)، و(الذي)، وتناول علماء المتشابه اللفظي التعريف بالألف واللام أو بالإضافة من خلال الآيات المتشابهة في القرآن الكريم[1].

كما لم يغفل عن التعريف والتنكير علماء النحو[2] وبذلوا جهداً واسعاً في العناية بهما وأوضحوا أقسام التعريف تفصيلاً، وكذلك اهتم علماء البلاغة بهما كثيراً وفي مقدمتهم الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز فقد ذكر فوائد وفرائد متنوعة لتعريف الخبر وتنكيره وكذلك فصل القول في التعريف بالموصول وبخاصة (الذي) قال: (أعلم أن لك في (الذي) علماً كثيراً، وأسراراً جمة وخفايا إذا بحثت عنها وتصورتها اطلعت على فوائد تؤنس النفس وتثلج الصدر بما يفضي بك إليه من اليقين ويؤديه إليك من حسن التبيين)[3].

ومن ثم دون علماء البلاغة ما ذكره عبد القاهر ورتبوا وفصلوا أقواله، وفي هذا المجال سوف أتحدث عن التعريف بالألف واللام وبعده التعريف بالموصول في الآيات المتشابهة.

١. "التعريف والتنكير بالألف واللام"

ومن الآيات التي جاء فيها اللفظ معرفاً بالألف واللام في آية ومنكراً في آية

---

(١) ينظر: درة التنزيل/٢٣ والبرهان/١٣٠ - ١٣١ وملاك التأويل/١/٢٣٤ - ٢٣٥ وكشف المعاني/ ٩٩ - ١٠٠.

(٢) ينظر: الكتاب ٢/٥ - ٨، ٣/٢٤١ - ٢٤٢ وينظر: النحو الوافي: ١/٢٠٦.

(٣) دلائل الإعجاز /١٥٩.

أخرى قوله تعالى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ مريم/١٥، ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ مريم/٣٣.

وقد علل الكرماني تنكير السلام وتعريفه بعد أن ذكر تعليلات وتوجيهات أهمها أن اللفظة في الآية الأولى (سلام) جاءت بالتنكير لأنه من الله تعالى، وأن السلام من الله عزوجل يغني عن كل سلام إذ يقول: (نكر في الأول وعرف في الثاني، لأن الأول من الله عزوجل والقليل منه كثير كما قيل:

قليل منك يكفيني ولكن قليلك لا يقال له قليل[1]

ولهذا قرأ الحسن (اهدنا صراطاً مستقيماً) أي نحن راضون منك بالقليل ومثل هذا في الشعر كثير قال[2]:

وإني لأرضى منك يا هند بالذي لو أبصره الواشي لقرت بلابله
بلا وبأن لا أستطيع وبالمنى وبالوعد حتى يسأم الوعد آمله

والثاني من عيسى عليه السلام والألف واللام لاستغراق الجنس ولو أُدخل عليه التسعة والعشرون (أي دخول جميع حروف الهجاء).

والفروع المستحسنة والمستقيمة لم يكن يبلغ معشار سلام الله تعالى عليه.

ويجوز أن يكون ذلك من وحي الله عزوجل عليه فيقرب من سلام يحيى. وقيل: إنما أدخل الألف واللام لأن النكرة إذا تكرّرت تعرفت وقيل: نكرة الجنس ومعرفة الجنس سواء، تقول: لا أشرب ماءً ولا أشرب الماء فهما سواء)[3].

والأنصاري نقل كلامه بنصه[4] وأما الرازي فوافق الكرماني كذلك وبين أن التنكير أكمل لأنه يفيد الكمال والمبالغة والتمام، أما التعريف فلا يفيد إلا الماهية[5].

والسهيلي له تحليلات وتوجيهات قيمة في تعريف السلام وتنكيره في القرآن الكريم وكلام العرب وتعد من توضيحاته الجليلة فهو يعدّ أن مع (سلام) تفيد أموراً ثلاثة وهي:

---

(١) من شواهد المغني ٢/٦٧٥.

(٢) عزاه في نهاية الأرب ٢/٢٧٤ إلى جميل بثينة وفيه (بثن) لا (هند).

(٣) البرهان في متشابه القرآن: ٢٣٣ - ٢٣٤.

(٤) ينظر: فتح الرحمن ١٩٠.

(٥) التفسير الكبير ١٨/٢٠.

١. أن يقصد به التبرك بذكر الاسم الذي هو السلام فهو يشعر بذكر الله سبحانه، لأن السلام اسم من أسمائه.

٢. أن يقصد به طلب معنى السلامة منه، لأنك متى ذكرت اسماً من أسمائه، فقد تعرضت لطلب المعنى الذي اشتق ذلك الاسم منه.

٣. ان يقصد عموم التحية منه سبحانه، ومن غيره، فأنت ترى أنه ليس قولك: (سلام عليك) أي: سلام مني بمنزلة قولك: (السلام) في العموم[١]. أما سر تنكير اللفظ في قوله تعالى: (وسلام عليه)، فلأنه مستغنٍ عن الفوائد الثلاث، قال رحمه الله: "لأن المتكلم ههنا هو الله تعالى فلم يقصد تبركاً بذكر الاسم الذي هو السلام، ولا تعرضاً وطلباً كما يقصده العبد، ولا عموماً في التحية منه ومن غيره ؛ لأن سلاماً منه سبحانه كافٍ عن كل سلام، ومغنٍ عن كل تحية ومُرْب عل كل أُمنية، فلم يكن لذكر الألف واللام معنى ههنا... أما قوله تعالى: (والسلام علي) في قصة عيسى عليه السلام، فإن للألف واللام معنى ومقصداً: لأن هذا العبد الصالح –أي عيسى بن مريم– يحتاج كلامه إلى هذه الفوائد الثلاث، وأوكدها كلها العموم، لأنه مستحيل أن يقع سلامه على نفسه خاصة، ويبعد أيضاً رغبته عن ذكر مولاه وتركه التعرض بمعنى الاسم ومقتضاه)[٢].

وقد نقل ابن القيم كلام السهيلي ولكن بأسلوب آخر فهو يقول: (وهو ما الحكمة في تسليم الله تعالى على يحيى بلفظ النكرة وتسليم المسيح على نفسه بلفظ المعرفة لا ما يقوله من لا تحصيل له أن سلام يحيى جرى مجرى ابتداء السلام في الرسالة والمكاتبة فنكر وسلام المسيح جرى مجرى السلام في آخر المكاتبة فعرف. فإن السورة كالقصة الواحدة ولا يخفى فساد هذا الفرق فإنهما سلامان متغايران من مسلمين أحدها سلام الله تعالى على عباده. والثاني سلام العبد على نفسه فكيف يبنى أحدهما على الآخر؟ وكذلك قول من قال: (إن الثاني عرف لتقدم ذكره في اللفظ فكانت الألف واللام فيه للعهد وهذا أقرب من الأول لإمكان أن يكون المسيح أشار إلى السلام الذي سلمه الله على يحيى فأراد أن لي من السلام

(١) ينظر: نتائج الفكر/٤١٥.

(٢) م.ن: ٤١٦.

في مثل هذه المواطن الثلاثة ما حصل له والله أعلم)[١].

ولو رجعنا إلى القرآن الكريم لوجدنا أن الله سبحانه وتعالى حين يسلم على أنبيائه ورسله والمؤمنين يأتي بلفظ التنكير كسلامه على أهل الجنة في قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ ق/٣٤.

وقوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾ الرعد/٢٤ وكقوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ النمل/٥٩، وكقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ الصافات/٧٩، وقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ الصافات/١٠٩، وقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ الصافات/١٢٠ وغيرها كثير في حين يأتي السلام معرفاً على الغالب حين يكون من الأنبياء والمرسلين لقوله تعالى: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ طه/٤٧.

ومن الآيات المتشابهة في التعريف والتنكير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ البقرة/١٢٦، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ إبراهيم/٣٥ دعا سيدنا إبراهيم ربه بأن يجعل من أرض مكة بلداً عامراً رخياً تجبى إليه ثمرات كل شيء وأن يجعل هذا البلد آمناً يعم فيه الخير والبركة وأن يحيى أهله بعزة وكرامة وأمن واطمئنان فاستجاب الله تعالى له فعمر مكة وغشاها الأمن على كرّ الجديدين وعاشوا سعداء آمنين غير خائفين. ودعا إبراهيم عليه السلام بلفظة الرب دون اسم الجلالة (الله) لأن الرب يربي والتربية تحتاج إلى وقت فهي مشعرة بما في قلب إبراهيم من دعوته رب العالمين لأن يربيه على الإيمان وأن يُكثر أهله وأبناءه لتعمير أرض مكة ومنحهم الأمن نتيجة لإيمانهم ووفرة رزقهم.

أما عن تحوّل لفظة (بلد) من التنكير في سورة البقرة إلى التعريف في سورة إبراهيم فنرى الإسكافي يعلل ذلك بأن الإشارة في آية البقرة قبل العمار فلفظة الإشارة (هذا) إشارة للمذكور في قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي

---

(١) بدائع الفوائد: ٣٣٦/١.

زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ إبراهيم/٣٧ حين ترك إبراهيم ﷺ ابنه إسماعيل وأمه هاجر في وادي مكة قبل بنائها فاكتفي باسم الإشارة عن ذكر المكان.

أما آية إبراهيم فاختلف الحال وأصبح ذلك الموضع بلداً عامراً بالناس أي بعد البناء فتكون لفظة (بلداً) في سورة البقرة مفعولاً ثانياً و(آمنا) صفة له وأما لفظة (البلد) في سورة إبراهيم تكون عطف بيان أو بدل أي (هذا) يكون مفعولاً أولاً و(آمنا) مفعولاً ثانياً[1].

وابن الزبير له توجيه آخر وهو أن اسم الإشارة في البقرة لم يقصد بتابع له يفسره لأنه معلوم ليس بحاجة إليه لتوضيح جنسه، وذلك لما موجود قبله في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ ١٢٥ وقوله: ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ ٢٥١ فإذا تعرف البيت نتج عنه تعريف البلد[2].

وأما محمد بن أبي بكر الرازي فيقول: (في الدعوة الأولى كان مكاناً فيقول ؛ فطلب منه أن يجعله بلداً وآمناً وفي الدعوة الثانية، كان بلداً غير آمن ؛ فعرفه وطلب له الأمن، أو كان بلداً آمناً فطلب له ثبات الأمن ودوامه.

وكون هذه السورة مدنية، وسورة إبراهيم مكية لا ينافي هذا لأن الواقع من إبراهيم ﷺ بلغته على الترتيب الذي قلنا[3].

أما الزمخشري فإنه قال: فقد سأل في الأولى أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون، وفي الثاني أن يخرجه من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن كأنما قال هو بلد مخوف فاجعله آمنا)[4] وأبو حيان له توجيه آخر بقوله: (ويحتمل وجهاً آخر وهو أنه لا يكون محذوفاً ولا يكون إذ ذاك بلداً بل دعي له بذلك وتكون المعرفة التي جاءت في هذا (هذا البلد) باعتبار ما يؤول إليه سماه بلداً، ووصف بلداً بـ (آمن) على معنى النسب أي ذا أمن كقوله تعالى: ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ الحاقة/ ٢١ أي ذات رضاً أو على الاتساع لما كان يقع فيه الأمن جعلته

---

(١) ينظر: درة التنزيل/٢٣ - ٢٤.

(٢) ينظر: ملاك التأويل ١/٢٣٤ - ٢٣٥٨.

(٣) أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها من غرائب آي التنزيل/١٧.

(٤) الكشاف/٥٥٣ وينظر: التفسير الكبير ١٦/١٣١.

آمناً كقولهم نهارك صائم وليلك قائم)[1].

والملاحظ من خلال سياق آيات البقرة قبل وبعد هذه الآية يتبين في الظاهر أن البلد كان موجوداً وقد دعا إبراهيم عليه السلام بدعوتيه بعد إيجاد البلد وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ البقرة/١٢٥. وقوله تعالى ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ البقرة/١٢٥ وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ البقرة/١٢٧.

ويبدو لي أن التوجيهين جائزان فإذا جاز لفظ (البلد) معرفاً (بأل) وذلك لأنه عَمَّر المكان وأصبح ذلك الوادي بلداً بعد أن كان قفراً لا إنس فيه ولا أنيس فكانت هذه الدعوة دعوة ثانية من إبراهيم عليه السلام عندما زار زوجته هاجر وابنه إسماعيل فقد وجد مدينة عامرة وفيها ناس كثير.

وأما آية البقرة التي فيها (بلد) نكرة فيجوز فيها التوجيهان، وذلك لأنه لما أخذ إبراهيم زوجته وابنه وجد المكان لا إنس فيه ولا أحد فكان من المناسب أن ينكر لفظة (بلداً) فكأنما أراد أن يقول اجعل هذا الوادي أو الموضع بلداً وأن يكون هذا البلد آمناً فاستجاب الله تعالى له فجعله بلداً آمناً.

أو أن يكون على تقدير (البلد) بعد اسم الإشارة وذلك لكون مكة فيها البيت الحرام وهو أول بيت لعبادة الله عزوجل وضعه الله تعالى لقوله سبحانه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ آل عمران/ ٩٦، فلا يمكن أن يكون بيتاً للعبادة

من دون أن يوجد ناس يعبدون الله تعالى، وإذا وجد الناس فلا بدّ أن يكون هناك بلد عامر يسكنون فيه هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن قواعد البيت كانت موجودة فهي دالة على أن بيت الله تعالى كان موجوداً قبل إبراهيم عليه السلام يقول تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ البقرة/ ١٢٧ أي أن مكان البيت وأسسه كانت موجودة فكان عملهما استحداث البيت على قواعده السابقة.

٢. التعريف بالاسم الموصول

إن البلاغيين اعتنوا بالأسماء الموصولة وبخاصة لفظة (الذي) وكما ذكر

---

(١) البحر المحيط ١/٦١٢ - ٦١٣.

سابقاً فقد أفرد عبد القاهر الجرجاني فصلاً يخص لفظة (الذي)[١].

وعلماء المتشابه اللفظي لم يألوا جهداً في توضيح هذه اللفظة (الذي) فنرى الخطيب الإسكافي يذكر (إن لفظة الذي أعم وأشمل من لفظة (ما) الموصولة فإذا قلت رأيت ما عندك، لم يدخل تحتها المميزون، وإذا قلت رأيت الذي عندك دخل، فإنه يصلح للمميزين والبهائم والجماد، كما أن للذي ميزة عن (ما) و(من) حيث يحسن حذف المبتدأ من صلة الذي إذا كان ضميرها كقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ**﴾ الأنعام/١٥٤ والمعنى على الذي هو أحسن، ومن تميزها عليهما وقوعها على الجنس)[٢].

وأما ابن الزبير فهو يقول: (اعلم أيضاً أن لفظ (الذي) وما تصرف منه للمثنى والمجموع أصل في الموصولات، إذ لا يخرج لفظ (الذي) عن الموصولية أما (من) فإنها تخرج إلى الاستفهام والشرط وغيرهما)[٣]. و(ما) فإنها تفارق الموصولية فتكون للإبهام فلا عهدية فيها أما (الذي) فلا تفارق الموصولية لا تخرج إلى الإبهام بل تكون للعهدية دائماً[٤].

- ومن المواضع التي فيها الفرق بين (الذي) و(من) في الدلالة على الموصولية

قوله تعالى: ﴿**فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا**﴾ الأعراف/٦٤، وقوله تعالى: ﴿**فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا**﴾ يونس/٧٣.

آيتان متشابهتان فيهما اختلاف بين لفظتي (فأنجيناه) و(نجيناه) وبين (والذين) و(ومن) وفي الآية الثانية زيادة (وجعلناهم خلائف) عن الآية الأولى وقد تكلمنا عن هاتين اللفظتين (فأنجيناه) و(أنجيناه) في الصفحات السابقة[*] وفي هذا الموضع فقد تحول اسم الموصول (الذين) إلى اسم موصول آخر وهو (ومن) فما سر هذا

(١) ينظر: دلائل الإعجاز: ١٥٩.

(٢) درة التنزيل: ٢٢٦ - ٢٢٧.

(٣) ملاك التأويل: ١/٥٣٠.

(٤) ينظر: م.ن ١/٢٨٨.

(*) ينظر: ص ١٠٨.

التحول؟ أن الكلمة القرآنية إذا تغيرت إلى لفظة أخرى لا بدّ لها من سر بياني وإعجاز قرآني.

والآيتان في نجاة نوح ﷺ ومن معه وإغراق المكذبين أما سر التبديل في اسم الموصول من (الذين) إلى (من) فهذا ما يعلله لنا الخطيب الإسكافي إذ يعدّ (فأنجيناه) من الكثرة و(نجيناه) من القلة (والذين) هو الأصل، أي يعد أنجيناه و(الذين) أصلاً و(ونجيناه) و(من) فرعاً فهو يقول: (فأنجيناه) أصل في هذا الباب ؛ لأن فعلت في باب النقل أصل لفعلت وهو أكثر تقول: نجا وأنجيته، كما تقول: ذهب وأذهبته... وأما فعَّلته فمن القلة بحيث يمكن عده نحو: فزع فزّعته وخاف وخوّفته وقد يجاء معه بالهمزة فيقال: أفزعته وأخفته ولا يجاء مع تشديد العين بالهمزة لا تقول: ذهبته ولا دخلته في أذهبته وأدخلته... ولهذا أكثر ما جاء في القرآن جاء على أنجينا كقوله: ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ الشعراء/٦٥ وليست الجيم المزيدة في (نجيناه) للكثرة وإنما هي للمعاقبة للهمزة بدلالة قوله في ذي النون ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ﴾ الأنبياء/٨٨ ولا كثرة هناك. وأما قوله: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ فهو الأصل و(ومن) تجيء بمعناها وتكونان مشتركتين في معان، و(الذين) خالصة للخبر مخصوصة بالصلة فاستعمل الأصل في اللفظتين (أنجينا) و(الذين) ولما كرر هذا الذكر كان العدول إلى اللفظين الآخرين الذين هما بمعناهما وهما (نجينا) (ومن) أشبه بطريقة الفصحاء وعادة البلغاء)[١].

والكرماني يرى العكس مما علل به الإسكافي فهو يرى أن (نجينا) يدل على الكثرة والمبالغة وكذلك (من) وهي اسم موصول تفيده الكثرة والمبالغة ولهذا فهي تصلح للواحد والتثنية والجمع والمذكر والمؤنث وأما لفظة (الذين) فهي لجمع المذكر فحسب وبين أن (من) جاءت مع الفعل المشدد (نجينا) فهو يفيد الكثرة والمبالغة فناسب ذلك[٢].

ويرى ابن الزبير أن لفظ (الذي) هو الأصل أي أصل في الموصولات ولا يخرج عن الموصولية وعدَّ الهمزة أصلاً في النقل بينما النقل بالتضعيف والباء

---

(١) درة التنزيل/١١٢.

(٢) ينظر: البرهان في متشابه القرآن /١٧٢.

وغيرها فثانٍ عن الأصل وأن ترتيب السور أصل مراعى وترتيب الآي في هذا الحكم أولى وأبين وبين مناسبة كل سورة لما قبلها فتعليله لقوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ جاء كل منها على الأصل في نقل الفعل والموصول، وأما في سورة يونس يعلل ذلك بأنه ثان عن الأصل في النقل وفي الموصول رعياً للترتيب[1] ثم ذكر المناسبة اللفظية فزيادة الهمزة في الأولى (أنجينا) ناسب لفظ (الذين) لزيادة حروفه عن لفظ (من) والآية الثانية جيء بالاسم الموصول (من) لأنه أخصر في الخط ليناسب (فنجيناه)[2].

أقول إن آية الأعراف فيها هدوء الحوار ولين الجدال ولذلك ناسبه لفظ (فأنجيناه) لأنه ليس فيه من المبالغة والكثرة وكذلك اسم الموصول (الذين) فيه من اللين واختصاص المميزين فكان التركيز على هؤلاء دون غيرهم من المخلوقات التي مع نوح. أما آية يونس فقد سبقها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾ آية/ ٧٠وقوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي﴾ /٧٢ كما في كلمة (كبُر) التي تدل على العظمة والتعجب وما بعدها قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ التي تدل على العاقبة الوخيمة والنهاية المؤلمة. فناسبت لفظة (فنجيناه) التي تفيد الكثرة والمبالغة لأن التضعيف والتشديد يضاعف الفعل وليس كالهمزة، ومن ثم فإن اسم الموصول (من) الذي يفيد العموم خلاف (الذي) فناسب اسم الموصول مع التضعيف في الفعل ومع سياق الآيات قبلها وبعدها ولما بين الفعل (أنجيناه) و(الذين) من حيث مد الصوت وامتطاط حروف العلة هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن المناسبة في النطق بقوة بين الفعل (فنجيناه) وبين (من) أقوى من غيره.

من – ما

ومن الآيات المتشابهة من حيث التعريف والتنكير في اسم الموصول في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ الرعد/١٥.

(١) ينظر: ملاك التأويل ٥٣١/١.

(٢) ينظر: م.ن ٥٣١/١.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ النحل/٤٩ وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ الحج/ ١٨ هذه آيات في الإخبار عن الله تعالى في سجود المخلوقات وفيها الاختلاف في الأسماء الموصولة ففي الآية الأولى جاء اسم الموصول (من) وفي الثانية (ما) فما العلة في ذلك؟

لقد ميز علماء النحو بينهما وقالوا: إن (من) مختصة بالعقلاء و(ما) لغير العقلاء وعلى صفات من يعقل قال سيبويه: (ومن) هي للمسألة عن الأناسي ويكون بها الجزاء للأناسي وتكون بمنزلة الذي للأناسي و(ما) مثلها إلا أن (ما) مبهمة تقع على كل شيء)[١].

والكرماني ربط بين الآيات والسياق ففي سورة الرعد تقدمها ذكر البرق والرعد والصواعق والسحب والملائكة وجاء بعدها ذكر الكفار وما يعبدون من الأصنام وما هم فيه من شرك وضلال كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ * لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ الرعد/١٢-١٤ ولكن آية الرعد قبلها عام في خلق الله تعالى ما يعقل وما لا يعقل ولكن الذي لا يعقل أكثر وبما أنها تفيد العموم فناسب السياق بـ (ما) قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾[٢] النحل/٤٨.

وقد وافق الكرماني كل من ابن جماعة[٣] والأنصاري[٤] والناظر في الآيات

---

(١) الكتاب: ٣٠٩/٢ وينظر: شرح المفصل ١٤٥/٣، شرح الكافية الشافية ٢٧٦/١.

(٢) ينظر: البرهان في متشابه القرآن/٢٠١.

(٣) ينظر: كشف المعاني/ ١٢٦.

(٤) ينظر: فتح الرحمن/ ١٥٦.

الثلاث يتبين له السر البلاغي في كل منها وأن الألفاظ (من- ما – وما) جاءت في كل آية في موضعها المناسب.

وقبل أن نشرع في الفروق بين هذه الألفاظ في الآيات الثلاث أريد أن القي نظرة على لفظة السجود وما تعني من مقاصد ومعاني لنتوصل من خلالها إلى هذه التحولات من آية إلى أخرى.

فمعنى سجد: يقول الراغب الأصفهاني: (السجود أصله التطامن والتذلل وجعل ذلك عبارة عن التذلل لله وعبادته وهو عام في الإنسان والحيوانات والجمادات وذلك ضربان سجود باختيار وليس ذلك إلا للإنسان وبه يستحق الثواب نحو قوله تعالى: ﴿فَاسْجُدُوا لِلهِ وَاعْبُدُوا﴾ أي: تذللوا له وسجود تسخير وهو للإنسان والحيوانات والنبات وعلى ذلك قوله تعالى ﴿وَلِلهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ (الرعد:١٥) وقوله: ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلهِ﴾ (النحل:٤٨) فهذا سجود تسخير وهو الدلالة الصامتة الناطقة على كونها مخلوقة وأنها خلق فاعل حكيم وقوله: ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون ينطوي على النوعين من السجود والتسخير والاختيار) [١] وكذلك يعبر بالسجود عن الصلاة لاشتمالها عليه[٢].

وخص السجود بالشريعة بالركن المعروف من الصلاة وما يجري مجرى ذلك من سجود القرآن وسجود الشكر[٣].

وسجد: السين والجيم والدال أصل واحد مطرد يدل على تطامن وذل. يقال سجد إذا تطامن وكل ما ذل فقد سجد. قال أبو عمرو: اسجد الرجل، إذا طأطأ رأسه وانحنى[٤]. وسجد: وضع جبهته على الأرض فهو ساجد جمع سجد وسجود الساجد يقال فلان ساجد المنخر: ذليل خاضع[٥].

---

(١) المفردات في غريب القرآن/ ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٢) ينظر عمدة الحفاظ ٢/١٧٣.

(٣) ينظر المفردات في غريب القرآن/ ٢٣٠.

(٤) ينظر معجم مقاييس اللغة/ ٤٨٣.

(٥) المعجم الوسيط ١/٤١٨.

وقد ذكر الله تعالى صنفين من الساجدين في آية الرعد وهما:

١- مخلوقات غير عاقلة كالبرق والرعد.

٢- والملائكة وهم يعقلون وقد جعلهم الله تعالى هنا بين هذه المخلوقات غير العاقلة من الرعد والبرق وبين الصواعق لأنهم وان كانوا مختارين في السجود إلا أنهم يفعلون ما يؤمرون كالصنف الأول.

فالسجود يكون للإنسان في جزء منه اختيارا ومن الظلال تسخيرا فجمع بينهما وخاصة قد ذيلت الآية بلفظة (الآصال) لأن من معانيها إخضاع الآخرين تحت سلطان القهر والجبروت[1] وهذا بعضد السجود في التسخير الذي لا حرية للإنسان فيه.

وردت آية السجود بين آيتين ورد فيها قوله تعالى: ﴿**يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ**﴾ قبل الآية وهؤلاء لا يستجيبون وبعد الآية (لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا اذن فلا بد أن يكون لمن يستجيب ولمن يملك النفع والضر وهذا تعريض بالكفار والمشركين بأنهم لا يسجدون لله بل عليهم أن يسجدوا له ويتذللوا ولما كان السجود هنا طوعا أو كرها فلا بد أن يكون للعقلاء ولذلك جيء بلفظة (من) دون (ما).

وأما آية النحل فقد تكلمت عن النوعين من السجود وهو أنه يسجد له كل الموجودات سواء في السموات أم في الأرض وعندما ذكر الأرض وفيها ما يدب عليها جاء بحرف الجر (من) ليخرج العقلاء من السجود التسخيري لأن من يدل على البعض وهذا يكون في السجود الاختياري ومن ثم جاء بمثل للعقلاء الذين ينقادون انقيادا تاما لله تعالى وهم الملائكة وهم يفعلون ما يؤمرون فليكن العاقل من الإنس والجن أن يحذوا حذو الملائكة في السجود الكامل الاختياري ولهذا جاء بلفظة (ما) التي تدل على النوعين معا.

وذكر الله تعالى قبل الآية السجود التسخيري في قوله تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ** ﴾. (الحج:٤٨).

وأما آية الحج فقد وردت لفظة (من) كثيرا قبل الآية كقوله تعالى: ﴿ **وَمَن**

---

(١) ينظر: نظم الدرر ١٣٦/٤.

ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ آية/ ١١ وكقوله تعالى: ﴿ **يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن** ﴾ آية/ ١٣ وكقوله تعالى (من كان يظن) آية/١٥ وكقوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ**﴾ آية/ ١٦ وكذلك ذكر قبل الآية أصنافا من الناس على أديان مختلفة حيث ذكر المؤمنين واليهود والصابئين والنصارى والمجوس فالمفروض عليهم السجود لله تعالى سجودا اختياريا لأنهم عقلاء والذي يناسبه وهو (من) دون (ما) لأن (من) خاص بالعقلاء.

ذكرت آية السجود من في السموات ومن في الأرض ثم ذكرت أنواعا من المخلوقات وهي تسجد تسخيريا كالشمس والقمر والنجوم والجبال والدواب ثم جاءت العبارة (وكثير من الناس) لتوضح الساجدين لله تعالى سجودا اختياريا لعبارة (ومن في الأرض) وهذا لا يناسبها إلا لفظة (من) لأن الناس قد أعطوا حرية الاختيار في السجود.

وقد ذكر في الآية من العلويات أولا في السجود فبدأت بـ (من في السموات والشمس والقمر والنجوم والجبال والدواب لأنهم مسخرون بالسجود لله تعالى وعليه فلا يكون الناس أقل من هؤلاء الساجدين إذن فليكونوا مثلهم في الساجدين ولا يشذوا عن المخلوقات الأخرى).

ولهذا جاءت لفظة (من) لأن التركيز على الناس وفيه تلميح للمشركين على السجود لله دون الأصنام.

ولكل هذه الأسباب جاءت لفظة (من) في هذه الآية وفي آية الرعد وجاءت لفظة (ما) في آية النحل فسبحان من وضع كل حرف في موضعه وكل كلمة في مكانها وكل عبارة في مقامها لتدل على أن هذا الكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فأنى لمخلوق أن يأتي بمثله؟

٣- تنوع التعريف

إن التعريف يكون (بال) بالألف واللام ويكون بالاسم الموصول، كل ذلك من خلال الآيات المتشابهة التي وردت في كتاب الله تعالى، وقد جاءت آيات متشابهة فيها (ال) التعريف أو الاسم الموصول في آية وجاءت لفظة أخرى في آية متشابهة ولكن بالتنكير. واستشهدت بها في الآيات السابقة التي تخص هذا المبحث ولكن وردت آيات أخرى فيها (ال) التعريف في لفظة وجاءت اللفظة نفسها نكرة

مضافة في آية متشابهة أخرى. لماذا هذا التحول؟ أقول لأسرار بلاغية وحكم بيانية وعلل تختلف من موضع إلى آخر لتدل على الإعجاز القرآني في نظمه وسأحلل آية واحدة لأن الآيات المتشابهة أقل من غيرها في هذا المبحث.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ الحجر/٣٥، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ ص/٧٨.

اللعن الإبعاد والطرد من الخير وقيل: الطرد والإبعاد من الله، ومن الخلق السبُّ والدعاء واللعنة الاسم[1].

هاتان الآيتان متشابهتان إلا في لفظة (اللعنة) في سورة الحجر حيث جاءت هنا بالألف واللام ثم جاءت اللفظة نكرة مضافة إلى الضمير (الياء) العائد إلى الله تعالى في سورة (ص) والآيتان في إبليس حيث أمره الله تعالى بالسجود لآدم عليه السلام فأبى إبليس واستكبر ثم طغى وتجبر فلعنه الله تعالى إلى يوم القيامة بعد أن طلب من الله تعالى أنظاره إلى يوم الدين ليكون ملعوناً من الله تعالى والخلق أجمعين.

فالاختلاف حاصل بين (اللعنة) في الآية الأولى، و(لعنتي) في الآية الثانية. وقد علل صاحب درة التنزيل الاختلاف بين اللفظتين بأن الحديث كان على الجنس كما في الآيات الآتية: (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون) وقوله: (والجان خلقناه) وقوله: (فسجد الملائكة كلهم) فقال (اللعنة) هي اسم الجنس المعرف (بال) الجنسية وليست العهدية.

أما في الآية الثانية لم يتكلم على الجنس من الجن والإنس، وجعل بدل الساجدين أن تسجد ثم قال ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ ٧٥، فخصص بالإضافة إليه دون وساطة فقال: (لعنتي) للتوفيق بين الألفاظ في السور[2].

والكرماني ذكر هذا الاختلاف بين الآيتين وهو توجيه الإسكافي[3]. ولو رجعنا إلى الآيات التي قبل هاتين الآيتين لعلمنا أن كل لفظة جاءت في موضعها المناسب.

في سورة الحجر نرى الحوار هادئاً وفيه ما يدعو إلى التعجب من الله تعالى

---

(١) لسان العرب/٣٧٤. مادة (لعن).

(٢) ينظر: درة التنزيل/١٧٩.

(٣) البرهان في متشابه القرآن/٢١٥.

لعدم سجود إبليس لآدم عليه السلام كقوله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾.

في سورة (ص) أراد الله تعالى من إبليس حجة دامغة سواء بالقوة أو ببيان الحجة كقوله تعالى: (قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين) وضح الله تعالى له بأن هذا السجود كان للذي خلقته بيدي ليشعره بعظمته سبحانه وأنه هو المستحق لتنفيذ أمره والخضوع له دون سواه. في حين لا نجد مثل هذا التذكير في سورة الحجر، كذلك في سورة الحجر بين الله تعالى في الآيات التي قبلها يرفض إبليس السجود ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ وفي سورة (ص) جاء بيان السبب المانع للسجود وهو الاستكبار ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ﴾ وقد جاء الفعل مزيداً بالهمزة والسين والتاء ليدل على مبالغة الفعل وشدته لتناسب لفظة (لعنتي) الخاصة بالله على إبليس لتكون أقوى وأشد. فضلاً عن أن في سورة الحجر لم يكن تفضيل إبليس صريحاً وإنما كان ضمناً في حين نرى تفضيله صريحاً في (ص) قال تعالى في سورة الحجر ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ وقال في سورة (ص): ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾.

إذن جاءت لفظة (اللعنة) في سورة الحجر مناسبة مع الجدال الهادئ ورفض السجود لأنها عامة من الله تعالى ومن المخلوقات.

أما في سورة (ص) فجاءت لفظة (لعنتي) لتدل على خصوصية هذه اللعنة، وأنها من الله تعالى لتكون عظيمة ودائمة. فجاءت كل لفظة في مكانها المناسب.

ثالثاً: المتشابهات في التقديم والتأخير

وردت في القرآن الكريم آيات متشابهة ولكنها تختلف في بعض ألفاظها تقديماً وتأخيراً والتقديم والتأخير من موضوعات علم المعاني وبه تسمو الأساليب وتميز المواهب فتتألق العبارات وتستضيء الألفاظ والجمل وبه يستدل على بلاغة الكاتب وفصاحة الباحث وقبل أن نتطرق إلى هذه الآيات فلا بدّ من أن نمر على مراتب الكلام عند النحويين.

زعم الخليل أنه يستقبح أن يقول: (قائم زيد) وذاك إذا لم تجعل قائماً مقدماً ومبيناً على المبتدأ، كما تؤخر وتقدم فتقول: (ضرب زيداً عمرو) وعمرو على ضرب

مرتفع وكان الحد أن يكون مقدماً ويكون (زيد) مؤخراً...)[١].

والنحويون ينظرون إلى التقديم والتأخير من حيث الأصل، أي أن المبتدأ الأصل فيه أن يتقدم على الخبر والأصل تأخير الخبر، وأن الأصل في الجملة الفعلية أن يتقدم الفعل على الفاعل، فإذا قلنا يدرس زيد فقد جرى على الأصل وأما إذا قلنا زيد يدرس فقد تحولت إلى جملة اسمية بالتقديم والتأخير فإن الجملة الأولى لا نسأل عن سبب التقديم لأنه هو الأصل ولكن في الجملة الثانية يمكن أن نسأل عن سبب تقديم (زيد) على (يدرس) (والأصل أن يلي الفاعلُ الفعلَ من غير أن يفصل بينه وبين الفعل فاصل)[٢].

وكذلك قول النحاة إن المبتدأ والخبر طرفا إسناد وكذلك الفعل والفاعل وطرفا الإسناد عمدة، فإذا وردت معها فضلة فمن حق طرفي الإسناد أن يتقدما عليها لأن العمدة تقدم على الفضلة.

ويجب تأخير المفعول لأنه فضلة لا يتوقف الكلام عليه، ولأن رتبة الفعل يجب أن تكون أولاً ورتبة الفاعل أن يكون بعده ورتبة المفعول أن يكون آخراً. ونعني بالفضلة كل كلام ولي بعمدة مثل الظروف والجار والمجرور والأحوال والنعوت وغيرها.

ويرى قسم من الباحثين أن سيبويه له أسبقية في وضع إشارات أو بدآيات في كثير من موضوعات علم المعاني[٣] كقوله: (كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم له وهم ببيانه أعنى وان كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم)[٤].

وأما علماء البلاغة فاهتموا بالموضوع اهتماماً كبيراً، لأنه أحد أصول علم المعاني وحينئذ تعرف أحوال اللفظ التي يطابق بها مقتضى الحال. والجرجاني هو أول من تناول الموضوع بشكل واسع فهو يقول: "هو باب كثير الفوائد جم المحاسن واسع التصرف بعيد الغاية لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد

(١) الكتاب: م/١٢٥.

(٢) شرح ابن عقيل ١/٤٨٤.

(٣) التقديم والتأخير في القرآن الكريم/١٥.

(٤) الكتاب: ١/٣٤.

سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدم فيه شيء، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان"[١].

ومن ثم توسعت البحوث والمؤلفات في هذا المجال بعد عبد القاهر الجرجاني وانضوى تحته موضوعات عديدة عند أهل البلاغة فجاء مثلاً: تقديم المسند وتأخيره وتقديم المسند إليه وتأخيره وغيرها[٢].

فإذا كان البلاغيون قد اهتموا بعلم المعاني بصورة عامة، فإن اهتمامهم كان أكثر بالتقديم والتأخير، ولكن علماء المتشابه اللفظي شاركوا بصورة أدق وأكثر تركيزاً على الآيات المتشابهة من حيث التقديم والتأخير ولهذا ركزوا على لفظة تقدمت فما علتها؟ وتركيب تأخر فما سببه؟ ولذلك جاءت بحوثهم في اتجاهات شتى كبحثهم (تقديم المسند) أو تأخيره وتقديم جزء من الجملة وتكلموا عن تأخير أو تقديم المتعلقات في العبارة الواحدة بعضها على بعض وقد اقتصر هؤلاء العلماء الأفذاذ على الذي ورد في الآيات المتشابهة، وحين ننظر في مؤلفاتهم وما استعرضوه من هذه المسائل وما وجهوها بتوجيهات دقيقة وعللوها بعلل باهرة وأسباب فنية في توضيح النظم القرآني وما له من حبك منسق كاشفين بذلك عن الإعجاز البياني لهذا الكتاب الذي ما إنْ سمعته الجن حتى قالوا: ﴿**يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ الأحقاف/٣١.

ولقد تميزوا في هذا الموضوع في استخراج دقيق لسر تحولات الألفاظ في هذه الآيات وبيان عللها البيانية وإظهار نكتها البلاغية. وسأتكلم عن أنواع التقديم والتأخير في هذه الآيات المتشابهات بما يأتي:

١. التقديم والتأخير بين الجمل الفعلية.

٢. التقديم والتأخير بين الجمل الاسمية.

٣. التقديم والتأخير مع الجار والمجرور.

أ. التقديم والتأخير بين الجار والمجرور مع الفاعل.

ب. التقديم والتأخير بين الجار والمجرور مع الحال.

---

(١) دلائل الإعجاز/١١٠.

(٢) ينظر: الإيضاح ٢/٥٠ - ٨٠ والبلاغة فنونها وأفنانها: ٢٠٧ - ٢٤٣.

ت- التقديم والتأخير بين الجار والمجرور مع الصفة.

٤- التقديم والتأخير بين الجار والمجرور والمفعول به وضمير الفصل.

ث. التقديم والتأخير بين الجار والمجرور ومثله.

٥. التقديم والتأخير بين المتعاطفين.

أ. بين المفعول به والمعطوف عليه.

ب. بين الخبر والمعطوف عليه.

ج. بين اسمين.

١. التقديم والتأخير بين الجمل الفعلية، ومن ذلك قوله: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ الجمعة/٢. وقوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ البقرة/١٢٩. وقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ آل عمران/١٦٤. في هذه الآيات المتشابهة تقدمت الجملة الفعلية (ويعلمهم الكتاب والحكمة) في آية البقرة على الجملة الفعلية (ويزكيهم)، في حين تقدمت الجملة الفعلية (ويزكيهم) في آية آل عمران والجمعة على تعليم الكتاب والحكمة يذكر ابن الزبير أن دعوة إبراهيم عليه السلام في آية البقرة كانت قبل وجود الضلال في ذريته المدعو لها، فجاء لفظ التعليم أولاً لأنه هو السبب في كسب التزكية. أما آيتا آل عمران والجمعة فالمقصود بهما امتنان الله تعالى عليهم بالهداية فأخر ذكر التعليم ليكون بعده ذكر الضلال الذي أنقذهم منه فهو يقول: (لما كانت دعوة إبراهيم عليه السلام قبل وجود الضلال في ذريته المدعو لها، وإنما تحصل لهم تزكيتهم ورفع ضلالهم المتوقع وقوعه بما يمنحونه من التعليم وما يتلى عليهم من الآيات، لأن ذلك هو السبب في حصول التزكية والسلامة من الضلال، إذا وفقوا للانقياد له ألا ترى أن ارتباط التزكية بأعمال الطاعات قال تعالى: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا**﴾ التوبة/١٠٣. فتأخر ذكر التزكية المسببة عما به تحصل، وذلك بعد هدايتهم للإيمان فجاء على الترتيب من بناء المسبب على سببه. ولما كان مقصود الآيتين الأخيرتين إنما هو ذكر الامتنان عليهم بهدايتهم بعد

الضلال الذي كان قد وجد منهم والتعريف بإجابة دعوة إبراهيم عليه السلام أخر ذكر تعليم الكتاب والحكمة المزيلين لضلالهم ليكون تلوه ذكر الضلال الذي أنقذهم الله منه بما علمهم وأعطاهم وامتن عليهم وهو ثاني السببين فكان الكلام في قوة ما لو قيل: ويعلمهم زوال ضلالهم ولو أخر التزكية لما أحرز هذا المعنى المقصود هنا[1].

أقول: إن آية البقرة دعوة من إبراهيم عليه السلام عندما كان يرفع القواعد من البيت الحرام هو وإسماعيل عليه السلام، ومما دعا به أن يجعل لهم ذرية وأن تكون من هذه الذرية أمة مسلمة له، وأن يريهم مناسكهم ورؤية المناسك تحتاج إلى تعليم ولهذا قدم التعليم على التزكية فقال تعالى: (وأرنا مناسكنا) وجاء قوله تعالى: (وتب علينا) فالتوبة تزكي النفوس وتصقل القلوب، ومن ثم جاءت التزكية بعد التعليم لتتناسب (وأرنا مناسكنا) مع التعليم والتوبة مع وتزكيهم فلما جاءت (وأرنا مناسكنا) أولاً جاء التعليم بعدها أولاً (وتعلمهم الكتاب) وجاءت جملة (وتب علينا) ثانياً لتتناسب مع (وتزكيهم) ثانياً فضلاً عن أن سيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لم يكونا ضالّيْن فهما مسلمان مهتديان فلا بد من مجيء التعليم أولاً.

أما آية آل عمران فهي من الله تعالى مباشرة وكذلك تقدمت (ويزكيهم) فيها، لأن التزكية تكون في الابتعاد عن الشرك وتصحيح العقائد الضالة، فهم وان كانوا مسلمين لكن الله تعالى أراد أن يطهر قلوبهم من أدران الشرك وأوساخ الجاهلية فصحح لهم نظراتهم ووضح لهم ما تتزكى نفوسهم به ولا سيما وهم قريبو عهد بالشرك والجاهلية فلا زالت بعض ترسبات الضلال معلقة في أذهانهم كقوله تعالى في تثبتهم على الإيمان: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وكقوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ وكقوله في توضيح الآجال وأمدها: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، فسياق الآيات قبل آية آل عمران تدل على تطهير النفس وتصحيح الأخطاء والحركات وبها تكون التزكية للنفوس وتنصع القلوب بالتوبة والاستغفار، فكان من المناسب أن تقدم الجملة (ويزكيهم) على (ويعلمهم)، وكذلك أية الجمعة لأنها مسبوقة بقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ

---

(١) ملاك التأويل: ١/٢٣٦ - ٢٣٧.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. لأن التسبيح يلين القلب ويطهره ويبعد النفوس عن المنهيات فناسب ذلك جملة (ويزكيهم) مقدمة على (ويعلمهم) هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن ما بعد آية آل عمران والجمعة جاء قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ فلما كان الضلال نقيض التزكية ناسبتها هذه الجملة الفعلية (ويزكيهم)، لأن التزكية تزيل الضلال وتمحو الظلام لتبقى القلوب ناصعة والنفوس لامعة فإذا جاء في آخر الآية (لفي ضلال مبين) سبقت التزكية التعليم.

٢. التقديم والتأخير بين الجمل الاسمية

ومنه قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ الأنعام/١٠٢، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ غافر/٦٢ ثمة نلحظ في هاتين الآيتين المتشابهتين اختلافاً في تقديم ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ في آية الأنعام على ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ في حين تقدمت جملة ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ على ﴿لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾ في آية غافر ؛ وذلك للتركيز على توحيد الله تبارك وتعالى في آية الأنعام واثبات صفة الخلق في آية غافر، ولذلك ناسبت كل عبارة في موضعها. يقول الإسكافي: (لأن ما في هذه السورة جاء بعد قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ١٠٠ فلما قال: (ذلكم الله ربكم) أتى بعده بما يدفع قول من جعل له شريكاً فقال لا إله إلا هو ثم قال: (خالق كل شيء) وفي سورة المؤمن جاء هذا بعد قوله: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٥٧ فكان الكلام على تثبيت خلق الإنسان لا على نفي الشريك عنه كما كان في الآية الأولى، فكان تقديم خالق كل شيء هاهنا أولى)[١].

ولقد وافقه كثير من المفسرين[٢] وعلماء المتشابه اللفظي[٣].

وأرى أنه لما كان سياق آية الأنعام قد اهتم بالتوحيد ونفى الشرك عن ذاته

---

(١) درة التنزيل/٩٢.

(٢) ينظر: تفسير غراب القرآن ١٣٦/٣، روح المعاني ٢٤٤/٧.

(٣) ينظر: البرهان في متشابه القران ١٥٩ ؛ ملاك التأويل ٦٨/١، كشف المعاني/٩٧ وينظر: متشابهات آي القرآن/١٠٢ - ١٠٣.

تعجب من هؤلاء المشركين بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ١٠٠ أي كيف يجعلون لله شركاء وهم مخلوقون له وجعلوا له بنين وبنات وهو منزه عن ذلك. وقوله تعالى: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ استفهام استنكاري تعجبي أي لا يكون له ولد ولم يتخذ زوجة لنفسه تعالى عن ذلك علواً كبيراً، ولهذا قدم (لا إله إلا الله) الذي نفى كل اله غيره سبحانه وتعالى على (خالق كل شيء) هذا من جهة، ومن جهة أخرى لما أخر عبارة (وخلق كل شيء) عن قوله ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ أخر ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ عن نفي أي اله سواه).

وأما آية غافر فقد جاءت بين عبارتي (خلق السموات) و(خلق الناس) ولهذا قدم (خالق كل شيء) على ﴿ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾ قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ ٥٧. وقال ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ ٦٧. أن السياق ركز على الخلق في هذه الآية لقوله تعالى أيضا ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ ٦٠. وقوله ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ ٦٤.

فلما كان السياق مهتما بالخلق سواء قبل الآية أو بعدها تناسب تقديم جملة ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾. فجاءت كل جملة في موضعها المناسب لتعبر عن المعنى المقصود.

٣- التقديم والتأخير بين الفاعل والفعل.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ الحديد/ ١٢.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ التحريم / ٢٨.

الاختلاف بينهما في (يسعى نورهم) في آية الحديد، و(نورهم يسعى) في آية التحريم، فجاء قوله تعالى: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ﴾ في آية الحديد على الأصل بتقديم الفعل على الفاعل، أما آية التحريم فقد عكس الأمر فيها فقدم الفاعل على الفعل فكان مبتدأ والجملة الفعلية في محل رفع خبره فما سر هذا الاختلاف؟

يعلل ابن الزبير ذلك بقوله: (إن قوله تعالى في سورة التحريم: (والذين آمنوا معه) يفهم من حيث المعية قرب المنزلة وعلو الحال فتقدم ثبوته فناسب ذلك ورود

الجملة الاسمية هنا لما يقتضيه من الثبات وتقدمه واستحكامه، أما قوله في سورة الحديد: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ فبشارة للمؤمنين ولم تأت هنا كونهم مع نبيهم، فلم يتحصل مما يفهم تمكن المنزلة وثبوتها ما تحصل في آية التحريم، إنما هذه إشارة بشارة فناسبها التجدد والحدوث فناسب ذلك الفعل بما يعطيه من المعنى فقيل (يسعى نورهم بين أيديهم) ليفهم التكرر وحدوث الشيء بعد الشيء فورد كل على ما يجب ويناسب)[١].

وهناك رأي آخر في الجملة الاسمية إذا كان خبرها فعلا، فهي تفيد التجدد والحدوث كالجملة الفعلية[٢] فمثلا الجملتان (يخطب زيد) و(زيد يخطب) كلتاهما تدلان على الحدوث، وإنما قدم المسند إليه على المسند في الجملة لغرض من أغراض التقديم[٣].

أقول إن آية الحديد جاء التقديم فيها على الأصل كما أسلفت، وان الجملة الفعلية تفيد التجدد والحدوث، وان المؤمنين والمؤمنات جعل الله لهم نورا يمشون به يوم القيامة بدليل قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ الحديد/٢٨. فهم بعد الحشر يمشون ولهم نور من أمامهم وعن أيمانهم إلى الجنة مبشرين بها قبل الوصول إليها لقوله تعالى: ﴿بُشْرَاكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ الحديد/١٢، ولكن آية التحريم تقدم الفاعل على الفعل (نورهم يسعى).

فالنبي ﷺ والمؤمنون أكثر نورا لأن النبي ﷺ مع المؤمنين وهو كان سراجا منيرا في الدنيا بنور القرآن الكريم وسيكون له نور على حقيقته في ظلمات القيامة هذا من جهة، ومن جهة ثانية أصبح نوران في هذه العبارة نور الرسول ﷺ ونور المؤمنين بدليل قوله تعالى (نورهم) فالضمير عائد إلى النبي ﷺ وإلى المؤمنين، وهذا النور له فاعلان وهما الضمير المستتر في الفعل (يسعى) العائد إلى، والنور هنا مبتدأ ولكنه في الأصل فاعل، ولذلك قدم الفاعل ليدل على استمرارية النور ودوامه، فضلا عن أن الله ذكر ﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ قبلها، أما في آية الحديد فقد بشرهم الله بالجنة بعدها، ولذلك جاءت كل جملة في موضعها

(١) ملاك التأويل: ١٠٧١/٢ - ١٠٧٢.

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٦٦/٤ - ٦٧. (٣) معاني النحو: ١٦/١.

المناسب لها.

٤- التقديم والتأخير مع الجار والمجرور

أ- التقديم والتأخير بين الجار والمجرور مع الفاعل

كقوله تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾ آل عمران /١٢٦.

وقوله تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ الأنفال/١٠.

الأصل في الجملة الفعلية أن يتقدم فيها الفعل على الفاعل وتأتي الفضلة بعدهما، لأن الفعل والفاعل طرفا إسناد ومن حقهما أن يتقدما على الفضلة، ولكن إذا تقدمت الفضلة عليهما فقد خرجت الجملة عن الأصل والجار والمجرور فضلة والغرض من تقديم الجار والمجرور العناية والاهتمام على غير عامله، فما قدمته يكون أهم من الذي أخرته فحين نقول (ذهب إلى المسجد زيد) عنايتك بالجار والمجرور أهم مما تقول: (ذهب زيدٌ إلى المسجد)(١). ولكن قد تأتي إلى مقام يكون الكلام فيه أبلغ إذا جاء على الأصل.

وقد يأتي الكلام في مقام يتطلب غير الأصل فيكون أبلغ والذي يحدد هذا سياق النص كما في الآيتين المذكورتين آنفا. فالآيتان في معركة بدر(٢) لتثبيت المؤمنين وتبشيرهم، فهما آيتان متشابهتان وقد اختلفتا في تقديم الجار والمجرور على الفاعل في آية الأنفال وتأخيره عنه في آية آل عمران، ويرجع ذلك إلى أسباب بلاغية وعلل نظمية، وقد وضح ذلك الخطيب الإسكافي بقوله: (وأما تأخير به) بعد قوله (قلوبكم) فلأنه لما تأخر الجار والمجرور في الكلام الأول وهو قوله: (وما جعله الله إلا بشرى لكم) وعطف الكلام الثاني عليه، وقد وقع فيه جار ومجرور، وجب تأخيرها في اختيار الكلام ليكون الثاني كالأول في تقديم ما الكلام محتاج إليه وتأخير ما قد يستغنى عنه. وأما تقديم (به) في الآية الثانية، فلأن الأصل في كل خبر يصدر بفعل أن يكون الفاعل بعده ثم المفعول والجار والمجرور، وقد يقدم

---

(١) ينظر: معاني النحو: ٣/١٠٥.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٤ - ٣٧٠/٧.

المفعول على الفاعل إذا كان اللبس واقعا، وكذلك الجار والمجرور بمنزلة المفعول في التقديم والتأخير وشبههما.. وفي هذا الموضع إذا لم يعرض في اللفظ من التوفقة ما يوجب إجراء الكلام على الأصل كما كان في سورة آل عمران فإن المعتمد بتحقيقه عند المخاطب إنما هو الإمداد بالملائكة، وهو الذي أخبر الله تعالى عنه أنه لم يجعله إلا بشرى فوجب أن يقدم في الكلام الثاني وهو المضمر بعد الباء في قوله تعالى (به) على الفاعل فقال تعالى: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾(١).

أي أنه نظر إلى العبارة التي قبلها فأوعز تأخير الضمير المجرور في آية آل عمران إلى المناسبة اللفظية، وذكر أنه لما تأخر (لكم) في الجملة التي قبلها (إلا بشرى لكم) وجب التأخير هنا ليكون الثاني كالأول، أما تعليله للآية الثانية، أي آية الأنفال فكان للحالة النفسية التي كانت تسيطر على فكر المخاطبين فجاء التعبير بتقديم ما هو أهم عندهم وهو الإمداد ليراعي حالتهم النفسية.

وأما ابن الزبير الغرناطي فيرى (أن قلوبهم هي المطمئنة بذلك فقيل: (ولتطمئن قلوبكم به) فقدمت القلوب على المجرور اعتناء وبشارة ليمتاز أهلها ممن ليس لهم نصيب)(٢).

وأبو حيان ردّ الاختلاف إلى أسلوب النظم القرآني قال: وهنا قدم وأخر هناك على سبيل التعفف والاتساع في الكلام(٣).

ويرجع ابن عاشور اختلاف النظم في الآيتين إلى ثلاثة أمور: أحدها أنه قال في آل عمران (إلا بشرى لكم) وحذف (لكم) هنا وفقا لتكرير لفظة لهم، فأغنت (لكم) الأولى، بلفظها ومعناها عن ذكر لكم مرة ثانية ولأن آية آل عمران سيقت مساق الامتنان والتذكير بنعمة النصر في حين القلة والضعف فكان تقييد (بشرى) بأنها لأجلهم زيادة في المنة...

وأما آية الأنفال فهي مسوقة مساق العتاب على كراهية الخروج إلى بدر في أول الأمر وعلى اختيار أن تكون الطائفة التي تلاقيهم غير ذات الشوكة فجرد (بشرى) عن أن يعلق به (لكم) إذ كانت البشرى للنبي ﷺ ومن لم يترددوا من المسلمين.

---

(١) درة التنزيل: ٥٤.

(٢) ملاك التأويل: ٣١٤/١.

(٣) البحر المحيط: ٢٨٠/٥.

ثانيها تقديم المجرور هنا في قوله: (به قلوبكم) وهو يفيد الاختصاص فيكون المعنى ولتطمئن به قلوبكم لا بغيره، وفي هذا الاختصاص تعريض بما اعتراهم من الوجل من الطائفة ذات الشوكة وقناعتهم بغنم العروض التي كانت مع الغير، فعرض لهم بأنهم لم يتفهموا مراد الرسول ﷺ، حين استشارهم وأخبرهم بأن العير سلكت طريق الساحل، فكان ذلك كافيا في أن يعلموا أن الطائفة الموعود بها تمخضت أنها طائفة النفير، وكان الشأن أن يظنوا بوعد الله أكمل الأحوال فلما أراد الله تسكين روعهم، وعدهم بنصرة الملائكة علما بأنه لا يطمئن قلوبهم إلا ذلك.

ثالثها أنه قال في سورة آل عمران (العزيز الحكيم) فصاغ الصفتين العليتين في صيغة النعت، وجعلها في هذه الآية في صيغة الخبر المؤكد، إذ قال: (إن الله عزيز حكيم) فنزل المخاطبين منزلة من يتردد في أنه تعالى موصوف بهاتين الصفتين وهما: العزة المقتضية أنه إذا وعد بالنصر لم يعجزه شيء والحكمة فما يصدر من جانبه يجب غوص الإفهام في تبين مقتضائه)[1].

ويرى الدكتور فاضل السامرائي: أن سياق آية آل عمران هو مسح على القلوب وطمأنة لها بذكر معركة (بدر) تمهيدا لذكر (أحد) وما أصابهم فيها من مصائب عظيمة فالله سبحانه يقول لهم: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ آل عمران/١٣٩ ويقول: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ آل عمران/١٤٠ وما إلى ذلك ممّا فيه مواساة وتصبر وعلاج لجراح أحد، فقد ذكر البشرى والقلوب من قبيل المواساة والطمأنينة والتبشير، أما في الآية الثانية فإن المقام ذكر لمعركة بدر وذكر للنصر ودور الإمداد السماوي في هذا النصر ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ الأنفال/٩ فالمقام مقام انتصار ودور المدد الرباني فيه فقدمه ذلك على القلوب. وفي آل عمران المقام هو الطمأنينة وتسكين القلوب فقدمها على الإمداد[2] أقول: إن آية آل عمران جاءت مجملة ولم تفصل كما فصلت سورة الأنفال معركة بدر ولم يكن موقف المؤمنين كموقفهم في معركة أحد، لأنها جاءت

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٩/٢٧٦ - ٢٧٧.

(٢) ينظر: التعبير القرآني: ٦٨.

بعدها فكأنما هناك تهيؤ للمعركة القادمة، فلما كانت هكذا فجاءت الآية على الأصل حيث تقدم الفعل على الفاعل والجار والمجرور هذا من جهة، ومن جهة أخرى أمر الله المؤمنين بالصبر والتقوى قبل آية آل عمران والصبر والتقوى لا يكونان إلا بالقلب، وحتى يكون القلب قريبا من التقوى والصبر قدم الفاعل (قلوبكم) على الجار والمجرور فضلا عن أنّ الله تعالى أخبر المؤمنين بأنهم كانوا قلة بالمقارنة مع جيش قريش ومع الكفار في كل مكان، وهذه القلة لا تستطيع التغلب على جميع الكفار فهم أذلة ولكن بتقوى الله نصرهم وأعزهم وإذا أنزل الله الفا من الملائكة متتابعين فبتقوى الله تعالى يمدهم ربهم بثلاثة الاف وبالصبر مع التقوى يمددهم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين، أي إذا اتقيتم وصبرتم جاء النصر من عنده قريبا لذكر الصفتين لله تعالى ولهذا قال (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) فيعز المتقين ويكرم الصابرين وينصر المؤمنين فكل ذلك لحكمة يراها لمصلحتهم فهو حكيم في تقدير الأمور، وأما آية الأنفال فإنها في وصف المعركة والدماء بعد لم تجف فهي تصفهم عند خروجهم من بيوتهم وفريق منهم كارهون والرعب قد استحوذ على بعضهم، كأنما يساقون إلى الموت وأنهم لا يريدون القتال ويودون أن غير ذات الشوكة أي القافلة تكون لهم، وهم في خوف ووجل فاستغاثوا ربهم ووعدهم ربهم بأن يمدهم الفا من الملائكة مردفين فشخصت الأبصار إلى الملائكة وحدقت إلى المدد الإلهي، ولذلك قدم الجار والمجرور لأن النفوس تعلقت به والعيون ترنو إليه، وكذلك كانوا في حالة نفسية من قلتهم وكثرة عدد عدوهم وشحة الماء في الصحراء سواء للغسل والوضوء أو للشرب والارتواء فغشتهم الغفوة وأنزل عليهم الماء من السماء للشراب والطهور وليزيح عنهم كل وسواس فيربط على قلوبهم ويثبت الأقدام في المعركة، ولهذا قدم الجار والمجرور على (قلوبكم). أي أن آية الأنفال استغاثة من قبلهم يوم بدر منهم في تشوق منه، وأنهم متطلعون إليه في موطن الخوف والفزع فقدم ضمير الإمداد مع عامله على القلوب لاهتمامهم به وحاجتهم الملحة إليه لأنه موضع رجائهم، لأن العهد بالمعركة قريب وكأنما هم فيها الآن ولذلك روعي فيها من مقتضيات الواقع والحال. ولكن آية آل عمران خلت من ذلك وهي قصة موجزة قد حدثت يوم بدر، وتذكير لهم بما فعله الله تعالى معهم. إشعارا منه تعالى بالوعد بالنصر أن

اتقوا وصبروا واتقوا في المعركة القادمة وهي أحد لذلك جاء الضمير على الأصل.

ب- التقديم والتأخير بين الجار والمجرور مع الحال

كقوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ النحل/ ١٤.

وقوله تعالى: ﴿**وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ فاطر/١٢.

آيتان متشابهتان ولكنهما اختلفتا في أشياء ثلاثة وهي:

١. في آية النحل وردت (وتستخرجوا منه) وفي آية فاطر (وتستخرجون).

٢. في آية النحل (ولتبتغوا) بذكر الواو وفي آية فاطر (لتبتغوا) من غير واو.

٣. في آية النحل قدم الحال على الجار والمجرور (مواخر فيه).

والذي يهمنا من هذه التحولات هو تقديم الحال (مواخر) على الجار والمجرور (فيه) وتأخيره وتقديم الجار والمجرور عليه.

إن آية النحل جاءت على الأصل حيث الفعل والفاعل المستتر والمفعول (الفلك) ثم **الحال** (مواخر)، وان آية فاطر جاءت على خلاف الأصل حيث تقدم الجار والمجرور (فيه) على الحال (مواخر).

وفي كل من تقديم الحال أو تأخيره عن الجار والمجرور يكون فيه سر بلاغي، وقد رأى الإسكافي أن سر التقديم بمناسبتين الأولى معنوية والثانية لفظية. فالأولى حيث تعلق قوله تعالى (لتبتغوا) به أي: وترى الفلك فيه تمخر الماء أي تشقه لتبتغوا من فضله. فأخر مواخر ليجاور معموله (لتبتغوا) والأصل عدم الفصل، ولهذا حذفت واو العطف من قوله: (لتبتغوا) في حين لم تحذف في الآية الأولى، وذلك أن آية النحل بدأت بقوله: (وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه) وما عطف عليه من استخراج الحلية، وجري السفن، وابتغاء، الفضل. أما آية فاطر فليس فيها ما يصلح لعطف الابتغاء عليه، وإنما هو متعلق بمواخر، والمناسبة الثانية اللفظية

التي اقتضاها تقديم الضمير المجرور فهي تقديم الجار والمجرور على الفعل نفسه في قوله تعالى ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾، وأما تقديم (مواخر) في هذا المكان على قوله (فيه)، فلقوة حكم الفعل الذي اعتد الله بذكره على عباده في هذه الآية، لأنها مصدرة بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ وإذا قوي حكم الفعل المتعدي إلى مفعولين مفعوله الأول الذي أصله أن يكون معرفة، ثم مفعوله الثاني الذي أصله أن يكون نكرة، ثم الظرف الذي هو كالفضلة فجاء على هذا الأصل. فأما تقديم (فيه) في الآية الأخرىٰ على (مواخر) فلأن الفعل الذي قدم فيه وعطف هذا عليه بولغ في تقديم الجار والمجرور فيه مبالغة لا مدى وراءها ولا زيادة عليها ألا تراهما قدما على الفعل نفسه وهو: ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾، فلمّا عرض قوله: (وترى الفلك) بعد فعل هذه صفته وقد حصل فيه مفعولان وجار ومجرور، قوي تقديم الجار والمجرور (فيه) على أحد مفعوليه، ليعلم أنه من جملة كلام بني الفعل فيه على تقديم الجار والمجرور عليه[1]. وابن الزبير يعلل تقديم (مواخر) على (فيه) في آية النحل وتأخيره عنه في آية فاطر إلى تأخير المجرورات في آية النحل كقوله (لتاكلوا منه)، (تستخرجوا منه)، (لتبتغوا من فضله) فناسب ذلك تأخير (فيه) على (مواخر). أما آية فاطر فقد بنيت على تقديم المجرورات كقوله: ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ فناسب ذلك تقديم (فيه) على (مواخر)[2].

وابن جماعة يعلل الاختلاف إلى المعاني التي وردت في سياق كل آية، فآية النحل إنما سيقت لتعداد النعم على الخلق، بدليل تقديم قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾، وآية فاطر سيقت لبيان القدرة والحكمة بدليل قوله (والله خلقكم من تراب) فتكرر (منه) في النحل لتحقيق المنة والنعمة وقدم (مواخر) على (فيه) لأنه امتنّ عليهم بتسخير البحر فناسب تقديم (مواخر) أي: شاقة للماء، وأيضا ليلي المفعول الثاني المفعول الأول لترى، فإنه أولى من تقديم الظروف، وأما آية فاطر فحذف (منه) بدلالة (ومن كل تأكلون) عليها وقدم (فيه) على مواخر) لأن شق الفلك الماء بجريان فيه آية من آيات الله تعالى فالتقدم فيه أنسب للفلك)[3].

---

(١) ينظر: درة التنزيل: ١٨٤.

(٢) ينظر: ملاك التأويل: ٥٩٧/٢.

(٣) ينظر: كشف المعاني: ١٣٠.

وقيل إن (مواخر) تقدمت على (فيه) في آية النحل، لأنه تقدم الكلام في سورة النحل على وسائط النقل فذكر الأنعام وأنها تحمل الأثقال وذكر الخيل والبغال والحمير لنركبها وزينة ثم ذكر الفلك وهي واسطة نقل أيضا وقال تعالى: (وترى الفلك مواخر فيه) فقدم المواخر لأنها من صفات الفلك وهذا التقديم مناسب في سياق وسائط النقل وليس السياق كذلك في سورة فاطر، وإنما قال الله تعالى: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ فاطر/١١.ثم قال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فالكلام هنا على البحر وأنواعه وما أودع الله فيه من نعم فلما كان الكلام على البحر قدّم ضمير البحر على المخر فقال: (فترى الفلك فيه مواخر) فانظر كيف أنه لما كان الكلام عن وسائط النقل والفلك قدم حالة الفلك ولما كان الكلام على البحر ذكر ما يتعلق به)[1].

أقول: إن الله سبحانه وتعالى لما عدد النعم بقوله: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ فذكر الأنعام وما ينتج منها من منافع والدفء والأكل). وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وما ينتفع به من شراب وفيه شجر تسيمون وما ينبت بسببه الزرع والزيتون والنخيل والأعناب وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم. وما فيها من السكون في الليل والحركة في النهار وما في الشمس والقمر والنجوم من نعم لا تعد ولا تحصى وما خلق الله لنا الأرض وما ذرأ فيها مختلفاً ألوانه. ثم وهو الذي سخر البحر وما ينتفع بسببه من أكل اللحم الطري واستخراج الحلية والبواخر فيه ولذلك قدم (مواخر) على (فيه) لأن الفلك نعمة أيضا.

ذكر قبل آية النحل وسائل النقل منها الأنعام (وتحمل أثقالكم) والخيل والبغال والحمير لتركبوها، وكذلك الفلك وسيلة أخرى من وسائل النقل ولهذا قدم (مواخر) على (فيه) لتناسب كل لفظة مع سياقها وتنتظم في عقد لا يتجزأ.

في آية النحل بيان العلة من تسخير البحر بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ

(١) التعبير القرآني: ٦٥.

لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي سخرنا البحر لأكل اللحم الطري واستخراج الحلية والبواخر تمخر فيه فلم يحدث الأكل ولا استخراج الحلية ولا تمخير الفلك ولذلك قدم (مواخر).

أما آية فاطر فسياق الآية قبلها وبعدها مقابلة وبهذه تتبين الفوائد والمنافع فقبل الآية ذكر حمل الأنثى ووضعها: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ وتعمير المعمر وتنقيص العمر كل ذلك لحكمة وكل فيها خير كل منها في كتاب: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾.

وجاء بعدها ولوج الليل في النهار وولوج النهار في الليل وتسخير الشمس والقمر ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾. للفت النظر إلى كل منها وما فيها من منافع وفوائد فوردت آية فاطر بين هذه وتلك فقال: (وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج) فذكر البحر الذي ماؤه حلو عذب فرات سائغ وذكر البحر الأجاج أي المالح. وإذا كان أحدهما ماؤه عذب وسائغ شرابه معلوم الفائدة واضح النفع وحتى لا يتصور أحد أن البحر الذي هو ملح أجاج ليس فيه فائدة، فذكر فيه اللحم الطري وفيه الحلية وفيه الفلك مواخر فيه فقد اشترك البحران في وجود اللحم الطري ولكن أحدهما ماؤه عذب فذكر بالمقابل الفائدة الأخرى وهي جريان الفلك في البحر المالح فأصبحت نعمتان في الآية للبحر العذب وهو سائغ شاربه وفيه اللحم الطري كذلك للبحر المالح نعمتان وهما جريان الفلك فيه ووجود اللحم الطري، ولذلك قدم (فيه) أي في البحر المالح على (مواخر) لأن أكثر ما تكون السفن ماخرة في البحار المالحة منها في البحار العذبة.

ت- التقديم والتأخير بين الجار والمجرور مع الصفة

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ المؤمنون/٢٤.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ المؤمنون/٣٣.

هاتان آيتان متشابهتان اختلفتا في تقديم الجار والمجرور (من قومه) في الآية

الثانية على الصفة (الذين كفروا) في حين جاء الجار والمجرور بعدها في الآية الأولى.

فالآية الأولى في قصة نوح ﵇ وقد جاء قبلها مباشرة قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ**﴾ ٢٣ والآية الثانية في قصة هود لأنها ذكرت بعد قصة نوح ﵇ هذا رأي أغلب المفسرين وذهب منهم إلى أنها في قصة صالح[١].

فالآية الأولى جاءت على الأصل، لأن صلة اسم الموصول اقتصرت على الفعل والفاعل وهو الضمير في (كفروا) ثم جاء بعده الجار والمجرور ثم ذكر المقول الذي هو المفعول، أما الآية الثانية فالصلة طالت حين ذكر الفاعل والمفعول والعطف عليه مرة بعد أخرى فقدم المجرور فإذا تأخر كالآية الأولى أصبح مشكلا وحتى لا يكون فاصل بين الصفة وما عطف عليها[٢].

وللكرماني هذا التوجيه نفسه يقول: (فقدم من قومه في الثانية وفي الأولى أخر لأن صلة الذين في الأولى اقتصرت على الفعل وضمير الفاعل ثم ذكر بعده الجار والمجرور، ثم ذكر المفعول (هو المقول) وليس كذلك الأخرى، فإن صلة الموصول طالت بذكر الفاعل والمفعول والعطف عليه مرة بعد أخرى فقدم الجار والمجرور ؛ لأن تأخيره يلتبس وتوسطه ركيك فخص بالتقديم)[٣].

وذكر هذا التعليل كل من ابن الزبير[٤] وابن جماعة[٥] والأنصاري[٦]. وأرى أن تقديم الجار والمجرور في الآية الثانية على الصفة لأن الله تعالى أراد تبيين هذه الصفات من هؤلاء الملأ في هذه السورة لأن سياق الآية بعدها يركز على تقييم الحياة الآخرة لقوله تعالى: ﴿**أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ**

---

(١) ينظر: البحر المحيط: ٦/٤٠٣.

(٢) ينظر: درة التنزيل: ٢١٩.

(٣) البرهان في متشابه القرآن: ٢٤٨ – ٢٤٩.

(٤) ينظر: ملاك التأويل: ٢/٨٧٦.

(٥) ينظر: كشف المعاني: ١٥٠.

(٦) ينظر: فتح الرحمن: ٢٠٩.

بِمَبْعُوثِينَ﴾ فعدد صفاتهم من الكفر والتكذيب بلقاء الآخرة والترف في الحياة الدنيا بعد الجار والمجرور ليجلب الانتباه إليهم بصورة أكثر ولتصغى إليه الأذان بشكل أدق، هذا من جهة ومن جهة أخرى لما طالت الصلة بذكر (كفروا وكذبوا) ومن ثم العطف مرة أخرى فحتى لا يلتبس المعنى قدم الجار والمجرور هنا، ولأنه ذكر في سورة الأعراف آية أخرى في قول الملأ من قوم عاد بقوله تعالى: **﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنْ الْكَاذِبِينَ﴾** فلما لم يكن هناك في سياق الآية هذا الجزم في سورة الأعراف ولم يكن إنكار بشدة ليوم البعث جاء الجار والمجرور مؤخرا في هذه الآية في سياق قصة نوح عليه السلام.

ث- التقديم والتأخير بين الجار والمجرور ومثله

ومن مواضع تقديم الجار والمجرور وتأخيره قوله تعالى: **﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوْ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾** النساء/١٣٥.

وقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾** المائدة/٨.

تقدم الجار والمجرور (بالقسط) على الجار والمجرور (لله) في آية النساء، وتأخر في آية المائدة؛ لأسباب لفظية ومعنوية، ورد في درة التنزيل: قوموا بالقسط، أي: بالعدل في حال شهادتكم لله على كل ظالم حتى يؤخذ الحق منه فقدم القسط لأنه من تمام (قوامين) إذ فعله يتعدى إلى مفعوله بالباء... وأما شهداء فإنها إذا كانت حالا من الضمير في قوامين فإن حقها أن تجيء بعد تمام (قوامين)، وكذلك إن كانت خبرا ثانيا. وإن كانت صفة لقوامين فإن حقها أن تجيء بعده، وأما قوله لله بعد (شهداء) فلتعلقه بالشهادة كأنه قال: كونوا شهداء لله لا للهوى والميل إلى ذوي القربى والدليل على ذلك أنه قال: (ولو على أنفسكم) وشهادة الإنسان على نفسه أن يقرّ بالحق لخصمه أي: (واجعلوا ذلك لله وان كان عليكم أو على الوالدين وذوي القربى منكم، وأما الآية التي في سورة المائدة فإن فحواها يدل على أنها للولاة، فقال: (كونوا قوامين) لا لنفع ويكون (بالقسط) متعلقا (بقوامين) أي كونوا قوامين

لأجل طاعة الله بالعدل والحكم فيه في حال كونكم شهداء: أي وسائط بين الخالق والخلق، أو بين النبي وأمته ﷺ... والدليل على أن الخطاب لولاة الأحكام قوله بعده: (ولا يجرمنكم شنآن قوم أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) وذلك عام في المخالفين من أهل الأديان والموافقين من حصلت لهم بغضة وعداوة... وقيل في هذه الآية إنها أيضا في الشهادة بالحقوق، وقيل في الشهادة لأمر الله بأنه حق وقيل معناه: قوموا في كل ما يلزمكم القيام به من الأمر بالمعروف والعمل به والنهي عن المنكر وتجنبه)[١]

أما الكرماني فقد اختصر رأي الإسكافي[٢]. وأما ابن الزبير وابن جماعة فنظرا إلى ما قبل آية النساء، فالآيات المتصلة بآية النساء قائمة وداعية إلى الحق والعدل والحكم بالقسط مثل نشوز الرجال عن أزواجهم وإصلاح حال الزوجين والصلح على مال والقيام بواجيات اليتامى بالقسط كقوله: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾ ؛ ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾ ١٢٧ وهكذا الآيات الأخرى في صدر إحقاق الحق ورد المظالم والحكم بالعدل والأمر بالقسط فناسب تقديم القسط وهو العدل ليناسب ما ذكر فحسن التقديم، وجاءت آية المائدة بعد أحكام تتعلق بالمواثيق والوفاء بالعقود قال تعالى: (أَوْفُوا بِالْعُقُودِ) وكذلك ما كانت في أحكام الطهارة والوضوء وإلى تذكر نعمه عليهم بالعبادة الخالصة له سبحانه فناسب تقديم (كونوا قوامين لله)[٣].

وأما أبو حيان فيقول في توجيهه لهاتين الآيتين: (وهذا من التوسع في الكلام والتفنن في الفصاحة)[٤].

أقول: أمر الله المسلمين بالقسط كافة وان كان سبب نزول الآية في اختصام غني وفقير إلى رسول الله ﷺ – وكان بجانب الفقير تصورٌ منه ﷺ أن الفقير لا يظلم الغني[٥] فأراد الله تعالى منه أن يقوم بالقسط ومهما كان المتخاصمون. فلما كان

(١) درة التنزيل: ٦٢ – ٦٣.

(٢) البرهان في متشابه القرآن: ١٤٢.

(٣) ينظر: ملاك التأويل: ٣٥٨/١، وكشف المعاني: ٨٤ – ٨٥.

(٤) البحر المحيط: ٤٤٠/٣.

(٥) ينظر: أسباب النزول للواحدي: ١٠٦ الجامع لأحكام القرآن: ٤١٣/٥.

المقصود هو الحكم بالقسط فقدم على (لله) ولا سيما وقد أكد الله تعالى (القسط) بـ(فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا) وبقوله: (وأن تلووا أو تعرضوا) ومعنى (تلووا) من اللي في الشهادة والميل إلى أحد الخصمين، قال ابن عباس هو في الخصمين يجلسان بين يدي القاضي فيكون ليُّ القاضي وإعراضه لأحدهما على الآخر، فاللي على هذا مطل الكلام وجره حتى يفوت فصل القضاء وإنفاذه للذي يميل القاضي إليه. ولفظ الآية يعمّ القضاء والشهادة وكل إنسان مأمور بأن يعدل[1] فضلا عن ذلك أن قوله تعالى: (فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا) يناسب لفظة (بالقسط) ولذلك قدمت على (لله) وكذلك (اللي والإعراض) تفيدان (الحكم) وهو إمّا أن يكون جائرا أو عادلا، ولذلك كان من المناسب أن يقدم لفظة بالقسط للدلالة على إقامة الحكم بالعدل. ولفظة (تعملون) قدمت على (خبير)، لأنه عملٌ فلما قدم (بالقسط) على (لله) وهو عمل فانسجم العمل مع بالقسط الذي هو عمل أيضا فتناسب العمل المقدم مع العمل المقدم.

وكذلك السياق قبل الآية يتناسب مع القسط والعدالة، وهو في الحقوق المالية في النساء واليتامى كقوله تعالى: ﴿وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾ ١٢٧، وقوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾. والقسط المأمور به حتى على النفس وأقرب الأقربين، لهذا قدمت عبارة (بالقسط) على (لله). وأما آية المائدة فهي في إخلاص النية لله سبحانه وتعالى فلما أراد الله عز وجل من المؤمنين أن يكونوا قوامين لله حتى يكون عملهم لله سبحانه قدم (لله) لأنها هي المقصود ولا يمنعكم بغض قوم على أن لا تقيموا العدل ما دمتم خائفين من الله تعالى، فالعدل هو الحق ولكن فوق الحق الورع والتقوى فقد جاءت التقوى: وهي وقاية النفس من بطش الله وعقابه بعد (قوامين لله) لتتناسب مع الخوف من الله في إقامة الحق والعدل ولذلك قال: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ فإذا كانت التقوى موجودة كان القسط موجودا، ومن ثم كررت التقوى مرتين مرة لـ (قوامين لله) ومرة (شهداء بالقسط) هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى قدم لفظة (خبير) على (بما

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٤١٤/٥.

تعملون) لأن لفظة (خبير) عائدة إلى الله تعالى (وتعملون) عائدة إلى الشهادة بالقسط وهي (عمل) فلما قدم (لله) قدم (خبير) ولما أخر (شهداء بالقسط) أخر (بما تعملون) ليكون التناسب في كل موضع ولتنسجم الألفاظ وتنساق العبارات بعضها مع بعض كالعقد المتين المزين.

٤- التقديم والتأخير بين المفعول به وضمير الفصل

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**﴾ المؤمنون/٨٣.

وقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**﴾ النمل/٦٨.

الآيتان متشابهتان إلاّ في تقديم المفعول به (هذا) في آية النمل وتأخيره في آية المؤمنون، وقد ذكر الإسكافي السبب من ناحية الألفاظ، فالآية الأولى أسندت الأفعال فيها إلى فاعليها بدون فصل وهذا هو الأصل، لأن الضمير المرفوع المتصل لا يجوز العطف عليه حتى يؤكد بالضمير المنفصل، ولهذا أكد (وعدنا) بالضمير المنفصل (نحن) وبعد ذلك عطف عليه (اباؤنا) ثم ذكر اسم الإشارة (هذا) وهو المفعول به، ولكن آية النمل تقدم فيها المفعول به (هذا) انسجاما مع الآية السابقة وهي: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ**﴾ ٦٧ فهنا تقدم (ترابا والأصل: كنا نحن واباؤنا ترابا، فقدم (ترابا) ليسد مسد (نحن)[١].

وابن الزبير يرى أن التقديم في آية المؤمنون لأنه جاء قبلها قوله تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ**﴾ ٦٨ أي أن أباءهم جاءتهم الرسل وأنذروا، ولهذا قالوا: (لقد وعدنا نحن وأباؤنا هذا من قبل) ولما لم يتقدم آية النمل ذكر إنذار ابائهم وكان أهم شيء في آية النمل وذكر الموعود به وهو (هذا) فقالوا: (لقد وعدنا هذا)[٢].

فالغرناطي ربط بين آية المؤمنون وبين آية قبلها بعيدة عنها، وهذه النظرة صائبة لأنها تنظر إلى السياق القرآني كله لاستشفاف الدلالات والأسرار البيانية من

---

(١) ينظر: درة التنزيل: ٢٢١ - ٢٢٢.

(٢) ينظر: ملاك التنزيل: ٢/٨٨٠.

خلال الترابط المحكم في النظم القرآني ومن ثم يتجلى إعجازه.

والنظرة نفسها نجدها عند الزمخشري بقوله: (فان قلت: قدم في هذه الآية (هذا) على (نحن واباؤنا) وفي آية أخرى قدم (نحن وآباؤنا) على (هذا) قلت: إن المقدم هو الغرض المعتمد بالذكر، لأن الكلام إنما سيق لأجله، ففي إحدى الآيتين دل على ان اتخاذ البعث هو الذي تعمد بالكلام، وفي الأخرى على أن اتخاذ المبعوثين بذلك الصدد)[1].

والمتأمل يجد أن آية المؤمنون جاءت بعد آيات فيها جدال مكثف مع الذين ينكرون البعث كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا... أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا.. وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ...﴾ ولهذا قدم (نحن وأباؤنا) والاستفهام الذي ورد في آية المؤمنون لم يكن فيه من الشدة كالذي في النمل كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ... أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا﴾ ولهذا تقدم الفاعل في المؤمنون وتأخر المفعول، في حين أن سياق آية النمل فيها من الشدة كقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ... أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا... أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ... أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ﴾ استفهامات كلها تفيد التقرير مع إشعارهم بعقيدتهم الباطلة فضلا عن مجيء قوله تعالى قبلها (أمن يبدأ الخلق ثم يعيده) وقوله (بل ادراك علمهم في الآخرة).

فلما كان إنكارهم شديدا للبعث في النمل جاء الرد عليهم بتقديم ٠هذا) المفعول به ليكون أقرب ما يكون إلى قرع سمعهم.

٥. التقديم والتأخير بين المتعاطفين.

أ. بين المفعول به والمعطوف عليه

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ الأنعام/١٥١.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ الإسراء/٣١.

في هاتين الآيتين ينهى الله عز وجل عن قتل الأولاد سواء كان خوفا من الفقر أم ما يتصورون من أن الفقر ملاحقهم إن كثر أولادهم. وفيهما اختلافان الأول أبدل

---

(١) الكشاف: ٧٨٩.

حرف الجر (من إملاق) في سورة الأنعام باسم وهو (خشية).

الثاني تقديم رزق الآباء على رزق أولادهم المدلول عليه بعطف ضميرهم عليه، وفي آية الإسراء قدم رزق الأولاد على رزق الآباء فما وجه هذا الاختلاف؟

اتفق اغلب المفسرين[1] على أن آية الأنعام في قوم فقراء يهمهم رزقهم بالدرجة الأساس وثم رزق أولادهم فقدم رزقهم ؛ لأنه عندهم أهم، ولكن آية الإسراء الخطاب فيها لقوم آخرين ليسوا فقراء ولكنهم يخافون على مستقبل أولادهم من الفقر فيظهر أثره على أولادهم فرزق أولادهم أهم عندهم لأنهم يتوقعون أن يقل رزقهم، وأما اباؤهم حاصلون عليه، ولذلك قدم رزق الأولاد على رزقهم فجاء في الآية الأولى قوله تعالى: (من إملاق) أي من فقر والثانية جاء فيها: (خشية إملاق) أي من فقر قادم في المستقبل. قال الإسكافي: فأما قوله: (نحن نرزقكم وإياهم) فلان قبله: (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق) أي من أجل إملاق وانقطاع مال وزاد، وهذا نهي عن قتلهم مع فقرهم وخوفهم على أنفسهم إذا لزمته مؤونة غيرهم....

وأما الثانية فإنه قال فيها: (خشية إملاق) والإملاق غير واقع، فكأنه قال خوف الفقر على الأولاد وكان عقيب إزالة الخوف عنهم ثم عن القائلين أي لا تقتلوهم لما تخشون عليهم من الفقر فالله يرزقهم وإياكم فقدم في كل موضع من الموضعين ما اقتضى تقديمه وأخر ما افتضى الموضع تأخيره)[2] وقد وجه الآخرون من علماء المتشابه هذا التوجيه نفسه[3].

وكذلك القزويني علل هذا الاختلاف بقوله: (قدم المخاطبين في الأولى دون الثانية، لأن الخطاب في الأولى للفقراء... والخطاب في الثانية للأغنياء... فإن الخشية إنما تكون مما لم يقع فكان رزق أولادهم هو المطلوب دون رزقهم لأنه حاصل فكان أهم فقدم الوعد برزق أولادهم على الوعد برزقهم)[4].

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ١٨٠/٢، وتفسير أبي السعود: ١٦٩/٣ والبحر المحيط: ٢٥١/٤ وروح المعاني: ٢٩٧/٤، والبرهان للزركشي: ٢٨٥/٢.

(٢) درة التنزيل: ٩٩.

(٣) ينظر: البرهان: ١٦١ وملاك التأويل: ٤٧١/١ وكشف المعاني: ٩٩ وفتح الرحمن: ١٠٢.

(٤) الايضاح في علوم البلاغة: ١١٣/١ - ١١٤.

إن آية الأنعام تقدم فيها (نحن نرزقكم) على إياهم، لأنهم كانوا فقراء وبسبب فقرهم قتلوا أولادهم نتيجة لعقيدتهم الباطلة وإيمانهم بالشركاء الذين حرفوهم عن الصراط المستقيم وألبسوا عليهم دينهم فأردوهم ف (من إملاق) قول على السببية أي بسبب الفقر الذي هم فيه فخافوا إن كَثُر أولادهم سيزدادوا فقرا، وورد في السورة نفسها وقبلها أن شركاء الآلهة فقد زينوا لهم بأن يقتلوا أولادهم ليهلكوهم وهو قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ ١٣٧، وقوله تعالى قبلها أيضا: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ ١٤٠. فلما كان السياق قبلها من (تزيين القتل ومن ثم القتل وتحريم النعمة التي وهبها لهم من الولد والمال فحرموا على أنفسهم بقتل أولادهم وتحريم الحلال ودحض افتراءاتهم تقدم (نحن نرزقكم) على (نرزقهم) نتيجة لجهلهم وعقائدهم المنحرفة وضلالهم عن أن الله هو الزراق ذو القوة المتين).

وأما آية الإسراء فقد تقدمها قوله تعالى في تصحيح عقائدهم من ناحية الرزق وهو (إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) فإذا آمنوا بأن الله هو الرزاق يرزق أولادهم ويرزقهم فلا خشية على رزق هؤلاء الأولاد في المستقبل ؛ ولهذا قدم ضمير الأولاد (نرزقهم) ما دام الله هو الذي يبسط الرزق لكم ولهم. ثم يأتي التعقيب بقوله تعالى (إن قتلهم كان خطئاً كبيرا) خطئا في إزهاق الأرواح بدون حق.

ب. بين الخبر والمعطوف عليه

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ الأنعام/٣٢.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ محمد/٣٦، الحديد/٢٠.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ العنكبوت/٣٦.

وقوله تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ الأنعام/٧٠.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ الأعراف/٥١.

هذه آيات متشابهات فيها اختلاف بين تقديم الخبر على المعطوف في آية محمد والأنعام/٣٢ وهو (لعب) على (لهو) في حين إن آية العنكبوت تقدم فيها (لهو) على (لعب) وتقدم المفعول الثاني (لعبا) على (لهو) في الأنعام/٧٠، وفي آية الأعراف تقدم (لهوا) على (لعبا) كل ذلك لأسباب بلاغية. وقد بين العلماء والمفسرون سر هذا التقديم والتأخير، فنرى الخطيب الإسكافي يعلل ذلك بقوله: (أما آية الحديد والعنكبوت التي وصفت الحياة الدنيا فيهما باللهو واللعب فإنّ تقديم اللعب فيه على اللهو – يقصد آية الحديد –، فلأن معناه الحياة الدنيا لمن اشتغل بها ولم يتعب لغيرها من أعمال الآخرة مقسومة من الصبا، وهو وقت اللعب، وبعده اللهو وهو الترويح عن النفس بملاعبة النساء، ويتبع ذلك أخذ الزينة لهن وتبرجهن من أجل الزينة نشأت مباهاة الأكفاء... ثم بعده المكاثرة بالأموال والأولاد فترتبت الحياة على هذه الأحوال فوجب تقديم حال اللعب على حال اللهو. أما قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ فليس المراد به أن الحياة الدنيا كلها لهو ولعب وليست شيئا غيرهما لأنه لو كان المراد هذا لكان للقائل يقول: ما هذه الحياة الدنيا إلا خوف وحزن وخوف... بل المراد المبالغة في وصف قصر مدة الدنيا بالإضافة إلى مدة الأخرى فكأنه قال: ما أمد الحياة الدنيا إلا كامد أزمنة اللهو واللعب... وإنما قدم اللهو هنا على اللعب، لأن الأزمنة التي يقصرها اللهو أكثر من الأزمنة التي يقصرها اللعب، لأن التشاغل به أكثر فلما كان معظم ما يستقصر وجب تقديم ما يكثر على ما هو دونه في الكثرة)[1]. أي أن زمن الصبا يكون اللعب فيه، واللهو يكون في زمن الشباب وزمان الصبا متقدم على زمان الشباب وعلى هذا جاء التقديم في آية الحديد وآية الأنعام ٣٢ وآية محمد ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ الحديد/٢ وآية الأنعام: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ وآية محمد قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ ٣٦ وأما آية

(١) درة التنزيل: ٨٨ – ٨٩.

العنكبوت ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أي أن زمان الشباب الذي يكون فيه اللهو أكثر من زمن الصبا الذي يكون فيه اللعب فقدم الكثير على القليل.

وأما آية الأنعام (٧٠): ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ فقد رأى الإسكافي أنها خاصة في قوم من الكفار سمعوا القرآن فأعرضوا عنه، فقدم اللعب، لأن أول أفعالهم اللعب، ثم انشغلوا بالدنيا وشغلتهم فهذا هو اللهو، وأما آية الأعراف فقد وضح تقديم اللهو فيها على اللعب لأنها عامة في الكافرين جميعا وليست خاصة فقدم فعل الأكثر على فعل الأقل[١].

واختصر الكرماني رأي الإسكافي وكذلك نقل الزركشي توجيه الكرماني بنصه[٢]، وأما ابن الزبير فذكر أن اللعب هو المتقدم في الوجود الدنيوي على اللهو، لأن اللعب إذا استمر ألهى عن التدبر والتفكير والآيات تحذير منه سبحانه لعباده أن يجتنبوا الدنيا ويحذروها، وأما آية الأعراف فإنها من قول المؤمنين أهل الجنة إخبارا عن حال الكافرين الموجبة لتعذيبهم، فقدموا في الذكر اللهو الشاغل عن الاستجابة الجاري مع سن التكليف والتزام الطاعة ولم يذكر اللعب أولا لأنه جار في البدأة وحين لا تكليف[٣].

إن معنى اللعب هو: عمل للذة لا يراعى فيه داعي الحكمة كعمل الصبي لأنه لا يعرف الحكيم ولا الحكمة وإنما يعمل للذة[٤]. واللعب ضد الجد ولعب فلان، إذا كان فعله غير قاصد به مقتصدا صحيحا[٥].

واللهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه يقال لهوت بكذا ولهيت عن كذا اشتغلت عنه بلهو[٦]. فإذا كان اللعب يكون في زمن الصبا فهو يمر كلمح البصر من غير قصد سليم ومن نتائجه الخسارة لأنه لا غاية فيه، ولذلك ترى في سورة الأنعام قد جاء قوله تعالى ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ فهم خسروا بلعبهم

---

(١) ينظر: درة التنزيل: ٨٨.

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ١/١٢١، وينظر: البرهان في متشابه القرآن: ١٥٢.

(٣) بنظر: ملاك التأويل: ١/٤٤٥ - ٤٤٨.

(٤) الفروق اللغوية: ٢٨٤.

(٥) المفردات في غريب القرآن: ٤٥٤.

(٦) المفردات في غريب القرآن: ٤٦٥.

هذا وعدم إيمانهم بما بعد الموت وهم قد قالوها ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ الأنعام وتكررت الخسارة عليهم قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ﴾ الأنعام/٣١ ومن معاني اللعب الهلاك والزوال نقول: لعبت الريح بالمنزل أي: درسته ولهذا قدم اللعب هنا على اللهو، ومن معانيها اللعب. يقال لهوت بالشيء ألهو به وتلهيتَ به إذا لعبتَ به وتشاغلت وغفلت به عن غيره[1] فتكون الحياة لعباً ولهواً عندما تترك الآخرة وتبذل الجهود للحياة الدنيا فهي تنتهي كما ينتهي الأطفال من ملاعبهم حينما يدرسونها عند إحساسهم بالجوع والعطش.

أما آية الحديد فقد جاء قوله تعالى قبلها ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ ١٤ وبعدها ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ ٢٠.

أي أن الحياة متاع الأباطيل التي ينخدع الناس بها ويقال للشيطان الغرور[2] وللمرأة اللهو ولهذا قدم اللعب على اللهو هنا ﴿إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ فميز اللعب ويأتي اللهو لأنه أكثر ما يشغل الإنسان عن غيره ويصرفه إلى أمور تافهة قصيرة المدى كقصر أمد الأطفال حين يلعبون. وأما في سورة محمد فقد جاء فيها قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ ٢٨ وقوله: ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ ٣٢ وقوله: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ فناسب تقديم لفظ اللعب على اللهو لأن من نتائج اللعب إبطال الفعل وإحباط العمل.

وأما آية العنكبوت فقد تقدم فيها اللهو على اللعب: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ وجاء قبلها ﴿وَكَأَيِّن مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ٦٠ وقوله: ﴿اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ لأن أكثر ما يلهي الإنسان ويشغله هو البسط في الرزق أو الضيق والتلهي بالنساء والأطفال في كثرة المال أو الأولاد أو قلته فإن ذلك يكون تلهياً والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ المنافقون.

فالأموال والأولاد تُشغل عن ذكر الله وتبعثُ على اللهو، وكذلك الآية في

(١) لسان العرب ٣/٢٠٥.

(٢) لسان العرب ٣/٩٧١.

عموم الكفار فقدم الأكثرية على فعل الأقلية وهو اللعب ولذلك ناسبت كل لفظة سياقها الذي وردت فيه.

ج- التقديم والتأخير بين اسم واسم

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة/٦٢، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ المائدة/ ٦٩.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ الحج/ ١٧.

في هذه الآيات المتشابهات تقدم فيها لفظ (النصارى) على الصابئين في آية البقرة وتأخر في آيتي المائدة والحج.

يرى الإسكافي أن الترتيب بين هذه الفرق يعود لأحد أمرين كما يفهم من قوله: "هذا ترتيب على حسب ترتب تنزيل كتبه فصحف إبراهيم عليه السلام قبل التوراة المنزلة على موسى عليه السلام، والتوراة قبل الإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام... ثم أتى بذكر الصابئين وهم الذين لا يثبتون على دين وينتقلون من ملة إلى ملة ولا كتاب لهم... وترتيبهم في سورة المائدة فعلى ترتيب الأزمنة، لأن الصابئين وإن كانوا متأخرين على النصارى بأنهم لا كتاب لهم فإنهم متقدمون عليهم بكونهم قبلهم لأنهم كانوا قبل عيسى عليه السلام فرفع (الصابئون) ونوى به التأخير عن مكان... وإنما قدم في اللفظ وآخر في النية... وأما الترتيب الثالث في سورة الحج فترتيب الأزمنة التي لا نيّة للتأخير معه، لأنه لم يقصد في هذا المكان أهل الكتب إذ كان أكثر من ذكر ممن لا كتب لهم وهم الصابئون والمجوس والذين أشركوا عبدة الأوثان"[1].

ويرى الكرماني أن النصارى مقدمون على الصابئين في الرتبة لأنهم أهل كتاب فقدمهم في البقرة، والصابئون مقدمون على النصارى في الزمان لأنهم كانوا

---

(١) درة التنزيل ١٦ - ١٧.

قبلهم فقدمهم في الحج، وراعى في المائدة المعنيين فقدمهم في اللفظ وأخرهم في التقدير(١).

ووافق على هذا التوجيه كل من ابن الزبير وابن جماعة والأنصاري(٢) والذي يبدو لي أنّ تقديم (النصارى) على (الصابئين) لأنهم أهل كتاب، والصابئون لا كتاب لهم هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن الله راعى رتبة الإيمان في هذه الفرق في سورة البقرة، فالأفضلون هم المؤمنون الذين آمنوا بالله وبرسوله وباليوم الآخر ثم اليهود لأنهم أقرب إلى التوحيد من النصارى والنصارى أقرب من الصابئين إلى الدين الخالص.

وأما تقديم الصابئين في آيتي المائدة والحج على (النصارى) ففي سورة المائدة جاءت لفظة (والصابئون) على الاستئناف وقدمت لأن الله تعالى راعى الزمن في ترتيب هؤلاء لأن المؤمنين يبدأ زمنهم من آدم عليه السلام فهم مقدمون على اليهود، واليهود مقدمون على الصابئة.

---

(١) البرهان في متشابه القرآن/ ١١٣.

(٢) ينظر: ملاك التأويل ١/٢١٩ - ٢٢٠ وكشف المعاني ٦١، وفتح الرحمن ٢٧.

الفصل الخامس

تحولات النظم القرآني في الذكر والحذف

في القرآن الكريم آيات متشابهة، قسم منها فيها حذف كلمة أو جملة أو شبه جملة وأخرى فيها ذكر كلمة أو جملة أو شبه جملة، فهل كان الحذف جزافا؟ أو أن هذا الحذف بلاغة..، وهل الذكر فيها اعتباطا أم إن هذا الذكر فصاحة؟ ولقد نقل عن البلغاء أن الذكر في مواضع أفصح من الحذف، والحذف في مواقع أفصح من الذكر، ولذلك يكون الحذف في موضعه بلاغة والذكر في موقعه بلاغة. والبليغ من يختار اللفظة المناسبة في مكانها المناسب ويحذفها عندما يستوجب السياق ذلك. ولهذا يقول عبد القاهر الجرجاني في الحذف: (هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى أن ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة وتجدك انطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن) (١).

فالذكر والحذف في المتشابه اللفظي في القرآن الكريم آياته كثيرة ومسائله غزيرة، فالجملة تتكون من المبتدأ والخبر أو الفعل والفاعل أو ما عطف عليه، فقد يحذف المسند أو يحذف المضاف أو يحذف التابع فيها، لأسباب بلاغية أو لعلل تستوجب الحذف أو الذكر لتزيين الكلام أو لإضافة مقاصد من وراء ذلك.

والمحذوف قد يكون حرفا أو كلمة أو شبه جملة أو جملة، وسأبدأ بالحرف أولا.

١- ذكر الحرف وحذفه:

ويكون الحرف على نوعين وهما: حروف المباني وحروف المعاني.

أ- حروف المباني/ آيات متشابهة في القرآن الكريم كثيرة ذكر فيها حرف من

---

(١) دلائل الاعجاز/ ١٣١.

حروف المباني وحذف في آية متشابهة لها، ويأتي الحذف أو الذكر بأشكال مختلفة فمرة تذكر الهمزة وتحذف في أخرى، ومرة يحذف الباء ويذكر في أخرى، وكذلك التاء والفاء والنون واللام والواو وأحيانا يحذف ما هو حرفان مثل (ان وإذن وبل وفي ولا).

ومما جاء حذف حرف الهمزة في آية وذكرها في آية أخرى وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ البقرة /٣٨.

وقوله تعالى: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ طه/١٢٣. الآيتان في قصة آدم عليه السلام واختلف الفعل (تبع) فيهما، ففي البقرة جاء على وزن (فعل) وفي طه جاء على وزن (افتعل) زيد بالهمزة والتاء، وهذه الزيادة تضيف معنى إلى ما يؤديه الفعل بدون زيادة ومما يؤيد هذا ويعزره السياق يقول الكرماني:(تبع) (واتبع) بمعنى واحد، وإنما اختار في طه (اتبع) موافقة لقوله تعالى: ﴿ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ ﴾ ﴿ لَا عِوَجَ لَهُۥ ﴾ [١] سورة طه /١٠٨.

وأما ابن جماعة علل ذلك بأن الفعل (فعل) لا يخالف الفعل قبله (وافتعل) يشعر بتجديد الفعل[٢].

والأنصاري يوجه الاختلاف بتوجيه آخر وهو أن الزيادة في الفعل (فمن اتبع هداي) تفيد التوكيد وكذلك موافقة لقوله تعالى (يومئذ يتبعون الداعي) [٣].

ولابن الزبير رأي آخر وهو أن (تبع) هو الأصل واتبع هو فرع عنه وأن تبع تقدم في الترتيب لإنبائه عن الاتباع من دون تعمل ولا تكلف وأن بنية (افتعل) تنبئ عن تعمل وتحميل للنفس فقدم ما لا تعمل فيه وأخر (اتبع) لما يقتضيه من الزيادة. وكذلك علل التغيير بأن الله تعالى بسط فيها من كيد الشيطان في طه ما لم يكن هذا البسط في سورة البقرة فورد كل على ما يناسب معنى ونظما إيجازا بإيجاز وإطالة بإطالة. [٤]

(١) البرهان /١٠٨.
(٢) ينظر: كشف المعاني /٥٧.
(٣) فتح الرحمن /٢٣ - ١٩٠.
(٤) ينظر: ملاك التأويل /١٩٠ - ١٩٤.

ان الفعل إذا كان على ون افتعل (أي زيادة الهمزة في أوله والتاء بين فائه وعينه فإنه يأتي لمعان خمسة وهي: المطاوعة، واتخاذ فاعله ما تدل عليه أصول الفعل والتشارك والتعرف باجتهاد ومبالغة والدلالة على اختبار [1].

فدلّ الفعل هنا على الاجتهاد والمبالغة وذلك لأنه جاء على وزن افتعل (فاتبع) أي اجتهد في الإتباع وبالغ.

كان السياق قبل هذه الآية موجزا وانه كان إخبارا من الله تعالى حول زلة آدم وإخراجه وزوجه مما كانا فيه وتلقي آدم كلمات من الله تعالى حول توبته، في حين أن سورة طه كان الأمر فيها يختلف من حيث السياق فبين الله تعالى أن آدم نسي ولم يكن له عزم في معصيته، وأكد له أن الشيطان عدو له ونهاهما بقوة لعلمه سبحانه أنه ينسى كقوله تعالى: ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا ﴾ حيث أكد النهي بنون التوكيد الثقيلة فكان من المناسب أن يأتي بفعل مبالغ فيه فجاء (اتبع) هذا من جهة، ومن جهة أخرى نلحظ حوارا من الشيطان لآدم وبيان السبب في دله له بأنه يخلد في الجنة وله ملك لا يبلى. وكذلك لوجود الفعل المزيد قبل هذه الآية في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ ﴾.

لهذه الأسباب جاء الفعل (تبع) في البقرة بدون تضعيف وجاء في سورة طه مضعفا ليناسب كل منهما موضعه، ومن ثم تتجلى دقة الإعجاز البياني في نظمه وأسلوبه.

ومن مواضع حذف الحرف قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ الكهف/ ٧٨... وقوله تعالى: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ الكهف/ ٨٢ الآيتان في قصة موسى والعبد الصالح عليهما السلام عندما أراد موسى عليه السلام مرافقته في السفر فاعترض عليه بأنه لا يستطيع أن يصبر فيما يرى من الأفعال من قبله، ولكن موسى أجابه بأنه سيصبر ويستطيع صحبته، فلما رأى من العجائب من العبد الصالح ما يخالف ظاهرها الشرع أنكر عليه عمله ووبخ منه فعله فرد العبد الصالح عليه بقوله:

(١) دروس في التصريف، ٧٤. محمد محي الدين عبد الحميد.

﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ إلى أن فارقه العبد الصالح بقوله (هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ) ثم أوضح له ما رآه من عجائب الأمور، وإنها لم تكن منه وإنما إيحاء من الله تعالى له في قلبه وهذا هو تأويل الذي لم تصبر عليه.

وأما الخلاف الذي بين الآيتين ففي الفعل (تستطع) في الآية الأولى و(تسطع) في الآية الثانية، فقد علل الكرماني ذلك بقوله:(قوله تعالى: (مَا لَمْ تَسْتَطِع) جاء به في الأول على الأصل وفي الثاني (تسطع) على التخفيف؛ لأنه الفرع [١]

وابن جماعة وجه الاختلاف إلى أنه تقدم أولا (مالم تستطع) فخفف الثاني لدلالة الأول عليه[٢]

وعدّ النيسابوري التاء لأجل التخفيف وهذا شاذ من جهة القياس ولكنه ليس بشاذ في الاستعمال[٣].

وأما ابن كثير فقد أوعز التغيير إلى الخفة والثقل حيث قابل الأثقل بالأثقل والأخف بالأخف اذ قال: (أي هذا تفسير ما ضقت به ذرعا ولم تصبر حتى أخبرك به ولما أن فسره له وبينه ووضحه وأزال المشكل قال:(تسطع) وقبل ذلك كان الاشكال قويا ثقيلا فقال: (سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا) فقابل الأثقل بالأثقل والأخف بالأخف) [٤]

أما الدكتور فاضل السامرائي فله توجيه آخر وهو أن الفعل (تستطع) كان مناسبا لأن المقام مقام شرح وتفصيل بينما الفعل في الآية الثانية (تسطع) مقام الفراق ولذلك خفف فهو يقول: (بعدم الحذف من الفعل (تستطع) في الآية الأولى وحذف التاء منه في الآية الثانية وذلك أ المقام في الآية الأولى مقام شرح وايضاح وتبيين فلم يحذف من الفعل شيء، وأما الآية الأخرى فهي مقام مفارقة ولم يتكلم بعدها بكلمة وفارقه فحذف من الفعل[٥].

---

(١) البرهان في متشابه القرآن/ ٢٣٣.

(٢) كشف المعاني /١٣٩.

(٣) ينظر: تفسير غرائب القرآن/ ١٧٨٨/٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم ١٧٨٨/٣.

(٥) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني/ ١٦.

ومما يلاحظ في ذكر التاء وحذفها في هذين الفعلين أن الفعل مع التاء يناسب ما كان عليه موسى عليه السلام من هم نفسي ثقيل؛ لأنه ما كان يعلم السر في الأحداث التي رآها من الخضر عليه السلام والفعل مع حذف التاء يناسب التخفيف النفسي لموسى بعدما علم الحكمة من هذه الأفعال التي صدرت من العبد الصالح الخضر عليه السلام[١].

وعُلل ذلك الاختلاف أيضا أن الفعل المزيد بالتاء (تستطع) تعبير عن صبر الرجل الصالح على نبي الله موسى عليه السلام وفي الثانية استخدم (تسطع) ليعبر عن قلة صبر موسى عليه السلام مع الرجل الصالح. أو أن الرجل الصالح كان يعرف من أنه سيتكلم مع موسى عليه السلام ولهذا شرح وفصل تلك الأحداث، وفي الثانية أراد الفراق فاختصر واستخدم الفعل (تسطع) حتى يتناسب كل منهما في موضعه أو قد يكون استخدام الفعل (تستطع) بالتاء تعبيرا عن شعور موسى عليه السلام أنه صبر كثيرا وتحمل كثيرا من الرجل الصالح، وفي الثانية تعبيرا عن شعور موسى عليه السلام بأنه فعلا كان قليل الصبر مع الرجل الصالح في رحلته التي قال فيها الرسول (ﷺ): (وَدِدْنا أن موسى صبر حتى يقصَّ علينا من أمرهما)[٢]

وقد يكون واحدا من هذه الاسباب أو كلها أو هناك أسباب أخرى والله تعالى يعلمها[٣].

وأقول ان الفعل (تستطع) فيه زيادة وإذا زاد المبنى زاد المعنى فيما أن الاحداث الثلاثة العجيبة من خرق السفينة وقتل الغلام وبناء الجدار لم يصبر عليها جيء بالفعل المزيد ليدل على المبالغة في عدم تحمل موسى عليه السلام مما رأى لأنه ظاهرها يخالف الشرع الذي مع موسى فلم يصبر عليها في الآية الأولى، واما الآية الثانية حيث جيء بالفعل الثلاثي (تسطع) ليدل على ان موسى عليه السلام لم يصبر على حدث واحد من تلك الأحداث الثلاثة فناسب الفعل المجرد في موضعه والفعل المزيد في موضعه هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد ثقلت الأحداث على موسى عليه السلام عند رؤيته لها فناسب ثقلها ثقل الفعل المزيد على اللسان

(١) ينظر: لطائف قرآنية، صلاح عبد الفتاح الخالدي/ ٥٢ - ٥٤.

(٢) رواه البخاري /باب التفسير/ سورة الكهف/١١٦.

(٣) ينظر: المبنى والمعنى في الآيات المتشابهات في القرآن الكريم ١٥١ - ١٥٢.

فالفعل (تستطع) اثقل من الفعل (تسطع) ولأن الفعل المجرد أخف ليناسب خفة نتيجة الأحداث التي علمها العبد الصالح لموسى عليه السلام.

فضلا عن أن الفعل (تستطع) فيه زيادة التاء عن أصل الفعل ليشعر أن حكما آخر زيادة على الحكم الظاهري لأنه من الله تعالى. بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي ﴾. وأما الفعل في الآية الثانية ليس فيه زيادة أحد حروفه ليدل على أن هذه الاحكام وان كانت زائدة ولكنها ليست بزيادة ولهذا جرد الفعل وأبقاه على أصله. فناسب كل منهما في مكانه.

- ومن مواضع حروف المباني قوله تعالى: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ البقرة /١٥٠

وقوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ المائدة/ ٣

وقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ المائدة/ ٤٤

الآيات الثلاث فيها نهي عن خشية الناس وأمر بخشية الله تعالى، ولكن لكل منها زمن معين يختلف عن الزمن الذي نهى الله تعالى عباده من عدم الخشية من الناس، ففي الآية الأولى فيها حكم بتغيير القبلة التي كان المسلمون عليها وهو التوجه إلى بيت المقدس فأمروا بالتوجه في الصلاة إلى الكعبة، ولما أظهر الله تعالى الاسلام في الجزيرة كاملة[١] في حين أن آية المائدة انتصر الاسلام وظهر على أعدائه وتمت نعمة الله تعالى باكمال دينه. فأمره بخشيته دون خشية الناس، وأما سبب حذف الياء في آيتي المائدة وذكرها في البقرة فيقول الكرماني: قوله تعالى: ﴿ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ ﴾ بحذف الياء وكذلك ﴿ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ ﴾ وفي البقرة

(١) الكشاف /١٠٣.

وغيرها[١]: (واخشوني) بالاثبات لأن الاثبات هو الأصل وحذف (ياء) (واخشون) من الخط لما حذف من اللفظ. وحذف من الاخرى اتباعا لموافقة ما قبلها[٢].

ونقل الأنصاري توجيه الكرماني[٣]

وأما الدكتور فاضل السامرائي فقد علل الذكر والحذف في الآيات السابقة إلى أن السياق في البقرة يستدعي تحذير المسلمين من خشية الناس وعدم الالتفات إلى أراجيفهم وإلى معرفة الله أكثر مما في الموطنين من أراجيف اليهود والمنافقين في تحويل القبلة من البيت المقدس إلى المسجد الحرام فالمحاربة في الموقف الأول والخشية من الناس أكبر بخلاف آية المائدة لأن سياقها في الاطعمة وقد أظهر الله دينه فهو يقول: (وذلك ان السياق في آية البقرة في تبديل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام في مكة وقد أرجف اليهود والمنافقون بسبب هذا التغيير وأكثروا القول فيه فاستدعى ذلك توجيه المسلمين إلى عدم الالتفات إلى أقوال أعداء الله أو خشيتهم وإنما عليهم أن يخشوا الله وحده فأبرز الضمير العائد على الله فقال: ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ﴾... في حين كان سياقها في الآية الثانية يختلف عن ذلك فهو يدور على ذكر المحرمات من الأطعمة قال تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ ﴾ فالكفار يائسون من محاربة الاسلام بعد أن اظهره الله وأعلى كلمته وكذا الامر في الآية الاخرى وهي الآية (٤٤) من سورة المائدة فإنه ليس فيها ما يستدعي الخشية من الناس وليس فيها ارجاف ولا محاربة قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾[٤] وكذلك ذكر أن اطالة السياق في البقرة أكثر مما في الموطنين تستوجب ذكر الضمير مع الفعل وهو المناسب وهذا ما لحظه السامرائي بقوله: (ثم انظر إلى طول السياق وتكراره في سورة البقرة فقد

---

(١) لم تثبت الياء في (واخشون) في القرآن الكريم الا مرة واحدة.

(٢) البرهان في متشابه القرآن/ ١٤٣ - ١٤٤.

(٣) فتح الرحمن/٧٧.

(٤) التعبير القرآني/ ٨٢.

بدأ بقوله: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ﴾.... ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾... فأنت ترى أنه أطال القول ههنا فكان المناسب أن يطيل بذكر الضمير ايضا وهو المناسب لاطالة السياق بخلاف ما في الايتين الاخريين. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى انه ابرز الضمير (الياء) في سياق آية البقرة أكثر مما في الموطنين الأخرين من مثل قوله تعالى: (واخشوني) (نعمتي) (فاذكروني) (واشكروا لي) وغيرها[1].

وأقول ان نعمة الظهور لم تتم بعد فلا بد أن تكون خشيتهم كثيرا وارتباطهم مع الله أقوى حتى يتم عليهم النعمة وهذا ما نستنتجه من الفعل المضارع (لأتِمَّ) بعد الفعل (واخشوني) لتكون كثرة الخشية من الله تعالى لزيادة الضمير في الفعل سببا في اتمام النعمة وظهور الدين. أما في آية المائدة فقد تمت النعمة بعد ان علم الله تعالى منهم كثرة خشيتهم منه، ولذلك أصبحوا قريبين من الله تعالى تمام القرب فظهر الدين وكمل وتمت النعمة ورضي لهم الاسلام دينا. فحذفت الياء لشدة تعلقهم به واهتدائهم بهديه. وهذا ما نستشفه من قوله تعالى بالفعل الماضي (واتممت عليكم نعمتي) تحقيقا وتوكيدا للمعنى السابق.

- ومن الآيات المتشابهة في الذكر والحذف في مبانيها. قوله تعالى: ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ القمر/٨... وقوله تعالى: ﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ المدثر/ ٩

الايتان في يوم البعث بعد النفخة الثانية وهذا اليوم يكون عسيرا بصورة عامة، لأن الجميع خائفون والكل وجلون ولكن العسر يكون على الكافرين بصورة خاصة بدليل قوله تعالى في سورة القمر: (يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ) فهم يعترفون بعسر هذا اليوم وكذلك في الآية الثانية قوله تعالى: ﴿ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ المدثر/ ١٠. ولشدة خوف الكافرين وعظيم هولهم مما رأوه من أهوال وما شاهدوه بأعينهم وما تيقنوه من حساب ينتظرهم وما يؤول اليه مصيرهم وفي العذاب الشديد جزاؤهم فقالوا هذه الكلمة (هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ).

(١) م. ن /٨٢.

يقول ابن عاشور: (قولهم هذا يوم عسر وهو قول من أثر ما في نفوسهم من خوف. وعسر صفة مشبهة من العسر وهو الشدة والصعوبة ووصف اليوم ب (عسر) وصف مجازي عقلي باعتبار كونه زمانا لأمور عسرة شديدة من شدة الحساب وانتظار العذاب) [١]

أما اختلاف لفظة (عسر) و(عسير) فاللفظة الأولى (عسر) جاءت على وزن (فعِل) واللفظة الثانية (عسير) جاءت على وزن (فعيل) واللفظتان صفة مشبهة لكن لماذا التحول (عسر) في سورة القمر إلى (عسير) في سورة المدثر؟

ان لفظة (عسِر) على وزن (فعل) من أشهر أبنية الصفة المشبهة ويدل على العرض وهو أن هذا المعنى العارض للذات غير الراسخ أو المستقر فيها[٢] وأنه مما يحصل ويسرع زواله [٣] ومن معاني هذا البناء الهيج والخفة[٤]ان هذا البناء يكون غالبا فيما يكره أمره من أوجاع وعيوب باطنة وشدائد أو في المكروهات عموما[٥]

وأما (فعيل) فإن بناءه يدل على الثبوت مما هو خلقة أو مكتسب[٦] يقال: عسير عليه الأمر فهو عسرة وعسر الأمر فهو عسير فأنت تلاحظ يقال: عسر عليه الأمر فهو عسر وعسرة الأمر فهو عسير. فأنت تلاحظ أن (عسرا) وصف نسبي فقد يعسر الأمر على شخص ولا يعسر على آخر فهو ليس وصفا ثابتا. وأما عسير فهو من عسر الأمر أي أن الأمر نفسه متصف بالعسر فهو دال على الوصف الثابت.

ان عسير وصف نسبي فقد يعسر الأمر على شخص ولا يعسر على اخر فهو ليس وصفا ثابتا. واما عسير فهو من عسر الامر أي أن الأمر نفسه متصف بالعسر فهو دال على الوصف الثابت[٧] وعسر الأمر أي صعب واشتد وعسر عليه الامر أي اختلط[٨]

---

(١) التحرير والتنوير، ١٧٧/٢٧ - ١٧٨.

(٢) الاشموني ٣١٣/٢.

(٣) شذا العرف /٧٨.

(٤) ينظر: معاني الابنية /٨٢.

(٥) ينظر م. ن /٨٣.

(٦) بدائع الفوائد ٨٨/٢.

(٧) معاني الابنية/ ٩٧ وينظر الصحاح للجوهري (مادة) عسر ٧٤٥/٢.

(٨) المعجم الوسيط ٦٠٦/٢.

وقد ذكر الدكتور عبد المجيد ياسين قول الدكتور فاضل السامرائي في التمييز بين (عسر) و(عسير): (قالت العرب: عسر عليه الامر فهو عسير، فقد يعسر على الطفل شيء ليس عسيرا على الكبير أمر نسبي لكن عندما نقول: عسر، فهو أمر عسير في ذاته على الكبير والصغير صعب وعسير في اصله، وعليه فالآية الأولى (عسر) فهو يوم عسر على الكافرين وسهل على غيرهم، أما الآية الثانية فهو يوم عسير على الجميع، لكن الله ييسره ويعين المؤمنين عليه، وأما الكافرون فلا ميسر ولا معين لهم في هذا اليوم الصعب)[1]

أقول ان الآية الأولى جاءت فيها لفظة (عسر) على لسان الكافرين وفي اعتقادهم أن العسر يعقبه اليسر، ووزن (فعل) لا يدل على الثبوت والاستمرار فلا بد من تبدل العسر إلى اليسر هذا من نا حية ومن ناحية أخرى ان هذه المقولة من الكافرين وهم لا يعلمون من الأمر الا ظاهره ولذلك جاءت اللفظة ناقصة كنقص الإنسان بل هي كاملة على وزن فَعِل التي لها دلالة بهذه الصيغة تساوي دلتها على وزن فعيل، كما يقول الفراهيدي: (امر عسير وعَسِر، ويوم عسير وعَسِر، ولم اسمع: رجل عَسِر). أما لفظة (عسير) فإنها صادرة من الله تعالى وهو أعلم بحال الناس وأن الأمر يختلف في الاخرة عن الدنيا وخصوصا على الكافرين فإن كان يتبدل العسر إلى يسر كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ في الدنيا أما هنا في الاخرة فلا يسر مع العسر ولا يتغير العسر إلى يسر ولذلك اختار الله تعالى هذه اللفظة أي (عسير) لتدل على الاستمرارية والثبوت وانها حالة لازمة بهم، ولذلك اعقبها قوله تعالى: (عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ) وانه مشعر باليسر على المؤمنين، كما ان لفظة عسير منسجمة مع لفظة يسير بعدها ولذلك ناسبت كل لفظة في موضعها المناسب لها.

- ومن الآيات المتشابهة قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ هود/٦٢

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ إبراهيم/٩.

---

(١) المبنى والمعنى /١٣٨.

الآية الأولى في قوم صالح والآية الثانية في مجموعة أقوام كفروا بأنبيائهم ورسلهم. وقد اختلفت الايتان من حيث ذكر النون وحذفه، ففي الآية الأولى ذكرت النون وحذفت من الآية الثانية. هذا الاختلاف من ورائه حكم بيانية وأسرار بلاغية. يقول ابن الزبير:((ان (اننا) الواردة في سورة هود المضموم فيها إلى إنّ المشددة الناصبة للاسم والرافعة للخبر نون الضمير المنصوب واردة على ما يجب وعلى الأصل في اتصال الضمير المنصوب ثم يجوز حذف احدى المضاعفين تخفيفا فنقول (انّا) فنكتفي بالضمير عن النون المحذوفة وذلك من فصيح كلامهم والأصل الأول... فأعلم أن الضمير المتصل بالفعل (تدعونا) في سورة هود ضمير مفرد مستتر وهو ضمير صالح عليه السلام ورفع هذا الفعل بالضمة المقدرة في الواو من (تدعونا) ضمير قوم صالح ولا نون هنا غير هذه. وأما قوله في سورة إبراهيم عليه السلام مما (تَدۡعُونَنَآ) فالواو ضمير الرسل... ورفع هذا الفعل بالنون والنون الثانية ضمير المدعوين. فلما لزمت النونان هنا جيء معهما بأنا المحذوفة النون لتقارب اللفظ أعني قرب انا من تدعوننا فكان في مظنة الاستثقال فحسن الحذف حيث يجوز... ولما لم يكن في (تدعونا) في سورة هود الا نون واحدة وهي نون الضمير لم يستثقل فجيء بأننا على الأصل فجاء كل على ما يجب))[١]

ويضيف الدكتور فاضل السامرائي تعليلا آخر وهو أن الحرف يذكر حينما يكون المقام مقام اطالة وتفصيل ويحذف عندما يكون المقام مقام اجمال وايجاز فذكرت النون في (اننا) من سورة هود لأن المقام فيه تفصيل، وحذفت النون في (انا) لأن آية إبراهيم بيان لموقف الأمم من الرسل عموما على وجه الاجمال فأطال في مقام التفصيل وأوجز في مقام الايجاز[٢].

وذكر السيوطي أن اثبات النون في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٍ ﴾ إنما هو للتأكيد[٣].

وأقول ان قوم صالح لما كانوا يرجون فيه الخير والنفع وكنا ننظر اليك نظرة

(١) ملاك التأويل ٢ /٦٥٩ - ٦٦٠.

(٢) ينظر معاني النحو ١/٣٩٠.

(٣) معترك الاقران ٣/٣٥٧.

خير وأنت الرشيد فخاب ظننا فيك عندما دعوتنا إلى ترك عبادة ما كان يعبده آباؤنا فأصبحنا في شك منك، فهم استفهموا منه استفهاما استنكاريا تعجيبيا فكان لا بدّ من أن يكون الرد قويا فأكد الجواب (بان) وباللام المزحلقة، وأما آية إبراهيم فكانت على وجه العموم فلا تحتاج إلى ذكر النون في أقوام عديدة هذا من جهة، ومن جهة أخرى حتى يكون التوازن في النظم، ففي سورة هود لما كان السياق مختلفا ذكرت النون في (إنا) وان الداعي هو واحد وهو صالح عليه السلام فلا تكون النون مع الفعل (تدعو) ولما ذكرت النون في آية إبراهيم في الفعل (تدعون) لأن الواو عائدة على الرسل فهي وأو جمع والنون علامة الرفع حذفت النون في (انا)، أي أنه إذا ذكرت النون في الفعل (تدعو) حذفت النون مع (انا) وإذا حذفت مع الفعل ذكرت النون مع (انا).

ب- حروف المعاني

ورد الذكر والحذف في حروف المعاني ورودا تنطوي تحته فصاحة بيان وبلاغة تعبير فقد يستعمل حرفا أو يحذفه في آيتين متشابهتين لغرض بلاغي وهدف نظمي يقتضيه السياق في كل منهما.

وحروف المعاني اما أن تكون حروف عطف أو حروف جر أو نفي أو غيرها وسنلقي نظرة على كل نوع من الحروف في الآيات المتشابهة ليتبين لنا من خلالها الاعجاز البياني في القرآن الكريم في بديع نظمه وجمال أسلوبه.

١- حروف العطف/ ومن أمثلته الفاء في قوله تعالى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ هود/٩٣

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ الانعام/١٣٥

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ الزمر/٣٩

هذه الآيات الثلاث فيها تهديد للكافرين ووعيد للمكذبين، ففي الآية الأولى تهديد من شعيب عليه السلام لقومه الذين كفروا به وكذبوه، والآيتان الثانية والثالثة

وعيد من رسولنا صلى الله عليه وسلم لكفار مكة[١].

هذه الآيات متشابهة ولكن الاختلاف ورد في حذف الفاء من سورة هود في كلمة (سوف) وذكره في آيتي الأنعام والزمر. وهذا التحول لا بدّ له من سبب. وقد اجاب الإسكافي عن ذلك بقوله: (والعمل سبب للجزاء الذي عبر عنه بقوله ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فالفاء متعلقة بقوله: ﴿اعْمَلُوا﴾ أو التقدير ﴿اعْمَلُوا﴾، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (اني عامل) فسوف اعلم فحذف للعلم به وكذلك ما في سورة الزمر... وأما في سورة هود فإنه حكاية عن شعيب عليه السلام لما تجاهل قومه عليه فقالوا له: ﴿يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ هود/٩٢.. فقال لهم ﴿وَيَٰقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وتعرفون عملي وان قلتم انا لا نفقه أكثر ما تقوله، فجعل سوف تعلمون) فكان الوصف لقوله: عامل، فلم يصح على هذا المعنى دخول الفاء، وقصد هذا لما أظهروا من جهلهم به وأنهم لا يعرفون ما يقوله لهم فقال لهم: ﴿إِنِّي عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عملي وتعرفونه بعد ما أنكرتموه)[٢].

أما ابن الزبير فإنه علل الاختلاف بأن آيتي الزمر والأنعام افتتحتا بأمره سبحانه نبيه بوعيدهم في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ فقد تقوى معنى الشرط المنجز تقديره في الأوامر فأعتضد ما يستدعي الجوابية بالفاء فجاءت في الجواب المبني على الشرط المقدر بعد هذا الامر على أحد مأخذي النحويين أو الذي تضمنته الجملة ونابت منابه على القول الآخر. واما آية هود فاخبار نبينا صلى الله عليه وسلم فضعف فيها تقدير الشرط فلم تدخل الفاء وجاء كل على ما يجب[٣].

وقال الزمخشري: (قلت ادخال الفاء: وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ونزعها: وصل ففي تقديري بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدر، كأنهم قالوا:

(١) ينظر: تفسير البيضاوي ١٤٦/٣ - ٤٤/٥.

(٢) درة التنزيل /٩٦ - ٩٧.

(٣) ينظر: ملاك التأويل /٤٧٦ - ٤٧٧.

فماذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت؟ فقال: ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئناف للتفنن في البلاغة كما هو عادة بلغاء العرب، واقوى الوصلين، وأبلغها الاستئناف وهو باب من أبواب علم البيان تتكاثر محاسنه)[1].

أما ابن عاشور فعدّ سبب حذف الفاء في (سَوْفَ تَعْلَمُونَ) أنها مستأنفة استئنافا بيانيا اذ لما فاتحهم بالتهديد كان ذلك ينشيء سؤالا في نفوسهم كما ينشأ على هذا التهديد فيجاب بالتهديد بـ ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾. ولكونه كذلك كان مسأويا للتفريع بالفاء الواقع في آية الانعام في المآل ولكنه أبلغ في الدلالة على نشأة مضمون الجملة المستأنفة عن مضمون التي قبلها ففي خطاب شعيب عليه السلام قومه من الشدة ما ليس في الخطاب المأمور به النبي صلى الله عليه وسلم في سورة الأنعام جريا على ما أرسل الله له رسوله محمدا من اللين ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ آل عمران/١٥٩. وكذلك التفأوت بين معمولي (تَعْلَمُونَ) فهو هنا غليظ شديد ﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ﴾ وهو هنالك لين ﴿ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ ﴾[2] الأنعام /١٣٥.

وأقول ان العذاب كان في سياق قوم شعيب أكبر وأشد قال (مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ) وقال: ﴿ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ لما في كلمة (وَارْتَقِبُوا) من قوة الملاحظة ومراقبة العذاب في كل لحظة. في حين ان الآيتين الاخريين أقل، قال في سورة الانعام (مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ) توحي الآية بأن العاقبة لا تكون لكم وقبلها ان السياق فيه من اللين والرحمة كقوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾. وكقوله تعالى في سورة الزمر ﴿ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾ اشعارا برحمة الله الواسعة هذا من جهة، ومن جهة اخرى فإن حذف الفاء فيها دلالة على العذاب القريب لاختصار الكلمة لأنها أخف وأسرع بالنطق من (فَسَوْفَ

---

(١) الكشاف /٤٩٦.

(٢) التحرر والتنوير/ ٣٢٢/١١.

تَعْلَمُونَ) فلما كان العذاب سريعا كذلك كان النطق أسرع بحذف الفاء.

فضلا عن ان العذاب قد أخذ قوم شعيب قال تعالى: ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴾ هود/٩٤، اما آية الأنعام والزمر فكانتا في اهل مكة وان العذاب تأخر عن من كفر منهم لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾، ولذلك وردت الفاء مع سوف لتدل على التأخير والتمهيل.

- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ البقرة/٤٩.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ إبراهيم/٦

آيتان متشابهتان(١) وقد اختلف فيهما ذكر الواو في (وَيُذَبِّحُونَ) من سورة إبراهيم وحذفها في (يُذَبِّحُونَ) من سورة البقرة فما سر الاختلاف فيهما؟

يرى الإسكافي ان ادخال الواو في قوله: (وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ) في سورة إبراهيم وحذفها في سورة البقرة، ان (يُذَبِّحُونَ) بدل من قوله تعالى: (يَسُومُونَكُمْ) فإذا جعل بدلا لم يحتج إلى الواو وإذا جعل (يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ) ضروبا من المكروه وهي غير ذبح الابناء لم يكن الثاني الا بالواو وفي الموضعين يحتمل الوجهين. ولكن

الآية في سورة إبراهيم (وَيُذَبِّحُونَ) وقعت في خبر قد ضمن خبرا متعلقا به لأنه قال قبله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ ﴾ ثم قال: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾ فضمن اخباره عن ارسال موسى بآياته اخباره عن تنبيه قومه على نعمة الله ودعائهم إلى شكرها، والقصة المعطوفة على مثلها تقوي معنى العطف فيها وليس كذلك موقع (يُذَبِّحُونَ) في سورة البقرة، لأنه تعالى اخبر عن نفسه بإنجائه بني إسرائيل

(١) ينظر شرح هاتين الايتين تفصيلا في ص/ ١٧٣.

وهناك أخبر عن موسى انه قال لقومه كذا... فافترق الموضعان من هذا الوجه)[(١)].

فالتذبيح تفسير وتوضيح للعذاب الذي لا قوه ولذلك حذفت الواو والتقدير يسومونكم مذبحين أبناءكم. وإذا كان الفعل مع ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ مع الواو فإن المعنى قد اختلف أي أن يسومونكم سوء العذاب غير التذبيح فكأنه جنس آخر[(٢)].

والله تعالى أوجز في عدد النعم فكان الحذف للإيجاز في سورة البقرة، وفي سورة إبراهيم عددت نعم الله على بني إسرائيل فلما كثر التعداد اطال الفعل بزيادة الواو هذا من جهة ومن جهة اخرى فإن آية البقرة من كلام الله تعالى: فأوجز، أما آية إبراهيم فهي من كلام سيدنا موسى عليه السلام في تعداد ما أصابهم من محن ونعم الله عليهم في قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾ إبراهيم/٥. فأضاف وأطال فناسبها ذكر الواو في هذا الموضع وحذفها في آية البقرة[(٣)].

٢- حروف الجر / يرد في الآيتين المتشابهتين أحد حروف الجر ويحذف من الآية المتشابهة لها لمعنى اضافي يقتضيه السياق أو لسر بلاغي ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾ الأعراف/٧٤. وقوله تعالى: ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴾ الشعراء/١٤٩.

وقوله تعالى: ﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴾ الحجر/٨٢

الآيات الثلاث في قوم صالح أصحاب الحجر، وقد زادهم الله بسطة في الخلق، وأطال الله تعالى أعمارهم وذكر أن هؤلاء كانوا طوال الأجسام ضخام الأجساد وكان أحدهم يبني البنيان ثم يعمره بعد مائة عام فأضجرهم ذلك فاتخذوا الجبال بيوتا[(٤)] وهم ثمود قوم صالح فلم يؤمن منهم الا قليل بعد أن طلبوا من

(١) ينظر: درة التنزيل /١٠، وينظر التفسير الكبير ٨٥/١٩.

(٢) ينظر: البحر المحيط، ١٩٤/١ والكشاف /٦٨.

(٣) بنظر البرهان/ بصائر ذوي التمييز ١٤٢/١، الاتقان ٣٤١/٣.

(٤) البحر المحيط ٣٢٩/٤.

صالح عليه السلام معجزة فأخرج الله تعالى لهم ناقة من صخرة وكانت تشرب ماءهم يوما ويوم لهم. فعقروا الناقة فأرسل الله تعالى عليهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين.

وأما سبب ذكر ﴿مِنَ﴾ في آية الحجر والشعراء وحذفها في الأعراف فإن الكرماني يعلل ذلك بقوله: (لأن ما في هذه السورة - الأعراف - تقدمه من سهولها قصورا) فاكتفى بذلك) [١] أي أن ﴿مِنَ﴾ جاء قبل سهولها فليس هناك حاجة من ذكر (من) قبل الجبال.

﴿ٱلْجِبَالِ﴾ مفعول به و﴿بُيُوتًا﴾ حال في الآية الأولى ويجوز أن يكون مفعولا ثانيا على تضمين معنى ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾ تتخذون أي تتخذون الجبال بيوتا وقيل نصبت ﴿ٱلْجِبَالِ﴾ على نزع الخافض، أي من الجبال. أي تتخذون من بعض الجبال بيوتا كما اتخذوا من السهول قصورا فكانت القصور لمصيفهم والبيوت لمشتاهم كما روي عن ابن عباس[٢].

ويرى الدكتور راشد أحمد أن السياق في آية الأعراف يقتضي حذف ﴿مِنَ﴾ وذلك في تذكيرهم بالنعم التي اختصهم الله تعالى بها من استخلافهم الأرض بعد هلاك عاد واسكانهم في الأرض وما أعطاهم من قوة يستطيعون بها نحت الجبال ليذكروا آلاء الله عليهم ولا يفسدوا في الأرض فناسب المقام أن تأتي الجبال غير مجرورة، لتناسب عظم النعم اذ التبعيض تقليل.

أما الآيتان الأخريان فأحداهما اخبار عما كانوا فيه وما حدث منهم فذكر نحتهم الجبال فقط وفي الثانية ذكر الجنات والعيون والنخل ولم يحص باقي النعم فناسب فيها ذكر (من)[٣].

والمتأمل يجد أن آية الأعراف حذف حرف الجر منها وذلك لوجود معجزة الناقة التي أخرجها الله عز وجل من صخرة وهي معجزة عظيمة ﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ

(١) البرهان/١٧٢.

(٢) البحر المحيط ٤/٣٢٩.

(٣) متشابهات آي القرآن الكريم /٣٥.

لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ ﴾ وجعلهم الله خلفاء من بعد عاد واستخلاف قوم ثمود بعد عاد أمر جليل، وهيأ الله تعالى لهم السهول والجبال ليبنوا لأنفسهم بيوتا وقصورا فهي نعم جليلة وآلاء عظيمة فناسبها لفظ (ٱلْجِبَالِ) التي تدل على العلو والعظمة بخلاف آيتي الحجر والشعراء، لأن آية الحجر لم تعد النعم عليهم وإنما اخبار من الله تعالى بأيجاز فناسبها الجزء من الجبال، وكذلك آية الشعراء فيها نعم على ثمود من الجنات والعيون والنخل ولكن لا ترقى إلى نعمة الاستخلاف ولا خروج الناقة من الصخرة ولا تذكيرهم بأن الله هيأ لهم الارض فذكر حرف الجر ايضا ليدل على التبعيض والتبعيض مهما كان فهو قليل أمام الكل هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن لفظة الجبال وان كانت تدل على الكل ولكن يراد منها الجزء على سبيل المجاز المرسل. وفي حذف حرف الجر ايحاء بتملك جميع الجبال التي هم فيها وأنهم ينحتون بيوتهم في أي مكان منها.

وقد ذكر الله تعالى لفظة (وَتَنْحِتُونَ) لتدل على أنهم كانوا لم يبنوا بيوتهم كما تبنى البيوت في السهول والسفوح من الحجر أو الاجر وإنما كانوا يهدمون ويقطعون من الجبال جزءا جزءاً ليكون لهم بيت (منها) ولذلك قال (وَتَنْحِتُونَ) دون ويبنون ويجوز ايضا أن يكون لهم في كل جبل في منطقتهم بيت منحوت ليدل على انهم نحتوا الجبال كلها لهم بيوتا. وأما الآيتان الأخريتان فقد ذكر حرف الجر لأنهم نحتوا في الجبال ولم يذكر حرف الجر (في) لأن (من) يعطي معنى (في) من حيث الظرفية ويعطي معنى التبعيض في آن واحد، ولذلك ذكر في هاتين الآيتين؛ لأن النعم أدنى وأقل مما ذكر في سورة الأعراف.

- ومن المواضع التي حذف فيها حرف الجر قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ الأنعام/١١٧.

وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ النحل /١٢٥.

وقـــولـــه: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ النجم/٣٠.

وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ القلم/٧

هذه الآيات متشابهة ولكنها اختلفت بحذف (الباء) مع اسم الموصول (من) في سورة الأنعام وبذكرها في الآيات الأخرى وكذلك جاء الفعل (يضل) مضارعا وبغيرها ماضيا، وجاءت لفظة (المهتدين) وهي اسم فاعل ما عدا اية النجم فقد جاء الفعل (اهتدى) بدلا من اسم الفاعل (المهتدين). فلماذا حذفت الباء في آية الأنعام وذكرت في غيرها؟

وقد علل الكرماني ذلك أن الأصل اثبات الباء كما جاء سوى آية الانعام لأن (أفعل) فيه معنى الفعل وهو لا يعمل في المفعول به فزيد بعده حرف الجر (الباء) تقوية للعمل وحيث حذفت أضمر فعل يعمل فيما بعده، وبين أن آية الأنعام حذفت الباء موافقة لقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ الأنعام/١٢٤. وعدل إلى لفظ المستقبل لأن الباء إذا حذفت التبس اللفظ بالاضافة؛ تعالى الله عن ذلك فنبه بلفظ المستقبل على قطع الاضافة، لأن أكثر ما يستعمل (أفعل من) مع الماضي.

أما ما جاء بغير باء مع الماضي لأنه قد سبقه ما هو أصل ولهذا لم يضر الحذف في الموضع الثاني لأجل التخفيف لأنه فرع عن الأول وتابع له[1].

وتوجيه ابن جماعة والأنصاري هو توجيه الكرماني[2] ويرى ابن الزبير الغرناطي: (أن سقوط الباء الداخلة على (من) في آية الأنعام إنما ذلك والله اعلم لاستثقال زيادتها مع الزيادة اللازمة للمضارع مع التقارب ايثارا للايجاز والتخفيف أما آيتا النجم والقلم فلا زيادة في الفعل لكونه ماضيا فزيد باء التأكيد الداخلة على من) [3].

سياق آية الأنعام في عقائد الشرك من أهل مكة في جعلهم الجن شركاء لله وخرقهم له بنين وبنات، وأشار السياق ايضا ولمّح إلى القائلين ببنوة عيسى وعزير من أهل الكتاب، فهم قد عموا عن الصراط المستقيم وضلوا على الرغم من مجيء بصائر من الله تعالى وأن اطاعة أكثر أهل الارض ضلال وتيه. فحذفت الباء في (من)

(١) ينظر: البرهان في متشابه القرآن /١٦٠.

(٢) ينظر: كشف المعاني /٩٨ وفتح الرحمن /٩٩ – ١٠٠.

(٣) ملاك التأويل ١/٤٧١.

لإلصاق الضلال بهم لما لهم من عقائد وثنية وأحكام باطلة لأنهم يتبعون أهواءهم فيضلون، ووردت لفظة يضلون قبل الآية ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الأنعام/ ١١٦. وبعدها قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ الأنعام/ ١١٩. انسجاما مع الأفعال المضارعة ومع تكرار الفعل يضلون.

كما ورد بعد اسم الموصول (من) فعل مضارع وهو (يضل) للدلالة على أن هؤلاء سيهتدي بعضهم ويضل آخرون ولكن المهتدين أكثر من الضالين، لأن المهتدين اسم والاسم أكثر وأثبت من الفعل (يضل).

وأما سورة النحل فإن السياق في اليهود وفي إبراهيم وانه لم يكن من المشركين، ولهذا جاءت الدعوة لرسول الله بأن يجادلهم بالحكمة والموعظة الحسنة وبالتي هي أحسن فقد ضل كثير منهم من اليهود، فذكرت الباء مع الفعل الماضي (ضل) ابعادا للالتباس الذي قد يوقع بأن الله هو اعلم الضالين وحاشا لله أن يكون هكذا واشارة إلى من ضل من الأمم السابقة كقوم إبراهيم وأصحاب السبت.

وأما سورة النجم فقد جاءت ردا على عابدي الأصنام، وان هي إلا أسماء سموها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان وردا على جعلهم الملائكة هم بنات الله، فهذا علمهم فقد ضلوا والله تعالى أعلم بهم، وتغير في هذه الآية اسم الفاعل (المهتدين) إلى فعل ماضٍ وهو (اهتدى) موافقة للفواصل التي مثيلها في قوله تعالى: ﴿ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ ﴾ وقوله: ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ وبعدها﴿ وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ وفي الآية طباق بين ضل واهتدى، وحذف متعلق (اهتدى) لدلالة ماقبله عليه ولورود الفعل مزيدا بالهمزة والتاء. وذكرت الباء هنا أيضا دفعا للالتباس الذي ذكرناه واتساقاً مع سياق الآية التي قبلها في قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ اذن فقد ضلوا وتاهوا، وأما آية القلم فقد جاء قبلها (فستبصر ويبصرون) للدلالة على الهداية والضلالة فأحدهما ضل وآخر اهتدى، وذكرت الباء لأنه جاء قبلها قوله تعالى: (بأيكم المفتون) لتنسجم الباء في (بمن) مع (الباء) في (بأيكم).

٣- من حروف المعاني حروف أخرى غير حروف العطف والجر

سبق الحديث عن حروف العطف والجر. وأما حروف أخرى فمنها التي جاءت في آية متشابهة وحذفت في آية أخرى مثل الحرف (أنْ) كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ العنكبوت /٣٣.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ هود /٧٧.

في هاتين الآيتين المتشابهتين ذكر الحرف (أن) بعد (لما) في آية العنكبوت وحذف في آية هود. و(لما) تفيد وقوع الفعل الثاني عقب الأول وترتبه عليه[1]. وأما زيادة (أن) بعد (لما) فتؤكد وقوع الفعل لوقوع غيره وزيادتها قياس مطرد وتكون (أن) توكيدا[2].

فصار التوكيد في زيادة (أن) في آية العنكبوت فأفادت حدوث الفعلين (جَآءَتْ) و(سِيٓءَ) مرتبا أحدهما على الاخر كأنما في وقت واحد لقرب حدوثهما أي:

لما علم لوط عليه السلام مجيء الملائكة حدثت المساءة من دون تباطؤ خوفا من قومه عليهم. فقد تقدم آية العنكبوت ما يفصل المنكرات وفعل المعاصي فلما اطال السياق في أفعالهم كان من المناسب أن يأتي الحرف (أن) في الآية ليتناسب اللفظ مع السياق التفصيلي قبله.

أما آية هود فليس فيها هذا التفصيل وإنما اختصر الفواحش واتيان الرجال دون النساء وقطعهم السبيل بفعل القبائح والمنكرات في ناديهم وارادتهم آية من لوط عليه السلام بصدق نبوته بكلمة السيآت في قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ هود/٧٨ ولهذا كان ذكر الحرف (أن) مناسبا ومنسجما في مقام التفصيل وحذفه في مقام الايجاز والاجمال. هذا من جهة، ومن جهة أخرى ان تضجر قوم لوط عليه السلام من خلال السياقين كان أشد في آية

---

(١) مغني اللبيب ١/٣٣.

(٢) الجنى الداني /٢٢٢.

العنكبوت من السياق في سورة هود، وذلك من جداله معهم وتبيان منكراتهم ومعاصيهم، ولهذا جاء بعدها قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ﴾ ليزيل عنه الخوف والهم والحزن والغم.

ويرى الإسكافي أنه إذا اتصلت (أن) بـ (لما) كان دليلاً على اكتمال الجواب بلا تراخ أو تريث وهذا ما ظهر في العنكبوت بقوله (سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا) ليكون جوابا متصلا به ما يكمله ويخلصه لتحقيق أو بطلان..... أما آية هود فالحديث فيها متصل، آية بعد آية إلى خمس آيات فبعد عن الجواب وذلك عند قوله: ﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ﴾ فحسن الحذف[1]

وقد علل الكرماني هذا الاختلاف كتعليل الإسكافي[2].

وابن الزبير يرى أن الأصل أن تأتي (لما) بدون (أن) كما في آية هود فجاء ذلك أولا ثم جاءت في العنكبوت بزيادة (أن) على غير الأصل ليحصل بين الآيتين ما يرفع تثاقل اللفظ المذكور، وهذا أمر جائز وهو من فصيح الكلام[3]. وأكد الزمخشري تعليل الإسكافي في تأثير (أن) على الفعلين بحيث يرتب احدهما على الاخر في وقتين متجاورين لا فاصل بينهما كأنهما وجدا في جزء واحد من الزمان[4] ووافقه على هذا التوجيه كل من أبي حيان[5] وابن عاشور[6].

- ومن الحروف أيضاً وردت (اللام) في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ لقمان /١٧ وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ الشورى /٤٣

ذكرت اللام في آية (الشورى) وحذفت في آية (لقمان) لأسباب بلاغية وحكم بيانية و**علل** نظمية يقتضيها كل منهما في سياقهما اللفظي والمعنوي، وهذا ما نراه في تحليل الآيتين وسياقهما.

---

(١) بنظر درة التنزيل /٢٤٩.

(٢) بنظر البرهان في متشابه القرآن /٢٦٧.

(٣) بنظر ملاك التأويل ٢/٦٦٤ - ٦٦٥.

(٤) الكشاف /٨١٩.

(٥) البحر المحيط ٧١/١٥٠.

(٦) التحرير والتنوير /٢٠/ ٢٤٤ - ٢٤٥.

والآيتان في الصبر، والصبر معناه: الامساك في ضيق يقال: صبرت الدابة: حبستها بلا علف وصبرت فلانا خلفته خلفة لا خروج له منها والصبر حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع[١].

والصبر أقسام صبر على الطاعات وصبر عن المعاصي وصبر على المصائب قال ابن عباس: الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه صبر على أداء الفرائض وصبر عن محارم الله تعالى وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى[٢] ولما كان الصبر من الصفات الحميدة ومن الخصال السديدة أمر الله عز وجل بالصبر والمصابرة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ ﴾ آل عمران/٢٠٠، وان للصابر من الثواب ما ليس لغيره قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ الزمر/١٠. ومن هنا اكد الله تعالى على الصبر وانه من أفضل الأمور وأكثرها اجرا وثوابا. بل الصبر كما في الآيتين هو من عزم الامور ولكنه ذكرت اللام معه في اية وحذفت في أخرى نتيجة للسياق اللفظي والمعنوي وهذا ما يجبيب عنه الخطيب الإسكافي بقوله: (ان ما رغب الله تعالى فيه عبده من الصبر على ما ألم قلبه من جناية جان عليه حتى يغفر لمن ظلمه ويهب له من القصاص حقه ترغيب فيما يشق على الإنسان فعله، الا أن الله تعالى حسنه بما وعد من عفا عما يجب له من الاجر الذي ضمنه... وإذا كان هذا من أصعب ما يتحمله الإنسان وجب توكيد الكلام فيه ما لا يجب في غيره فأدخلت اللام على: (مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ) على معنى أنه من الأمور التي تحتاج إلى توطين النفس عليها وتخير أرفعها وأعلاها وليس كذلك ما في سورة لقمان لأنه قال: ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ ﴾ وليس يختص صبرا على ظلم يلحقه فيرغب في العفو عن الظالم.... فأمّا الموضع الذي أبيح فيه الانتصاف فالصبر فيه أحق وكظم الغيظ معه أشد والكلام فيه إلى التوكيد أحوج)[٣].

ويرى ابن الزبير أن زيادة المبنى زيادة في المعنى.. (فآية لقمان فأشير فيها بذلك إلى أربع خصال... ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ

(١) المفردات في غريب القرآن /٢٧٧.

(٢) احياء علوم الدين /١٠٤٥.

(٣) درة التنزيل /٢٩١.

﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ ﴾... والأربعة في الايتين من العدد القليل، وأما آية الشورى فالاشارة فيها بقوله ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ إلى اثني عشر مطلبا من لدن قوله تعالى: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾ الشورى /٣٦-٤٤ وهذه اشارة إلى التنزه عن ذلك.... وبعد هذه الخصال النيفة على العشر قال تعالى: في التزام جميعها: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ فناسب كثرة هذه الخصال الجليلة زيادة اللام المؤكدة.... ولم يكن في الآيتين يقصد بهما آيتي آل عمران: وان تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور.. ١٨٦ وآية لقمان قبلها كثرة فناسبها عدم زيادة اللام[١].

وبين سببا آخر في زيادة اللام في آية الشورى وهو أن آية الشورى لما دخلها معنى القسم لأن اللام في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ توطئة له وتدل تضمين الآية معناه ناسب ذلك زيادة لام التوكيد في خبر ان.... وأما آية لقمان فقوله فيها مجرد اخبار عن حال ما وقعت الوصية له)[٢].

أقول سياق آية الشورى ركز على البغي والغضب وظلم الناس بغير الحق. ولهذا جاء الفعل ماضيا وان كان خبرا لكن يراد منه الانشاء هذا من جهة ومن جهة أخرى أعقب (صبر) بفعل آخر وهو (غفر) فضلا عن الصبر فكان لا بد من تقوية الأمر وتشديده فجاءت اللام مع ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ لمناسبة المعاني التي وردت في السياق.

٢- ذكر الكلمة المفردة وحذفها

وردت في القرآن الكريم آيات متشابهة ذكرت في آية منها كلمة أو مع تابعها وحذفت في اخرى وذلك لسر بلاغي واعجاز بياني. والكلمة المفردة اما ان تكون اسما ظاهرا أو اسم موصول أو ضميرا منفصلا أو ضميرا متصلا.

أ- ذكر اسم في آية وحذفه في اخرى، من ذلك:

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ ﴾ الانعام/٩٤.

---

(١) ينظر: ملاك التنزيل ٣٢٨/١.

(٢) ينظر: م.ن ٩٤٢/٢ - ٩٤٣.

وقوله تعالى: ﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ الكهف /٤٨.

هاتان آيتان متشابهتان وقد ذكرت كلمة (فرادى) في آية الانعام وحذفت في آية الكهف.

و(فرادى) مفردها (فرد) أي فردا فردا والالف في آخرها الف تانيث[1] وهو حال من الضمير المرفوع في (جِئْتُمُونَا) أي منعزلين عن كل ما كنتم تعتزون به في الحياة الأولى من مال وولد وانصار.

والاظهر ان فرادى جمع فردان مثل سكارى لسكران وليس فرادى المقصور مرادفا لفراد المعدول، لأن فراد المعدول يدل على معنى فردا فردا ؛ مثل ثلاث ورباع من اسماء العدد المعدولة. واما فرادى المقصور فهو جمع فردان بمعنى المنفرد. ووجه جمعه هنا ان كل واحد منهم جاء منفردا عن ماله. وقوله ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ تشبيه للمجيء اريد منه معنى الإحياء بعد الموت الذي كانوا ينكرونه فقد رأوه رأي العين، فالكاف لتشبيه الخلق الجديد بالخلق الأول فهو موضع المفعول المطلق[2].

اما عن سبب ذكر (فرادى) في آية الانعام وحذفها في الكهف فيرى ابن الزبير الغرناطي ان سياق آية الانعام فيه ذكر ما عبد من المعبودات من دون الله تعالى فجيء بلفظ (فرادى)، لأن هذه المعبودات لا تنفعهم وانهم سيكونون منفردين كما خلقهم الله تعالى في الحياة الدنيا، واما آية الكهف فقد خلت من تلك الاشارة إلى المعبودات فحذف اللفظ، فهو يقول: (ان ذلك مراعى فيه في آية الانعام ما اعقبت به من قوله: ﴿ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ أي: «ما اعطيناكم في الدنيا مما شغلكم عن آخرتكم ثم قال: ﴿ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ﴾ أي: منفردين عما كنتم تؤملون من اندادكم ومعبوداتكم من دونه سبحانه، فَلرِعْي هذا المعقب به في آية الانعام ما قيل فيها ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ ﴾.... اما آية

---

(١) المحرر الوجيز /٦٤٦.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ٣٨٢/٧.

الكهف لم يقع هنا ذكر ولا اشارة إلى ما عبد من دون الله فلهذا لم يقع هنا (فرادى) وذلك بين التناسب»(١).

وأرى أن ذكر لفظة (فرادى) في آية الانعام لأن قبل هذه الآية ذكر الله عز وجل ان الظالمين في سكرات الموت والملائكة باسطو ايديهم لاخراج ارواحهم فلا يستطيعون انقاذ انفسهم فأين اذن أولادهم وانصارهم والهتهم التي كانوا يزعمون؟ فأصبحوا لاحول لهم ولا قوة ولا ولد ولا نصير ولا احد معهم ظهير. ولهذا ذكرت لفظة فرادى لتناسب موقف هؤلاء الظالمين الذين فقدوا كل شيء وتبرأ منهم من كانوا معهم هذا من جهة، ومن جهة اخرى فإن لفظة (تستكبرون) قد جاءت قبل آية الانعام، فالاستكبار كان نتيجة لشعورهم بأن معهم المال والبنين فأطغاهم هذا فاستكبروا فلما استكبروا رد الله عليهم بأنكم قد جئتمونا فرادى فذهب استكباركم بفقدان من كنتم تتفاخرون بهم وهم من حولكم.

ولهذا جاء بعدها قوله تعالى: ﴿ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ الأنعام /٩٤.

أما آية الكهف فكانت في سياق العرض العام في تسيير الجبال وبروز الأرض وحشر الناس. وكذلك في وصفه المال والأولاد بأنها زينة الحياة الدنيا لإشعارهم بأنهم لا يقربونهم إلى الله زلفى ولا يمكن أن تكون وسيلة للكبرياء، وانهم جاءوا إلى الله تعالى مجتمعين صفا ومع هذا انهم حفاة عراة لامال لهم ولا بنين فحذفت (فرادى) هنا انسجاما مع العرض العام.

- ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ الذاريات/١٩.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ المعارج /٢٤-٢٥.

يرى الزمخشري ان لفظة ﴿مَّعْلُومٌ﴾ في آية المعارج يقصد بها الزكاة

---

(١) ملاك التأويل ٤٦١/١ - ٤٦٢.

المفروضة ولذلك جاء لفظ ﴿حَقٌّ﴾ متبوعا بـ ﴿مَّعۡلُومٌ﴾ لأنه معلوم في وقته ونصابه ووجوبه قال الزمخشري: (حق معلوم) هو الزكاة لأنها مقدرة معلومة أو صدقة يوظفها الرجل على نفسه يؤديها في أوقات معلومة)[١]. واما آية الذاريات فإنها في الصدقات والتطوع زيادة على ما فرض عليهم قال ابن الزبير: (آية المعارج قد تقدمها متصلا بها قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ والمراد بالصلاة هنا المكتوبة، وايضا يقرن بها في آي الكتاب الزكاة المفروضة وبها فسر المفسرون الحق المعلوم في آية المعارج.... ولما قصد في آية الذاريات غير هذا المقصد، بدليل ما تقدمها من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ فوصف هؤلاء بطول صلاتهم وتهجدهم ومدأومتهم الاستغفار في الاسحار فذكروا بزيادة من التطوع والنفل على ما فرض عليهم ومن الزيادة في اعمالهم على ما فرض عليهم مما يعد تاركه إذا تركه مهملاً فناسب هذا الاطلاق الوارد في انفاقهم ليفهم الزيادة على ما فرض عليهم من الزكاة المقدرة ولم يكن ليناسب هنا الاشارة إلى قدر المنفق)[٢].

وبهذا التعليل قال ابن جماعة: (المراد بآية الذاريات: الصدقات والنوافل؛ لقرينة تقدم النوافل وبهذه الآية لتقدم ذكر الصلاة؛ لأنها معلومة مقدرة)[٣].

ارى مع من يرى ان لفظة ﴿حَقٌّ مَّعۡلُومٌ﴾ لا يقصد بها الزكاة؛ لأن الزكاة فرضت في السنة الثانية للهجرة في شهر شوال[٤] وان هذا الحق هو على وجه الندب لا على وجه الفرض (ومعلوم) يراد به: متعارف[٥].

أما سبب ذكر لفظة (معلوم) في آية المعارج وعدم ذكرها في الذاريات فيعود إلى سياق الآيتين، وذلك أن سياق آية المعارج يدل على الأمور التي يتصف بها الإنسان المسلم بصورة عامة من ادائه للصلاة في أوقاتها واسباغ وضوئها والخشوع

---

(١) الكشاف /١١٤٠ وينظر: الجامع لاحكام القرآن ٢٩١/١٨.

(٢) ملاك التأويل ١٠٣٦/٢.

(٣) كشف المعاني /١٩٩.

(٤) ينظر: الفقه الاسلامي وادلته/١٧٩٢/٣.

(٥) ينظر: المحرر الوجيز ١٧٩٢/٣.

فيها لقوله تعالى ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ وان الحق معلوم لديهم ومتعارف عليه ولكن آية الذاريات في المؤمنين المحسنين بصورة خاصة لأن درجة الأحسان فوق درجة الايمان، ولهذا آخر جبريل سؤال الاحسان بعد الاسلام والإيمان عندما كان يسأل رسول الله في اصحابه، فهؤلاء المحسنون لا ينامون من الليل الا قليلا وبالأسحار يستغفرون قبل ادائهم صلاة الصبح وكل هذه فوق الفرائض وبعد أدائهم ما فرض عليهم، ولذلك اطلق كلمة (حق) من دون تحديد ولا وصف لتتناسب مع عباداتهم الاخرى من كثرة صلاة واستغفار وقيام وإذا كان الحق معلوما لدى المسلمين من ايصال الرحم وقرى الاضياف وحمل الكلّ فضلا عن ان المحسنين يقومون بها مع ايثار غيرهم على أنفسهم، ولهذا ناسبت هذه اللفظة (حق) في موضعها من دون وصف.

ب-ذكر الاسم الموصول وحذفه

من ذلك قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ آل عمران/ ٢٢

وقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ التوبة/ ٦٩

آيتان متشابهتان وقد اختلفتا في ذكر اسم الموصول في الآية الأولى وحذفه في الآية الثانية.

علل الدكتور عبد المجيد ياسين هذا الاختلاف بقوله: (سبقها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

أما الآية الثانية فقد سبقها قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾.

في الآية الأولى الجريمة أكبر منها في الثانية قال فيها ﴿يَكْفُرُونَ﴾ مرة بعد مرة.... وفي الثانية قال: (كفار) وفي الأولى قال: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وقال: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ﴾ وفي الثانية قال: ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ

﴿وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ فالفرق كبير بين الفئتين ولذلك قال: في الأولى ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وفي الثانية قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

لما زادت المعصية، زادت العقوبة، وازداد غضب الله عليهم فأكد وخصص ووصف. واشار وحدد فقال: (ان الذين) وقال: (أولئك) الذين اما الآية الثانية فهي على الرغم من عظمة المعصية وكبرها الا انها قياسا إلى ما جاء في الآية الأولى تعد اقل واهون ولذلك خفف وقلل وحذف (الذين) توازنا واتفاقا بين اللفظ والمعنى)[1].

أقول ان آية آل عمران في اهل الكتاب والأميين ممن لم يسلموا بدليل قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ وقصد الذين أوتوا الكتاب، لأن الذين كفروا وقتلوا الأنبياء هم اليهود، اما الآية الثانية فقصد بها المنافقين أولا والكفار ثانيا ومعلوم ان النفاق اعظم من الكفر، لأن كفرهم مبطن وظاهرهم يختلف عن باطنهم لخدعة الرسول ﷺ والمسلمين وهذا لا يخفى جرمهم اعظم ووزرهم اكبر، كذلك لفظة (كفار) تدل على (الكثرة والمبالغة)[2]. ولأن المنافقين اشد تعذيبا من الكافرين في جهنم قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ النساء/ ١٤٥.

وقد جمع الله بين المنافقين الذين هم أخطر من الكافرين وبين (الكفار) لأنهم هم أكثر كفرا وأشد ايغالاً في الكفر من الكافرين، لذلك حذف الاسم الموصول لتسريع الاحباط من اعمالهم وشدة الصاق الحبط بأفعالهم.

ومن جهة أخرى فإن المقصودين (هم المنافقون) وهم الذين عاصروا الرسول ﷺ ولذلك حذف اسم الموصول منها، اما آية آل عمران فقد ذكر اسم الموصول فيها حتى يشمل الذين أوتوا الكتاب ممن عاصر الرسول ﷺ ومن مضى من اسلافهم بدليل قوله تعالى: (ويقتلون النبيين بغير حق) فقد مضى زمن قتل النبيين.

---

(١) المبنى والمعنى في الآيات المتشابهات /٣٢٩ - ٣٣٠.

(٢) شرح ابن عقيل ٤٦١/٢، معاني الابنية/ ١٤٨.

ج- ذكر الضمير وحذفه

وردت آيات متشابهة في القرآن الكريم ذكر فيها الضمير مرة، وحذف منها مرة أخرى ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ النحل/ ٧٢. وقوله تعالى: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ العنكبوت /٦٧.

في هاتين الآيتين ذكر الضمير (هم) في آية النحل ولم يذكر في آية العنكبوت، وذلك لسر بلاغي ولاعجاز بياني، وهذا هو الإسكافي يوضح لنا العلة ويبين لنا السر فيرى ان ذكر الضمير في آية النحل للأمن من الالتباس وذلك لأن سياق الآية متصل بالمخاطبين وهو ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ وتخللت هذه الآية (هم يكفرون) بين الخطاب والغيبة فلا بد من تقييده بضمير الفعل (هم) حتى لا يختلط الخطاب مع الغيبة وكذلك التاء بالياء. ولكن آية العنكبوت سياقها واحد وهو الغيبة ولذلك لم يحتج إلى هذا الضمير ولذلك جاء قوله تعالى قبلها ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ ﴾ وقوله: ﴿ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ وقوله: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ ﴾ فلما كان الاخبار عن الغيب ما احتاج إلى ان يؤكد)[1].

ويذكر ابن الزبير ان الوارد في آية النحل يعود إلى من تقدم ذكرهم كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا ﴾ وفي قوله: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ ﴾ ٥٧ إلى قوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ٦٠ وقوله: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ ٦٢ وليس راجعا إلى ما اتصل به من قوله: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ ولما رجع إلى ما تباعد اتى بضميرهم المشعر بالبعد هو ضمير الغائبين (هم) وارتفع بالإيتان به توهم عودة ضمير يؤمنون إلى المقول لهم: (وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً) اما قوله في سورة العنكبوت: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾

---

(١) ينظر: درة التنزيل /١٥١، وينظر البرهان/٢٣٢ وكشف المعاني /١٣٢ وفتح الرحمن/ ١٦٨.

فكلامهم لا يرجع شيء منه إلى متقدم قبله فيتباعد عنه بل هو مستقل بنفسه والمعنيون بقوله ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ هم المرادون بقوله: ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ وليست هذه الآية مثل آية النحل فيحتاج فيها إلى ما احتيج هنا من الآيتين وارد على ما يجب ويناسب)[1].

أقول ولما استفهم الله تعالى عن جحودهم نعمته قبل هذه الآية بقوله: ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ واستفهم مرة ثانية وأكد هذا الاستفهام الاستنكاري بضمير الفصل (هم) بقوله تعالى: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ هذا من جهة، ومن جهة اخرى ان الله عز وجل قسم الأرزاق فالذين فضلوا لا يستطيعون ان يردوا رزقهم والذين فضل الله عليهم من الرزق فليس من عندهم وإنما منه جل شأنه فهذا نعمة وذلك نعمة ولذلك كرر الله تعالى الاستفهام الاستنكاري مرتين مرة لمن قدر عليه رزقه وآخر لمن وسع عليه.

فالاستفهام الأول لمن قدر عليه رزقه وهو نعمة له ثم استفهم ثانيا لمن وسع عليه رزقه وزيد بضمير الفعل للدلالة على توسيع الرزق فجدير به ان لا يكفر ابدا، ولهذا ذكر الضمير (هم) هنا. أما آية العنكبوت فالسياق كله في الغيبة فضلا عن ان السياق هنا في الأمن لقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾، وقبلها: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ فإذا طلب الناس الأمان وهم في الفلك وبعد ذلك يكفرون حين خروجهم ونجاتهم من البحر إذا هم يشركون، فهذه هي عقيدة المشركين وهي باطلة فلما كانوا في الفلك دعوا الله أن يمنحهم الامن والسلام ولما خرجوا كفروا وأشركوا ففي الآية تلميح بأن لا يكون اهل مكة مثلهم في عقيدتهم الباطلة كما منحناهم الامن بالنجاة، كذلك انتم منحناكم الامن وجعلنا لكم حرما امنا ويختطف الناس من حولهم فوجب عليهم جميعا ان لا يؤمنوا بالباطل فأنتم في مأمن كما هم في مأمن وهم آمنوا بالباطل وانتم كذلك فما عليكم الا ان تؤمنوا بالله وحده، ولذلك لم يحتج إلى ضمير الفصل لأن الأمن نعمة وان لا تكفروا بنعمة الله تعالى، والشرك باطل. فجاء

---

(١) ينظر: ملاك التأويل ٧٥١/٢ - ٧٥٢.

كل لفظ في موضعه المناسب.

٣- ذكر الجملة وحذفها

ترد في القرآن الكريم آيات متشابهة ولكن فيها اختلاف من حيث ذكر جملة في آية وحذفها في آية اخرى والجمل المحذوفة اما أن تكون جملة اسمية أو جملة فعلية وسأبدأ بالجمل الفعلية.

١- ذكر الجمل الفعلية وحذفها: ومن هذه الآيات المتشابهة قوله تعالى: ﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ يوسف /٢٢.

وقوله تعالى: ﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا** ﴾ القصص /١٤.

هاتان آيتان متشابهتان الأولى في يوسف عليه السلام والثانية في موسى عليه السلام واختلفتا في جملة ﴿**وَٱسْتَوَىٰٓ**﴾ وهي جملة فعلية من الفعل والفاعل ضمير مستتر تقديره (هو). فما سر الاختلاف؟ فلا بد لنا أن نعرف معنى ﴿**أَشُدَّهُۥ**﴾ ومعنى ﴿**وَٱسْتَوَىٰٓ**﴾ لنعرف الفرق بينهما والحكمة من وراء هذا الاختلاف.

فقوله ((﴿**بَلَغَ أَشُدَّهُۥ**﴾ هو ثماني عشرة سنة وقيل عشرون وقيل ثلاث وثلاثون وقيل اربعون))[١].

وقال ابن قتيبة ((معنى بلغ أشده) إذا انتهى منتهاه قبل ان يأخذ في النقصان وهو جمع يقال: لواحده اشد، ويقال شدَّ واشّد مثل: قد وأقد وهو الجلد ولا واحد له وقد اختلف في وقت بلوغ الأشد فيقال هو بلوغ ثلاثين سنة ويقال بلوغ ثمان وثلاثين) ﴿**وَٱسْتَوَىٰٓ**﴾ أي: استحكم وانتهى شبابه واستقر فلم تكن فيه زيادة)[٢].

وقيل الاشد بضع وثلاثون سنة وهو ما بين ثلاثة وثلاثين إلى تسعة وثلاثين وتأويل ﴿**بَلَغَ أَشُدَّهُۥ**﴾ استكمل نهاية قوة الرجل، وقيل معنى ﴿**وَٱسْتَوَىٰٓ**﴾ بلغ الاربعين وجائز ان يكون استوى وصل حقيقة بلوغ الأشد)[٣].

وجاء في لسان العرب: (والأشد قال الفراء واحدهما شدٌّ في القياس ولم

---

(١) غرر التبيان /٢٨٥.

(٢) تفسير غريب القرآن ٣٢٩.

(٣) معاني القرآن واعرابه: ١٠٢/٤.

اسمع لها بواحد وقال السيرافي جمع لا واحد له، والشدة الصلابة وهي نقيض اللين وهو مبلغ الرجل الحنكة والمعرفة) [١]، والاستواء من (سوا) واستوى الرجل بلغ اشده قبل بلوغ اربعين سنة[٢]، وقيل ان الاشد هو كمال القوة الجسمانية البدنية والبلوغ من ثماني عشر إلى الثلاثين والاستواء كمال القوة العقلية، وكمال الحافظة، وقيل هما بمعنى واحد وهو استكمال القوة واعتدال المزاج والبنية) [٣].

وقال البقاعي ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي: مجامع قواه وكمالاته، ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ أي اعتدل في السن وتم استحكامه بأنتهاء الشباب) [٤].

وأما الإسكافي فيعلل الزيادة والحذف بعد أن ذكر الخلاف في معنى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ ومعنى ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ وسرد أقوالا كثيرة في معناهما فهو يرى ان السر في هذه الزيادة ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ ان يوسف عليه السلام نبه على ما يراد منه قبل بلوغ الأربعين عندما رأى الكواكب تسجد له وحين أوحي اليه وهو في الجب وما علمه الله تعالى من تأويل الاحاديث ولكن موسى عليه السلام لم ينبه على ما يراد منه قبل بلوغ الاربعين فناسبه ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾.

قال الإسكافي ايضا: (والذي يفرق بين المكانين حتى لم ينتظر بيوسف عليه السلام الاستواء بعد بلوغ الأشد هو ان يوسف عليه السلام اخبر الله تعالى عنه انه أوحي اليه لما طرحه اخوته في الجب حيث قال: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ١٥، وأراد عزّ ذكره الرؤيا التي قصها على ابيه، وموسى عليه السلام لم يفعل به شيء من ذلك إلى ان بلغ الاشد واستوى، لأنه لم يعلم ما أريد به إلا بعد أن استأجره شعيب عليه السلام، ومضت سنو إجارته وسار بأهله، فهناك أتاه ما اتاه من كرامة الله تعالى، وقيل ان ذلك بعد الاربعين فلم ينتظر بيوسف في انباء الحكم والعلم والتشريف بالوحي ما انتظر به في موسى) [٥].

---

(١) لسان العرب مادة (شد): ٢١٨/٤.

(٢) م ن مادة (سوا): ١٣٦/١٩.

(٣) بنظر التفسير الكبير: ٢١٠/٢٤.

(٤) نظم الدرر: ٤٧٠/٥.

(٥) درة التنزيل / ٧٢.

ويرى الكرماني أن يوسف عليه السلام أوحي اليه وهو في البئر وموسى أوحي اليه بعد أربعين سنة وقوله ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ أشار إلى تلك الزيادة ومثله (بلغ أربعين سنة بعد قوله حتى إذا بلغ اشده)[١]. ووافقه كل من ابن الزبير[٢] وابن جماعة[٣] والأنصاري[٤].

وإلى هذا الرأي مال أكثر المفسرين[٥] أما ابن عاشور فاستشهد بقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ الفتح/٢٩. لاثبات دلالة الاستواء وهو كمال القوة بحيث قضى على المصري عند ذكره له[٦].

ولو تتبعنا معنى اشد لعلمنا أنه عندما يبلغ الإنسان كمال قوته الجسدية والعقلية كما ذكر ابن قتيبة والبقاعي آنفا. ولذلك لما بلغ كل من يوسف وموسى عليهما السلام منتهى قواهم وكمالاتهم آتاهم الله حكما وعلما، صحيح ان يوسف رأى الكواكب ساجدة له وهو صغير ومن ثم وحي الله تعالى له في الجب باخباره اخوته بأمرهم وهم لايشعرون وتعليمه له تأويل الاحاديث كلها أرهاصات قبل النبوة، ولكن حين آتاه الله الحكم والعلم أصبح نبيا مأموراً بالدعوة والتبليغ وكذلك موسى عليه السلام وزيادة (واستوى) في آية القصص تعني أن أمر موسى اختلف مع يوسف عليه السلام، لأن موسى عليه السلام من أولي العزم من الأنبياء إذ ان بين الأنبياء تفاضلا قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ البقرة/٢٥٣. فلما كان موسى ممن فضلوا على المرسلين فهو افضل من يوسف بدليل قوله تعالى: (مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ) وقوله: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ الأعراف/١٤٤ فلما كان هو من أولي العزم وممن اصطفاهم الله برسالاته وبكلامه وممن فضلهم الله تعالى على كثير من المرسلين، زيدت لفظة

---

(١) البرهان في متشابه القرآن/ ٢٠٤ - ٢٠٥.

(٢) ملاك التأويل ٢/٦٧٦ - ٦٧٧.

(٣) بنظر كشف المعاني /١٢٤ - ١٢٥.

(٤) فتح الرحمن/ ١٥١.

(٥) بنظر: روح المعاني ٢٠/٥١.

(٦) التحرير والتنوير ٢٠/٨٧.

(واستوى) لتدل على أن موسى عليه السلام قد بلغ من قوة الجسد وكماله أكثر من غيره من الأنبياء والمرسلين عدا أولي العزم منهم ووصل إلى أعلى كمال الأخلاق حتى استوى على الاخلاق وقوة الجسد كما يستوي الحب على سوقه (**فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ**) أي قد بلغ من مرتبة الاخلاق والخلقة كالمعادلة المعتبرة بالزرع والوزن والكيل أو بالكيفية نحو هذا الشيء مسأو لذلك الشيء، أي انه وصلت كمالات اخلاقه وخلقته إلى حد مساو للنبوة والرسالة من اهل العزم فأصبح مستويا أي في درجة ارقى من درجة اشد البلوغ ولاعتداله في ذاته كقوله تعالى: ﴿ **ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ** ﴾ النجم/٦ فهو مصان عن الافراط والتفريط من حيث القدر والكيفية. ولذلك ناسبت هذه الزيادة في آية القصص وعبرت عن ذات موسى عليه السلام. فضلا عن ذلك فقد شد عضده بأخيه هارون فزاد البلوغ اشدا فتضاعف ذلك فقد ارتقى على اخيه يوسف بزيادة هذا لقوله تعالى: ﴿ **قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا** ﴾ ٣٥/القصص.

٢- ذكر الجمل الاسمية وحذفها

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ لقمان/٧

وقوله تعالى: ﴿ **وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ** ﴾ الجاثية /٨

قد أجمع أكثر المفسرين على أنهما نزلتا في النضر بن الحارث وقد كان يخرج إلى فارس ويشتري كتب اخبار فارس فيرويها ويقول لاهل مكة: ان محمدا يحدثكم بحديث عاد وثمود وانا احدثكم بحديث رستم واسفنديار واخبار الاكاسرة فيستمعون إلى حديثه ويتركون سماع القرآن.[1]

وقيل: نزلتا في شراء القيان والمغنيات قاله مجاهد وقيل نزلتا في رجل

(١) ينظر: زاد المسير ١٦٧/٦، وينظر التفسير الكبير ٦٧٢/٢٧، والمحرر الوجيز/١٤٨٣، وينظر الكشاف/٨٣٤.

اشترى جارية مغنية[١].

يقول النيسابوري: ((قال اهل البرهان: هذه الآية والتي في الجاثية نزلتا باتفاق المفسرين في النضر الا انه بالغ ها هنا في ذمه لتركه استماع القرآن فقال بعد قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ أي صمما لا يقرع مسامعه صوت، فإن عدم سماع اعم من ان يكون بوقر الاذن أو بنحو غفلة. وترك الجملة الثانية في (الجاثية) لأنه لم يبين الكلام هنالك على المبالغة بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾ الجاثية/٩ والعلم لا يحصل الا بالسماع أو ما يقوم مقامه من خط وغيره)[٢].

وهاتان الآيتان متشابهتان وقد اختلفتا في ذكر جملة اسمية في آية لقمان وهي قوله تعالى: ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ وعدم ذكرها في آية الجاثية فما السر في ذلك؟ يرى الإسكافي إن الله تعالى لما ذكر لفظة (يصر) فإنها اغنت عن ذكر: (كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا) فهو يقول: (والجواب ان هذا الكافر لما اخبر الله عنه في سورة لقمان بأنه يعرض عن القرآن إذا سمعه غير منتفع به، حتى كأنه لم يسمعه، ويستمر به هذا الحال كما يستمر بمن به صمم، وقوله في الجاثية: ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ يدل على ما دل عليه ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾، لأن الاصرار عزم لا يتهم معه بإقلاع فإذا اصر على التصامّ فهو كمن في أذنيه وقر، فصار احد اللفظين يغني عن الاخر ويقوم مقامه، ويؤدي من المعنى أداءه فلذلك لم يجمع بينهما وكان الموضع الذي ذكر فيه: ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ احق بقوله: ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾، والموضع الذي ذكر فيه الإصرار على ترك الاستماع اغنى عن ذكر ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾[٣].

والكرماني يعلل الاختلاف إلى المبالغة في تشنيع النضر بن الحارث في آية لقمان لأنها نزلت فيه وهو يحدث قريشاً بأحاديث الاعاجم وكتاب كليلة ودمنة وأخبار الأكاسرة وأحاديث رستم واسفنديار حتى يشغلهم عن استماع القرآن، واما آية الجاثية فلم يبالغ فيها كثيرا وجاء بعدها ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾ /٩ لأن العلم لا

---

(١) ينظر: م.ن /٦/١٦٧.

(٢) تفسير غرائب القرآن: ٥/٤٢٣.

(٣) درة التنزيل/٣٠٠.

يحصل الا بالسماع أو ما يقوم مقامه من خط وغيره[١].

ويقول ابن الزبير: (انه تقدم آية الجاثية وصفه بسماع الآيات ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا ﴾ فلم يكن ليطابقه ذكر الوقر في الاذن لأنه قد ذكر سماعه للآيات والوقر مانع من السمع فلم يناسب الاعلام بالسماع ذكر الوقر المانع منه، اما آية لقمان فلم يقع ذكر سماع الآيات، كما تقدم ذكر المشار اليهم بقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ لقمان/٦ وهذه زيادة مرتكب فناسبها ذكر زيادة الوقر، مع انه لم يرد فيها ذكر سماع الآيات كما ورد في آية الجاثية[٢].

اقول: لو رجعنا إلى معنى (افاك) لعلمنا انه يتناسب مع لفظة يصرّ مستكبرا، فالافك: كل مصروف عن وجهه الذي يحق ان يكون عليه قال تعالى: ﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ أي يصرفون عن الحق في الاعتقاد إلى الباطل ومن الصدق في المقال إلى الكذب ومن الجميل في الفعل إلى القبح ومنه قوله تعالى: ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ ﴾ - (أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ).. وأفك يؤفك: صرف عقله ورجل مأفوك العقل[٣]. وافاك صيغة مبالغة على وزن فعال فهذا الرجل هو كثير الافك في الاعتقاد، لأن عقيدته هي عبادة الاصنام وهو كثير الكذب في المقال وقبيح التصرف في الافعال فقد جمع بين عقيدة باطلة وكذب في حديثه لأنه كان يروي احاديث الاعاجم من الاكاسرة من رستم واسفنديار ومن قصص كليلة ودمنة لتتناسب مع قوة الفعل يصر الذي هو عزم لا يرجى من ان يتراجع من فعله وكذلك تناسبه مع سياق الآية التي تليها: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ الذي هو استفهام استنكاري تعجبي.

فالرجل كان يسمع آيات الله عز وجل في سورة الجاثية بدليل قوله تعالى: ﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ ﴾ لكن استكباره يضطره على الاصرار في عدم السماع فكأنما

(١) البرهان في متشابه القرآن/٢٧٢.

(٢) ملاك التأويل ٢/٩٤١ - ٩٤٢.

(٣) المفردات في غريب القرآن/ ٢٨ - ٢٩.

لم يسمعها وهذا غير مناسب الذكر ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾، لأن الذي في اذنيه الوقر لا يسمع وبدليل قوله تعالى بعد الآية ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ أي قد سمع بعض آيات الله تعالى.

اما آية لقمان فإن الرجل ما كان يريد السماع اصلا فهو بمجرد بدء التلاوة يتولى ويبتعد عنها معرضا بدليل تخفيف (كأن) في قوله تعالى: ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ وحذف اسمها ليكون السياق واللفظ دالاً على مناه عن سماع آيات الله عز وجل فضلا عن ان الله تعالى جاء بالضمير وهو الهاء في (ويتخذها هزوا) دون ذكر الآيات، فهو اذن كان لا يريد سماعها فحاله كحال من في اذنيه الثقل وهو الاصم. كما ان لفظة (ولى) تدل على الذهاب حين النطق بأول حرف من القرآن الكريم، اذن ناسبت الجملة ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ مع سياق آية لقمان؛ لأن السياق كله مشعر بعدم السماع. ولهذا جاءت ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ في موضعها المناسب لها ولو عكست لتغير النظم واختل البناء.

٤- ذكر شبه الجملة وحذفها

بعد ان استعرضنا الذكر والحذف في الحروف والاسماء وفي الجمل اذكر جزءا اخر منه وهو حذف أو ذكر شبه الجملة وهو متعلق بالجار والمجرور لأني لم ار ظرفا مذكورا في آية ومحذوفا في آية متشابهة. ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ﴾ النساء/٤٣.

وقوله تعالى: ﴿ فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ﴾ المائدة/٦.

في هاتين الايتين المتشابهتين ذكر الجار والمجرور (منه) في المائدة وحذف في النساء.

ويرى الكرماني ان الايتين في احكام الوضوء وان آية النساء ورد فيها بعض احكامه فحسن الحذف، وان آية المائدة ورد فيها جميع الاحكام الخاصة بالوضوء فحسن الذكر فهو يقول: قوله تعالى: (فأمسحوا بوجوهكم وأيديكم) في هذه السورة وزاد في المائدة (منه)، لأن المذكور في هذه السورة بعض احكام الوضوء وهو التيمم فحسن الحذف والمذكور في المائدة جميع احكامها فحسن الاثبات

والبيان)[١].

اما ابن الزبير فيرى ان آية المائدة اختصت بالزيادة لتأخرها في ترتيب المصحف فالمتأخر يكون بيانا للمتقدم والبيان يتأخر مما هو بيان له فجاء على ما يجب)[٢].

وامّا ابن جماعة والانصاري فقد وافقا رأي الكرماني[٣].

وبذكر الرازي سبب زيادة المائدة ان كلمة (من) في (منه) للتبعيض وهذا لا يتأتى في الصخر الذي لا تراب عليه فإن قيل: إنّ كلمة (من) لابتداء الغاية، قال (صاحب الكشاف: لا يفهم احد من العرب من قول القائل مسحت برأسه من الدهن ومن الماء ومن التراب الا معنى للتبعيض)[٤].

اما ابو حيان فقال: ان لفظة (منه) دلالة على ايصال شيء من الصعيد إلى الوجه واليدين، فلا يجوز التيمم بما لا يعلق اليد كالحجر والخشب والرمل العاري عن ان يعلق شيء منه باليد فيصل إلى الوجه وهذا مذهب الامام الشافعي[٥].

روي ان سبب نزول آية النساء ان اصحاب رسول الله ﷺ اصابتهم جراحة ففشت فيهم ثم ابتلوا بالجنابة فشكو ذلك فنزلت هذه الآية[٦] وروي كذلك ان جابر بن عبد الله قال: (خرجنا في سفر فأصاب رجلا منا حجر في رأسه فشجه ثم احتلم، فقال لأصحابه: هل تجدون لي رخصة في التيمم فقالوا: ما نجد لك رخصة وانت تقدر على الماء فاغتسل فمات فلما قدمنا على النبي صلى الله عليه وسلم اخبر بذلك فقال قتلوه قتلهم الله ألا سألوا اذ لم يعلموا فإنما شفاء العِيّ السؤال: إنما كان يكفيه ان يتيمم، أو يعصب جرحه خرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده)[٧].

---

(١) البرهان في متشابه القرآن /١٤٠.

(٢) بنظر ملاك التأويل ٣٤٤/١.

(٣) بنظر كشف المعاني /٨٣٠ وفتح الرحمن/ ٦٩.

(٤) التفسير الكبير ٢١٧/٥.

(٥) البحر المحيط ٣٧٣/٤.

(٦) احكام القرآن ٥٢٢/١.

(٧) رواه ابو داود في الطهارة ١٢٥ وابن ماجه في الطهارة ١٣ وأحمد ٢٧٠/١.

واما آية المائدة فقد نزلت في غزوة بني المصطلق أو المريسيع عند فَقْد عائشة عقدها. وقالت عائشة (رضي الله عنها) قالت خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض اسفاره حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقد لي فأقام رسول الله ﷺ على التماسه واقام الناس معه وليسوا على ماء فاتى الناس إلى أبي بكر الصديق فقالوا الا ترى ما صنعت عائشة اقامت برسول الله صلى الله عليه وسلم والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء فجاء ابو بكر الصديق واضع راسه على فخذي قد نام فقال حبست رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس وليس معهم ماء فقالت عائشة فعاتبني ابو بكر وقال ما شاء الله ان يقول وجعل يطعنني بيده في خاصرتي فلا يمنعني من التحرك الا مكان رسول الله على فخذي فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اصبح على غير ماء فأنزل الله آية التيمم فتيمموا فقال اسيد بن الحضير ما هي بأول بركتكم يا آل ابي بكر قالت فبعثنا البعير الذي كنت عليه فأصبنا العقد تحته[1].

في هذه الاحاديث وغيرها في موضوع التيمم لم اجد جوابا صريحا في أي الايتين كان قول عائشة ولذلك يقول ابن العربي: (ولقد عجبت من البخاري في كتاب التفسير في سورة النساء على الآية التي ذكر فيها التيمم وادخل حديث عائشة فقال: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ وبوّب في سورة المائدة فقال: باب فلم تجدوا ماءً وادخل حديث عائشة بعينه وإنما اراد ان يدل على ان الايتين تحتمل كل واحدة منها قصة عائشة[2].

والراجح ان حديث عائشة رضي الله عنها في آية المائدة والاحاديث السابقة كانت في آية النساء بدليل قول الرسول ﷺ: (وإنما كان يكفيه ان يتيمم) دون تفصيل لأركانه كما في الاحاديث الاخرى[3]. مثل قوله ﷺ لعمار حين قال: اجنبت فلم اصب الماء، فتمعكت (أي تمرغت أو تقلبت) في الصعيد، وصليت، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: (إنما كان يكفيك هذا وضرب النبي صلى الله عليه

(١) رواه البخاري١/٩١ باب التيمم.

(٢) احكام القرآن ١/٥٢٣ لابن العربي.

(٣) ينظر: م.ن ١/٥١٣.

وسلم بكفيه الارض ونفخ فيهما ثم مسح بهما وجهه وكفيه)[١].

والذي يعنينا من هذا ان آية النساء نزلت أولا لأنها عامة كالوضوء ولأن لفظة الصعيد تعني وجه الارض سواء كان ترابا أو غيره وان كان في لفظة الصعيد تلميح إلى التراب؛ لأن الصعيد يقال للغبار الذي يصعد من الصعود[٢].

فزيادة (منه) أي من التراب وليس من غيره. ولذلك ناسبت هذه اللفظة للتبيان والتوضيح، أي ان آية النساء مجملة وآية المائدة مفصلة لتفصيل الوضوء، فلا بد من ان يتم معنى الوضوء أو رفع الحدث سواء كان صغيرا ام كبيرا بالوضوء ام بالتيمم.

---

(١) رواه البخاري ٩١/١ باب التيمم.

(٢) المفردات في غريب القرآن /٢٨٤.

الفصل السادس

تحولات النظم القرآني في الآيات المتشابهة التامة التطابق في اللفظ دون المعنى

وردت في القرآن الكريم آيات متشابهة بنصها دون زيادة أو نقصان وليس فيها تقديم أو تأخير في حروفها أو عباراتها جاءت بعضها في سورة واحدة، وأخرى في سورتين، وثالثة في أكثر من سورتين.

فما السر في إعادة النص من موضع إلى موضع ومن سورة إلى سورة؟ المتأمل يرى في هذا التحول حكما بيانية وبلاغية وأسرارا في نظمها ودقة في وصفها في مواضعها، وهذا ما يتحكم به السياق للآيات التي قبلها أو بعدها لأنه إذا كان للمفردة القرآنية معانٍ عند وضعها في مكان تختلف عنها في مكان آخر، فكذلك الجملة القرآنية تختلف من موضع إلى آخر وهذا ما سنستنتجه من خلال عرضنا لبعض هذه الآيات سواء في سورة واحدة أو في سورتين أو في أكثر من سورتين.

أ. في سورة واحدة

- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ البقرة: ١٣٤-١٤١.

وقد وردت هذه الآية مرتين في سورة البقرة ولكل مرة مغزاها ومعناها وكما بينا سابقاً إن إعادة آية بنصها لا يقصد بها تكرار في اللفظ والمعنى كما يوحي لفظ التكرار، لأنّ كتاب الله منزه عن ذلك، وإن كان في العربية أنه يفيد التوكيد والإفهام، لكن في القرآن الكريم إذا أعيدت آية فمن ورائها معانٍ دقيقة ومقاصد خفية يخرجها السياق العام قبل الآية أو بعدها وهذا ما يوضحه لنا الخطيب الإسكافي في توضحيه لهاتين الآيتين الكريمتين، فهو يقول: (عن فائدة تكرار الآية في أول هذه

العشر وفي آخرها وفي أنها ذكرت بعد الأول في قوله تعالى: ﴿**أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(١٣٣)تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ**﴾ ومعناه: أن إسرائيل قرر بنيه على عبادتهم التي ثبتت عندهم ووصاهم بها فقال تعالى لهؤلاء: أتنفون ما ثبت من وصية يعقوب عليه السلام... والأمة قد انقضت وحالها في عبادتها قد ثبتت، ومن نفى ما ثبت من الدين فقد دخل في الكفر، فهذه الآية الأولى عقب ما ثبت من تقرير يعقوب عليه السلام بنيه وإقرارهم له، وهذه الآية كررت بعينها بعد قوله تعالى: ﴿**أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ**﴾ : أم أنتم مثبتون ما هو منتف؟ ومن أثبت في الدين ما ليس فيه من هذا البهتان العظيم فهو في الإثم كمن نفى عنه ما هو منه، ففي الأول نفى ما هو ثابت من إقرار بني إسرائيل وفي الثاني إثبات ما هو منفي من كون إبراهيم وإسماعيل هوداً أو نصارى، وكل واحد من هذين يوجب من البراءة ويستحق به من غلظ الوعيد والتخويف بالعقاب، والتنبيه على الكبيرة التي تحبط الحسنات مثل ما يوجبه الآخر، فلذلك أعيد في الدعوة الثانية الباطلة ما قدم في الدعوة الأولى الكاذبة، فكما استحقت تلك براءة الذمة من قائلها وتنبيهه على فساد قوله، كذلك استحقت هذه فصارت الثانية في مكانها، وحقها كما وقعت الأولى في محلها ومستحقها، فلم يكن ذلك تكراراً بل كان وعيداً عقب كبيرة كما كان الأول وعيداً عقب كبيرة أخرى غير الثانية[1].

لو أخذنا رأي الإسكافي على ظاهره في قوله: (عن فائدة تكرار الآية في أول هذه العشر وفي آخرها) وفي قوله: (وهذه الآية كررت بعينها بعد قوله تعالى: (أم تقولون...) وبين قوله: (فلم يكن ذلك تكراراً بل كان وعيداً) لتبيّن لنا أن ثمة تناقضاً بين أقواله فمرة يقول: تكرار الآية... وهذه الآية كررت بعينها) وبين قوله: (لم يكن ذلك تكراراً).

أرى أنه ليس هناك أي تناقض فيقصد في المرة الأولى: (عن فائدة تكرار الآية وفي المرة الثانية: (وهذه الآية كررت) إعادة الآية بنصها من حيث اللفظ دون

(١) درة التنزيل: ٢٦ - ٢٧.

المعنى، وفي المرة الثالثة: (فلم يكن ذلك تكراراً) أي أن الآية أعيدت من حيث اللفظ وقد اختلف القصد وتباين المعنى لأن السياق يستوجب ذلك فإذن لا تكرار في هذه الآية.

أما الكرماني فيعلل ذلك بقوله: (المراد بالأول الأنبياء وبالثاني أسلاف اليهود والنصارى أي: لإثبات ملة إبراهيم لهم جميعاً أولاً وثانياً لنفي اليهودية والنصرانية عنهم)[١] وهو نفس توجيه الإسكافي وقد نقل ابن جماعة توجيه الإسكافي كذلك ولكن باختلاف الأسلوب[٢].

وأما الأنصاري فقد وافق أيضاً على رأي الإسكافي ولكنه أضاف شيئاً آخر وهو أن الخطاب في الأول لأسلاف اليهود والنصارى وفي الثانية تحذير لنا عن الاقتداء بهم[٣].

وابن الزبير يرى أن الآية الأولى ظن هؤلاء من اليهود والنصارى أن تعلقهم بأسلافهم نافع لهم قيل لهم لن ينفعكم إلا عملكم، وأما التعلق بأولئك من غير اقتداء بهم فليس بنافع لهم... فتكرير الآية لتنوع ما نص عليه من مرتكباتهم الدائرة على جامع واحد من تخيل التعلق بهم مع مخالفتهم فيما كانوا عليهم[٤].

والمتأمل يرى أن سياق الآيتين مختلف فقبل الآية الأولى ركز على إسلام إبراهيم وإسماعيل ودعائهما بأن يجعلهما رب العالمين مسلمين، وكذلك من ذريتهما أمة مسلمة وطعن في من يرفض دين إبراهيم، وبعد إقرار هؤلاء اليهود والنصارى بتوصية إبراهيم ويعقوب لأولادهم وعدم مشاهدة هؤلاء يعقوب حين وصى أولاده وكذلك إبراهيم جاءت (تلك أمة قد خلت...) أي لما ثبت أن إبراهيم ويعقوب عليهما السلام كانا مسلمين ولهما ما كسبا من الأجر والثواب وعليكم الذنوب والأوزار لمخالفتكم إياهم، فأنتم لا تسألون عما عملوا بل هم يسألون زيادة في تحقيركم وتهديداً لكم لجرائمكم.

أما الآية الثانية فقد أضيف على الأمة السابقة موسى وعيسى وذكرا هنا

---

(١) البرهان في متشابه القرآن/١١٨.

(٢) ينظر: كشف المعاني/٦٥.

(٣) ينظر: فتح الرحمن/٣٣.

(٤) ينظر: ملاك التاويل ١/٢٣٨.

لادعائهم أنهم على دين هذين النبيين، وكذلك أضيف ما أوتيَ النبيون أي من بين إبراهيم إلى موسى وعيسى عليهما السلام فضلاً عن ادعائهم أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى، فلما أضاف في سياق الآية أمماً أخرى كانت الآية التي أعقبتها مزيدة عن الآية الأولى من حيث المقاصد والمعاني فإذن اختلفتا في المعنى واتفقتا في اللفظ ولهذا لا نقول إنها تكرار، وإنما هي من المتشابه اللفظي تام التطابق لأن من معاني المتشابه أن يكون نوع من اللبس والإشكال، ولهذا فلا يدرك معناهما بدقة إلا من وفقه الله تعالى لإزالة الغموض أو الإشكال فلو كانت الآيات تكراراً لما كان هناك من زيادة معنى أو معاني بين الأولى والثانية ولكان تطابقاً تاماً بين معنى الآيتين وحاشا لله أن يذكر أو يعيد لفظاً أو عبارة هي نفسها.

- ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ الشعراء/ ٨-٦٧-١٠٢-١٢١-١٣٩-١٥٨-١٧٤-١٩٠.

هذه آية كريمة أعيد نصها ثماني مرات عقب كل قصة من قصص الأنبياء السبعة لتكون تسلية للرسول ﷺ لعدم إيمان قومه، وقد أشار إلى ذلك سياق الآيات في بداية السورة ونهايتها لقوله تعالى: ﴿**لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ**﴾ ٣-٤ وقوله: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ**﴾ ١٦٤.

سؤال يطرح نفسه لماذا وردت هذه الآية بنصها ثماني مرات وهل تعدّ إعادتها تكراراً كما تقول إحدى الباحثات!؟[1].

لنلقي نظرة على ألفاظ هذه الآية بعد ورود قصة كل نبي في هذه السورة ولنرى اسم الإشارة في كل نص يعود إلى من؟ وبعد ذلك نستطيع أن نعرف أن هذه مكررة أم هي من المتشابه اللفظي التام التطابق.

أول ورود لهذه الآية جاء بعد قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ**﴾ ٧ وتأتي بعدها مباشرة (إن في ذلك) أي أن الإنبات وما

---

(١) ينظر: التكرار التركيبي في القرآن الكريم - دراسة دلالية - ، منال صلاح الدين عزيز، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الموصل ١٩٩٨، ص٣٨.

في الأرض من كل زوج كريم علامة دالة على وحدانية الله وإبداعه لهذا الكون. والمشار إليه هو المذكور من الأرض وما فيها من الإنبات وتنويعه إلى زوجين وما في تلك الأزواج من منافع لا تعد ولا تحصى.

لما دعا الرسول ﷺ قومه إلى الإيمان بالله تعالى، وبالبعث بعد الموت وبتصديق ما جاء به من عند الله فكذبوا به انتقل إلى إلفات نظرهم إلى كيفية إنبات النباتات وجعلها أزواجاً لتدلهم على وحدانيته سبحانه، وألمح بأنه سبحانه إذا أنزل عليهم آية ستكون أعناقهم لها خاضعين تحت سلطان الجبروت والقهر ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرحمن مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون * أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ الشعراء ٤-٩، كما وضحتها الآيات اللاحقة في الأمم الماضية عندما رأوا آيات أنبيائهم ومعجزاتهم المادية فأخذ كلا منها بعذاب يستحقه. ثم انتقل في الآية (إنّ في ذلك) بإعراض قومه ﷺ وتكذيبهم له مع تضمين الآية نفسها تهديداً ووعيداً إن أعرضوا وكذبوا. فإذن اسم الإشارة يعود هنا على النبات ومن ثم نأتي إلى النص المعاد للمرة الثانية فقد جاء بعد سرد قصة موسى عليه السلام مع فرعون والسحرة وإسراء موسى ببني إسرائيل ومجيئهم إلى البحر وانفلاقه إلى فرق وكل منها كالطود العظيم، وإنجاء موسى عليه السلام ومن معه من بني إسرائيل وإغراق فرعون وجنده، فكان سياق الآيات قبل هذه الآية (إن في ذلك لآية) يوحي إلى أن المشار إليه باسم الإشارة (ذلك) هو انجاء موسى وإغراق فرعون وجنده ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ٦٣-٦٧. وإذا انتقلنا إلى النص المعاد للمرة الثالثة لوجدناه عقب قصة إبراهيم مع أبيه وقومه وحواره معهم ودعوته إلى نبذ الأصنام والأوثان لأنها لا تنفع ولا تضر وصرف أعينهم إلى الإله الواحد الذي خلق وهدى وأطعم وسقى وأمرض فأشفى والذي أمات وأحيا، فجاء النص بعد مقولة قوم إبراهيم وهم يختصمون في النار وما رأوا أنفسهم في ضلال مبين فلا شافع لهم ولا صديق حميم فتمنوا أن يردوا إلى الحياة ليكونوا مؤمنين إذاً المشار إليه هنا نجاة

إبراهيم وتعذيب المكذبين ﴿وَأُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتْ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ * وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ * فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ * قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ٩٠-١٠٣. وإذا ما جئنا إلى النص المعاد للمرة الرابعة لوجدناه في قوم نوح عليه السلام وجاء عقب قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ(١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ فالمشار إليه انجاء نوح ومن معه وإغراق الباقين. وإذا جئنا إلى النص المعاد للمرة الخامسة لوجدناه جاء في قصة هود بعد قوله تعالى: (فكذبوه فأهلكناهم). فالمشار إليه إهلاك قوم هود وانجاؤه. وإذا نظرنا إلى النص المعاد للمرة السادسة لعلمنا أنه جاء في قصة قوم صالح عليه السلام بعد قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ فَأَخَذَهُمْ الْعَذَابُ﴾ فالمشار إليه هنا (أخذهم العذاب) وانجاء صالح عليه السلام ولو ذهبنا إلى النص المعاد للمرة السابعة فإنه جاء في قصة قوم لوط عليه السلام وبعد قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ فالمشار إليه هو انجاء لوط وأهله إلا عجوزاً وتدميرهم بمطر فساء مطرهم.

والنص المعاد للمرة الثامنة جاء في قصة شعيب وعقب قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فالمشار إليه انجاء شعيب وتعذيب قومه يوم الظلة.

إذن إنّ اسم الإشارة (ذلك) يشير في كل مرة إلى نبي قد نجا وقوم أصبحوا هلكى. أفلا يدل ذلك على أن اسم الإشارة (ذلك) في الآيات الكريمات قد اختلف حسب المشار إليه فكيف يكون هذا تكراراً؟

ومن هنا لما اختلف القصد وتباين المعنى في المشار إليه حتماً سيتغير مدلول (ذلك) وإذا ما تغير المشار به والمشار إليه فقد خرج النص عن التكرار المتعارف عند النحويين والبلاغيين، ولذلك أقول إن الآية ليست من التكرار وإنما هي من المتشابه اللفظي التام التطابق ولا سيما إيماء لفظة المتشابه إلى التماثل والتشابه والتباس اللفظ في مقصوده. ومن جهة أخرى تركيز بداية السورة على

الكتاب المبين وفي آخر القصص قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١٩٢ وقوله: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ٢٠١.

أما قول الباحثة: "فليس ثمة أي اختلاف يمكن أن يذكر في الأنساق السبعة التي ختم بها الكلام على قصص الأنبياء السبعة"[1] فمجافٍ للحقيقة التي في هذه القصص فهل إغراق قوم نوح بالطوفان هو الإغراق نفسه لفرعون!؟ وهل تعذيب قوم شعيب بيوم الظلة هو التعذيب نفسه لثمود قوم صالح!! أو أن إمطار العذاب على قوم لوط هو العذاب نفسه لعاد وقوم هود وهل أن الأزمنة والأمكنة واحدة؟ أو أن الأشخاص الذين عذبوا هم الأشخاص في كل قصة فإذا اختلف كل هؤلاء فلا بد أن يختلف مغزى الآية في كل مرة إذاً فلا تكرار.

والتكرار الذي وقع في قصصهم يؤكد وحدة في الدعوة ووحدة مصائر مكذبيهم... وكل المقولات المكررة المتطابقة التي جرت على ألسنة أولئك الرسل سلام الله عليهم وصلواته توحي بصدقهم وتثبت التصديق بهم، وهذا لا يعني نفي الاختلاف في الزمان والمكان والأشخاص والأحداث التي جاءت في الآية الكريمة المعادة ثماني مرات. وأرى أنه لا تكرار في هذه الآية الكريمة ما دام قد اختلف معناها بعد كل قصة وتغير حدثها بعد قصة كل نبي. وسبحان من نظم هذا الكتاب ومن اتساقه في كل حرف وفي كل كلمة وفي كل عبارة فجاء كل منها في موضعه المناسب.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ القصص /٦٢، ٧٤ هذه آية قد أعيد نَصُّها في السورة نفسها بعد عشر آيات إذا أردت أن تعرف أنهما من المتشابه اللفظي التام النطاق علينا أن نلقي نظرة دقيقة في كل منهما ليتميز الفرق بينهما من حيث الدلالة واختلاف القصد.

فالآية الأولى جاء قبلها قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٥٧.

---

(١) التكرار التركيبي في القرآن الكريم - دراسة دلالية - (أطروحة دكتوراه)، ص٣٨.

اعتذر بعض من كفار مكة عن عدم إيمانهم بالرسول ﷺ بمعاذير واهية وأسباب منحرفة عن الدين القويم والصراط المستقيم لما لهم من إيمان سقيم بالإله العظيم لخشيتهم ممن حولهم من قبائل العرب الكثيرة على أمنهم ورزقهم، ولهذا رد الله تعالى عليهم معاذيرهم وألزمهم الحجة والبرهان على ما هم عليه على الرغم من شركهم بالله تعالى بأن منحهم الأمان ووفر لهم رزقهم من كل مكان، فكيف إذا آمنوا بالواحد الديان الذي بيده أرزاق المخلوقات والأنس والجان، وقد عبر الله عزوجل بصيغة الاستفهام الإنكاري فهو إنكار أن يكون الله لم يمكن لهم حرماً آمناً وكأنما أنكروا أن ذلك الأمان ليس من تمكين الله تعالى لهم. وهذا يستوجب توبيخاً لهم وذلك لقولهم: (إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) وهذا ما هم عليه من أمان بحيث اعتقدوا إن اتبعوا الهدى يتخطفون والتخطف/ انتزاع الشيء بسرعة أي أنهم سيسلبُ الأمن والرزق منهم ولهذا صحح الله هذه العقيدة بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ ونلمح في (من لدنا) أن هذا الرزق خاص بهم لأنهم في أشرف مكان خاص بالله تعالى.

قال ابن عاشور: (وقد حصل في خلال الرد لقولهم إدماج للامتنان عليهم بهذه النعمة ليحصل لهم واذعان عن الكفر بالمنعم (وازع أبطال معذرتهم عن الكفر، ووازع التذكير بنعمة المكفور به)[1] وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ...﴾ أي أن هذه النعمة من الله سبحانه لأنهم اعتقدوا أن هذه النعمة الممنوحة لهم القبائل المجاورة لهم، وإن أسلموا سُلبت منهم أي هم جهلة بمن منح لهم نعمة الأمن والرزق. ثم بعد ذلك بيّن لهم أن هذا الإنكار والتقريع لأنه لما أخبرهم بأنه القادر على أن يؤمنهم ويرزقهم وإنْ كانوا قلّة عالة إن آمنوا اتبعها بأنه مقتدر على إهلاكهم وان كانوا أقوياء إذا كفروا ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ (القصص/٥٨) فلما عطف هذه الجملة على التي قبلها إشعاراً بالانتقام وذلك كالأمم الأخرى التي كفرت بنعم الله عزوجل فهذا تخويف لأهل مكة من سوء عاقبتهم إذا استمروا في عنادهم وكفرهم. واستعمال لفظة (بطرت) توحي بإنكار الشكر لمن أسدى إليك من

(١) التحرير والتنوير ٢٠/١٤٨.

الخير. واسم الإشارة (تلك) دال على مساكنهم التي لم تسكن من بعدهم قليلاً كناية عن الانقراض والاستئصال. ولفظة قليلاً توحي بعدم السكن الدائم (وكنا نحن الوارثين) وهي كناية عن حرمان هذه المساكن من ساكنيها ونحن الوارثون الحقيقي لها، وهي تومئ إلى سخط الله تعالى بحيث تجاوز الساكنين إلى هذه المنازل لأن زينتها بالإقامة فيها وهذا البطر أي الأشر بمعنى قلة احتمال النعمة والدهش والحيرة والطغيان بالنعمة[1] كان سبباً في إهلاك كثير من القرى لأن من معاني البطر الكفر مع التكبر الذي يستلزم بأن لا يعترف بفضل من يجود عليه، ثم بين سبحانه أنه لا يهلك أحداً ولا قرية حتى يرسل رسولاً في القرية الكبرى، لأن القرى تابعة لها وفيها ينتشر الخبر إلى ما حولها ولأنها أكثر حضارة من غيرها وأكثر نفعاً للأمور من البوادي والقرى التابعة لها، وإذا ما أُهلكت علم الناس كلهم بخبرها ومن ثم الأجيال اللاحقة. وإسناد خبر الإهلاك إلى الله تعالى بقوله: (وما كان ربك ليهلك القرى) إشارة إلى أهل مكة. ثم بيّن السبب الرئيس الذي تتبعه الأسباب الأخرى في إهلاك الأمم وهو الظلم الذي يعني به (الشرك) كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان/١٣ وهو في قوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (القصص/٥٩) حيث أكد الإهلاك بالنفي والحصر بأداة الاستثناء والنفي ليدل على أن الإهلاك حاصل بالظلم لا مفر منه. ومع هذا الانحراف في عقيدة المشركين جدلاً لو استمرت نعمة الأمن والرزق التي جعلوها غاية لهم أعقبها تعالى بقوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ٦٠ أي أن كل ما أوتيتم من متاع الحياة الدنيا من نعمة الأمن ووفرة الرزق ومن زينتها من الأموال والأولاد فليست هذه هي الغاية الرئيسة ولا النهائية، لأن المتاع ما يلتذ به زمناً ثم يزول، وإنما الغاية الحقيقية هي النعيم الأبدي ولا يمكن الحصول عليه إلا بترك الألوهية لغير الله تعالى وتوحيده والإيمان بما جاء به الرسول ﷺ وقد استفهم استفهاماً توبيخياً لضعف عقول هؤلاء المخاطبين فهم لم يستدلوا بها فكأنما أفسدوها ثم تأتي الآية الأخرى قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ

(١) ينظر: نظم الدرر ٥/٥٠٦.

الْمُحْضَرِينَ﴾ (القصص/٦١) لما ذكر الله تعالى نعيم الدنيا الذي يتفاخر به المشركون قابله نعيم الآخر بقوله (وما عند الله) فجعل نعيم الدنيا إلى زوال ونعيم الآخرة أبدي من غير زوال فجاءت الآية بمقابلة النعيم الموعود بالوعد الحسن ثم أكده بجملة (فهو لاقيه) لتدل على الاستمرارية والخلود للمؤمنين لأن (مَنْ) الأولى عائدة إليهم و(من) الثانية عائدة إلى المشركين، والاستفهام في إنكار المشابهة ونفيها، أي أن الجماعتين المؤمنين والكافرين ليسوا سواءً، لأن الأولين نعيمهم آجل باقٍ والآخرين نعيمهم فإن زائل. و(ثم هو يوم القيامة من المحضرين) للإجابة عن اتخاذهم شركاء لله ليشفعوا لهم فإذا هم لا يجدونهم يوم يحضرون للعذاب. فجاء قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ فالواو: واو العطف، وجملة (يوم يناديهم) عطفت على يوم القيامة أي أن هذا اليوم هو يوم القيامة بعينه قال ابن عاشور: (فيكون (يوم يناديهم) عين (يوم القيامة) فعدل عن الإبدال إلى العطف لاختلاف حال ذلك اليوم باختلاف العنوان فنزل منزلة يوم مغاير زيادة في تهويل ذلك اليوم)[1] ثم استعمل استفهاماً إنكارياً بأداة الاستفهام (أين) التي تفيد المكان ولكنها نفت وجود هؤلاء الشركاء من الأوثان وغيرها، وقد حُذف مفعولا تزعمون دل عليهما قوله تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي زعمتموهم شركاء فلما سئل هؤلاء المشركون فكان لا بد من الجواب أن ينفعهم الجواب فأجاب بعض المنادين وبخاصة أئمة الكفر من أهل مكة كأبي جهل وأمية بن خلف أصنامهم وأوثانهم، لأنهم في اعتقادهم أن السؤال موجه إليهم فاعترفوا بقولهم ﴿ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ في الآية مناداة للاستعطاف، وحذف حرف النداء لتكون الاستجابة أقرب وقد اعترفوا بإغوائهم هؤلاء عسى أن يكون اعترافهم سبباً في نجاتهم من العذاب أو يخفف عنهم، وهنا تقدم المفعول على فعله في (هؤلاء الذين) للتهرب من المسؤولية التي كانوا هم سبباً لإغواء هؤلاء وللتنصل من أنهم ليسوا مبتدعين للشرك، وإنما تلقوه من أسلافهم وتأكد المعنى بإعادة الجملة الفعلية (أغويناهم) وبقصد الاهتمام بإجماله في المرة الأولى وتفصيله في المرة الثانية.

---

(١) التحرير والتنور ١٥٦/٢٠.

ووجه الشبه في (أغويناهم كما غوينا) أي أننا أغوينا هؤلاء مثل الذي قد أغوونا قال ابن عاشور: (ووجه الشبه في أنهم تلقوا الغواية من غيرهم فأفاد التشبيه أن المجيبين أغواهم مغوون قبلهم وهم يحسبون هذا الجواب يدفع التبعة عنهم)[١] ويمكن أن يكون المعنى أننا أغوينا هؤلاء لأننا كنا غاوين حتى نكون في الغي سواءً لأن عبارة (كما غوينا) تدل على أنهم كانوا غاوين وهم قد تبرأوا منهم وقدموا المفعول (إيانا) على الفعل لإبعاد العبادة عن أنفسهم مع رعاية الفاصلة.

وإذا ما انتقلنا إلى سياق النص الثاني لوجدنا أنه قيل لهم أي للمشركين ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ ٦٤ وهنا فعل الأمر (ادعوا) لتبيان ضلالهم في واقع حالهم ولأطماعهم ثم تيئيسهم لأنهم كانوا يزعمون انهم شفعاء عند الله تعالى.

وقيل الرؤية بصرية والعذاب عذاب الآخرة والواو حالية أو رؤية قلبية فحيئنذ حذف المفعول الثاني أي حائقاً بهم والواو للعطف أو الحال أو أن تكون (لو) للتمني المستعمل في التحسر عليهم أو أن يكون المراد بالعذاب عذاب الدنيا والكلام على حذف مضاف تقديره ورأوا آثار العذاب، والرؤية بصرية أي وهم رأوا العذاب في حياتهم أي رأوا آثار عذاب الأمم الذين كذبوا الرسل[٢].

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ * فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ ٦٥-٦٦ أي فيسأل هؤلاء ما جوابكم حين دعاكم المرسلون إلى نبذ الشركاء والإقرار بوحدانية الله تعالى؟ استفهام يشعر بتوبيخهم وإقرارهم على أنفسهم على رؤوس الأشهاد زيادة في احتقارهم فهم في هذا الموقف لم يتكلموا ولم ينتدب كبراؤهم للجواب كجوابهم في تلقي السؤال في الموقف السابق وقد خفيت عليهم الأخبار ولم يهتدوا إلى جواب مقنع فسكتوا لشدة الفزع والخوف فلا يسأل بعضهم بعضاً. وجاء قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ ٦٧ والتوبة إقلاع عن الشرك ورجوع إلى الله تعالى فلا يكفي أن يتوب بدون إيمان وعمل صالح، لأن قسماً من المشركين كانوا يعرفون

(١) التحرير والتنور ٢٠/١٥٨.

(٢) ينظر التحرير والتنور ٢٠/١٦٠ - ١٦١.

بطلان دينهم ولكن كبرياءهم منعهم من الاعتقاد بعقيدة الإسلام، والله سبحانه يخلق ما يشاء من مخلوقات ويختار من بينهم ما يشاء للذي يصلحهم ديناً ودنياً ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ / الأنعام/١٢٤.

وتنزه رب العزة وتعالى عن كل ما يجعل له نداً أو شريكاً وهو يعلم ما تخفي صدروهم وما يعلنون من الأقوال والأفعال: ﴿وَهُوَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ /٧٠ والله اسم جامع لمعاني الكمال جميعها وله الحمد من قبل المشركين والمؤمنين في الدنيا والاخرة وله الحكم في الدارين وإليه ترجعون أي ستعودون إليه في الآخرة والغاية إلزامهم الإيمان ببعث الناس يوم القيامة.

ثم يدلل على وحدانيته بضرب مثل في تعاقب الليل والنار فلو جعل الليل سرمداً أو النهار لما اتضح الدليل كتوضيح تعاقبهما، ثم بين جزءاً من رحمته في جعل الليل سكناً والنهار ابتغاءً من فضله وبعد ذلك جاء قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ والآن بعد ما اتضح معنى السياقين لنا فلنقارن بينهما لنعلم أن النص الثاني وان كان متحداً في ألفاظه مع النص الأول لكنه اختلف معه في الدلالات والمعاني ومن أهمها:

إن سياق النص الأول ركز على نعمتين وهما الأمن والرزق لقولهم (إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) أي يسلب منا الأمن والرزق ولهذا رد الله عقيدتهم الشركية:

﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ أي الذي يمنح الأمان والرزق هو الله وليس الشركاء.

وانه إذا توفر الأمن والرزق مع الشرك ولدا البطر في المعيشة وكان سبباً لإهلاكهم. وإذا ما بطرت القرية أصبح الظلم شائعاً فاستحقت الهلاك والدمار.

وإذا كان عند الناس شيء فهو متاع في الدنيا زائل والذي عند الله خيرٌ ودائم، ومن هنا فيه وعد للمؤمنين بالنعيم الدائم وهو الوعد الحسن، وليس هذا كالذي له متعة زائلة ويوم القيامة سيحضر العذاب.

وبعد النص الأول مباشرة جاء اعتراف المشركين بما أغووا الناس وحرفوهم عن عقيدة التوحيد وتبرؤوا منهم وما كانوا هم إياهم يعبدون. فالموقف هنا أقل

خوفاً ولهذا تكلموا واستطاعوا من التحدث والجواب عند الاستفسار منهم في حين نرى سياق النص الثاني فيه الموقف أشد والتوبيخ أقوى وتوضيح ضلالهم ذلك بين الخلق زيادة في ترهيبهم واحتقارهم وهذا ما نلمسه في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا﴾ زيادة في التقريع والتوبيخ، لأنه لا يستجاب لهم وحين (رأوا العذاب) من شدة الخوف والفزع تمنوا في أنفسهم لو كانوا من المهتدين. وفي هذا الموقف سئلوا بماذا كان جوابهم للمرسلين؟ في حين إن في النص الأول لم يسألوا هذا السؤال إن مما يدل على تغير الموقف من حيث الزمان فإذا تكلموا في النص الأول بقولهم (ربنا هؤلاء الذين أغوينا) لهم الأمل في استعطاف الله تعالى والاعتراف بالآثام والأوزار في حين إن في النص الثاني تاهت عليهم الأخبار وضلت عنهم الأجوبة فما استطاعوا من التساؤل فيما بينهم.

وركز النص الثاني على صفات الله تعالى لذاته من العلم بما تكن صدورهم وما يعلنون وعلى وحدانيته بقوله ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ وَهُوَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لنفي الشرك عن ذاته العلية بقوله (وله الحمد في الأولى والآخرة) وهو صاحب النعم في الدنيا والآخرة، وله الحكم في التحليل والتحريم والتشريع لا إلى الشركاء واهتم بالبعث بقوله (وإليه ترجعون) وقدم الجار والمجرور للاهتمام به، ثم انتقل إلى بيان صفاته في مصنوعات خلقه في تعاقب الليل والنهار وفي كل منهما نعم كثيرة نعمة الليل للراحة والسكن مما عانى منه في النهار ابتغاء فضله والكد فيه فمن إله غيره سبحانه يأتي بضياء للعمل أو يأت بليل للسكن والراحة، وفي إعادة الاستفهام الإنكاري (من إله غير الله) للتركيز على نفي الألوهية عن كل ما يزعمون. ولهذا يتبين أن الموقف مختلف، والأسئلة في النص الثاني تختلف عن الأول والتدليل أقوى وأشد على وحدانيته سبحانه. وجاء الشهداء في هذا الموقف من كل أمة، ولم يكن في السياق الأول جمع للشهداء وتيقنوا في النص الثاني بأن الحق لله فيئسوا، وذلك نلمسه من قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ٧٥ وفي النص الأول لم يتيقنوا ولذلك لجأوا إلى الدفاع عن أنفسهم بأنهم أغووا هؤلاء وتبرأوا إلى الله مما كانوا يعبدون ظناً منهم النجاة بهذا فضلاً عن ذلك فإن سياق النص الثاني ذكرت فيه لفظة يوم أكثر من النص الأول كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ

فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ٦٥ وقوله: ﴿**فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ**﴾ ٦٦ واليوم يختلف في الآخرة لقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ**﴾ الحج/٤٧. واليوم فيه مواقف كل موقف يكون مختلفاً عن غيره، ولذلك هنا تغيّر الموقف اتساقاً مع تفصيل الآيات لصفات ذاته سبحانه وبعض صفات مخلوقاته.

ومن الآيات المتشابهة التامة التطابق ما جاء في سورة القمر من آيات مكررة وهي قوله تعالى: ﴿**فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**﴾ وقوله تعالى: ﴿**فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ**﴾ ٣٩ لو دققنا النظر فيها لوجدنا أن آية (فهل من مدكر) قد تكررت أربع مرات وكذلك (فكيف كان عذابي ونذر) وكذلك قوله تعالى: (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) أما آية (فذوقوا عذابي ونذر) مرتين. فما سبب الإعادة في كل منها؟

وقد جاء في بداية السورة من تكذيب قريش لرسول الله ﷺ واتباع أهوائهم على الرغم من مجيء الأنباء الرادعة لهم وما فيها من الحكمة الواصلة إلى مقصود صاحبها ومع هذا لم يحصل لهم من الإقلاع عما هم فيه لقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ(٤)حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ**﴾ ومن ثم جاءت أخبار الأمم الماضية التي كذبت رسلها مع إصرارهم على الكفر وكيف انتقم الله تعالى منهم وجعلهم عبرة لمن أراد أن يعتبر، ولكن هيهات لمن ختم الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة وعلى سمعه وقراً، فأنى يؤمنون وإن جاءتهم الإنذارات واحدة تلو الآخرى!؟ وقد بدأت بقصة قوم نوح الذين كذبوا نوحاً عليه السلام وكذبوا من قبله لأن لفظة (كذّبت) تكون متعديةً إلى مفعول مثل (عبدنا) مفعول للفعل (فكذبوا) والفعل الذي قبله (كذبت) مفعوله محذوف دل عليه ما بعده، أو يكون لازماً لأنه يقال: (كذب) إذا قال قولاً يدل على التكذيب ويقال كذب إذا اعتقد أن غيره كاذب.

ومن ثم فصل تكذيبهم بأنهم قالوا (مجنون وازدجر) وجيء بالفعل على وزن افتعل ليدل على المبالغة في تكذيبهم لنوح عليه السلام بشدة وغلظة وبعد أن بيّن نوع العذاب لهم من تفتح أبواب السماء بماء مصبوب بقوة، وتفجير الأرض بالعيون ليلتقي الماءان فيحدث الطوفان إكراماً لنوح عليه السلام وجزاءً على ما بذله من الدعوة إلى الله تعالى ولذلك جاء بلام التعليل وبـ (كان) التي توحي بالزمن الطويل الذي

كفروا به ولم يؤمنوا بأنه رسول من عند الله تعالى وما عاناه منهم من السخرية والاستهزاء ورميه بالجنون، وبعد أن حملهُ على ذات ألواح ودسر فنجاه من الطوفان والغرق لتكون السفينة آية دالة على صدقه في نبوته، ولأن الله تعالى تركها لتكون علامة محفوظة حتى تشهدها الأمم المجاورة لها، وهذا أول عذاب أصاب الأمم ليكون ردعاً للأمم الأخرى إذا ما جاءها رسول قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ العنكبوت ١٥، ثم الاستفهام بـ (فهل) ليحض الآخرين على التذكير بهذه الآية ولا سيما كفار مكة ثم جاء قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ وهذا استفهام عن حالة العذاب الذي لحق بقوم نوح وإغراقهم وجاء بـ (فكيف) وهو اسم استفهام يستعمل هنا في التعجب من شدة العذاب الذي تعذبوا به، وفي الوقت نفسه تهديد للمشركين من أهل مكة بأنهم سيعذبون إن لم يؤمنوا كما عذب هؤلاء القوم. وعطف على العذاب (نذر) أي آثار إنذاري وحذفت ياء المتكلم من (نذر) لحكمة بيانية وهي: أن الإنذارات الكثيرة وإن طالت فإن العذاب قد جاءهم سريعاً فكأنما الإنذار والعذاب متلاصقان.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ ولما أن جاء الإنذار عن طريق القرآن وكفار مكة معرضون عنه فجاء تيسيره وتسهيل حفظه حتى يصل إلى مسامعهم أرادوا أم أبوا، وأكد هذا التيسير (باللام وقد) لمقابلة حال المشركين وهم شاكون به أنه من عند الله تعالى، ويكون من جهتين من جهة لفظه ومن جهة معناه، فلفظه من أسمى رتب الفصاحة سواء في اختيار مفرداتها أو تركيب عباراتها وانتظامها بحيث يحفظ بسهولة ويؤثر في مسامعهم بجرسه القوي وصداه كأنهم لم يسمعوا مثله أبداً، وهذا ما صرح به بلغاؤهم وفصحاؤهم وأما من جهة معناه لأنه يدرك مغزاه ويفهم معناه حين سماعه سواءً كان المتلقي قارئاً أم أمياً، وكلٌ يكتشف له مقاصد كلما تعمق في تدبره والإمعان فيه حتى يذهب بسامعه كل مذهب كلما توغل وتعمق... وقوله: (للذكر) فالذكر مصدر الفعل (ذكر) فالقرآن الكريم سهلت دلالاته لأجل انتفاع الذكر بذلك التيسير، وهنا وردت لفظة (للذكر) و(مدكر) إحداها تكون تذكيراً بقوم نوح وعذابهم، والثاني وهو الادكار من سماع مواعظ القرآن الكريم وفهم معانيه والألفاظ بقصصه[1].

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٢٧/١٨٠ - ١٩٠.

ومن هنا ندرك أن العذاب هنا لقوم نوح ويقصد به الطوفان والغرق وأن الادكار والتذكر موجهان إلى هذه القصة بالذات وأن الإنذارات من نوح لقومه.

وأما قصة عاد فقد ورد فيها قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ مرتين، لأن قوم عاد عذبوا مرتين في المرة الأولى بالقحط ثلاث سنين حتى ذهبوا إلى مكة يسقون، وقد جاء قوله تعالى مباشرة بعد التكذيب ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾) ولكنهم لم يؤخذوا كالمرة الثانية ليكون هذا العذاب زاجراً لهم ويكفوا عن التكذيب والتكفير فنوع العذاب اختلف هنا فهو غير العذاب في قوم نوح ولا العذاب نفسه في المرة الثانية، فلما اختلفت أنواع العذاب وزمانه ومكانه وشخوصه فلا يكون تكراراً لا في هذه الآية ولا الآيات المتشابهة التي تأتي فيما بعد وفي المرة الثانية عذبوا بإرسال ريح صرصر عليهم فتركتهم بعد انتزاعهم كأنهم أعجاز نخل منقعر حيث شبه الله تعالى هؤلاء بأصول النخيل التي استؤصلت من جذورها على سبيل الاستعارة المكنية فلا تبقى لهم باقية، وشبهوا هنا بـ (نخل منقعر) لأن أعجاز النخل عندما فرغت ما فيها فأصبحت منقعرة فهم لما أخذتهم الريح فتطايرت ما في بطونهم من أمعائهم وأفئدتهم فصاروا جثثاً فارغة كتفريغ عود النخل. وهذا تشنيع لحالهم وترهيب الآخرين من أهل مكة لينردعوا وينزجروا، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ وهذا شبيه بالآية السابقة في قصة قوم نوح عليه السلام، ولكنه اختلف أيضاً عنها من حيث المضمون، وذلك أن هذه الآية تشير إلى الآيات التي جاءت في قصة عاد في وصف العذاب لهم فهو قرآن وقد سُهلت ألفاظه ويسرت دلالاته وبينت مغازيه لكل متذكر ومتدبر لهذه الآيات التي جاءت في (عاد) ومن ثم ما أوحت من معانٍ تختلف عن سابقتها ومقاصد تتباين عنها لفظاً ومعنى وقوله تعالى: (فهل من مدكر) فهو غير الأول لأن الأول تذكير بما حل بقوم هود من العذاب في تسخير الريح الشديد وتعذيبهم بشدة وتعذيبهم بالقحط، وهنا في الآية تذكير من سماع مواعظ القرآن في هذا الصدد وفهم مقاصده والاتعاظ بها حتى لا يقع الآخرون فيما وقع فيه هؤلاء.

ولذلك لما اختلف القصد وتغير المعنى فلا تكرار في هذه الآيات وإذا ما جئنا إلى قصة قوم صالح فهم كذبوا الإنذارات وكفروا بما جاء به رسولهم عليه السلام لأنهم كانوا لا يعتقدون باتباع واحد منهم وهو بشر مثلهم وهو تفصيل للآية السابقة

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ وادّعوا أن نبيهم كذاب متكبر، وفي آية ﴿أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ﴾ ٢٤ استفهام إنكاري أن يكون الرسول من البشر كما أنكرت قريش رسولنا ﷺ. ثم بعد ذلك وصف العذاب وبين نوعه بعد قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ فاستفهم استفهاماً إنكارياً يدعو إلى التعجب من حالهم وهم معذبون بصيحة واحدة تفصيل لـ (عذابي) وجزاء (لنذري)، والصيحة هنا بمعنى الصاعقة لأنها تولد صوتاً وناراً فأرجفتهم وأهلكتهم، وأصبح حالهم كحال الهشيم المهيأ للذهاب إلى الحظيرة والهشيم: ما يبس وجف من الكلأ والشجر وللحفاظ على حيواناتهم بإطعامهم من هذا الهشيم اليابس(١).

إذن اختلف العذاب وتغير المرسل إليهم وتبدل المرسل والمكان والزمان فالآية (فكيف كان عذابي ونذر) ليست تكراراً، وإنما هي وصف لعذابهم الخاص وانذاراتهم الخاصة فخرجت بذلك إلى المتشابه اللفظي التام التطابق وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ فهذه الآية في تيسير القرآن للذكر، والاستفهام الإنكاري الذي يدعو إلى التعجب لحال هؤلاء القوم الذين أهلكوا بصيحة واحدة فهي تذييل لقصة ثمود في باب الامتنان والحث على التدبر بالقرآن الكريم، لأنه يؤدي إلى اجتناب سبل الضلال والظلام ويهدي إلى طرق النور والنجاة، فلما تغير القصد واختلف المعنى عن مثيلتها خرج عن التكرار ليؤدي أغراضاً أخرى غير ما يؤديه التكرار وأهدافاً في العظة والاعتبار بهذه القصة ولكون التذكر أو الإدكار في هدف القصة سواءً في إهلاكهم بالصيحة الواحدة او بالاستماع إلى ألفاظ العذاب فقد تنوع التذكر وتغير الإدكار.

وإذا ما انتقلنا إلى قوم لوط نرى العذاب غير العذاب فيما سبق من الأمم السابقة لهم حيث أرسل الله عز وجل عليهم حاصباً وهي الريح الشديدة التي تقلع الأحجار فترميهم بها وفي آية أخرى ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً﴾ هود/٨٢، ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ هود/٨٢ وأكد الكلام بلام القسم المقدر وبالحرف (قد) الذي يفيد التحقيق في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ ٣٦.

والبطشة شدة الأخذ بالعقاب وبالعنف، ومن ثم نرى تغير الأسلوب في هذه

---

(١) ينظر: فتح الرحمن/٣٣.

القصة من الاستفهام الإنكاري في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ إلى جملة أمرية في هذه الآية ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ فقد أعيدت مرتين لماذا هذا التحول في هذه القصة ولماذا ذكرت مرتين؟

إن هذا التحول كان سببه قوم لوط لأنهم شذوا عن الفطرة السليمة من ناحية شهوة الجنس، ولذلك نرى أول ما أصابهم من العذاب هو طمس أعينهم فأصابهم العمى حتى يفقدوا اللذة بالرؤية قال تعالى: (فطمسنا على أعينهم) فليذوقوا العذاب ونتائج الإنذار. ولهذا جاءت الآية الكريمة بعدها على صيغة الأمر الذي يدل على السخرية والاستهزاء بهم فقال تعالى: (فذوقوا عذابي ونذر) ومن ثم بيّن الله عزوجل أن انجاء آل لوط إلاّ امرأته كان في سحر قبل الصبح ونزل العذاب العام عليهم في الصباح أي بعد انجائهم بقليل، ثم أعيد قوله تعالى ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ فقد قيل لهم هذه العبارة توبيخاً واستهزاءاً كما قيل لأمثالهم الذين أخذتهم العزة بالإثم: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ الدخان/٤٩ وفائدة الإعادة هنا أن يتجدد عند استماع كل نبأ من ذلك إدّكارٌ لهم واتعاظ[1].

فلما علمنا عذاب كل قوم وأعقبه قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ* وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ فدل العذاب والنذر على من تقدم من المشركين على هذه الآية، فهي خاصة بهم وبنوع خاص من العذاب والإنذار، وتيسير القرآن بما جاء من ألفاظ العذاب قبلها، فهو قرآن يفهمه كل من يسمعه وأنه يقصد هؤلاء الذين عذبوا وكذلك (للذكر) أي لكل متذكّر يتذكر القصة وما حل بهؤلاء من العذاب، وكل عذاب قوم لوحده، وكل تيسير في ألفاظه ومعانيه مختلف، وكل ذكر أو متذكر بوحده فتبيّن لنا أنه لا تكرار البتة في هذه الآيات كتشابه الأسماء في اختلاف المسميات[2] وقيل في إعادة قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أن ذلك يحتمل وجوها[3].

الأول وعيدلهم بما تقدم لغيرهم من قوم نوح والثاني لهم ولغيرهم من بعدهم.

(١) ينظر: التحرير والتنوير ١٩١/٢٧.

(٢) ينظر: درة التنزيل/ ٣١٧ ونظم الدرر ٣٥٢/٧ وفتح الرحمن/٣٣ والتحرير والتنوير: ١٩١/٢٧.

(٣) ينظر: فتح الرحمن/٣٣.

الثاني أن الأول أريد به عذاب الدنيا والثاني أريد به عذاب الآخرة وعبر بلفظ الماضي لتحقق وقوعه.

الثالث: أن الأول فيه حذف مضاف تقديره: فكيف كان وعيد عذابي؟ والثاني: أريد به نفس العذاب بعد وقوعه.

ومما سبق من إيضاح لإعادة هذه الآيات خلافاً لما ذكرته إحدى الباحثات من أن هذا الوعيد المؤكد بالتكرار، إن سلك مسلكاً مشابهاً لمسالكهم)[١].

وهذا تناقض واضح في قولها، ففي قولها (مسلكاً مشابهاً) أي ليس هذا المسلك تكراراً بل مشابهاً لمسلك السابقين، وهذا القول يخرجه عن دائرة التكرار اللفظي والمعنوي معاً.

وأما قولها "إن التكرار الوارد في سورة القمر قد أدى وظائفه السياقية المطلوبة في تقرير الحقائق وتثبيت المعاني"[٢] نعم ولكن في اختلاف الحقائق وتغير المعاني لأن الحقيقة وإن كانت عامة في كل القصص ولكنها تختلف في خصوصياتها، ولأن المعاني هي غيرها في كل قصة فلما اختلفت المعاني، ابتعدت الألفاظ عن التكرار، لأنه كما بينا أن الزمان والمكان والشخوص والأحداث كلها مختلفة ولهذا نفى أغلب العلماء والمفسرين أن تكون هذه الآيات مكررة لفظاً ومعنى[٣].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ الرحمن/ ١٣.

هذه آية كريمة أعيدت ثلاثين مرة بعدها. واختلف في تفسيرها حول المخاطب، قيل فيه وجوه:

الأول: الإنس والجن

الثاني: الذكر والأنثى

الثالث: فبأي الاء ربك تكذب، فبأي الاء ربك تكذب، بلفظ واحد والمراد التكرار والتاكيد.

---

(١) التكرار التركيبي في القرآن الكريم - دراسة دلالية - (أطروحة سابقة) ص٤٢.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٣.

(٣) ينظر: درة التنزيل/٣١٧: وفتح الرحمن/٣٣، ونظم الدرر/ ٣٥٢/٧:، والتحرير والتنوير٢٧/ ١٩١.

الرابع: المراد العموم أي القسمين في كل شيء، فخلق من يعقل ومن لا يعقل ويعلم ما ظهر وما لا يظهر.

الخامس: التكذيب قد يكون بالقلب دون اللسان، كما في المنافقين وقد يكون باللسان دون القلب كما في المعاندين وقد يكون بهما جميعا.

السادس: الخطاب موجه للمؤمن والكافر(١).

السابع: التثنية جرت على طريقة في الكلام العربي أن يخاطبوا الواحد بصيغة المثنى كقوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (٢) ق/٢٤.

ولكن رأي جمهور المفسرين أن الخطاب للإنس والجن. والراجح لهذه الآراء هو انه خطاب للمؤمنين والكافرين لأن القرآن نزل لخطاب الناس ولم يأت لخطاب الجن فلا يتعرض لخطابهم وما جاء في القرآن الكريم من ذكر الجن فهو في سياق الحكاية عن تصرفات فيهم وليس لتوجيه العمل بالشريعة(٣).

وأما سبب إعادة هذه الآية بهذه الكثرة فقد علل العلماء ذلك بأسباب مختلفة منها: أنها للتأكيد والتقرير(٤) ومنها انه سبحانه وتعالى: افتتح السورة بذكر أنواع من النعم وأنها آيات دالة على وحدانيته وانفراده بالخلق والإبداع وانه ذكر سبحانه من أسمائه /الرحمن/ لتتناسب الرحمة التي انزلها على عباده وانه سبحانه علم القرآن لأنه بتعليم القرآن يكون الحصول على الإيمان والسعادة في الدارين ثم نعمة خلق الإنسان على أحسن صورة من خلقه، ومن ثم علمه البيان وبه يعرف نعمة القرآن ثم ذكر نعمة الشمس والقمر ثم ذكر نعمة النجم والشجر، والسماء رفعها فهي سقف محفوظ من غير عمد مزينة للدلالة ورجم الشياطين، ثم وضع الميزان فهو نعمة العدل والذي تم به كل خلق على أحسن ما يرام وذكر نعمة الأرض التي جعلها سبحانه للمخلوقات وما بث فيها الفاكهة والزرع والنخيل والحب ذا العصف والريحان. فهذه نعم ثمانية مرئية للخلق شاهدة على وحدانيته وتفرده في خلقها سبحانه ثم قال للثقلين ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعمة من نعمه تكذبون

(١) بنظر التفسير الكبير ٣٤٦/٢٩.

(٢) بنظر التحرير والتنوير ٢٤٣/٢٧.

(٣) ينظر التحرير والتنوير ٢٤٤/٢٧.

(٤) ينظر التفسير الكبير ٣٤٨/٢٩ وبنظر تأويل مشكل القرآن /٢٣٥.

أيستطيع احد أن ينسب هذه النعم إلى غيره سبحانه). ثم ذكرنا بالمادة التي خلق منها الإنس والجن هل يستطيع أن يخلق احد هذين الثقلين من المادة التي خلقا منها؟ ثم ذكرنا بانه رب المشرقين والمغربين مشرق الشتاء ومشرق الصيف كل ذلك بقدرته جل جلاله. ثم ذكرنا بخلق البحرين العذب الفرات والمالح الأجاج وما فيهما من نعمة الفلك مواخر فيهما وإخراج اللآلي منهما. وجعل الحاجز بينهما ثم ذكر نعمة العدل في الفناء وانه لا يبقى في هذه الحياة احد وذكر سؤال الناس له سبحانه ولإفتقارهم إليه في كل يوم وأردف عقب كل نعمة بتقرير الإنس والجن وأعيدت الآية حسب تنوع النعم وانه وان كانت الآيات في هذه المواضع في ذكر النار وشدائدها لكنها بعدد أبواب جهنم لأن ذكر الآلاء بعدها تدل على أنها نعمة، وذلك من ينجو من العذاب ويدفع عنه البلاء والعذاب نعمة كبيرة ثم ذكر ثماني آيات في وصف الجنة وأهلها بعدد أبواب الجنة وثمانية أخرى عقبها (ومن دونهما جنتان) فمن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها استحق هاتين الثمانيتين من الله تعالى ووقاه السبعة السابقة.

أي بعد أن بين الله تعالى ثماني آيات الأولى في الخلق والإنشاء أعقبها سبع آيات في النار وعذابها وثماني آيات في وصف الجنات وأهلها على عدد أبواب الجنة وثماني آيات أخرى للجنتين اللتين دونهما. فالذي يؤمن بوحدانية الخالق سبحانه مما يرى من دلائل صنعه وبديع خلقه ويعمل بموجبها استحق للجنتين ووقى نفسه من العذاب على عدد أبواب النار[1] ولهذا جاءت هذه الآية عقب كل نعمة تختلف عن النعمة قبلها أو بعدها.

والفاء في كل آية جاءت للتفريع على ما تقدم من النعم والمنن التي تفرد بها الله سبحانه بانعامها عليهم لتكون دالة على صدق الرسول (ﷺ) والكتاب المنزل عليه.

وأي: أداة استفهام للتقرير بذكر ضد ما يفز به.

والآلاء: بمعنى النعم ومفردها ألى وإلى بكسر الهمزة وسكون اللام

(١) ينظر درة التنزيل /٣٢٠ والبرهان في متشابه القرآن /٣٠٦ وملاك التأويل ١٦٤/٢ وفتح الرحمن /٣٠٢.

(ألى) بفتح الهمزة وسكون اللام. وكلها بمعنى النعمة[١]. وذكر الله سبحانه هذه اللفظة جمعا لتدل على ان كل نعمة قد ذكر قبلها فيها نعم كثيرة ولهذا قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ النحل/١٨ فنعمة الشمس مثلا فيها نعم كثيرة منها الضوء والطاقة والحرارة وغيرها ونعمة الماء للشراب وللوضوء وللغسل وللمزروعات وغيرها وهكذا تتعدد النعمة الواحدة إلى نعم لا تعد ولا تحصى فلما جاءت هذه الآية بعد كل نعمة تختلف عما قبلها والآية المعادة تقصدها اختلفت مقاصدها وتحولت معانيها كانت تلك ليست بتكرار وإنما من المتشابه اللفظي التام التطابق.

يقول ابن عاشور: (هذا توبيخ على عدم الاعتراف بنعم الله تعالى، جيء به بمثل ما جيء به في نظره الذي سبقه ليكون التوبيخ بكلام مثل سابقه وذلك تكرير من أسلوب التوبيخ ونحوه أن يكون بمثل الكلام السابق فحق هذا أن يسمى بالتعداد لا بالتكرار، لأنه ليس تكريرا لمجرد التأكيد[٢].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ الذاريات ٥٠-٥١.

هذه آية كريمة أعيدت بعدها وفي هذه الإعادة سر بياني وإعجاز بلاغي ولنرى ذلك ما فسرها العلماء لتبيانها وتوضيحها.

(الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي إذا كان الأمر كما ذكر من شؤونه تعالى في إهلاك من تعدى الحدود ففروا إلى الله بالإيمان والطاعة، كي تنجوا من غضبه، وتفوزوا بثوابه، أو ففروا من الكفر إلى الإيمان ومن المعصية إلى الطاعة بالتوبة، ومن الغفلة إلى اليقظة بدوام الذكر ومن المقام مع العوائد والحظوظ إلى الزهد ومن شهود الحس إلى شهود المعنى وهو مقام الشهود ومن الجهل إلى العلم ومن الهوى إلى التقوى ومن الشك إلى اليقين ومن سخط الله إلى رحمته[٣] وقيل من الشرك إلى الإيمان بالله أو من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن أو مما سواه

---

(١) لسان العرب مادة (ألو) - ١/ ٩١.

(٢) التحرير والتنوير ٢٤٦/٢٧.

(٣) بنظر البحر المديد ٢١٥/٧.

إليه[١].

ولفظة (ففروا): تنبيء سرعة الإهلاك كأن يقول الإهلاك والعذاب أسرع واقرب من أن يحتمل الحال الإبطاء في الرجوع، فأفزعوا إلى الله سريعا وفروا[٢]: والفرار: الروغان والهرب[٣]، أي سرعة مفارقة المكان تجنبا لأذى يلحقه فيه.

وبعد أن بين الله تعالى حال الأمم السابقة من تكذيبهم برسلهم وضلالهم وكيف أخذهم الله عز وجل بالعقاب الدنيوي وحتى لا يكون حال المشركين في عهد رسول الله (ﷺ) كحالهم عليهم أن يلجأوا إلى الله تعالى ويفروا إليه لأنه لهم نذير ينذر بسوء عاقبتهم ان لم يؤمنوا بما جاء من ربه من عند الله تعالى ولهذا يقول ابن عاشور:

(وأما جملة (إني لكم نذير مبين) تعليل للأمر بـ (فروا إلى الله) باعتبار أن الغاية من الإنذار قصد السلامة من العقاب فصار الإنذار بهذا الاعتبار تعليلا للأمر بالفرار إلى الله، أي التوجه إليه وحده)[٤].

وأما عن سبب إعادة الآية الكريمة فيقول الإسكافي (ففروا إلى الله) عما حذركم من معصيته إلى ما حثكم عليه من طاعته، فإني أنذركم ما تواعدكم به من عقوبته، وهذا تحذير من المعاصي كلها، وبعث على الطاعات جميعها ثم خص ما هو أعظم، فقال (ولا تجعلوا مع الله الها آخر)، أي: لا تتخذوا الأصنام آلهة تعبدونها مع عبادة الله تعالى، فأني أحذركم أن تجعلوا له مثلا، فالنذارة الأولى متعلقة بترك الطاعة إلى المعصية، والثانية متعلقة بالشرك الذي هو أعظم المعاصي وإذا كانت متعلقة بغير ما تعلقت به الأولى لم يكن ذلك تكرارا)[٥]

وأما الكرماني فيؤكد انه إعادة الآية ليست تكرارا لأن كل واحدة منهما متعلقة بغير ما تعلقت به الأخرى وإذا تعلقت بغيرها لا تكون تكرارا فالأولى متعلقة

---

(١) بنظر تفسير النسفي ٤/٢٢٨.

(٢) التفسير الكبير ٢٨/١٨٩.

(٣) لسان العرب ج١ /١٠٧.

(٤) التحرير والتنوير ٢٧/١٩.

(٥) درة التنزيل /٣٠٩.

بترك الطاعة إلى المعصية والثانية متعلقة بالشرك بالله تعالى[١] ولابن جماعة والأنصاري التوجيه نفسه[٢].

واري أن الله سبحانه لما ثبت وجوده لهم بقوله تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ قبل النص ومن ثم نفى الألوهية عمن سواه في إعادة الآية فقد انتفى التكرار لأن قوله (أني لكم منه نذير مبين) نذارة متعلقة بالإيمان بالله والفرار اليه وأما الآية الثانية فإنها متعلقة بما قبلها أيضا وهي نفي الشرك عنه سبحانه فلما تغير المعنى خرج عن التكرار وكان من المتشابه اللفظي تام التطابق.

٢- المتشابه اللفظي تام التطابق / في سورتين:

وردت آيات في القرآن الكريم متشابهة من حيث اللفظ بنصها ولقد تكلمنا عن الآيات التي وردت في سورة واحدة وهي تامة التطابق وهنا نبدأ بالآيات المتطابقة تامة التطابق ما ورد منها في سورتين أي جاء في سورة ثم جاء النص نفسه في سورة أخرى. ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ البقرة /٨ وقد جاءت الآية بنصها في سورة لقمان الآية /٥.واليك النصين الكريمين قال تعالى من سورة البقرة: ﴿ الٓمٓ. ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ. ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ. وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ. أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

ومن سورة لقمان ﴿ الٓمٓ. تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ. هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ. ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ. أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

هل أن آية لقمان جاءت بنصها شبيهة بآية البقرة معنى بعد أن شابهتها لفظا؟ وإذا ما دققنا النظر في سياق كلتيهما يتبين لنا هل إنهما متشابهتان لفظا مختلفتان في المعنى؟

والمتأمل في سياقيهما يتبين له أن هناك شبها عاما من حيث المعنى وفروقا

---

(١) بنظر البرهان في متشابه القرآن /٣٠٤.

(٢) بنظر كشف المعاني /١٨٩ وفتح الرحمن /٢٩٤.

دقيقة بينهما. منها في وصف المؤمنين وهؤلاء يحملون صفات معينة فآية البقرة جاءت فيها لفظة (ذلك) دون (تلك) وزيدت لفظة (الحكيم) التي هي وصف للكتاب وجاءت في البقرة (هدى) وزيدت في لقمان (ورحمة) وردت في البقرة لفظة (المتقين) في حين جاءت (المحسنين) في لقمان وجاءت عبارة (يؤمنون بالغيب) ولم ترد في لقمان وكذلك عبارة (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما انزل من قبلك) وردت في البقرة ولم ترد في لقمان.

هذه الفروقات أدت إلى أن يختلف المعنى في الايتين وان كانتا بشكل عام متفقتين.

ففي السياقين وصف للمؤمنين بالكتاب. فالسياق في سورة البقرة يصف المؤمنين بصفات هي: الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة والإنفاق في سبيله والإيمان بالكتاب وما انزل قبل القرآن الكريم من الكتب المنزلة السابقة على القرآن الكريم وهم مؤمنون بالبعث بعد الموت وهذه الصفات هي صفات المتقين والمتقي/ من اتصف بالاتقاء وهو طلب الوقاية، وهي الصيانة والحفظ من المكروه فالمتقي اذن: هو الحذر المتطلب للنجاة من شيء مضر ومكروه والمراد في الآية الكريمة من لفظة (المتقين) الذين هم خائفون غضبه واستعدوا لطلب مرضاته واستجابة طلبه.

والتقوى / هي امتثال الاوامر واجتناب المنهيات من الكبائر وعدم الاسترسال على الصغائر ظاهرا وباطنا أي اتقاء ما جعل الله تعالى الاقتحام فيه موجبا غضبه وعقابه[1].

وعبارة (لا ريب) أي لا شك فيه وهذا تعريض بكل من يرتاب بالقرآن الكريم سواء من مشركي مكة أو من اهل الكتاب من اليهود والنصارى فإذا ما حصل الارتياب كان سببه المكابرة والعناد وإذا كان الوقف على (فيه) كان تعريضا بأهل الكتاب الذين حرفوا كتبهم وبدلوا ما فيها والإيمان بالغيب ثناء على المؤمنين وتعريض على المشركين الذين أنكروا الحياة الأخرى وهذا ذم لهم لأنهم ما اهتدوا بهذا الكتاب الكريم وفي الوقت نفسه ذم للمنافقين لأنهم ما اتقوا الله في باطنهم. ومن صفات هؤلاء المؤمنين إنهم مستمرون على إقامة الصلاة لأنها صفة موصلة

(١) بنظر التحرير والتنوير ٢٢٦/١.

إلى مرضاة الله ومخرجة الإنسان من الكفر إلى الإيمان وهي من أفضل أعمال البدن بالمحافظة عليها وبحفظها وفي ذاتها وفي كل صفة أخرى ومن صفاتهم الإنفاق مما رزقوا فهم ينفقون ما رزقناهم مما يلزمهم من الزكاة والحج والجهاد وغيرها ومما يتطوعون به من غير واجب عليهم ومن صفاتهم إيمانهم بالآخرة وقدم الجار والمجرور للاهتمام به وكان الأصل (يوقنون بالآخرة) ثم جاء بضمير الفصل للتأكيد على انه لا حياة بعد هذه الحياة وإنها هي الحياة الأبدية ولأن الإيمان بها يقود الإنسان إلى كل خير ويبعده عن كل شر. وقد وصف هؤلاء المؤمنون بهذه الأوصاف إشارة إلى الأعمال البدنية والمالية فالإيمان أساس الأمر والصلاة قائدة إلى الخير وناهية عن الشر والنفقة عمل مالي يطرد الشح والحقد ويزرع المحبة والمودة ويوحد الأمة.

وهنا صنفت هذه الآيات الناس إلى أصناف أربعة وهم:

المؤمنون بالقرآن الكريم

والمشركون من العرب

والمنافقون الذين تظاهروا بالإسلام وأبطنوا الكفر

وأهل الكتاب.

وذلك لأن السورة قد نزلت بعد الهجرة[١] ولهذا كان المجتمع في المدينة المنورة من هذه الأصناف والخطاب كان لهم جميعا سواء تصريحا أو تلميحا. في حين نرى الخطاب في سورة لقمان كان لصنفين فقط وهما المسلمون والمشركون من عبدة الأصنام. وهذا ما نلحظه في تبيان صفات المحسنين وهي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالآخرة والإحسان لأن السورة مكية ولم يهاجر الرسول (ﷺ) إلى المدينة المنورة ففي سورة البقرة أطلق الإنفاق ليشمل الفرض وغيره ولكنه في سورة لقمان حدد لفظة (الزكاة) وهي لفظة دالة على النصيب المقدر من المال. في سورة البقرة قدمت عبارة (يؤمنون بالغيب) لأن الخطاب أصبح عاما للمشركين ومن حرفوا الإيمان الحق عن مساره الصحيح من أهل الكتاب فهو ذم لهم وللمنافقين وثناء للمؤمنين ولكنه في سورة لقمان حذفت العبارة لأن الخطاب مدح للمحسنين

---

(١) التفسير الكبير ١/ ٢٧٧.

الذين اهتدوا بهدى القرآن ورحمته وتعريض في ذم المشركين الذين لم يهتدوا بهدي الكتاب الحكيم.

وفي سورة لقمان استبدلت لفظة (المتقين) في سورة البقرة بـ (المحسنين) إيحاءا للمؤمنين بالإحسان إلى الآخرين سواء في رد الاعتداء بالإحسان إليهم أو بالإنفاق أكثر مما فرض عليهم. ولذلك أرى أن (لفظة) (أولئك) وهي اسم إشارة تشير في كل سورة إلى غير المشار إليه من كل سورة هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن عبارة (على هدى من ربهم) اختلف الهدى في كل منهما من حيث المعنى ففي سورة لقمان زيدت عليها لفظة الرحمة لأنها صفة أخرى مضافة إلى الكتاب الكريم لينعكس أثرها على المؤمنين. وإعادة (أولئك) في الآية دالة كذلك على اختلاف المعنى ففي عبارة (أولئك على هدى) تعلق العمل وهو الهدى بأولئك أي في الدنيا بينما عبارة (أولئك هم المفلحون) تعلق الفلاح بالآخرة فلما اختلف الزمان والمكان اختلف المعنى.

ولهذا نرى أن الآية المعادة ليست تكرارا وإنما متشابه لفظي تام التطابق لاختلاف في معنيهما سواء في المخاطبين أو في الزمن أو في المكان. وآية (أولئك على هدى) فيها استعارة تمثيلية لأن على حرف استعلاء وجيء به لتمثيل حالهم بأن شبهت هيأة تمكنهم في الهدى وثباتهم عليه والسير في طريق الخيرات بهيأة الراكب في الاعتلاء على المركوب فشبهت حالتهم المنتزعة من متعدد بتلك الحالة المنتزعة من متعدد تشبيها ضمنيا دل عليه حرف الاستعلاء لأن الاستعلاء أقوى أنواع تمكن شيء من شيء أي أن أولئك على مطية الهدى فهي تمثيلية تصريحية وقيل إن الاستعارة تبعية مقيدة بأن شبه التمسك بالهدى عند المتقين بالتمكن من الدابة للراكب وقيل أن الآية استعارة مكنية مفردة بأن شبه الهدى بمركوب وحرف الاستعلاء قرينة على ذلك. وفي الآية تشبيه أشياء بأشياء على الجملة حاصلة من ثبوت الهدى للمتقين ومن ثبوت الاستعلاء على المركوب. فإذا كان تمثيلية يعني تشبيه تلك الأشياء حاصلا بالانتزاع والتركيب لهيأة. أو أن يكون المشبه والمشبه به هما فردان من تلك الأشياء ويحصل العلم ببقية تلك الأشياء بواسطة تقييد المفردين المشبه والمشبه به أي انه تجوز الطريقتان التمثيلية والمكنية واعتبار التمثيلية أرجح

كما يقول ابن عاشور[١] ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ آل عمران/١٨٢ والأنفال /٥١. هذه آية كريمة وردت مرتين بنصها في القرآن الكريم مرة في سورة آل عمران ومرة في سورة الأنفال فما السر في إعادتها وكل منها في سورة؟

إذا أردنا أن نعرف السر فعلينا أن ننظر إلى سياق كل منهما لنعلم بعد ذلك علاقة الآية بما قبلها. يروى إن رسول الله (ﷺ) بعث أبا بكر الصديق إلى يهود بني القينقاع وكتب معه إليهم يدعوهم إلى الإسلام وإقام الصلاة وآيتاء الزكاة، وان يقرضوا الله قرضا حسنا فقال فنحاص بن عازوراء أن الله فقير حتى سأل القرض، فلطمه أبو بكر (رضي الله عنه) على وجهه وقال لو لا ما بيننا من العهد لضربت عنقك، فشكاه إلى رسول الله (ﷺ) وجحد ما قاله) [٢] فنزلت آية آل عمران في اليهود[٣] إذ قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء فالآية التي قبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ ١٨١. وأما آية الأنفال فالسياق يوضح ذلك أن المنافقين قالوا إن المسلمين غرهم دينهم في معركة بدر لما رأوا عدد المشركين أكثر منهم[٤] وقيل ان قوما ممن كان الإسلام داخل قلوبهم خرجوا مع المشركين إلى بدر منهم من اكره ومنهم من داجى وداهن فلما اشرفوا على المسلمين ورأوا قلتهم ارتابوا واعتقدوا أنهم مغلوبون فقالوا (غر هؤلاء دينهم) قال مجاهد منهم قيس بن الوليد بن المغيرة والحارث بن زمعة بن الأسود وغيرهم[٥].

ولو رجعنا إلى الآية الكريمة المبدوءة بالإشارة (ذلك بما قدمت أيديكم) والمشار إليه هنا (ذوقوا عذاب الحريق) للعذاب المشاهد يومئذ وفيه تهويل العذاب وتعظيمه (والباء) سببية أي بسبب ما قدمتم من الأعمال المنكرة كالكفر بالله تعالى

---

(١) بنظر التحرير والتنوير ٢٤٤/١.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الزكاة، باب اثم مانع الزكاة، الحديث برقم ١٤٠٣٠ وصحيح مسلم كتاب الزكاة الحديث برقم ٢٢٩٣.

(٣) بنظر التفسير الكبير ٤٤٦/١٩ والكشاف /٢٠٠٩ وتفسير البيضاوي ٥١/١.

(٤) تفسير البيضاوي ٢٦٣/١.

(٥) بنظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز /٨٠٧.

والعصيان وقد عطفت جملة (وان الله ليس بظلام للعبيد) على مجرور الباء ليفسر سبب العذاب فالأول ما قدمته أيديهم والثاني عدل الله تعالى فالأول اوجب حصول العذاب وعدل الله اوجب كون هذا العذاب في مقداره المشاهد من الشدة لإبعاد الظن أن في شدة العذاب تجاوز للحد المقرر لهم[١]. كيف لا وقد قالوا في الله تعالى انه فقير ونحن أغنياء ووضح أفعال أسلافهم في الكفر بالله تعالى وقتل الأنبياء بغير حق. ولهذا كان العذاب شديدا والعقاب كان أليما وزادوهم عذابا قوله تعالى لهم (ونقول ذوقوا عذاب الحريق) عذابا نفسيا مع عذاب جسدي.

وأما آية الأنفال فقد جاء قبلها قوله تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ٤٩.

ولقد زين الشيطان أعمال هؤلاء المشركين فأخذ المنافقون يسخرون من المسلمين ويصفونهم بقلة الرأي وبالغرور وفي نفوس الذين في قلوبهم مرض كذلك قالوا مثل ما قال المنافقون وكذلك جاء قبل الآية قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ ٥٠

في هذه الآية المشار إليه ضرب الملائكة الوجوه والأدبار بالإضافة إلى عذاب الحريق فيكون الضرب من قبل الملائكة يوم بدر فتكون الآية من تكملة الخبر عن قوم بدر وجملة يضربون وجوههم وأدبارهم في موضع الحال أن كان المراد بالتوفي قبض أرواح المشركين يوم بدر حين يقتلهم المسلمون وإضافة العذاب إلى الحريق والمراد من جهنم التي تضطرم النار فلعل الله تعالى عجل بأرواح هؤلاء المشركين إلى النار قبل يوم الحساب او المراد بقول الملائكة فذوقوا) إنذارهم بأنهم سيذوقونه وإنما يقع الذوق يوم القيامة أي يكون إنذارا للمشركين[٢].

---

(١) بنظر التحرير والتنوير ١٨٥/٤.

(٢) التحرير والتنوير: ١٩٠/٩.

فالذين عذبوا مختلفون عن آية آل عمران هنا المنافقون أو المشركون بصورة عامة غير ما قدموه في سورة آل عمران هنا قالوا غر هؤلاء دينهم وعصوا الرسول (ﷺ) وفي آية آل عمران كفروا بالله وقتلوا الأنبياء والعقاب مختلف لهؤلاء في كلتا الآيتين. فلما اختلف المشار إليه وهو العذاب والضرب قبل الملائكة في سورة الأنفال وعذاب الحريق في سورة آل عمران واختلف المعذبون في كل منهما واختلف زمانهما ومكانهما فلا يكون تكرارا.

وفي الآية الكريمة مجاز مرسل علاقته الآلة حيث ذكر الأيدي لأن الأيدي لا تفعل وإنما هي أداة للفعل.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ معطوفة على الآية السابقة (ما قدمت أيديكم) والتقدير وبأن الله ليس بظلام للعبيد وهذا سبب ثان لعقوبتهم فالسبب الأول المستفاد من (باء) السببية تعليل لإيقاع العقاب والعلة الثانية المفادة من العطف على الباء ومجرورها أي هو عذاب معادل لإعمالهم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ الأعراف آية ١٨٣- القلم٤٥ هاتان آيتان متشابهتان من حيث اللفظ فقد وردتا مرة في سورة الأعراف وأخرى في سورة القلم وقبل أن نبين الفروق بين الآيتين من حيث المعنى فلا بد لنا ان نعرف معنى (وَأُمْلِي) و(كَيْدِي) والإملاء: إفعال وهو الإمهال وهمزة هذا المصدر منقلبة عن واو مشتقة من الملاوة.. وهي مدة الحياة يقال: أملاه وملاه إذا أمهله وأخره كلاهما بالألف دون همز فهو قريب من معنى عمره ولذلك يقال في الدعاء بالحياة ملاك الله[١]، يقول ابن منظور: المِلاوة والملاوة والمَلاوة والملا والمليُ.. كله مدة العيش والإملاء: الإمهال والتأخير وإطالة العمر[٢]، واما الكيد: المكرُ والخبث والاحتيال[٣] والكيد ضرب من الاحتيال وقد يكون مذموما وممدوحا وان كان يستعمل في المذموم أكثر وكذلك الاستدراج والمكر ويكون بعض ذلك

(١) التحرير والتنوير: ٩/١٩٠.

(٢) لسان العرب، ج٣ / ٥٣٢.

(٣) م.ن ٣/٣٢٠.

محمودا وقال بعضهم: اراد بالكيد العذاب، والصحيح انه هو الإملاء والإمهال المؤدي إلى العقاب[١] والكيد: الاحتيال والاجتهاد وبه سميت الحرب كيدا والكيد التدبير بباطل او حق[٢].

ولو نظرنا الآن إلى سياق آية الأعراف فقد جاء قبلها قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ * أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ * وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ الأعراف /١٧٢، ١٧٤.

وقد أخذ الله العهد من ظهور بني آدم وهذا يقتضي أنه قد أخذ العهد على الذين في ظهر آدم بدلالة الفحوى والإ فكانَ أَبناء آدم او الأدنَوْنِ ليسوا مأخوذا عليهم العهد مع أنهم أولى بأخذ العهد عليهم في ظهر آدم[٣].

والعهد هو الإقرار بربوبية الله تعالى وأشهدهم على أنفسهم بأنه تعالى هو ربهم. وهو اعتراف يستقر في فطرتهم لأنه (كل مولود يولد على الفطرة فإما أبواه يهودانه أو ينصرانه او يمجسانه)[٤] ومع هذا ستقولون (شهدنا) على هذا يوم القيامة أي لا يغفل عن الإقرار احد لأن العقل السليم فطريا يعترف بهذا ولهذا فلا يعتذر احد إذا سئل عن الإشراك بعذر الغفلة كما في الآية فهذا إبطال للاعتذار بالغفلة، ولذلك قُدّر النفي بـ (أن لا تقولوا)[٥] أو تقولوا انا أشركنا لشرك آبائنا فاعتقدنا الإشراك حقا ولذلك لا يعذر من أشرك عمدا أو من غير قصد. والخطاب موجه إلى مشركي مكة لأن أهل الكتاب ما كانوا مشركين.

فالمحاججة هادئة او الجدال علمي والأسلوب فيه من اللين والأخذ بيد

(١) المفردات في غريب القرآن /٤٤٥.

(٢) لسان العرب ٣/٣٢٠.

(٣) ينظر التحرير والتنوير ٩/١٦٦.

(٤) صحيح البخاري/ باب الجنائز/ ٨٠.

(٥) التحرير والتنوير ٩/١٦٩.

الفطن إلى الإقرار بوحدانية الله ونبذ الشرك أو إتباع الآباء إن كانوا على الشرك والضلال لأن الشرك كذب على الله تعالى وابتعاد عن الحقيقة الكونية التي هي آية دالة على انفراديته سبحانه في هذا الوجود ولذلك ضرب مثلا بتشبيه الذي أتاه الله آياته فانسلخ عنها بالكلب وهذا لكل قوم كذبوا بآيات الله وفيه إيحاء وتعريض بالمشركين وهذا في الحياة الدنيا ثم جعل الضالين هم الخاسرون لعدم اهتدائهم حيث ذيل القصة او المثل بهذه الآية ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ الأعراف/ ١٧٨ ثم تفصيله لهم بأنه خلق كثيرا من الجن والإنس لجهنم وهم صم بكم عمي فهم لا يفقهون وهم كالأنعام في الضلال بل أضل ولذلك أعقبها بقوله (أولئك هم الغافلون) الأعراف أي أنهم كانوا غافلين عن الربوبية فعبدوا الأصنام وجعلوها اندادا لله تعالى. ثم أردف ضلالهم وشركهم بإلحادهم في صفة من صفات الله تعالى وهي (الرحمن) حيث أنكروا هذا الاسم واعتبروه الها آخر مع الله تعالى عندما سمع أبو جهل بعض أصحاب رسول الله (ﷺ) يقرأ فيذكر الله في قراءته ومرة يقرأ فيذكر الرحمن فقال ابو جهل: (محمد يزعم ان الاله واحد وهو إنما يعبد آلهة كثيرة)[١].

وقوله تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ . وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾. حيث عطف على جملة﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ وهذا اشارة بالمسلمين في هديهم بالحق ضد المشركين وحالهم في الشرك والضلال والذين كذبوا بالآيات هنا هم المشركون الذين كذبوا بالقرآن الكريم.

وأما قوله تعالى (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) فالاستدراج مشتق من الدرجة والدرجة الرفعة والمنزلة والدرجة المرقاة[٢]. ويقال للمنزلة درجة إذا اعتبرت بالصعود وقيل (سنستدرجهم) معناه نأخذهم درجة فدرجة، وذلك إدناؤهم

---

(١) بنظر المحرر الوجيز /٧٦٣.

(٢) لسان العرب /٩٦٢.

من الشيء شيئا فشيئا كالمراقي والمنازل في ارتقائها ومنازلها[1].

وقد زيد الفعل بالسين والتاء للطلب أي يطلب من الدارج صعودا أو نزولا وهذا تشبيه بحسن الحال رفعة أو سفالة والقرينة التي في الجملة هي التي تعين الغاية من حال حسن أو إلى حال سيء وهنا في الآية الكريمة استدراج بحيث لا يعلم من يستدرج به عاقبته بدليل قوله تعالى ﴿ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن هذه العاقبة سيئة جدا وتهديد ووعيد لهم وقوله تعالى ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ والإملاء كما أسلفنا إمهال مع التهديد لهم بطول الحياة. (واللام للتبيين أي تبيين اتصال مدخولها بعامله لخفاء في ذلك الاتصال فإن اشتقاق (أملي) من الملو اشتقاق غير ممكن لأن المشتق منه ليس فيه معنى الحدث فلم يجيء منه فعل مجرد فاحتيج إلى اللام لتبيين تعلق المفعول بفعله)[2].

ولما هددهم الله سبحانه بالاستدراج والإملاء جاءت الجملة الأخرى (ان كيدي متين) لتكون موضع العلة لهما لأن الاستدراج والاملاء نوع من أنواع الكيد وكيد الله يقصم الظهور ويلوي الأعناق. والفعلان (نستدرجهم) و(املي) فعلان مضارعان ولكن الفاعل في الأول ضمير ومبدوء بنون وهذه النون تسمى نون العظمة والفعل الثاني مبدوء بالهمزة وفاعله الضمير (انا) وهذه المغايرة اقتضتها الفصاحة من جهة ثقل الهمزة بين حرفين متماثلين في النطق وللتفن والاكتفاء بحصول معنى التعظيم الأول. والكيد كما بينا في بداية الحديث اخص من الاحتيال هو احتيال فيه مضرة وفي الوقت نفسه اخذ على خفاء ولا يعتبر فيه إظهار الكائد خلا ما ببطنه[3].

وجملة (إن كيدي متين) أي قويٌّ وإطلاقه هنا من حيث الاستدراج والإملاء وإمدادهم بالسعة وطول العمر مع تأخير عذاب المشركين شبيه بحال من يحسن إلى عدوه ويظهر له المودة ليأخذه على حين غرة حتى يكون الأخذ أقوى والتنكيل

---

(١) المفردات في غريب القرآن /١٧٤.

(٢) التحرير والتنوير ١٩١/٩ - ١٩٢.

(٣) ينظر التحرير والتنوير ١٩٢/٩.

اشد وهذه كلها تكون في الدنيا وان كانت فيها تهديد ووعيد للآخرة.

ولكن السياق في آية القلم يختلف قوله تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ القلم/٣٥ فيها استفهام إنكاري والتمييز بين المسلمين والمشركين الذين أطلق عليهم لفظ الإجرام لينالوا عقابهم في الدنيا والآخرة وبالمقابل فقد نال المسلمون جنات النعيم والاستفهام الإنكاري جعل الجماعتين غير متشابهتين كناية عن الجزاء للمسلمين الخير وحرمان المشركين منه وقوله تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾/٣٦ استفهام إنكاري كذلك في موضع الحال من ضمير (لكم). وقوله تعالى: ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ. إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾/٣٨ ففي الآية تدليل على كذبهم في الدعوة إلى الشرك أو عدم الإيمان بالبعث فهل لديكم كتاب منزل من عندنا يثبت ما انتم عليه من عقائد وإنكاركم القرآن انه من عند الله أو إنكار البعث وهنا ينفي أن يكونوا دارسين أو أن يكون لهم كتاب يأمرهم بما يؤمنون به وقوله تعالى: ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ /٣٩ وهو ينفي أن يكون زعمهم عهدا ووعدا قد أخذوه على الله لأنفسهم ان يعاملهم رب العالمين بما يريدون وقوله تعالى: ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴾ /٤٠ والاستفهام هنا يفيد التهكم إضافة إلى تحقيرهم فلما كان المتعارف في العهود والمواثيق أن يكون معها كفلاء فجاءت الآية متناسبة معها وردا عليهم بأسلوب السخرية والتهكم وقوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ /٤١ فإذا كان لنا شركاء في ادعائهم فلينفعوهم الآن أي يوم القيامة وتنكير لفظة الشركاء تدل على نفيها مع الخالق سبحانه وتشمل كل الأصنام والأوثان المتعارفة عندهم وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾ /٤٢، ٤٣ أي يوم القيامة والكشف عن ساق يدل على شدة الهول والفزع وعظم الخطب وخطورة الموقف والدعوة إلى السجود وهم لا يستطيعون يقول ابن عاشور: (فإن المشركين لم يكونوا في الدنيا يدعون إلى السجود.... فيكون تعريضا بالمنافقين بأنهم يحشرون مع المسلمين ويمتحن الناس بدعائهم إلى السجود ليتميز

المؤمنون الخلص من غيرهم تميز تشريف فلا يستطيع المنافقون السجود فيتضح كفرهم)[1]. إن قوله هذا مردود بالدعوة العامة للإسلام وانه من ضمن هذه الدعوة إقامة الصلاة فكما ان المسلم مأمور بالسجود فكذلك المشرك مطلوب منه السجود وأما حصر المعنى في المنافقين تقيد من غير مقيد وعدم استطاعة السجود سواء كانوا مشركين أم منافقين.. وقوله تعالى: (خاشعة أبصارهم) دلالة على ذلهم وحقارتهم فهم مطأطؤا الرؤوس خاشعوا الأبصار والخوف باد عليهم والذل قد غشاهم وقد كانوا في الدنيا يدعون إلى السجود وهم في تمام العافية ولا علة في أجسادهم أما اليوم فإنهم مرضى لشدة الفزع وجلل الخطب فلا يستطيعون السجود.

وقوله تعالى: (فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين)

والفاء هنا للتفريع ليكون الكلام الأول في ذكر الكلام الذي بعده وفي الفعل: (ذرني) يالها من كلمة من شدة التهديد يكون الله تعالى يترك معه للانتقام منه فهو جل جلاله، وهو العظيم الذي لا أعظم منه يكون مصارعا لعبد ضعيف هزيل أليس هذا منتهى التهديد والوعيد؟ وهذه كلمة يقولها الغاضب والمغتاظ وقد وصل به الغيظ والغضب إلى منتهاه (والواو) واو المعية وما بعده مفعول معه و(الحديث) إما يوم البعث يقصد به أو يراد به القرآن الكريم وسمى بهذا لقوله تعالى: ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ. وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ النجم/٥٩، ٦٠ وفيه تهديد للمشركين المكذبين ووعد للرسول (ﷺ) بالنصر والتمكين ضمنا.

وقوله تعالى ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ وعيد لهم في الآخرة لمن كذب البعث وهنا اختلف الإملاء في الآيتين في الأولى الإملاء كان لاجل الكيد في الدنيا بينما الإملاء في الثانية للآخرة ولمن انكر البعث والكيد اختلف حيث كان الكيد في الأولى نوعا من العذاب الدنيوي بينما هنا العذاب في النار. فلما اختلف معنى الالفاظ في الآيتين فقد خرجت الآية من التكرار لتكون من المتشابه اللفظي

---

(١) التحرير والتنوير ١٩/٩٨.

تام التطابق.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ التوبه /٧٣ التحريم /٩

هذه آية كريمة أعيدت بألفاظها في سورة التحريم فما السبب في ذلك؟ الايتان فيها نداء لرسول الله (ﷺ) وامر بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم وتبيان مصيريهما يوم القيامة وهم في نار جهنم.

عند التأمل في سياق الآيتين قبلهما أو بعدهما يتوضح لنا أن الآيتين متفقتان في اللفظ وفي المعنى العام ولكن هناك مقاصد دقيقة ومعاني مختلفة بينهما.

فآية التوبة جاء قبلها قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ التوبة / ٤٢

حيث تحدث الله سبحانه عن حال المنافقين حين تخلفوا في غزوة تبوك واستأذنوا في التخلف وعللوا تخلفهم بعلل واهية فكشف الله تعالى بعض ما في نواياهم الخبيثة وانهم سيحلفون لرسول الله (ﷺ) والظاهر ان الآية نزلت قبل الرجوع من الغزوة والدليل على ذلك دخول حرف السين على الفعل المضارع (يحلفون) وهذا من معجزات القرآن التنبؤية للمستقبل وان هذه اليمين الفاجرة ستهلكهم أي أنهم في حال حلفهم مهلكين أنفسهم لأنهم كاذبون ثم أذن الرسول (ﷺ) لقسم منهم في التخلف عن الغزوة فعاتبه الله تعالى على هذا الاستئذان ومع هذا اخبره بالعفو قبل ان يعاتبه ومن ثم بين أن الاستئذان للتخلف يكون من الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ثم تتكلم الآيات عن بعض صفات المنافقين منها عدم ارادتهم الخروج ولو خرجوا ما زادوا المسلمين إلا خبالا ولابتغوا الفتنة بينهم ومنها عدم قبول نفقاتهم طوعا أو كرها وذلك لفسقهم وكفرهم بالله ورسوله وإتيانهم الصلاة وهم كسالى ومن صفاتهم بأنه خلق في نفوسهم البخل على المال ولهذا هم في عذاب وعنت وفي خوف من النقصان فقد اراد الله تعذيبهم في الدنيا بها والآخرة وهكذا تمضي الآيات في كشف أسرارهم من عدم رضاهم في قسمة الرسول (ﷺ)

ويطعنون في رسول الله (ﷺ) من جهة انه (اذن) يسمع كل قيل عليهم والقاء الشك في نفوس المؤمنين حول رسالته (ﷺ) وأنهم حذرون من إنزال آية تخبر ما في قلوبهم على الرغم من إظهارهم عدم التصديق به (ﷺ) ثم سخريتهم واستهزاؤهم به (ﷺ) روي ان ركبا من المنافقين الذين خرجوا في غزوة تبوك نفاقا منهم: وديعة بن ثابت العوفي ومحشيّ بن حُميّر الأشجعي، حليف بني سلمة وقفوا على عقبة في الطريق ينظرون جيش المسلمين فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل يريد ان يفتح حصون الشام هيهات هيهات فسألهم النبي (ﷺ) عن مناجاتهم فأجابوا: ﴿ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ التوبة/٦٥ واعتذروا ولكن الله رد عليهم بأنهم كفروا بعد إيمانهم ومن ثم وعدهم والكفار نار جهنم خالدين فيها وان هذا الوعيد لايتخلف. كالعقود يجب الالتزام بها لإشعارهم بأنهم من أصحاب النار التي وعدهم إياها ولعنهم وجعلهم في عذاب مقيم ومن ثم ذكرهم بالأمم الماضية التي كانوا اشد منهم قوة وأكثر أموالا فاستمتعوا بالحياة وهؤلاء قد حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وخسروا الحياتين وفي هذا عظة للرسول (ﷺ) وللمؤمنين حتى لا يعتقدوا أو يظنوا أن الله قد عفا عنهم لإمهاله إياهم. وبعد ذلك بين أوصاف المؤمنين من ولاية بعضهم لبعض وانهم آمرون بالمعروف وناهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ومؤتون للزكاة ومطيعون لله ورسوله وان الرحمة ستغشاهم في جنته ولهم مساكن طيبة فيها وفوق كل هذا وذاك رضوان من الله تعالى فأصبحوا من الفائزين. ذكرت هذه النعم لتقابل أنواع العذاب للمنافقين والكفار حتى يميز الفرق ويتوضح البون بينهما كثيرا.

ذكرت الآية الكريمة أوصاف المنافقين والمؤمنين فيأمر الله تعالى رسوله بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم. فأشعرت الآية بأن لهم عذابين عذاب في الآخرة وهو نار جهنم وعذاب وفي الدنيا وهو عذاب القتل فبعد ان انذرهم الله تعالى فلم ينزجروا وكشف ما في نفوسهم تكررمنهم علامات الكفر والمكر بالمسلمين أنجز الله تعالى ما انذرهم فأمر الرسول (ﷺ) بجهادهم. والفائدة من اقتران الكفار بالمنافقين هي ترهيبهم وتخويفهم، لئلا يظهر أمره فيعامل معاملة الكفار المحاربين وأما جهادهم بالفعل كالكفار فلا يمكن ولذلك قيل في جهاد

المنافقين بإقامة الحجة عليهم والتعكيظ في وجوههم. ولعل هذه الآية كانت سببا في إخلاص كثير من المنافقين الإيمان كما ورد في قصة الجلاس بن سويد[١] حين قال (ان كان ما يقول محمد حقا فنحن شر من الحمير) فتاب وقال (صدق عامر)[٢] واخلص بعد توبته وهكذا نرى إن سياق الآية في وصف المشركين وانه لا عهد لهم ولا ذمة ولا يرقبون في المؤمنين إلاً ولا ذمة فالجهاد موجه إلى هؤلاء ولا سيما عندما طعن المنافقون في رسول الله (ﷺ) في اثناء غزوة تبوك.

واما سياق آية التحريم فهو غير سياق آية التوبة لأن بداية السورة تتكلم عن تحريم الرسول (ﷺ) ما أحل الله له سواء كان هذا التحريم في عدم اقترابه من (مارية) أم تحريمه على نفسه شرب العسل[٣] وإفشاء السر الذي أسره لها من قبل زوجته (حفصة) (لعائشة) رضي الله عنهما ويعتبر هذا مخالفة لأمر رسول الله (ﷺ) ولذلك طلب الله تعالى منهما التوبة بقوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ لأن من واجب المرأة إن لا تفشي أسرار زوجها إذا أمرها بحفظها وفي لفظة (صغت) إيحاء إلى الانحراف من قبل زوجتيه (حفصه وعائشة)[٤] لأن من واجب حفصه رضي الله عنها أن لا تفشي سر رسول الله (ﷺ) ومن واجب عائشة رضي الله عنها أن تخبر زوجها رسول الله (ﷺ) ولذلك أفادت الآية الكريمة ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤﴾ /٤ التهديد والوعيد في الدنيا والآخرة لأن الذي يتظاهر على رسول الله (ﷺ) يكون عدواً له وأن الله مولاه لأن جملة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾ قائمة مقام جواب الشرط معنى لأنها تفيد معنى يتولى جزاءكما على المظاهرة عليه وفي هذا الحذف تذهب نفس السامع كل مذهب من الرعب والخوف.

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٤٥٣/٥.

(٢) بنظر تفسير المحرر الوجيز /٨٦٦ وبنظر الكشاف /٤٤٢.

(٣) بنظر التفسير المحرر الوجيز /١٨٧١.

(٤) بنظر تفسير التحرير والتنوير ٣٥٢/٢٨.

وفي قوله تعالى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ وعيد دنيوي لأن التي تعصي زوجها وهو رسول الله (ﷺ) تطلق وإذا طلقت خسرت الدنيا والآخرة.

وفي السياق أن الله ابلغ الكفار ما سيحل بهم يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وتعريضا بقوله ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ ﴾ فإذا لم يتعظ الكفار بالموعظة وكذلك من انحرف عن جادة الصواب من المنافقين هددوا بتسليط السيف على رقابهم وإقامة الحجة على من تظاهر بالإسلام بالدليل والبرهان والغلظة في المعاملة وفي أواخر السورة ضرب الله مثلا في النساء امرأتين في قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

وفي ضرب المثل للذين كفروا تعريض لزوجي الرسول (ﷺ) (لا تكونا بمنزلة امرأة نوح وامرأة لوط في المعصية فإن لم تطيعا رسول الله (ﷺ) فقد ختنماه وأصبحتما في موقف قريب من الكفر أو النفاق وحينئذ أن لم ترتدعوا بالوعظ والإرشاد فإن السيف سيسلط عليكم أو في الطلاق لنبذ الله لكما والمسلمين وفي ضرب المثل للذين آمنوا والمثل للذين كفروا تحصل المقابلة ويتوضح المقصود وذلك فيهما ترهيب من الكفر والعصيان وترغيب بطاعة الرسول (ﷺ)، ومن هنا لما اختلف معنى الآيتين في التحريم حيث اضيف معنى آخر وهو معالجة قضايا الأسرة وطاعة الزوجة لزوجها وخاصة انه رسول الله (ﷺ) فإذا ما خرجت واحدة منهن عن طاعة رسول الله (ﷺ) عذبت في الدنيا والآخرة وأصبحت في صف الكافرين أو المنافقين ولهذا في الآية تلميح بجهادها وجهاد كل كافر أو منافق حثها على العصيان بأسلوب أو بآخر. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إن المقصودين في آية التوبة هم الذين اتصفوا بصفات المنافقين في واقعهم وسياق الآية قبلها يُخبر عن أوصافهم وأفعالهم في غزوة تبوك. وفي آية التحريم إجمال في حين آية التوبة في السياق تفصيل عن حال المشركين والمنافقين ازاء رسول الله (ﷺ) والإسلام.

إذن فلما اختلف المقصودان وتباين المعنيان فلا تكرار في الآية وإنما هي من المتشابه اللفظي تامة التطابق.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ الزخرف/٨٣ المعارج /٤٢.

هذه الآية ذكرت بنصها في سورة الزخرف والمعارج. في الآية تهديد ووعيد للضمير (هم) الذي ورد في الفعل (فذرهم) و(يومهم) والمقصود به مشركو مكة الذين جعلوا لله شركاء وأمر الرسول (ﷺ) بتركهم في باطلهم الذي يخوضون فيه من المعتقدات الزائفة أو الاستهزاء الذي لم يخلق الإنسان له، فليبقوا على هذا الباطل واللهو حتى يغادروا الحياة في اليوم الموعود لهم.

ولو نظرنا إلى سياق الآية في كلتا السورتين لتوضح لنا الفرق في معناهما ولعلمنا أن كل آية تقصد نوعا من الخوض في الحديث أو اللعب في الحياة يختلف عن معنى أختها.

فنرى في سورة الزخرف ان الله سبحانه ذكر قبلها قوله تعالى ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ. سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ / ٨١، ٨٢ فبعد أن هدد المشركون في الآيات السابقة قبل هذه الآية كما في قوله تعالى: ﴿ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ ٨٠ اخذ ينفي الشرك والند لنفسه فأمر الله تعالى رسوله (ﷺ) بمحاجتهم بالدليل القاطع (ان كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) أي ليس لله ولد ردا على المشركين الذين زعموا أن الملائكة بنات الله وعلى الذين عبدوا الأصنام من دون الله. ويروى أن النضر بن عبد الدار بن قصي قال: (ان الملائكة بنات الله فنزل قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ فقال النضر: ألا ترون انه قد صدقني، فقال له الوليد بن المغيرة ما صدقك ولكن قال: ما كان للرحمن فأنا أول الموحدين من أهل مكة وقد تنزه سبحانه عن الند[1].

(١) ينظر: الكشاف /٩٩٧ والجامع لأحكام القرآن ٣٢٥/٧

وأما الآية التي بعد آية الزخرف قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ ٨٤ تنفي آلهة مع الله تعالى سواء ادعاؤهم أن الملائكة بنات الله في السماء أم أن اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى الهة في الأرض.

فهي أيضا رد على ادعائهم أن مع الله الهة أخرى. أليس هذا خوضا في باطل وافتراءً في الحديث؟ أهناك خوض اكبر من الشرك أو لعب أعظم من اتخاذ اله غير الله تعالى؟

وأما سياق آية المعارج فجاء قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ /٣٥ بعد ان ذكر الله تعالى صفات المؤمنين فأشار إليهم في هذه الآية بأنهم استحقوا الجنات وهم فيها مكرمون. وجاء بعدها قوله تعالى: ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ * عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ * أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ * فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ ٣٦، ٤١ يروى أن المشركين كانوا يجتمعون حول النبي (ﷺ) ويستمعون كلامه ويكذبونه ويستهزؤون بالمؤمنين ويقولون: لئن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلنها قبلهم وليكونن لنا فيها أكثر مما لهم فنحن أهلها، لأن الله لم ينعم علينا في الدنيا بالمال والبنين وغير ذلك إلا لرضاه علينا[1] نرى السياق قد اختلف وان المشركين يخوضون في إنكار البعث وانه لا حياة بعد الموت وليس هناك جنة أو نار فهم قد اجتمعوا حول الرسول (ﷺ) عندما كان يصلي في الكعبة ويقرأ القرآن فيستمعون إليه ويكذبونه ويستهزؤون ويقولون على سبيل السخرية والاستهزاء إذا كان هؤلاء يقصدون المسلمين يدخلون الجنة فنحن سندخلها قبلهم لأننا أكثر أموالا وأولادا.

=

وينظر تفسير النسفي ١٥٢/٤ وتفسير أبي السعود ٥/٥.

(١) تفسير الطبري ٨٦/٢٩، الكشاف /١١٤١ المحرر الوجيز /١٩٠٠.

ولما انكروا البعث جاءت الآية الأخرى وهي قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ. عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ إلفاتا لنظرهم على خلق أنفسهم من العدم وولادة الشمس من المشرق في كل يوم آيات دالة على إعادة الحياة إليهم بعد الموت لمجازاتهم ولما اعرضوا عن ذلك وخاضوا في باطلهم والتهوا عن الجد الذي يرونه في الوجود ولعبوا في الدنيا وسخروا ممن يعتقد بالحياة الأخرى أمر الله تعالى رسوله (ﷺ) بتركهم وعدم الدخول معهم في جدال عقيم حتى يلاقوا اليوم الموعود يوم يخرجون من قبورهم سراعا.

ومن خلال المقارنة بين السياقين نرى اختلافا واضحا بين النصين وذلك لأن خوض المشركين في الباطل حول الشركاء مع الله تعالى في سورة الزخرف وان الله اتخذ ولدا وان الملائكة بنات الله وأنهم جعلوا الأصنام أندادا لله تعالى. وان المشركين اختلفوا في هذه الآية من سورة الزخرف لأن الذين أسرعوا إلى سماع رسول الله (ﷺ) في سورة المعارج هم أنكروا البعث في هذا المقام.

فلما اختلف القصد ففي سورة الزخرف حول وحدانية الله والشرك بينما في سورة المعارج حول البعث والجنة والنار. المشركون في سورة الزخرف غير الذين في سورة المعارج واختلف المكان والزمان ولذلك اختلف الخوض في الزخرف مع الخوض في سورة المعارج واختلف اللعب في السورتين إذا فلا تكرار في الآية الكريمة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ المرسلات ١٥/١٠ المطففين).

هذه آية كريمة من المتشابه اللفظي تام التطابق وردت في سورة المرسلات تسع مرات بعد هذه الآية ولكنها وردت في سورة أخرى وهي سورة المطففين آية ١٠.

والويل: هو الحرب والحزن على نوائب تحدث بالمرء أو أنه واد في جهنم[(١)] أو أنه الحزن والهلاك والمشقة من العذاب وهي كلمة تقال لكل من وقع في عذاب

(١) تفسير المحرر الوجيز /١٩٣٥.

أو هلكة يستحقها والويل هلكة، والويح قبوح، والويس ترحم[1].

لو تأملنا سياق كل آية معادة في سورة المرسلات وفي سورة المطففين كذلك لوجدنا أن كل آية تقصد الآيات التي سبقتها وان كانت الألفاظ نفسها ولكنها اختلفت في المعنى بإضافة شيء آخر وقد ابتدأت سورة المرسلات بالقسم ببعض الملائكة كقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴾ أو بالرياح كقوله تعالى: ﴿ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴾ وقوله: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴾ وهذه الأقسام لإثبات يوم البعث ويوم الفصل ولذلك جاء بعدها قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ. وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ. وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ. وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ. لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ. لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ. وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴾ واستفهم الله تعالى هنا استفهاما فيه الترهيب والتخويف والتهويل والتعجيب وقد أكد ثبات يوم البعث بحال الأمم الهالكة في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ ١٦ وبتكوين خلق الإنسان من ماء مهين وبتقديره عمره في الحياة الدنيا في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴾ ٢٠ - ٢٣ وكذلك أكد يوم البعث بمآب المخلوقات التي في الأرض إليها كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا *أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا * وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ ٢٥ - ٢٧ وهكذا نرى مجيء آية (ويل يومئذ للمكذبين) في كل مرة عقب آيات فيها معنى يغاير سياق الآية المعادة فمثلا جاءت ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بعد آيات فيها اختلال الكون كطمس النجوم وفرج السماء وهكذا فإذا الآية قصدت هذه المعاني فالمشركون قد كذبوا بها وجاء الويل لهم. ثم جاءت بعد (الم نهلك الأولين) فهم قد كذبوا بهلاكهم في الدنيا وان الله انتقم منهم من سابقهم ولاحقهم ليتعظ المشركون حين سماعها.

وكذلك لما ذكر حال المؤمنين وهم في الجنة يتنعمون في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ * فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * كُلُوا۟

(١) لسان العرب ٣/٩٩٧.

﴿وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ولم تتخللها آية الويل حتى لا يشوب نعيمها مع العذاب[١] وفي قوله تعالى ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ فيها ترغيب للمشركين بالإيمان ثم جاءت آية الويل بعدها لتكون لمن يكذب بهذا النعيم وقد أجرى الله تعالى تطابقا في العدد بين آيات الويل وآيات البشارة للمؤمنين ليكون ذلك زيادة في التنكيل بالمكذبين وإشعارا لهم بلوعة الحسرة لدى سماع وصف حال من حاله على الضد منهم[٢] وبالإضافة إلى ما تضيفه آية الويل بعد كل سياق فإنها تجدد للسامع الألفاظ والتيقظ حتى لا يغلبه السهو أو تستولي عليه الغفلة[٣] فالإعادة إذا اداة للترغيب بها يرغب السامع للإيمان والوصول إلى ما يريده الإنسان من نعم وأداة للترهيب لردع السامع حين سماعه حتى لا يكذب بأي دليل يثبت وحدانية الله تعالى والبعث والرسالة.

وهكذا يكون الويل يختلف من آية إلى أخرى فالأولى غير الثانية والثانية غير الثالثة والثالثة غير الرابعة وهكذا وان كان يتفق جميعها في المعنى العام فالكذب درجات كذبة تخلد في النار كتكذيب آية عقيدة في الإسلام وكذبة تؤدي إلى العذاب الشديد دون الخلود كالتكذيب على الرسول (ﷺ) وهكذا فيأتي الجزاء من الويل على قدر ذلك التكذيب[٤].

وأما سياق آية المطففين فإنه يختلف عن سورة المرسلات وذلك لابتدائها بلفظة (الويل) هذا الويل لمن يطفف المكيال وهم الذين إذا اشتروا من الناس يستوفون وإذا باعوهم أو وزنوهم يخسرون) فبدأت الآية بذكر التطفيف لأنه كان شائعا في المدينة المنورة وفي الآية تهديد ووعيد لهم إذا تعاملوا معهم بهذه الصورة الدنيئة. فهؤلاء إذا اعتقدوا بالبعث على حقيقته ما نقصوا المكيال وكان المشركون لا يعتقدون واليهود والنصارى يؤمنون بالبعث ولكن بعقيدة منحرفة قال تعالى:

---

(١) ملاك التأويل ١١٢٦/٢.

(٢) بنظر ملاك التأويل ١١٢٦/٢ - ١١٢٧.

(٣) بنظر أضواء على متشابهات القرآن ٢١٢/٢.

(٤) بنظر الجامع لأحكام القرآن ١٥٨/١٩

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ. الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ. وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ. أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ. لِيَوْمٍ عَظِيمٍ. يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فإذا ما قام الناس لرب العالمين فهم صنفان صنف يقال لهم الفجار وهم يسجنون في وادٍ في جهنم وجيء بهذه الصيغة لتدل على ابشع السجن واشنعه وهي للمبالغة.

ثم جاءت آية الويل ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ وهؤلاء كذبوا بالشريعة الحق والعدل عندما طففوا أو لم يؤمنوا باليوم العظيم ولم يعتقدوا بالنعيم والجحيم فهم الذين كذبوا بيوم الدين كما فسرته الآية التالية ﴿ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ وجاء أسلوب القصر ليبالغ في وصفهم بأنهم معتدون وآثمون وقد جاء بصيغة المبالغة (أثيم) لأنهم كثيروا الإثم والاعتداء وكيف لا وهم كذبوا بآيات الله تعالى واعتبروها من الخرافات والأكاذيب وهؤلاء الذين كذبوا بالبعث وبيوم الفصل وبالقرآن والحساب والعقاب فقد كانوا من الذين لا يرون الله تعالى يوم القيامة وأنهم سيحترقون بنار جهنم ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ. ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ. ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ ١٥، ١٦، ١٧.

فلما تغير معنى كل آية من الآيات المعادة سواء في سورة المرسلات أو سورة المطففين أو زيد في معناها فلا تكرار إذا فناسب كل آية في مكانها المناسب.

٣- ما جاءت في أكثر من سورتين:

ولقد وردت آيات قليلة متشابهة تامة التطابق في ثلاث سور أو أكثر ومن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ يونس /٤٨، والأنبياء /٣٨، والنمل /٧١ وسبأ /٢٩، ويس /٤٨، والملك /٢٥.

هذه آية كريمة ورت ست مرات في ست سور هل إن هذه الآية لما أعيدت هي لمجرد التكرار أم أنها في كل سورة لها معنى يختلف عن أختها في السورة الأخرى؟ وإذا أردنا أن نعرف ذلك فلا بد لنا أن نعرف سياق كل آية لنعرف التحول الذي يجري عليها في كل سورة. واليك هذا الجدول السياقي لهذه الآية في السور الست

	اسم السورة	السياق	رقم	الآية
١-	سورة يونس	﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾	٤٧	﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾
٢-	سورة الأنبياء	﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾	٣٦	﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾
٣-	سورة النمل	﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾	٧١	﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾
٤-	سورة سبأ	﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾	٢٨	﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

٥-	سورة يس	﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾	٤٧	﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾
٦-	سورة الملك	﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾	٢٤	﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

لو ألقينا نظرة على سياق آية يونس لوجدنا أن السياق جاء في ذكر الحشر وقصر الحياة الدنيا كأنما هي ساعة مضت عليهم وخسر هؤلاء المشركون لأنهم كذبوا بهذا اليوم وكانوا ضالين قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ يونس/٤٥. وتأكيد الموعد على تنفيذه في حياة الرسول أو بعد وفاته لكنه لا مناص انه ملاحقهم إلى الله الرجوع. ولكل امة رسول يدعوهم إلى وحدانية الله تعالى فإن استجابوا فلهم الخير في الدارين وان كذبوا سينالون جزاءَهم من غير ظلم.

وقال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ /٤٧ فالوعد هنا: إما عذاب دنيوي فإن لم يعذبوا فالعذاب الأخروي ينتظرهم بعد البعث والحشر والتركيز على الوعد الالهي وهو العذاب في الدنيا للإيمان بالآخرة وما فيها من عذاب للمشركين أو نعيم للمؤمنين.

وفي آية الأنبياء قبلها ضرب الله تعالى مثلا القرى المقصومة لظلمها لردعهم عن الإشراك والإيمان بالبعث بعد الموت قال تعالى: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ . فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ /١١.

واتخاذ المشركين رسول الله (ﷺ) سخرية وهزءاً وإنهم كافرون بالرحمن وأرادوا الاستعجال فيما وعدهم بالعذاب فرد الله عليهم ﴿ **سَأُوْرِيكُمْ ءَايَتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ** ﴾ ثم استفهموا استفهاما إنكاريا على هذا الوعد ﴿ **وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ فكان الجواب حين لا يكفون عن وجوههم ولا عن ظهورهم النار ولا ناصر لهم ولكن العذاب آت فجأة فلا يستطيعون رده ولاهم ينظرون للتخلص منه.

والتركيز في هذه الآية أيضا على البعث والانتقام في الدنيا بعذاب يسلط عليهم كما في الأمم الماضية أو إمهالهم حين لا يستطيعون ان يبعدوا النار عن أنفسهم قال تعالى: ﴿ **لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ** ﴾ الأنبياء /٣٩، ٤٠.

وأما آية النمل فقد جاء قبلها آيات يستفهم الله تعالى استفهاما تقريريا للدلالة على الوحدانية والبعث يقول تعالى: ﴿ **أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَءِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ** ﴾ النمل/٦٤ ثم هم في شك من الآخرة وادارك علمهم بها ولا يشعرون أيان يبعثون وجاء بعدها استفهام المشركين للإنكار والتهكم في البعث من القبور حيث اعتبروه من الخرافات والأكاذيب ثم يلفت نظرهم إلى إهلاك المجرمين وهم المشركون لأن الغالب في الاستعمال القرآني إطلاق لفظة الإجرام على الشرك ولأنهم أنكروا البعث بعد الموت قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ . لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ النمل /٦٨

فجاء قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فكان الرد عليهم بإنزال بعض العذاب قريبا عليهم لأنهم استعجلوه.

وفي هذا السياق أكد على البعث بعد الموت) وان جزءا من العذاب الدنيوي

نازل عليهم لأنهم استعجلوه قال تعالى: ﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ النمل /٧٢.

وأما آية سبأ فالآيات التي قبلها تعالج قضية الشرك قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ سبأ /٢٢ ثم يطلب من المشركين أن يأتوا بالشركاء ولكنهم بهتوا.

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ سبأ/ ٢٧.

وما أرسل الرسول إلا للبشارة والنذارة يبشر بالفلاح في الدنيا والآخرة وينذر بالعذاب في الدنيا والآخرة ثم جاء قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فرد عليهم بأن العذاب آتيهم: ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ سبأ: ٣٠. فالسياق ركز على نفي الشريك مع الله تعالى وعلى يوم البعث.

وإذا ما انتقلنا إلى آية (يس) نجد آيات قبلها دالة على وحدانية الله تعالى وقدرته وإنعامه وإذا أراد الله تعالى الانتقام منهم فلا يستطيع احد إنقاذهم ولكنه رحمة منه ومتاع إلى حين قال تعالى: (وآية لهم انا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون وان نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين) يس/٤٤. وإعراض المشركين عن هذه الآيات لكفرهم بها وبيوم البعث حتى لو كانت آية واحدة. وان عدم إنفاق المشركين أموالهم في سبيل الله لكونهم ناكرين يوم الجزاء الثواب فيه أو العقاب فجاء بعد ذلك قوله تعالى ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فلما استفهموا للتهكم والإنكار جاءهم الرد قويا وصارخا والأخذ كان شديدا ومفاجئا قال تعالى: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً

وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾.

وإذا ما انتهينا إلى آية الملك نجد السياق يبين للمشركين تذليل الأرض والمشي في مناكبها وما أودع الله تعالى من رزق لهم فيها وانه إليه النشور بعد الموت ثم هددهم بعذاب دنيوي وهو خسف الأرض بهم أو إرسال حاصبة من السماء عليهم، ولفت أنظارهم إلى الطير فوقهم وهي آية دالة على الخالق العظيم المتفرد بالخلق قال تعال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ * ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ * وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ * أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ﴾ الملك: ١٥ - ١٩ ثم استفهم مرة أخرى لنفي النصير من دون الرحمن وهكذا تتعدد الآيات على تثبيت وحدانية الله تعالى وانه هو الرزاق وأعطاهم من النعم التي تستوجب الشكر وهي نعمة الرزق والمشي سويا على الأرض ونعمة السمع والبصر والأفئدة بالإضافة إلى ذلك هو أنشأكم من الأرض واليه البعث والحشر فجاء قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ فأبهم الوعد ليكونوا دائما على وجل وخوف من العذاب الذي ينتظرهم قال تعالى: ﴿ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ * أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ * أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ * قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۖ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ * قُلۡ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ * قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ الملك: ٢٠ - ٢٦ وهنا الاستفهام أيضا عن الحشر ولذلك كانوا يتهكمون منه بقولهم (مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ).

ومن خلال العرض لسياق كل آية نرى أن التأكيد كان على وحدانية الله تعالى

وإقامة الأدلة على ذلك ولكن التأكيد كان اكبر على يوم القيامة والحشر والوعيد الذي ينتظر هؤلاء المشركين المنكرين له في الدنيا قبل الآخرة وأنهم أحيانا كانوا يستعجلون العذاب الدنيوي لا طلبا للعذاب ولكن لكونهم منكرين للوعد والوعيد الذي أخبرهم الرسول (ﷺ) بهما إن لم يؤمنوا ولكن أسلوب سياق كل آية يختلف في تحديد (الوعد) سواءً في نوع العذاب وبإضافة معاني أخرى كما رأينا في سياق كل منها ولذلك لما اختلف المعنى فلا تكرار وإنما من المتشابه اللفظي تام التطابق.

الخاتمة

بعد رحلة لا بأس بها مع الآيات المتشابهات والنظر في الكتب المعنية بها وفي نهاية المطاف أود أن اذكر أهم ما توصلت إليه من نتائج وهي:

يعدّ المتشابه اللفظي أيضا من موضوعات التفسير المهمة إن لم نقل من أهمها لتوضيح الإعجاز القرآني لما فيه من أسرار بلاغية تخفى على كثير من الناس.

يعد المتشابه اللفظي من العلوم العلمية الرصينة والوسائل البليغة للرد على الطاعنين في القرآن الكريم بأنه ليس من عند الله على زعمهم.

وتختلف أهداف المعنيين بالمتشابه اللفظي فمنهم من اعتنى به لتعضيد الحفاظ على إتقان حفظ القرآن الكريم وعدم الخلط بين السور والآيات ومنهم من علل كما أسلفنا لتبيان أسراره البيانية ومعجزته البلاغية للرد على الملحدين.

إلقاء نظرات شمولية على السياقات التي قبل الآية المتشابهة وبعدها وإخراج الوحدة الموضوعية فيها ومن ثم ربط الآيات بعضها ببعض لما فيها من أنواع مختلفة من التناسب البياني سواء بالنظم المعنوي للآيات المتشابهة أو ببنائها اللفظي واستكشاف مقاصدها واستنباط الوَجوه المختلفة في هذه التحولات.

وإن الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم وان كان بالدرجة الأولى ينحصر في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع) إلا أنه يتسع أكثر من ذلك ليشمل ما له من تأثير على النفوس سواء في صيغ الأسماء ومشتقاتها

أم اختيار الأفعال والحروف، فاستعمال المفردة القرآنية هي بحد ذاتها معجزة لأنها اختيار صائب لا يمكن لها أن تدل على المقاصد أو المعاني لو وضعت في غير موضعها فالحروف هي الحروف والأسماء هي الأسماء والأفعال نفسها فلو خرجت عن دائرة القرآن الكريم لما أعطت من المقاصد السامية أو المعاني الدقيقة كوجودها في هذا الكتاب الكريم، وذلك لتناسق الحروف مع أصواتها وسلاسة النطق وقوة التأثير سواء في مواطن الترهيب أو في مواضع الترغيب، لما لها من دقة الأحكام وحسن الانسجام وحتى لو تقدمت لفظة في آية أو تأخرت أو تنكرت في آية وتعرفت في آية متشابهة، وذلك لقوة الإيقاع ومتانة الجرس ونضارة العبارات وجمالها وكل ما له صلة بالجملة أو التركيب أو الأسلوب من ألفاظ القرآن الكريم.

وتناول التمهيد الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم وقد وضحت فيه معنى الإعجاز والمعجزة في اللغة والاصطلاح، ووقفت على بيان النظم القرآني وتميزه وأشهر العلماء الذين تكلموا فيه وبخاصة عبد القاهر الجرجاني في نظريته للنظم، فهو أفضل من وضح مزايا النظم القرآني في كتابه المشهور دلائل الإعجاز فضلا عن معالجة التمهيد لمصطلح (التكرار) وخلصت فيه إلى نتيجة أن لا تكرار في اللفظ والمعنى في القرآن وإنما التكرار حاصل في اللفظ دون المعنى.

وانتهى الفصل الأول بان لا تبادل في الحروف التي انتظمت في الآيات المتشابهة فكل حرف قد وضع في موضعه المناسب لا ينوب عنه حرف آخر في أداء المعاني المقصودة سواء كانت هذه الحروف حروف نفي أم جر أم عطف أم أي حرف آخر فكلّ حرف قد جاء في آية وتغير في آية متشابهة أدى إلى التغيير في الدلالات والمقاصد وأدى إلى التغيير في الجرس الموسيقي من آية إلى أخرى.

وتنوعت الأفعال في النظم القرآني المتشابه حسب متطلبات السياق القرآني في الآيات المتشابهة في أداء المعنى وتحولاته سواء كانت هذه التحولات من الماضي إلى الماضي أم المضارع مع المضارع أم الأمر مع الأمر وغيرها. ومعرفة سبب كل فعل في موضعه نتوصل من خلاله إلى سر أو أسرار للإعجاز القرآني.

وان الأسماء والمشتقات فقد انتظمت في الآيات المتشابهة بتحولاتها المتنوعة حسب مقاصد التعبير القرآني وسياقه لأداء الغرض بكل دقة من مفردة إلى أخرى ومن صيغة في وزنها إلى صيغة أخرى للدلالة على أسرار في الإعجاز لو لا هذه التحولات التي أدت إلى تبيان البلاغة القرآنية.

وجاء الفصل الرابع ليوضح التحولات التي حدثت في النظم من جهة التذكير والتأنيث فما ذكرت لفظة إلا من ورائها سر وكان لها دافع وحكمة فلم يأت التذكير أو التأنيث إلا لإثبات معانٍ مختلفة ومدلولات تتغير فيما لو بدلت لفظة مكان لفظة.

والحديث نفسه في تحولات النظم القرآني في التعريف والتنكير فما من نكرة أو معرفة جاءت في آية أخرى متغايرة إلا ولها سر إعجازي ما ليس لغيرها لو انعكست ولو تقدمت مفردة أو تأخرت أو تغيرت جملة مكان جملة لأضافت معنى جديدا وقصدا غيرما تقصده في الآية المشابهة من حيث التقديم والتأخير.

وأما الفصل الخامس فإنه أكد على هذا الإعجاز البلاغي لتحولات النظم من حيث الذكر والحذف فإذا حذفت لفظة في آية أو ذكرت عبارة أو حذفت فإن لها دلالاتها ومقاصدها التي تختلف من موضوع إلى آخر لتوضيح الخصائص الفنية وإظهار الإبداع الفني فيها ليكون شاهدا حيا على الصورة الكاملة للنظم بكل جوانبه حسب مقتضيات المقامات والأحوال

لتحقيق أهداف بيانية وأغراض بلاغية فالحذف كان للإيجاز الذي يتطلبه السياق والذكر للإطناب في موضعه لمقتضى السياق. والأسلوب المعجز يتخير من الألفاظ أو يحذفها لما لها من قيم صوتية مؤثرة في النفس والوجدان للوصول إلى الغرض المقصود.

أثبتت الأطروحة أن الآيات المتشابهة التطابق لا تكرار فيها إلا من حيث التطابق في الألفاظ، أما معانيها فمختلفة حسب السياقات القرآنية السابقة عليها واللاحقة، فهي بينت لنا التغير في المعنى ووضحت المعنى الخاص في أهدافه ومقاصده.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ثبت المصادر والمراجع

- آيات أحكام القرآن، محمد علي الصابوني، ط١، سورية- حلب ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

- الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث- القاهرة (د.ت).

- أحكام القرآن، لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي/ قدم له الدكتور محمد بكر إسماعيل، دار المنار للطباعة والنشر والتوزيع- ميدان الحسين، القاهرة، ١٤٢٢هت/ ٢٠٠٢م.

- أحكام القرآن/ للإمام محمد بن إدريس الشافعي، ط٢، بيروت- لبنان، ١٤٠٠هـ -١٩٨٠م.

- إحياء علوم الدين: تصنيف الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي – المكتبة القيمة (د.ت).

- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: أبو السعود محمد بن محمد العمادي، (ت ٩٨٢) منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٧١٩هـ- ١٩٩٩م.

- أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها من غرائب آي التنزيل: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، شركة أبناء شريف الأنصاري، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.

- أساس البلاغة: جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) دار صيدا- بيروت- لبنان، ١٣٩٩-١٩٧٩م.

- أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين، د. قيس إسماعيل الأوسي، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، ١٩٨٨م.

- أسباب النزول: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: السيد أحمد الصقر دار الكتب الجديدة، القاهرة، ط١، ١٣٨٩هـ -١٩٦٩م.

- أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني ٠ت ٤٧١هـ) تحقيق هـ - ريتر، مطبعة وزارة المعارف، استانبول، ١٩٥٤، أعادت طبعه بالاوفست، مكتبة المثنى ببغداد لصاحبها قاسم محمد الرجب، ط٢، منقحة، ١٣٩٩هـ -١٩٨٣م.

- أسرار التكرار في القران، تاج القراء محمد بن حمزة الكرماني، دراسة وتحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، ١٩٨٣..

- أسرار التكرار في لغة القرآن الكريم: د. محمد شيخون السيد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط١، ١٤٠٣-١٩٨٣م.

- الأسلوب في الإعجاز البلاغي.

- أضواء على متشابهات القرآن: الشيخ خليل ياسين، منشورات دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٠.

- الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم: محمد حسين سلامة، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

- الإعجاز بالنظم وأثره في الدراسات القرآنية: د. عبد الكريم المشهداني، دار الحديث، الحسنية، الرباط، المغرب، (د.ت).

- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن زريق: د. عائشة عبد الرحمن، دار المعارف بمصر القاهرة، ١٩٧١.

- الإعجاز الفني في القرآن الكريم: د. عمر السلامي، مؤسسات عبد الكريم عبد الله، تونس/ ١٩٨٠.

- إعجاز القرآن: أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف بمصر، ط٣، ١٩٧١.

- إعجاز القرآن في دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها. عبد الكريم الخطيب.

- إعجاز القرآن الكريم: د. فضل حسن عباس، سناء فضل عباس، عمان – الأردن، ١٩٩١م.

- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م.

- إعراب القرآن: أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس، تحقيق: زهير غازي زاهد، مطبعة العاني، بغداد.

- إعراب القرآن وبيانه: محي الدين درويش، اليمامة للطباعة والنشر، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، ط٧، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م

- إغاثة اللهفان في ضبط متشابهات القرآن: عبد الله بن حميد الوراقي، مكتبة الحياة، الإسكندرية، ١٩٩٦م.

- أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي: ناصر الدين عبد الله بن محمد الشيرازي البيضاوي، إعداد وتقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

- أوضح المسالك إلى الفية ابن مالك: جمال الدين عبد الله بن يوسف، بعناية محمد محي الدين عبد الحميد، دار الندوة الجديدة – بيروت، ط٦، ١٩٨٠.

- الإيضاح في علوم البلاغة: الخطيب القزويني، تحقيق: د. محمد عبد المنعم الخفاجي، دار الكتاب اللبناني- بيروت، ط٣، ١٣٩١ -١٩٧١.

- البحر المحيط: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي، دار الفكر للطباعة والنشر- بيروت، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: العلامة أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي ابن عجيبة الحسني، تحقيق: عمر أحمد الراوي، دار الكتب العلمية لبنان –بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

- بدائع الفوائد: لشيخ الإسلام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المشهور بابن القيم الجوزية، تحقيق: هاني الحاج – المكتبة التوفيقية، إمام الباب الأخضر –سيدنا الحسين (د.ت).

- البرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزركشي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

- البرهان في متشابه القرآن: محمود بن حمزة الكرماني، قدم له ولامحه وقوم نصوصه: أحمد عز الدين عبد الله خلف الله، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ج.م.ع- المنصورة، ط٢، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.

- البرهان الكاشف في إعجاز القرآن: كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني (ت ٦٥١هـت) تحقيق: د. أحمد مطلوب، د. خديجة الحديثي، مطبعة العاني- بغداد، ط١، ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م.

- السيرة النبوية: لابن إسحاق.

- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: محمد بن محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق: أ. محمد على النجار، القاهرة، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

- البكريات توجيه مفردات الآيات: محمد وسيم البكري، دار البشير- مؤسسة الرسالة للطبع والنشر والتوزيع- بيروت/ ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

- البلاغة فنونها وأفنانها: د. محمد حسن عباس، دار الفرقان- عمان- الأردن، ط٣، ١٩٩٢.

- بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار، عبد الفتاح لاشين، دار الفكر العربي- مصر، ١٩٧٨.

- البلاغة القرآنية المختارة من الإتقان ومعترك الأقران/ د. السيد الجميلي، دار عالم المعرفة، القاهرة، ١٩٩٣م- ١٤١٣هـ.

- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: د. فاضل السامرائي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠٠٠م.

- البلاغة والتطبيق: د. أحمد مطلوب و. د. كامل حسن البصير، مطبعة الحكمة –بغداد، ط٢، ١٤٠٠هأ –١٩٩٠م

- البيان والتبيين، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار عجمان، الاردن، ١٩٨٩.

- تأويل مشكل القرآن: أبو محمد مسلم بن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد الصقر، مكتبة دار التراث، ٢٢ شارع الجمهورية، القاهرة، ط٢، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.

- تاج العروس من جواهر القاموس: محي الدين أبو الفيض الزبيدي: تحقيق: عبد الكريم العزباوي، مطبعة حكومة الكويت، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

- التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل لابن حيان: تحقيق هنداوي دار القلم، دمشق، (د.ت).

- التذكير والتأنيث في اللغة: رمضان عبد التواب، ومعه رسالة ابي الحامض في التذكير والتأنيث، القاهرة، ١٩٦٧م.

- التعبير الفني في القرآن: د. بكري شيخ أمين، دار الشروق، بيوت- القاهرة، ط٤، ١٤٠٠هـ -١٩٨٠م.

- التعبير القرآني: د. فاضل السامرائي، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، ١٩٨٨م.

- التعبير القرآني والدلالة النفسية: أ.د. عبد الله محمد الجيوسي، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دمشق، ط١، ١٤٢٦هـ -٢٠٠٦م.

- تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل القرآن: محمد بن جرير الطبري، ضبط وتحقيق: محمود شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

- نفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان: نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، ضبطه وخرج آياته وأحاديثه، الشيخ زكريا عميران، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

- تفسير القرآن العظيم: للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل ابن كثير الدمشقي، دار الجبل -بيروت، ط٢، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

- تفسير النسفي: العلامة أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، تحقيق مجدي منصور، المكتبة التوفيقية، إمام الباب الأخضر- سيدنا الحسين (د.ت).

- التفسير والمفسرون: محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، عابدين، ط٣، ١٤٠٥هـ-١٩٩٠م.

- التفسير والمفسرون في العصر الحديث: عبد القادر محمد صالح، قدم له: د. محمد صالح الالوسي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

- التقديم والتأخير في القرآن الكريم: حميد أحمد هيسى العامري، دار الشؤون الثقافية -بغداد، ط١، ١٩٩٦م.

- الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبد الله محمد بن أحمد الانصاري القرطبي، اعتنى به: الشيخ هشامسمير البخاري، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

- جمالية المفردة القرآنية في كشف الإعجاز والتفسير، أحمد ياسوف، تقديم الدكتور نور الدين عنتر، دار المكتبي -دمشق، ط١، ١٤١٥هت ١٩٩٤م

- الجنى الداني في حروف المعاني: الحسن بن قاسم المرادي، تحقيق: د. فخر الدين قباوة والأستاذ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

- الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه/ محمود صافي، مطبعة النهضة، قم، ١٤١٢هـ.

- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: أحمد الهاشمي، دار إحياء التراث العربي بيروت - لبنان، ط١٢، (د.ت).

- خصائص التراكيب: محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ١٤ شارع الجمهورية -القاهرة، ط٢، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

- دراسات أدبية لنصوص من القرآن: محمد المبارك، دار الفكر، دمشق، ١٣٨٣هـ-١٩٦٤م.

- دراسات لأسلوب القرآن العظيم: محمد عبد الخالق عظيمة، دار الحديث، القاهرة (د.ت).

- دراسة في التفسير والمفسرين: د. عبد القهار عبد الله العاني - مطبعة اسعد -بغداد ١٩٨٧.

- درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز: عبد الله بن محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي، منشورات دار الآفاق الجديدة -بيروت - لبنان، ط٣- ١٩٧٩.

- الدر المنثور في التفسير بالمأثور: للحافظ جلال الدين السيوطي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

- دروس في التصريف: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، ٢٠٠٥م.

- دلائل الإعجاز في علم المعاني: عبد القاهر الجرجاني، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت -لبنان، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

- رصف المباني في شرح حروف المعاني: للإمام أحمد بن عبد النور المالقي، تحقيق: أ. د.أحمد محمد الخراط، دار القلم- دمشق، ط٣، ١٤٢٣هـ -٢٠٠٢م.

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي، دار الفكر للطباعة والنشر -بيروت - (د.ت).

- زاد المسير في علم التفسير: أبو الفرج جمال الدين بن عبد الرحمن بن الجوزي، دار ابن الحزم، بيروت، ط١ - ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

- زاد المعاد في هدي خير العباد: لشمس الدين أبي عبد الله محمد ابن القيم الجوزية مكتبة الصفا، الاهرة، ط١، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.

- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة: محمد ناصر الدين الالباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٤١٢هـ-١٩٩٣.

- سنن ابن ماجه: محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

- سنن أبي داؤود: سليمان ابن الاشعث السجستاني الازدي، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر – بيروت (د.ت).

- سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاسية الإمام السندي، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان (د.ت).

- شذا العرف في فن الصرف: الشيخ أحمد بن محمد بن أحمد الحملاوي، اعتنى به. د. عبد الحميد هنداوي منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية- بيروت –لبنان –ط٤ (د.ت).

- شرح ابن عقيل على الفية ابن مالك المسمى: منهج السالك إلى ألفية ابن مالك تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط٢، ١٣٥٨هـ ١٩٣٩م. مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

- شرح ديوان الحماسة لأبي علي بن الحسن المزوري: تحقيق: أحمد أمين وعبد السلام محمد هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧م.

- شرح كافية ابن الحاجب: رضي الدين محمد بن الحسن الاسترابادي تحقيق: أحمد السيد صفر.

- شرح الكافية الشافية: العلامة جمال الدين أبي عبد الله محمد بن مالك، تحقيق د. عبد المنعم أحمد هريدي -دار المأمون للتراث (د.ت).

- شرح المفصل: موقف الدين بن يعيش، عالم الكتب -بيروت- (د.ت).

- شرح النسفية في العقيدة الإسلامية: د. عبد الملك عبد الرحمن السعدي. مطبعة الخلود، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٣٩٩هـ -١٩٧٩م.

- صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل بن بردزبة الجعفي البخاري، اعتنى به محمود بن الجميل، مكتبة الجميل، مطابع دار البيان الحديثة، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ -٢٠٠٣م.

- صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث -بيروت- (د.ت).

- العمدة في أصول الفقه: القاضي أبو يعلي تحقيق: د. أحمد بن علي المباركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، (د.ت).

- عمدة الحفاظ في تفسير اشرف الألفاظ: الشيخ أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الجيل، ١٩٨١.

- عون المزيد لشرح جوهرة التوحيد: عبد الكريم تتّان ومحمد أديب الكيلاني، راجعه عبد الكريم الرفاعي، والشيخ وهبي سليمان غادجي الألباني، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

- العين: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د. مهدي المخزومي. د.إبراهيم السامرائي دار الرشيد، بغداد، ١٤٠٠هـ -١٩٨٠م.

- غرر التبيان في من لم يسمّ في القرآن، قاضي القضاة بدر الدين محمد إبراهيم بن جماعة الكناني الشافعي، دراسة وتحقيق: د. عبد الجواد خلف، دار قتيبة، دمشق، ط١، ١٤١٠هـ-١٩٩٠.

- الفروق اللغوية: لأبي هلال العسكري، ضبط وتحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط٢، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.

- الفقه الإسلامي وأدلته: وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق - سورية، ١٤١٨هـ -١٩٩٧م.

- في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

- فكرة النظم بين الوجوه الاعجازي للقرآن الكريم: الدكتور فتحي أحمد كامل.

- القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي دار الفكر، بيروت-لبنان- ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣.

- الكتاب: عمر بن عثمان بن قنبر الملقب بـ(سيبويه)، علق ووضع حواشيه وفهارسه د. إميل بديع يعقوب، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٣م.

- كشف المعاني في متشابه المثاني: بدر الدين بن جماعة، تحقيق: د. محمد محمد داود، دار المنار، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

- لسان العرب: جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري، طبعة مصورة عن البولاق -القاهرة، الدار المصرية للتأليف أو الترجمة.

- لسان العرب المحيط: للعلامة ابن منظور، إعداد وتصنيف يوسف خياط. دار لسان العرب- بيروت (د.ن).

- لطائف قرآنية: صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٩٢م.

- المبنى والمعنى في الآيات المتشابهات في القرآن الكريم، د. عبد المجيد ياسين المجيد، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

- متشابهات آي القرآن دراسة دلالية نحوية: د. راشد أحمد جروري، الناشر دار الرضا للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين بن الأثير، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٥٨هـ-١٩٣٩م.

- مجمل اللغة: أحمد بن فارس بن زكريا، راجعه: محمد طعمة، دار إحياء التراث، العربي بيروت- لبنان، ط١، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

- المحرر الوجيز في كتاب الله العزيز: أبو محمد ابن عطية الأندلسي، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

- مدخل إلى التفسير القرآني وعلومه: د. عدنان محمد زرزور، دار القلم -دمشق، ط٢، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز).

- المرجع في اللغة العربية نحوها وصرفها: علي رضا، المطبعة السورية حلب ١٩٦١.

- مسند ابن حنبل: أحمد بن محمد بن أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة -مصر، ١٤١٢هـ.

- المصطلحات الأربعة: أبو الأعلى الموردي، المطبعة، برجم، تعريب: محمد كاظم سباق المعاني الثانية في الأسلوب القرآني: د.فتحي أحمد عامر، منشأة معارف بالإسكندرية/ ١٩٧٦م.

- معاني الأبنية: د. فاضل السامرائي، ساعدن جامعة بغداد على نشره - الكويت، ط١، ١٤٠١هـ -١٩٨١م.

- المعاني الثابتة في الأسلوب القرآني: د. فتحي أحمد عامر، منشأة معارف، الإسكندرية، ١٩٧٦م.

- معاني القرآن: أبو زكريا يحيى بن زياد الفداء، تحقيق: د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي مراجعة علي النجدي ناصف -الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢م.

- معاني القرآن: جعفر النحاس، تحقيق: د. يحيى مراد، دار الحديث، القاهرة ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

- معاني القرآن وإعرابه للزجاج: أبي إسحاق إبراهيم بن السري، تحقيق: د. عبد الجليل عبده شلبي، دار الحديث -القاهرة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

- معاني النحو: د. فاضل السامرائي، دار الكتب للطباعة والنشر -جامعة الموصل ١٩٨٩.

- معترك الأقران في إعجاز القرآن: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، ضبط وتصحيح أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٨-١٩٨٨م.

- معجم الأدوات في القرآن الكريم: راجي الأسمر، دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع، ط١، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م.

- معجم الشامل: محمد سعيد أسبير وبلال جنيدي، دار العودة، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨١م.

- المعجم الكبير: سليمان بن أحمد بن ايوب الطبراني، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة الزهراء – الموصل، ١٤٠٤هـ ١٩٨٣م.

- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار التراث العربي، بيروت، لبنان.

- معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده بمصر، ط٢، ١٣٩١هـ-١٩٧١م.

- المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية واشرف على طبعه عبد السلام هارون، المكتبة العلمية، طهران (د.ت).

- المغني في ابواب التوحيد والعدل: القاضي ابو الحسن عبد الجبار الاسترابادي، تقويم أمين الخولي، الشركة العربية للطباعة والنشر، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ط١، ١٣٨٠هـ-١٩٦٠م.

- مغني اللبيب عن كتب الاعاريب: عبد الله بن يوسف بن هشام الانصاري، تحقيق وتعليق: بركات يوسف، شركة دار الارقم بن ابي الارقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

- مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، تحقيق: الدكتور عبد الواحد وافي، مطبعة لجان البيان العربي بالقاهرة، ط١، ١٣٨٢هـ-١٩٦٢م.

- موقف الأنبياء في القران وتحليل وتوجيه، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

- موسوعة الاعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، الحاج أحمد يوسف.

- المفردات في غريب القرآن: ابو القاسم الحسين بن محمد الراغي الاصفهاني، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر (د.ت).

- النبأ العظيم – نظرات جديدة في القرآن: د. محمد عبد الله درزار، دار القلم، الكويت، ط٢، ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م.

- نتائج الفكر في النحو: ابو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السّهيلي، تحقيق: د. محمد إبراهيم البنا، الرياض، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

- النحو القرآني قواعد وشواهد: د. جميل أحمد ظفر، مطابع الصفا، مكة، ط٢، مكة المكرمة، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

- النكت في اعجاز القرآن: ابو الحسن علي بن عيسى الرماني ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن تحقيق: محمد خلف الله أحمد. د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط٣، ١٩٧٦م.

- النحو الوافي: عباس حسن، دار المعارف – مصر، ط٥، ١٩٧٥.

- نظرية الاعجاز القرآني واثرها في النقد العربي القديم، د. أحمد سيد محمد عمار، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، ط ١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: للإمام برهان أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، خرج آياته واحاديثه ووضع حواشيه: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

- نهاية البداية والنهاية.

الرسائل الجامعية

-ايجاز الحذف في كتب المتشابه اللفظي في القرآن الكريم دراسة بلاغية (رسالة ماجستير) نوري صابر محمد الزيباري بإشراف الأستاذ المساعد الدكتور إبراهيم محمد محمود الحمداني سنة ١٤٢٩هـ -٢٠٠٨م.

-المتشابه اللفظي ومسالك توجيهه عند ابي جعفر الغرناطي رسالة دبلوم الدراسات العليا المعمقة بدار الحديث الحسنية بإشراف الدكتور عبد الحميد عشاق توفيق العبقري. د. رشيد الحمداوي – مكتبة أولاد الشيخ للتراث- الرباط- المغرب.

-الأسلوب في الاعجاز البلاغي للقرآن الكريم: محمد كريم الكوّاز، أطروحة دكتوراه، كلية الاداب، جامعة بغداد، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

-الاعجاز البلاغي في القصة القرآنية دراسة سور الطواسين/ أطروحة دكتوراه في اللغة بإشراف الدكتور عبد الستار فاضل النعيمي- جامعة الموصل- كلية الآداب للطالب: عدنان مهدي سلطان الدليمي، ١٤٢٩هـ -٢٠٠٨م.

-التكرار التركيبي في القرآن الكريم أنماطه ودلالاته: منال صلاح الدين عزيز أطروحة دكتوراه بإشراف الأستاذ الدكتور: عبد الوهاب محمد علي العدواني كلية الاداب- جامعة الموصل، ١٩٩٨.

-دراسة المتشابه اللفظي في ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي: محمد فاضل السامرائي رسالة بإشراف الدكتور محمد حسين آل ياسين، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية.

-درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز للخطيب الإسكافي (ت ٤٢٠هـ) دراسة تحليلية: فتح الله محمد جمال حسين، رسالة ماجستير في اللغة العربية بإشراف الدكتور رافع عبد الله مالو العبيدي، كلية الآداب. جامعة الموصل، ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م.

-جهود عائشة عبد الرحمن في الكشف عن اعجاز النص القرآني- دراسة بلاغية: فاروق ذنون يحيى وهي رسالة دكتوراه فلسفة في الادب العربي بإشراف الأستاذ المساعد الدكتور أحمد فتحي رمضان الحياني، كلية الآداب، جامعة الموصل ١٤٢٣هـ -٢٠٠٣م.

الدوريات

-مجلة الجامعة الإسلامية: مجلة علمية تصدر عن الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ١٤١ – السنة ١٤٢٨هـت المملكة العربية السعودية.

-حوليت الآداب والعلوم الاجتماعية مجلة فصلية علمية محكمة تصدر عن مجلس النشر العلمي – جامعة الكويت- ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م.

فهرس المحتويات

المقدمة.. ٥

تمهيد: الإعجاز البلاغي للنظم القرآني في المتشابه اللفظي ٩

الإعجاز البلاغي.. ١١

((النظم القرآني)) ٢١

ابن عاشور وتفسيره (١٨٧٩م - ١٩٧٣م).............................. ٢٥

المتشابه في الألفاظ والتراكيب ٢٧

الفصل الأول: تحولات النظم القرآني في الحروف ٤٧

الفصل الثاني: تحولات النظم القرآني في الأفعال ١٠٥

الفصل الثالث: تحولات النظم القرآني في الأسماء والمشتقات ١٦١

الفصل الرابع: تحولات النظم القرآني في التذكير والتأنيث والتعريف والتنكير
والتقديم والتأخير ٢٠٩

الفصل الخامس: تحولات النظم القرآني في الذكر والحذف.................. ٢٦٣

الفصل السادس: تحولات النظم القرآني في الآيات المتشابهة التامة التطابق
في اللفظ دون المعنى.. ٣٠٥

الخاتمة.. ٣٥٧

ثبت المصادر والمراجع ٣٦١

فهرس المحتويات... ٣٨١

RHETORIC INIMITABILITY
OF THE QUR'ANIC COMPOSITION TRANSITIONS

by

Dr. Aḥmad Muḥammad Amīn Ismā^{c}īl

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKi
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban